نحو وعى حضارى معاصر
سلسلة الثقافة الاثرية والتاريخية
مشروع المائة كتاب

١٧

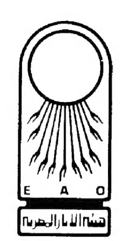
مصر الاسلامية

درع العروبة ورباط الاسلام



تأليف،
د . ابراهيم أحمد العدوى





وزارة الثقافة
هيئة الآثار المصرية

تصميم وتنفيذ
آمال صفوت الألفى
مدير عام مطبعة هيئة الآثار المصرية

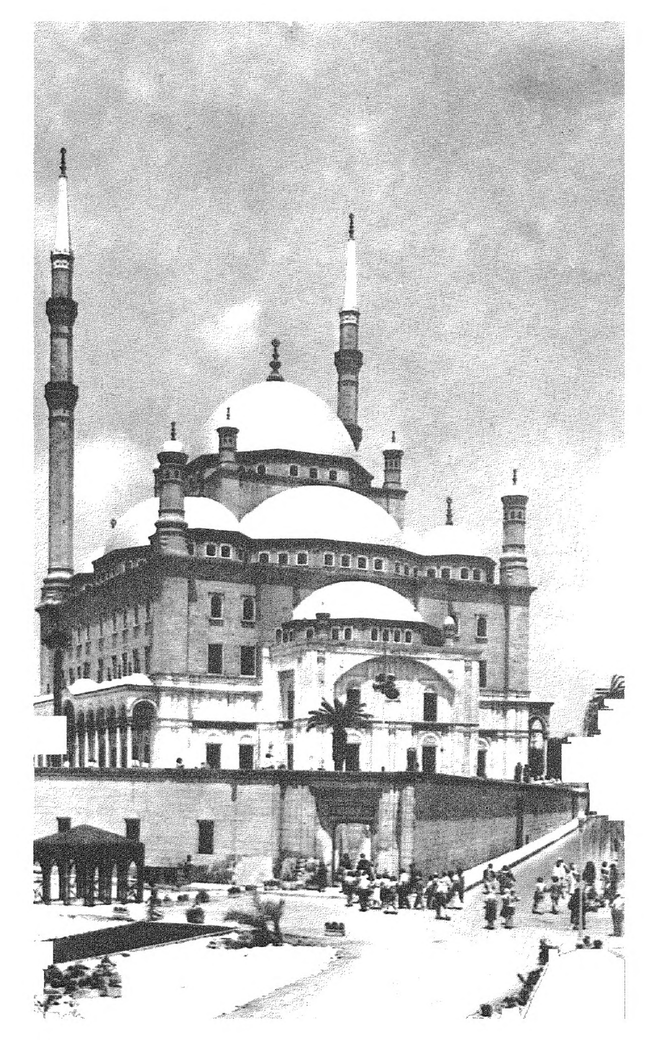
نحو وعى حضارى معاصر
سلسلة الثقافة الاثرية والتاريخية
مشروع المائة كتاب

١٧

مصر الاسلامية

درع العروبة ورباط الاسلام

تأليف
د . ابراهيم أحمد العدوى



الاهداء

إلى الرئيس محمد حسنى مبارك

رائد المسيرة العربية المظفرة والصحوة الاسلامية المعاصرة وقائد مصر المحروسة المباركة فى رعاية الله وتوفيقه إلى ما فيه عزها ودوام ريادتها فى خدمة العروبة والاسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم

الأستاذ الدكتور محمد ابراهيم بكر
رئيس هيئة الآثار المصرية

مصر ــ هبة النيل ــ هى فاتحة التاريخ ، حيث قامت على ضفاف النيل أول حضارة أصيلة أسعدت الانسانية وجلبت لها الخير والرخاء . ومصر ــ منذ أشرقت بنور الاسلام ــ هى صانعة التاريخ ، حيث جددت بالاسلام عطاءها الحضارى الفياض ، الذى يكفل للانسان ــ دائما وأبدا ــ أسباب العيش الكريم ، مع حسن الزاد للآخرة . فحققت مصر الاسلامية بالقرآن الكريم ما راود ضمير الانسان المصرى فى عصوره الأولى من آمال فى التوصل إلى التوحيد ، وقدمت له الادراك السليم والعقيدة الخالصة النقية عن وحدانية الله فى قوله تعالى : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

ووجدت مصر فى اقبالها على الدين الاسلامى الحنيف ، والعمل بشريعته الغراء توثيقا للعطاءات الايجابية لحضارتها القديمة ، وايذانا بنماء مصرى جديد ، وبارتقاء واستعلاء أيضا فى شخصيتها وشخصها ، فاذا كانت مصر « فرعونية بالجد » فانها غدت بالاسلام « عربية الأب » وكلا من الجد والأب من أصل مشترك وقرابة متبادلة

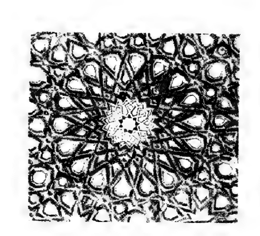
فى النسب قبل الاسلام ، جاءت فى الحديث الشريف الذى رواه الامام مسلم فى صحيحه ــ كتاب فضائل الصحابة ، باب وصية النبى ــ صلى الله عليه وسلم بأهل مصر : « ستفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة » . و« صهرا » تعنى زواج سيدنا ابراهيم من أهل مصر وهى السيدة هاجر ، ومن ثم « صارت العرب كافة » كما ذكر الكندى فى كتابة « فضائل مصر » ــ « من مصر بأمهم » هاجر « لأنها أم اسماعيل عليه السلام ، وهو أبو العرب » . وأما الذمة : فان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ تسرى من مصر « مارية القبطية » ، أم ابراهيم ابن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فالعرب والمسلمون كافة لهم نسب بمصر من جهة أمهم مارية أم ابراهيم ابن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصار المصريون بذاك أخوالهم المقربين » .

وجاء الاسلام أيضا إلى مصر ، ومعه تعريب للبلاد ، اعادة وتوكيدا وتكثيفا وتقريبا بين المصرية والعربية ، بحيث صارت كل منهما اللحمة والسداة فى نسيج مصر القومى إلى اليوم ، وكذلك فى تكوين البنية الأساسية لمصر الاسلامية ، بما جعلها تقف وحدها « سور العرب العظيم ، وقلعة الاسلام الشامخة » على مر العصور والأزمان .

ويأتى كتاب « مصر الاسلامية » تقييما أمينا لنسيج مصر القومى ، ولقيامها المجيد « سور العرب العظيم وقلعة الاسلام المنيعة » . ويسعدنى أن أقدم هذا الكتاب الذى يكوّن صدوره اليوم جزءا من نشاط هيئة الآثار المصرية ، التى يقف علماؤها ــ فى الوقت الحاضر ــ برعايتهم للآثار وصيانتها حرّاسا لكنوز مصر ومسيرتها الرائعة على مر العصور ، ويقدمون بدراساتهم الميدانية الرائدة ما يمكن المصرى المعاصر من معايشة أجداده وآبائه ، والاستمتاع بما أبدعته قرائحهم ، والوقوف على مكنون صدورهم وخلجات نفوسهم ، فعلماء الآثار اليوم ، هم بالنسبة للأجداد والآباء السمع والبصر واللسان ، يخاطبون الأجيال الصاعدة من أبناء مصر الاسلامية بما يهئ لهم مدارج التقدم والعزة والسؤدد .

ويؤكد كتاب « مصر الاسلامية » أن تاريخنا هو علمنا ، وأن الذى يرفع هذا العلم اليوم ، هم علماء الآثار والتاريخ ، الذين يؤمنون بماضى مصر العريق ، وبحاضرها المجيد ، وبمستقبلها العظيم . وبمزيد من الدراسات الناضجة فى تاريخ مصر وآثارها ، على نحو ما نطالعه فى كتاب « مصر الاسلامية » ، يزداد علم مصر الخفاق علوا وارتفاعا باذن الله .

محمد ابراهيم بكر



مقـــــدمة

الحاجة إلى نظرة دقيقة وشاملة لتاريخ « مصر الاسلامية » أمر يفرضه التطور المعاصر لوطننا العزيز ، وتتطلبه أيضا الجهود التى تبذلها مصر اليوم للانطلاق بالعالمين العربى والاسلامى نحو آفاق الحرية والسيادة العالمية . ذلك أن الدراسات التى تحفل بها المكتبة التاريخية اليوم عن « مصر الاسلامية » تتسم ـــ على جديتها وتعدد لغتها ، عربية كانت أم أجنبية ـــ بالتباين الشديد بين وجهات نظر أصحابها ، وتشعب مناهجها وموضوعاتها . ومن ثم طمست تلك الدراسات معالم الطريق أمام المواطن اليوم ، وحجبت عنه الرؤية الشاملة اللازمة للتقدم وتحقيق الهدف المنشود .

ويحاول هذا الكتاب تحديد معالم الطريق أمام أبناء وطننا العزيز ، وسط التيارات الصاخبة التى تواجه العالمين العربى والاسلامى الآن ، فى الداخل والخارج على حد سواء ، وذلك بتقديم الجهود التى بذلتها مصر ، منذ دخلت « دار الاسلام » من أجل الدفاع عن تلك الدار ومقدساتها ، ووضعها علامات الهدى التى تحمى من الزلل والعثرات . وتتبع فصول هذا الكتاب ـــ فى دراسة تطبيقية ـــ تلك المسيرة المصرية على مراحل ثلاث : تبدأ المرحلة الأولى بميلاد مصر الاسلامية مع وصول سفارة الرسول الكريم اليها سنة ٧هـ / ٦٢٨م ، وكيف غدت مصر الاسلامية ـــ كما تحدث عنها الرسول الكريم : « أنها وأهلها فى رباط إلى يوم القيامة » فاستهلت مصر الاسلامية جهادها بالدفاع عن دار الاسلام الوليدة ضد خطر الروم البيزنطيين ، حيث أحرزت النصر الاسلامى الرائع فى معركة « ذات الصوارى » (٣٤هـ / ٦٥٥م) . وبلغ

جهاد مصر الاسلامية ذروته مع نهاية هذه المرحلة الأولى فى حماية دار الاسلام وأمن أهلها ضد خطر الصليبيين الداهم من أوربا ، وذلك بالانتصار الاسلامى الخالد فى معركة « حطين » (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) ، وأخيرا ايقاف مصر الاسلامية لزحف المغول المدمر والكاسح من وسط آسيا وبراريها المخيفة بالانتصار الاسلامى المجيد فى معركة « عين جالوت » (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) .

وتبدأ المرحلة الثانية باحتضان مصر الاسلامية للخلافة العباسية بعد أن أطاح بها الغزو المغولى من بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وقيام مصر بالحفاظ على هذه الخلافة باعتبارها المؤسسة السياسية التى تجسد وحدة دار الاسلام وأهلها . وظلت مصر على امتداد تلك المرحلة منهلا يتزود منه العالم الاسلامى بما يحتاج اليه من زاد ثقافى واقتصادى ، مادى ومعنوى .

وتبدأ المرحلة الثالثة والأخيرة من هذه الدراسة بجهود مصر لوضع حد للصراع الذى دارت رحاه فى « دار الاسلام » منذ القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى بين العثمانيين والصفويين حول السيادة العليا للعالم الاسلامى ، وكيف تفاقم هذا الصراع حين غزت الدولة العثمانية مصر نفسها ، دون ادراك لما كانت تقوم به مصر من جهود لصد الزحف الأوربى على دار الاسلام ، وبات العثمانيون أنفسهم ومعهم المسلمون فريسة هذا الزحف الأوربى ، حتى انتهى إلى آخر صورة نعايشها اليوم ونكتوى بنارها ، وهى قيام اسرائيل خطرا يتهدد الصحوة الاسلامية المعاصرة .

ويعالج هذا الكتاب تلك المسيرة لمصر الاسلامية على امتداد مراحلها الثلاث ، ليس فى ضوء تاريخها السياسى فحسب ، ولكن أيضا فى ضوء الآثار التى أنجزتها تلك المسيرة المديدة ، اذ تقف الآثار الاسلامية فى مصر اليوم بما يعلوها من جلال التاريخ السياسى آية فى فن العمارة ، تعبر عن ذروة الصدق ، وتصون داخلها أمثلة رائعة للجمال المعمارى ، وتنطق فى زهو بأسماء أصحابها ، كما تحكى فى صمت قصة آلاف من الفنانين من بناة الحضارة الاسلامية ، عملوا فى ورع وهم

متطهرون ، ثم مضوا لا يعرف أسماءهم أحد ولا يذكرهم أحد ، تاركين ثوابهم وجزاؤهم عند رب لهم عليم .

وأسجل هنا شكرى إلى الأستاذ الدكتور محمد ابراهيم بكر رئيس هيئة الآثار المصرية ، وإلى عالم الآثار الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب ، والأستاذ الدكتور محمود ماهر مدير مركز المعلومات بهيئة الآثار المصرية ، والأستاذة آمال صفوت الألفى مدير عام مطابع هيئة الآثار المصرية ، وزوجتى الدكتورة سوسن سليمان يحيى مدرس العمارة الاسلامية بكلية الآثار ــ جامعة القاهرة . فقد تزودت من آرائهم القيمة وخبرتهم العميقة ما ساعدنى على اخراج كتاب « مصر الاسلامية » فى المستوى العلمى والفنى الجدير بالقارئ العربى الجديد ، وبالريادة الواعية أيضا للمواطن المصرى المعاصر إلى السير قدما بما يحقق لمصر أن تظل دائما وأبدا « درع العروبة » و« رباط الاسلام » .

الدقى فى ١٢ ربيع الأول ١٤١٢ ــ ٢٢ سبتمبر ١٩٩١

ابراهيم أحمد العدوى

الفصل الأول
شمس الاسلام تشرق على مصر

قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم :

« ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة »

(رواه مسلم فى صحيحه . باب وصية النبى صلى الله عليه وسلم بأهل مصر)

أولا : سفارة الرسول الكريم إلى مصر :

يؤرخ ميلاد مصر الاسلامية بحدث هام من أحداث الدعوة إلى الاسلام فى السنة السادسة للهجرة (٦٢٨م) ، وهو صلح الحديبية الذى عقده الرسول الكريم ، محمد بن عبد الله — صلى الله عليه وسلم — مع قريش فى مكة [١] . فقد أتاح هذا الصلح للنبى محمد — صلى الله عليه وسلم — أن يبعث بسفاراته إلى رؤساء وملوك العالم المعاصر له يدعوهم إلى الاسلام . واتجهت سفارتان منها إلى هرقل امبراطور الروم ونائبه على مصر وهو « قيرس » المشهور باسم « المقوقس » .

وجاءت سفارة الرسول الكريم إلى المقوقس ، مع تبعيته للامبراطور هرقل دليلا على تقدير صاحب الدعوة الاسلامية — عليه صلوات الله — لمكانة مصر وادراكه — صلى الله عليه وسلم — لمنزلتها العالية أيضا وسط مجموعة البلاد التى تحيط بالدولة الاسلامية الفتية وعاصمتها المدينة المنورة . وكان على رأس سفارة النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى « المقوقس » حاطب بن أبى بلتعة [٢] . وقد غادرت السفارة المدينة المنورة فى ذى الحجة سنة ٦هـ / ابريل ٦٢٨م ، ووصلت مصر سنة ٧هـ / ٦٢٨م ، وكانت تحمل الكتاب التالى :

« من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فانى ادعوك بدعاية الاسلام فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فعليك اثم القبط [٣] . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

كتاب الرسول الكريم الى المقوقس .

وتحمل هذه الرسالة النبوية الكريمة فهما كاملا ودقيقا لحقيقة الأوضاع فى مصر ، وأنه لانجاة مما تعانيه البلاد الا بقبول الدعوة الاسلامية الحنيفة ، وذلك على نحو ما أكدته فى تحميل المقوقس اثم أهالى البلاد فى حالة رفضه لتلك الدعوة ، ذلك أن مصر عند وصول سفارة الرسول الكريم اليها ومقابلتها للمقوقس عظيم القبط فى مصر كانت احدى ولايات الامبراطورية البيزنطية التى عرفها العرب باسم « امبراطورية الروم » . وآلت أحوال البلاد فى تلك الأيام إلى أدنى الدرجات سوءا اقتصاديا وسياسيا ودينيا أيضا . ذلك أن الامبراطورية البيزنطية سارت فى معاملتها لمصر على نهج

السياسة التى اتبعتها أمها الامبراطورية الرومانية الكبرى ، من حيث تسخير الولايات التابعة لها لصالح السلطات الحاكمة وأهلها .

وكان الميدان الاقتصادى هو أول مظهر تجلت فيه سوء أحوال مصر قبيل الاسلام ، اذ اعتبرت الامبراطورية البيزنطية ــ كما كان عليه الحال أيام الامبراطورية الرومانية ــ مصر مجرد مخزن للغلال تزود العاصمة القسطنطينية بالغلال ، وأن المصريين مصادر لجباية الضرائب والحصول على حاجات الامبراطورية من الأموال ، وصارت الضرائب مصدر شكوى الفلاحين فى القرى المصرية وكذلك التجار وأهل الحرف فى المدن . وعجزت محاولات الأباطرة البيزنطية وتشريعاتهم عن وضع حل لتلك الأحوال الاقتصادية المتدهورة وضاعت مجهوداتهم هباء أمام استفحال الأزمات الاقتصادية .

واتخذت المتاعب الاقتصادية تيارات خطيرة ، كان من أشدها ضررا هروب الفلاحين من قراهم بسبب كثرة الضرائب ، على حين لجأ نفر آخر من أولئك الفلاحين إلى وضع أرضه ونفسه تحت حماية كبار الملاك ، فرارا من المآسى والمظالم التى حاقت بهم على يد جباة الضرائب . وبدأت تظهر فى البلاد « الأبعديات » التى يملكها كبار الأسر والحكام الأشبه بأمراء الاقطاع . وغدت البلاد نهبا موزعا بين أولئك الأمراء الاقطاعيين ، الذين انتسبوا إلى أصول غير مصرية وغريبة عن أهل البلاد . واشتهر فى مصر من تلك الأسر أسرة « أبيون » التى استولت على قرى بأسرها ، وعاش رب الأسرة بها معيشة الملوك وفى خدمته عدد كبير من الكتاب ونظار الضياع وحشود الفلاحين وأولئك الذين يتولون تقدير الضرائب وجبايتها ، والمشرف على الخزانة ، وله شرطته الخاصة وكذلك ادارة البريد . وكان لأولئك الاقطاعيين جيوش خاصة كما شيدوا السجون ليلقوا فيها بكل مجترئ على سلطانهم ، وظل أهالى مصر فى هذا العهد البيزنطى يعانون من ظلم جباة الضرائب دون أن يجدوا سبيلا للعدالة والانصاف .

وزاد من تلك المساوئ الاقتصادية الاضطراب الادارى فى البلاد وانهيار الروابط بين رجال تلك الادارة وعمالها . وكانت مصر تنقسم اداريا إلى خمسة أقسام كبرى هى : (١) الاسكندرية وكانت عاصمة مصر البيزنطية ومقر الحاكم البيزنطى العام الذى يطلق عليه لقب « سيمبولوس » ، (٢) شرق الدلتا ، ويخضع لادارة حاكم يلقب « دوق » ، (٣) غرب الدلتا ويحكمه « دوق » (٤) مصر الوسطى وعاصمتها الفيوم ويحكمها « دوق » ، (٥) وأخيرا مصر العليا ويتولى شئونها أيضا « دوق » . غير أن الرابطة كانت واهية بين تلك الأقسام الادارية ، وكل حاكم من حكامها يكاد يكون مستقلا بشئون ادارته . ولم يكن لأولئك العمال البيزنطيين من عمل سوى الاستمرار فى ابتزاز الأموال وجباية الضرائب دون مراعاة لصالح البلاد أو اهتمام بشئون أهلها . وكانت الادارة البيزنطية تسير على نهج القواعد الرومانية فى اقصاء أبناء البلاد عن المجالس السياسية والتشريعية ، واهمال كل صوت يصدر من الأهالى لرفع المظالم .

وجاءت الاختلافات الدينية بين المصريين والبيزنطيين عاملا طغى على جميع العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، وخلق هوة سحيقة بين الطرفين ، وعجزت كل المحاولات عن التغلب عليها . ذلك أن المصريين رفضوا تدخل الأباطرة البيزنطيين فى الجدل الدينى الذى دار منذ القرن الرابع الميلادى حول طبيعة السيد المسيح . اذ رفضت كنيسة الاسكندرية قرار المجمع الدينى الذى عقده الامبراطور البيزنطى فى خلقدونيا بآسيا الصغرى سنة ٤٥١م ، لأنه أقر بأن للسيد المسيح طبيعتين ، على حين قالت كنيسة الاسكندرية بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة الهية ، وأنها بذلك وجميع أتباعها من المصريين القائلين بالطبيعة الواحدة يعتبرون « أرثوذكسيين » أى أتباع الديانة الصحيحة ، وصار يعرف أصحاب الطبيعتين باسم الملكانيين لأنهم أتباع الملك ، أى الامبراطور البيزنطى .

ووجد المصريون فى هذا الخلاف الدينى سبيلا للخروج على بيزنطة ، والقيام بحركات مقاومة ضد مساوئ الادارة البيزنطية فى البلاد ، وكانت السلطات البيزنطية قد لجأت إلى اضطهاد مخاليفها فى العقيدة الدينية إلى جانب ما أنزلته من تعسف وظلم

بالأهالى لا سيما فى جمع الضرائب . ولقد اتخذت المقاومة المصرية حركة هجرة من الريف إلى المعابد والأديرة بالصحراء ، وهو الأمر الذى أدى إلى انتشار الفوضى واضطراب مرافق البلاد .

واختلط بتلك الفوضى وقوع هجوم خارجى على مصر من قبل الفرس الساسانيين أعداء البيزنطيين . وكانت دولة فارس الساسانية تعمل جاهدة على انتزاع مصر والشام من الامبراطورية البيزنطية لتحقق لنفسها الزعامة الاقتصادية والتجارية فى شرق البحر المتوسط . وتمكنت الجيوش الفارسية من السيطرة على مصر والشام سنة ٦١٦م ، وذلك فى عهد كسرى الثانى . وبالرغم من أن الامبراطور هرقل قد استطاع استرداد مصر والشام ، ثم دخل بلاد فارس نفسها سنة ٦٢٨م ـــ إلا أنه عجز عن تحقيق الاستقرار فى مصر بسبب استمرار المشكلة الدينية ومتاعبها .

وكان هرقل قد خرج من الحروب مع فارس شديد الاعتداد بنفسه مؤمنا بقدرته على حل المشكلة الدينية المزمنة التى بلغت ذورتها فى عهده مثلما أزاح شبح الفرس الجاثم على امبراطوريته منذ زمن بعيد . وقد نسى هذا الامبراطور أن المشكلة الدينية لم تعد فى عهده مجرد جدل حول أصول العقيدة ولكنها أصبحت قناعا يخفى وراءه حركات قومية هادفة إلى الانفصال عن جسد بيزنطة . وفى الحقيقة لم يكن هناك أمل أمام هرقل فى حل المشكلة المذهبية ، إذ أن أقاليم الامبراطورية ومن بينها مصر قد أحست فى عهده بضرورة الانفصال عن بيزنطة حيث ساد الاعتقاد بأن محاولات الامبراطور لحل المشكلة العقائدية ما هى إلا سبيل لاخماد الحركات القومية .

وكان رأى هرقل قد استقر عقب انتهائه من الحروب الفارسية إلى حل دينى أطلق عليه اسم « صورة التوفيق » ، وتقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام عن كنه المسيح وطبيعته ، وعما اذا كانت له صفة واحدة أو صفتان ، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له ارادة واحدة وقضاء واحدا . وصار يعرف مذهب هرقل باسم مذهب « التوحيد أو المونوثلما » .

وجاء هذا المذهب بنتيجة على غير ما يهوى الامبراطور ، اذ رأى المعاصرون سواء من الملكانيين أو الارثوذكس المصريين أن هرقل ما أراد بهذا المذهب إلا اضلال الكثيرين ، ورفض كل منهما التخلى عن مذهبه واتباع مذهب ثالث يعدونه زيفا وبهتانا . واشتدت معارضة المصريين لهذا المذهب حين عين هرقل على مصر حاكما اسمه « قيرس » الذى اشتهر باسم « المقوقس » ، وهو الذى لجأ إلى جميع وسائل التعذيب لحمل الناس على اتباع المذهب الجديد . واضطر البطريق المصرى اذ ذاك وهو بنيامين إلى الهرب لتنظيم حركة مقاومة سرية ضد الروم فى مصر . واشتدت كراهية المصريين لبيزنطة فى وقت كانت الدعوة الاسلامية فيه قد انتشرت فى بلاد العرب ، واستطاع الرسول الكريم محمد (ص) أن يعقد مع قريش فى مكة صلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة .

ووصلت سفارة النبى إلى مصر سنة ٧هـ / ٦٢٨م ، أى بعد جلاء الفرس عن البلاد وانتصار هرقل . وقد أحسن المقوقس ــ كما أحسن هرقل ــ استقبال سفراء النبى ، الأمر الذى يدل على أن دعوة الاسلام غدت فى ذلك الوقت تلقى آذانا صاغية باعتبارها السبيل الأمثل للنجاة من المشاكل الدينية ولا سيما فى مصر . غير أن المقوقس تردد فى قبول الدعوة الاسلامية متعللا بأن الاعتقاد السائد هو ظهور نبى من بلاد الشام وليس من بلاد العرب ، وبعث بالرد التالى على كتاب النبى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت اليك بجاريتين ، لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوه ، وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك » .

وكانت هدية المقوقس للنبى من أشهر منتجات مصر ، منها عسل من انتاج بنها وثياب مما اشتهرت بها مصر والتى عرفت باسم « القباطى » ، وقد امتدح النبى الكريم عسل بنها كما أبدى رغبته لأصحابه فى أن يكفن بعد موته فى ثياب مصر ، وظل

يحتفظ بها منذ تسلمها من سفيره إلى المقوقس ، كما كان على رأس هدية المقوقس احدى بنات مصر وهى مارية من قرية حفن [٤] ، التابعة لمقاطعة أنصنا وموقعها الآن مدينة النصلة بمركز ملوى بمحافظة المنيا .

وخلقت هدية المقوقس إلى النبى صلى الله عليه وسلم روابط قوية بين مصر وبلاد العرب على عهد الرسول الكريم ومهدت للفتح الاسلامى لمصر ، اذ تناقل الرواة الأحاديث التى أشار فيها الرسول الكريم إلى فتح مصر ووصاياه بأهلها ، وأن لأهلها « ذمة ورحما » ولما استفسر نفر من الصحابة عن المقصود بأن لأهل مصر رحما قيل لهم : ان أم اسماعيل عليه السلام منهم . فالمعروف أن سيدنا ابراهيم تزوج من أهل مصر السيدة هاجر التى ولدت له اسماعيل عليه السلام وهو أبو العرب جميعا . وذكرت الروايات أن هاجر من سكان قرية مصرية اسمها أم العرب بالقرب من الفرما بأرض سيناء ، وهى بمنطقة بور سعيد الحالية . وقد روى عن أبى هريرة أنه كان يذكر للعرب قوة صلة النسب بينهم وبين المصريين عن طريق هاجر قائلا لهم : فتلك أمكم يا بنى ماء السماء « يريد العرب » . ثم تدعمت صلة النسب مع المصريين بزواج النبى من مارية . وغدت مصر بذلك محط أنظار المسلمين ودولتهم الفتية منذ الأيام الأولى للسيرة النبوية ، حيث بدأت أنظار الدولة الاسلامية الفتية تتجه إلى مصر منذ عهد الرسول الكريم وتدرك أهمية مقومات هذا البلد الأمين فى التطور المقبل لدار الاسلام وأهله. وسجل هذا الاتجاه الجديد للدولة الاسلامية نفر من كبار مؤرخى مصر الاسلامية كان فى طليعتهم المؤرخ ابن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح مصر » . فقد دون أولئك المؤرخون فى كتبهم فصولا بعنوان « فضائل مصر » أشاروا فيها إلى طلائع العهد الاسلامى وبشائره الأولى التى مهدت للفتح الاسلامى لتلك البلاد ، فذكر ابن عبد الحكم فى فضائل مصر حديثا عن الرسول الكريم أنه صلى الله عليه وسلم قال : انكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم (يعنى أهل مصر) ، فاستوصوا بهم خيرا فانهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم باذن الله.

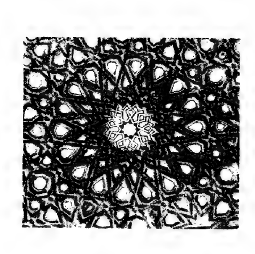
ومهد ابن عبد الحكم بسرد هذه الفضائل تمهيدا طيبا لدراسة الفتح الاسلامى لمصر وبيان فجر العهد الجديد الذى أشرق على تلك البلاد . ثم تابع هذا المؤرخ منهجه بأن جعل همزة الوصل بين مصر الاسلامية ومصر قبل الاسلام حدثا يتعلق بحياة عمرو بن العاص فاتح مصر ، وهو حدث يتضح منه ادراك العرب لأهمية تلك البلاد وخبرتهم بأحوالها منذ العصر الجاهلى وفى صدر الدعوة الاسلامية كذلك .

وشرح ابن الحكم تفاصيل هذا الحدث قائلا ان عمرو بن العاص كان تاجرا فى الجاهلية ، وكان يختلف بتجارته إلى مصر وهى الأدم والعطر . والمعروف أن تجار العرب فى الجاهلية كانوا يفدون غالبا عن طريق رحلة الصيف التى كانت عبارة عن قوافل من مكة تخرج كل صيف إلى فلسطين ، تحمل السلع ومتاجر الشرق الأقصى إلى بلدان البحر المتوسط . ومن فلسطين كان نفر من التجار العرب يدخل ديار مصر لمتابعة النشاط التجارى ، كما كان تجار العرب يلتقون فى فلسطين مع تجار مصر ، وغيرهم من المصريين الذين دأبوا على زيارة الأماكن المسيحية المقدسة فى بيت المقدس .

وروى ابن عبد الحكم قصة حدثت لعمرو بن العاص فى زيارة من زياراته التجارية إلى بيت المقدس قبل ظهور الاسلام . اذ حدث أن أحد المصريين من رجال الدين الذين حضروا لزيارة بيت المقدس قد ضل الطريق ، والتقى هذا المصرى بعمرو ابن العاص مصادفة وهو يرعى ابله ، ترويحا لها من عناء السفر ورحلة التجارة . ورحب عمرو بهذا المصرى وسقاه ، ثم صحبه فى مشاهداته ببيت المقدس . وتصادف مرة أخرى أن أنقذ عمرو بن العاص حياة هذا المصرى من ثعبان كان يريد أن يلدغه أثناء نومه بعد الاجهاد الشاق الذى لقيه من التجوال . وتابع ابن عبد الحكم سرد تلك القصة قائلا : ان المصرى طلب من عمرو بن العاص الحضور معه إلى مصر ليجزيه على ما قدم له من خير ، ومبينا له أنه سوف يشاهد بلدا خصبا وافر الثراء .

ولبى عمرو بن العاص دعوة رجل الدين المصرى ، وهى دعوة مهدت له السبيل للوقوف على الطرق المؤدية إلى تلك البلاد ، وعلى أهم معالمها ومدنها فضلا عن معرفة أحوالها عن كثب ، وهى أمور كان لها أعظم الأثر فى حياة عمرو بن العاص حين

قاد الجيوش الاسلامية لفتح مصر . وكان من الأمور التى ذكرها ابن الحكم فى روايته عن زيارة عمرو بن العاص لمصر نبوءة ترشيحه لعظيم الأمور ، وما ادخرته له المقادير من جليل الأعمال فى مصر . فروى هذا المؤرخ أن رجل الدين المصرى اصطحب عمرو ابن العاص لمشاهدة حفل بالاسكندرية ــ وهى عاصمة البلاد قبل الفتح الاسلامى ــ جرت العادة فيه على قيام أبناء علية القوم بلعب الكرة فيما بينهم . وكان المتعارف بين أولئك الأبناء أن تلك الكرة اذا وقعت فى حجر أحدهم استبشر بأنه سيكون حاكم مصر ومن أصحاب السلطة العليا فيها . وبينما هم فى حلبة اللعب قذف أحدهم بالكرة التى وقعت فى حجر عمرو بن العاص ، وكان جالسا فى مقصورة المشاهدين . وأثار ذلك عجب اللاعبين وقالوا : ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة ، أترى هذا الأعرابى يملكنا أبدا ! .



ثانيا : الفتح الاسلامى لمصر

دراسة مؤتمر الجابية لفتح مصر :

بدأت أحداث الفتح الاسلامى لمصر ، دراسة وتخطيطا وتنفيذا ، مع مجريات الفتوح الاسلامية فى بلاد الشام ، وهو الأمر الذى يؤكد عمق الترابط القائم اليوم بين بلاد الشرق الاسلامى ومصر ، وأنهما صارا يكونان فى ظل الدين الاسلامى الجديد وانتشاره وحدة لا انفصام لها . وكانت تلك الفتوح قد بدأت فى أعقاب بعث اسامة بن زيد الذى أعده الرسول الكريم إلى بلاد الشام . اذ أرسل الخليفة أبو بكر الصديق أربعة جيوش إلى فتح الشام ، كان على أحدها عمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، وهو الأمر الذى أتاح لهذا القائد الوقوف على أهمية مصر لسلامة الفتوح الاسلامية بالشام ودعم أوتادها . ذلك أن عمرو بن العاص التقى فى جبهة فلسطين بأدهى دهاة قادة الروم (البيزنطيين) وهو « أريتون » الذى اشتهر عند العرب باسم « الأرطبون » واستهدف هذا القائد البيزنطى من حروبه فى فلسطين افساد هجوم المسلمين على بلاد الشام وحرمانهم من ثمار انتصاراتهم فى الجبهات الأخرى بتلك البلاد ، ولا سيما فى معركة اليرموك الشهيرة .

ووصف الطبرى فى كتابه « تاريخ الرسل والملوك » خطورة هذا القائد البيزنطى وخطته [٥] فى فلسطين قائلا : « كان الأرطبون أدهى الروم ، وأبعدها غورا وأنكاها فعالا ، وقد وضع بالرملة جندا عظيما وبالياء (بيت المقدس) جندا عظيما . وكتب عمرو إلى عمر بالخبر ، فلما جاءه كتاب عمرو قال : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب » . وأوضح هذا القول أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يدرك خطورة الموقف فى فلسطين ، وأن الشخص الجدير بالتصدى لهذا الموقف هو عمرو بن العاص . ولم تلبث تطورات الأحداث فى بلاد الشام أن دفعت بالخليفة عمر بن الخطاب نفسه إلى الخروج إلى تلك البلاد ودراسة الموقف بها ، وهى الدراسة التى جرت فى مؤتمر الجابية الحربى وانتهت بضرورة الفتح الاسلامى لمصر .

وكانت تلك الأحداث تتمثل فى اتخاذ الروم (البيزنطيين) من مصر قاعدة لعرقلة الفتح الاسلامى فى بلاد الشام . وبدأت خطة الروم تأخذ طابعا خطيرا بعد أن انسحب « الأرطبون » من فلسطين ، وأخذ يعيد تعبئة قواته فى مصر وتنظيم نشاطها ضد المسلمين بالشام . فقد أخذ الروم يعززون من مصر قاعدتهم البحرية فى فلسطين ، وهى مدينة قيصرية لافساد تقدم عمرو بن العاص نحو بيت المقدس سنة ٦٣٦م . وكان بطريق هذه المدينة وهو صفرنيوس قد أبى أن يسلمها الا للخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، وهو الأمر الذى حدا بعمرو بن العاص أن يطلب من الخليفة التعجيل بالقدوم إلى بلاد الشام وتدارس الموقف الخطير بها .

وكان الروم (البيزنطيون) قد عمدوا إلى جانب تعزيز قاعدتهم فى قيصرية بفلسطين إلى ارسال حملة برية من مصر إلى شمال الشام لانزال الفوضى فى صفوف القوات الاسلامية ، والعمل على ضم بعض القبائل العربية من سكان شمال الشام إلى جانب تلك الحملة أملا فى الهجوم الشامل على المسلمين بالشام . وساعد الروم على تحقيق هذه الخطة المزدوجة الأهداف ضد الفتوح الاسلامية ببلاد الشام بقاء البحر المتوسط مفتوحا أمامهم فى مصر ، وقدرة أساطيلهم على حرية الحركة من الموانى المصرية . وأبحرت جيوش الروم سنة ٦٣٨م من الاسكندرية بقيادة قسطنطين بن هرقل نفسه ، مما يدل على الأهمية الكبرى التى علقها الامبراطور هرقل على تلك الحملة . وألقت حملة الروم مرساها فى مدينة أنطاكية بشمال الشام ، واستولت على هذه القاعدة الهامة وأخذت تنطلق نحو مضارب القبائل العربية المنتشرة فى تلك الأرجاء .

ووجد القائد العام للجيوش الاسلامية بالشام وهو « أبو عبيدة بن الجراح » نفسه محصورا فى حمص ، حيث كان يدير منها دفة عملياته الحربية بشمال الشام ، وكان عليه أن يواجه الروم فى تلك الجهات وزحفهم البرى والبحرى . وكتب هذا القائد العام إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستنجده ، كما عقد مؤتمرا حربيا من كبار قادة المسلمين للتشاور فى الموقف إلى حين يأتى رد الخليفة عمر . واستقر رأى المؤتمر الحربى على التزام خطة التريث والدفاع ، والعمل فى نفس الوقت على الحيلولة بين

الروم وبين الوصول إلى مضارب القبائل العربية . واستطاعت القوات الاسلامية بالشام وبفضل المساعدات التى وصلتها من جيوش المسلمين فى العراق تأمين جبهة شمال العراق والشام حيث مضارب القبائل العربية وحطمت بالتالى خطة الروم . اذ ساعد هذا النجاح الاسلامى على التصدى لقوات الروم الزاحفة من أنطاكية وحملها على الانسحاب والعودة من أنطاكية بحرا إلى الاسكندرية .

ووصل الخليفة عمر إلى بلاد الشام فى أعقاب هذا النصر الاسلامى على حملة الروم فى شمال تلك البلاد ، واتخذ عمر مركزا لقيادته فى « الجابية » وهى مرتفعات الجولان الحالية . وذلك قبل ذهابه إلى بيت المقدس واستلامها من بطريقها « صفرنيوس » . وينسب إلى عمرو بن العاص قائد الميدان الجنوبى فى الشام الفضل فى تصوير الموقف الحربى بالشام تصويرا صادقا ، واظهار الدور الذى أسهمت به قوات الروم فى مصر فى خلق المتاعب الحربية التى واجهت المسلمين بالشام . وشرح هذا القائد للخليفة خطورة انسحاب قائد الروم وهو « الأرطبون » إلى مصر ونشاطه فى استغلال تلك البلاد لضرب المسلمين بالشام واعتماده على البحر فى عرقلة الفتوح الاسلامية بها . ولمس الخليفة بنفسه تلك الحقائق حيث ظلت قيصرية على مقاومتها للمسلمين بعد استسلام بيت المقدس للخليفة عمر ، ووقوف هذه المدينة تتحدى قوات عمرو بن العاص بفضل أبراجها المنيعة وأسوارها الحصينة وجانبها المطل على البحر وحصولها على الامدادات من مصر ، التى غدت محور ارتكاز القوات الحربية لامبراطورية الروم (البيزنطيين) فى شرق البحر المتوسط .

وكانت هذه الأسباب المباشرة هى التى حملت عمر بن الخطاب على عقد مؤتمر الجابية الحربى بعد استرداد شمال الشام لدراسة الموقف الحربى واتخاذ الخطوات اللازمة لتأمين الفتوحات الاسلامية هناك . ولم يكن مستغربا أن ينفرد عمرو ابن العاص بادارة دفة المناقشات فى هذا المؤتمر الحربى مبينا العراقيل التى وضعها الروم بفضل سيطرتهم على مصر ، اذ كان عمرو بفضل توليه لقيادة الجبهة الاسلامية فى ميدان فلسطين وتصديه لحصار قيصرية خبيرا بخطورة وجود الروم وتجمعهم فى

مصر ، وفضلا عن ذلك فكانت هناك عوامل أخرى جعلت مؤتمر الجابية يقرر فتح مصر . فالعرب يقدرون أهمية مصر منذ العصر الجاهلى ويدركون دورها الحيوى فى امبراطورية الروم . فكانت المخزن الذى يمد تلك الامبراطورية وعاصمتها القسطنطينية بالغلال ، وتهئ لها رغدا من العيش ، وأن الاستيلاء عليها كفيل بكسر شوكة مقاومة الروم فى شمال الشام ، وحرمانهم من أهم الشرايين التى تبعث فى امبراطوريتهم ماء الحياة .

ويحتمل أن قادة المسلمين بالشام ، وقد اتسع أفق تفكيرهم الحربى نتيجة الحملات المنظمة التى قاموا بها ، قد أدركوا أن مصر ليست قاعدة يمكن أن تقضى على فتوحاتهم بالشام فحسب ، بل أنها ذات مركز استراتيجى يهيئ موقعه الجغرافى للروم شن حملة انتقامية على بلاد العرب نفسها . ولعل قادة مؤتمر الجابية ـــ بما فطر عليه العربى من حفظ تاريخ بلاده وأحداثها وأيامها ـــ تذكروا حملة قام بها والى مصر الرومانى « جايوس جالوس » سنة ٢٥ ق.م. ، زمن الامبراطور أوكتافيوس ضد بلاد العرب ، اذ أبحر من ميناء القلزم (السويس) على البحر الأحمر على رأس حملة ألقت مرساها فى الحجاز ، ثم تابعت سيرها برا قاصدة اليمن لضرب مملكة حمير القائمة فى تلك البلاد ، وانتزاع السيادة التجارية منها على البحر الأحمر ومتاجر الشرق الأقصى .

وغدت الأسباب التى حملت مؤتمر الجابية الحربى على تقرير فتح مصر أسبابا جوهرية ، أجملها عمرو بن العاص فى ختام تقريره إلى الخليفة عمر قائلا : « انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم » . ثم جاءت خطوة الخليفة بتنصيب عمرو بن العاص قائدا للجيوش المتجهة لفتح مصر خطوة وليدة البحث والاستقصاء فضلا عن مواجهة مقتضيات الظروف ، فالمعروف أن عمر بن الخطاب كان شديد الحرص على سلامة الجيوش الاسلامية ، ولا يمكن أن يدفع بها إلى ميدان جديد فى مصر ، دون ضرورة ملحة تدفعه إلى ذلك العمل ، فقد دأب طوال الفتوحات الواسعة التى تمت فى عهده سواء فى الشرق أو الغرب على كبح جماح السرعة الحربية التى جرت بها عجلة

الحروب ، وعدم تعريض قواته للخطر ، ودأبه فى العمل على سلامتها وتأمين مراكزها قبل الاقدام على أية مغامرة جديدة .

وهذا يحملنا على النظر فى الروايات التى ترددت بشأن مسيرة عمرو بن العاص لفتح مصر ، اذ يرى بعضها أنه مضى اليها من تلقاء نفسه فى ثلاثة آلاف وخمسائة جندى ، فغضب عمر بن الخطاب لذلك وكتب اليه يوبخه ويعنفه على افتتانه برأيه ، وأمره بالرجوع إلى موضعه ان وافاه كتابه دون فتح مصر ، فورد الكتاب عليه وهو فى العريش ، وجاء فى الكتاب : « من عمر بن الخطاب إلى العاص ابن العاص ، أما بعد فانه بلغنى أنك سرت ومن معك إلى مصر ، وبها جموع الروم ، وانما معك نفر يسير ، فاذا جاءك كتابى هذا فان لم تكن بلغت مصر فارجع » . ورددت روايات أخرى أن ابن العاص لم يكد يحصل على موافقة الخليفة حتى أسرع بالمسير فى جوف الليل . ثم ان عمر بن الخطاب حين عاد إلى الحجاز وعرض على أهل الحل والعقد بها قراره فتح مصر ، قال له عثمان بن عفان محذرا : « يا أمير المؤمنين ان عمرا لمجرأ ، وفيه قدام وحب للامارة ، فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة ، فيعرض المسلمين لهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا » .

وأثار قول عثمان بن عفان مخاوف الخليفة وكتب إلى ابن العاص كتابا جاء فيه : « ان أدركك كتابى هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك وان كنت دخلت فامض لوجهك » . وخرج رسول الخليفة يحمل الكتاب مسرعا يريد اللحاق بجيش عمرو بن العاص ، فوصل اليه قبل دخوله حدود مصر . ولكن القائد عمرو أحس بالشك فى الكتاب الذى حمله رسول الخليفة وتباطأ فى استلامه بحجة الوصول أولا إلى مكان يستريح فيه من عناء السفر . ولما وصل عمرو إلى الوادى الصغير الذى يقع عند العريش فض الكتاب وقرأه ، ثم سأل من حوله ، وكان هو يفوقهم علما بحدود مصر وأرضها قائلا : أنحن بمصر أم بالشام ؟ فقيل له : « نحن فى مصر » فقرأ عليهم كتاب الخليفة ثم قال : اذن نسير فى سبيلنا على بركة الله كما يأمرنا أمير المؤمنين .

ولا شك أن هذه الروايات تتناقض مع ما اشتهر به قادة المسلمين وخليفتهم عمر من حب للدقة وتمحيص للأمور . اذ لا يعقل أن يكون الفتح الاسلامى لمصر عملا عفويا أو موضع تردد ، وأن تلك الروايات ان صحت فقد تكون من باب خديعة الروم ، واخفاء الأهداف الحقيقية من مسير قوات عمرو بن العاص نحو مصر ، اذ أن اختيار الخليفة لهذا القائد الخبير بدروب مصر وأحوالها اختيار يدل على أن خطة الفتح الاسلامى لمصر فى أيدى أمينة ، وعلى دراية بالأهداف الحقيقية ، وهى أن حماية الدولة الاسلامية الفتية واتساع رقعة دار الاسلام باتت ترتبط بفتح مصر ، واخراج أهلها من مظالم الروم إلى نور الاسلام وطمأنينته وتعاليمه الحنيفة .

المرحلة الأولى من الفتح الاسلامى :

سار عمرو بن العاص من قيسارية بفلسطين حين تلقى أمر الخليفة بالزحف على مصر ، وذلك على رأس جيش قوامه أربعة آلاف محارب ، كانوا من الخيالة ، سريعى الحركة . ووصل الجيش الاسلامى العريش فى أوائل سنة ١٩هـ ــ ٦٤٠م ، حيث استولى عليها بسهولة بسبب خلوها من قوات الروم . ثم تابع عمرو بن العاص زحفه الخاطف من العريش إلى « بلوز » التى سماها العرب « الفرما » وهى مدينة تقع شرقى بور سعيد الحالية . وسلك فى هذا الزحف الطريق الرملى البعيد عن الشاطئ ، والحافل فى نفس الوقت بعيون الماء والقرى الصغيرة ، وكان هذا الطريق هو الذى سلكه منذ أقدم العصور كل وافد على مصر أو جيش محارب لها . اذ عبر هذا الطريق الخليل ابراهيم حين قصد مصر ، كما اجتازته جيوش الاسكندر ، وكذلك سارت عليه أسرة المسيح عليه السلام .

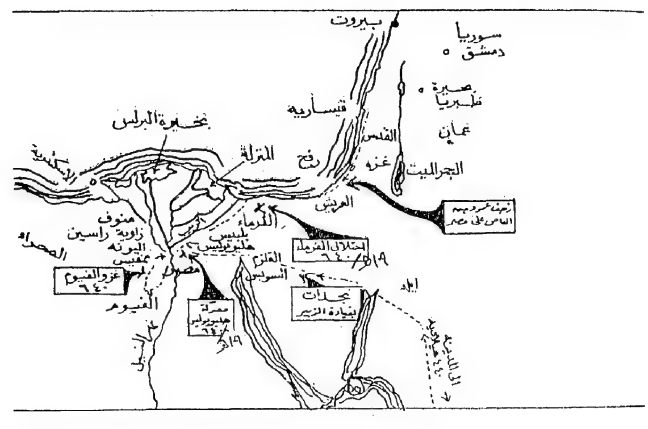
وكانت مدينة « بلوز » (الفرما) حصينة وتقع على بعد ميل ونصف ميل من البحر ، ولها ثغر بحرى يرتبط مع المدينة بخليج عميق . وزاد فى منعة هذه المدينة قربها من مصب أحد فروع النيل القديمة الذى انتسب اليها باسم « الفرع البلوزى » ، وصارت بلوز تمثل مفتاح مصر الشرقى بسيطرتها على مدخل الطريق الصحراوى ،

وامتداد فرع النيل البلوزى . ولكن هذه المنعة لم تحل دون سقوطها فى أيدى المسلمين بسبب استبسالهم فى القتال واعتمادهم على المفاجأة الحربية ، اذ وقفت حامية الروم (البيزنطيين) « فى بلوز » عاجزة عن صد الزحف الاسلامى ، واستسلمت بعد شهر من الحصار ، انهارت فيها روحها المعنوية ، أمام ما شهدته من ايمان المسلمين وصدق عزيمتهم . وقد صاحب هذا النصر الاسلامى طلائع الترحيب والمساعدات التى قدمها المصريون للمسلمين فى حروبهم ضد الروم . ذلك أن بطريق مصر « بنيامين » بعث من مخبئة إلى مواطنيه يخبرهم أن « دولة الروم » قد دالت وأن عهد طغيانهم قد زال ، وبشرهم بفجر عهد زاهر جديد . وسجل المؤرخ ابن عبد الحكم هذا الموقف المصرى من الفتح الاسلامى قائلا : « كان بالاسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين « بنيامين » . فلما بلغه قدوم ابن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لن تكون للروم دولة وأن ملكهم قد غاب ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال أن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعوانا لعمرو » .

وصار ظهر القوات الاسلامية آمنا باستيلائها على الفرما ، وغدت خطوط مواصلاتها سليمة وآمنة مع القوات الاسلامية المركزية بالحجاز ، وكذلك مع الجيوش الاسلامية المظفرة بالشام . وفقد الروم (البيزنطيون) قاعدة أساسية من قواعد وجودهم فى مصر ، وبدأوا يشعرون بخطورة موقفهم بسبب تعزيز المصريين للقوات الاسلامية ، ومساندتها فى تحرير ديارهم من الظلمات والطغيان .

وبادر عمرو بن العاص بعد ذلك بطلب الامدادات من الخليفة لأنه علم أن أخبار زحفه بلغت الروم فى داخل البلاد ، وأنهم عمدوا إلى تحصين معقلهم الرئيسى فى الدفاع عن البلاد وهو حصن بابليون . ثم انطلق من الفرما جنوبا واحتل المجدل ووصل إلى المكان الذى تشغله اليوم « القنطرة » على قناة السويس . واختار عمرو بن العاص هذا المكان ليتابع منه زحفه لأنه أصلح لمفاجأة الروم داخل البلاد ، اذ خالف عمرو عند هذا المكان غزاة مصر القدامى ، وآثر عدم الزحف على شمال الدلتا ، وفضل طريقا يؤدى إلى مدينة الصالحية لأنه يهيئ للقوات الاسلامية البقاء إلى جانب الصحراء

والاعتصام بها اذا دهمها خطر مفاجئ . وكان هذا الطريق فى نفس الوقت هو أقصر الطرق للوصول إلى حصن بابليون ، معقل الروم الرئيسى فى البلاد المصرية . ولم تستطع قوات الروم التصدى للمسلمين بسبب هذا الزحف الخاطف الذى اتبعه عمرو ابن العاص وركزت جهودها على حصن بابليون .



دخول الجيش الاسلامى مصر .

واتسمت حركات عمرو بن العاص بالخفة والتنقل السريع والابتعاد عن الأماكن المقصود ضربها ، انتظار للامدادات الاسلامية ، ومنعا للروم فى حصن بابليون من مد يد المساعدة إلى تلك الأماكن . واستطاع عمرو بن العاص أن يزحف من الصالحية فى سرعة خاطفة حتى وصل المنطقة التى يفترق عندها فرعا النيل ، فمر بمدينة هليوبوليس على جانب الصحراء ، وباغت قرية على النيل اسمها « أم دنين » (مكانها

الآن الأزبكية) واستولى عليها لأنها تكون معقلا هاما شمال حصن بابليون . وأخذ عمرو يحث جنده على الحرب عند أم دنين حتى قال له أحدهم « انا لم نكن حجارة أو حديدا » . فقال له عمرو « أسكت فما أنت الا كلب » فقال الرجل « اذن فأنت أمير الكلاب » ، وأثار هذا الجواب الضحك ، وأتاح لعمرو التغاضى عما حدث . وعوض الجند عن تعبهم الاستيلاء على أم دنين لأنها منحت المسلمين موقعا استراتيجيا على النيل .

وعبر عمرو بن العاص النهر مبتعدا عن حصن بابليون حتى تأتيه الامدادت وامعانا فى تعمية قواته عن الروم . واستهدف عمرو بن العاص فى نفس الوقت استطلاع موقع هذا الحصن من الضفة الغربية للنيل ، والزحف أيضا على الفيوم للحصول على المؤن اللازمة لجنده منها ، ومفاجأة الروم داخل مصر العليا . ثم عاد عمرو بقواته سريعا جريا على أسلوبه فى سرعة الحركة ، وعبر النيل عند أم دنين واتجه إلى هليوبوليس مرة أخرى ، حيث بلغه نبأ وصول الامدادات الاسلامية وعددها أثنى عشر ألف جندى تحت قيادة أربعة من خيرة قادة المسلمين وهم : الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، وخارجة بن حذافة . وكان عمرو بن العاص قد طلب الامدادات من الخليفة عمرو بن الخطاب الذى بادر إلى تلبية هذا الطلب

وكتب إلى عمرو : انى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام الألف : الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد . وقال آخرون بل خارجة بن حذافة الرابع ، لا يعدون مسلمة .

وكانت قوات الروم فى حصن بابليون قد جاءتها امدادات بدورها ، وتولى قيادتها أعظم رجال الحرب فى الدولة وهو « تيودور » وبات النصر رهنا بالقادر على اجادة التعبئة . وأثبت عمرو بن العاص أنه أجدر على التفوق فى هذا الميدان وضرب أساتذته القدامى من الروم . اذ رسم خطته بعد أن وصلته الامدادات على أساس « الاستطراد » أى اغراء الروم على الخروج من معقلهم المنيع فى حصن بابليون ، ثم الاشتباك معهم فى السهل بعيدا عن ذلك الحصن . وعبأ تيودور قائد الروم قواته وخرج بها فعلا من

حصن بابليون معتمدا على قوة ما لديه من الخيالة والرجالة أيضا ، وزحف نحو هليوبوليس لمفاجأة المسلمين قبل تدبير خططهم وأحكامها مع الامدادات التى وصلتهم . وأجاد عمرو بن العاص استغلال هذا الموقف فأرسل فرقتين تحت جنح الليل إلى أماكن جعلها كمائن لجيش الروم . وأمر فرقة منها أن تتخذ لنفسها كمينا فى « أم دنين » ، والثانية بقيادة خارجة بن حذافة اتخذت كمينا لها فى « ثنية الجبل » وهو الموضع الذى تقوم عليه الآن « القلعة » . وصدرت الأوامر لهاتين الفرقتين بالهجوم عندما يبدأ الاشتباك مع الروم .

وتم تعبئة القوات الاسلامية دون أن يعرف الروم شيئا عنها ، اذ خرجوا من حصن بابليون واجتازوا البساتين الواقعة إلى الشمال وانساحوا فى السهل . وعندما بلغوا المكان المعروف اليوم باسم « العباسية » اصطدموا بشطر من القوات الاسلامية ، وهجموا عليها فى عنف اعتقادا بأنها تمثل الجيش كله . وعندما احتدم القتال خرجت الفرقة التى قادها خارجة من كمينها بثنية الجبل ، وأهوت على مؤخرة الروم ، وعندئذ اضطر جند الروم إلى الانسحاب نحو أم دنين ، فلقيهم الكمين الآخر ، وأكمل انزال الفوضى بصفوفهم ، حتى انهدمت تعبئتهم وعادوا منهارين إلى الاعتصام مرة أخرى بحصن بابليون .

وجنى عمرو بن العاص أولى ثمار هذا النصر ، فقد أصبح بانتصاره فى وقعة هليوبوليس سيد المنطقة الاستراتيجية المحيطة بحصن بابليون [٦] وأخذ يعيد تعبئة قواته للاستيلاء على هذا الحصن نفسه . وكانت هذه المرحلة الجديدة من التعبئة شاقة غير هينة ، اذ كان الحصن فى ذلك الوقت ينعم بكافة أسباب المنعة والقوة . فكان ماء النيل يجرى تحت أسوار الحصن ، وفى استطاعة السفن الحربية والتجارية الوصول اليها . وكانت تلك الأسوار على شكل مربع غير منتظم وسمك كل سور منها ثمانية عشر قدما ، وبناؤها من الآجر والحجارة طبقة فوق طبقة على التوالى ، وتخلل الجانبين الشرقى والجنوبى من تلك الأسوار أربعة أبراج بارزة . وكان الصاعد إلى أعلى تلك الأبراج يرى منظرا عظيما يمتد إلى جبل المقطم من الشرق ، وإلى الجيزة والأهرامات

وصحراء ليبيا من الغرب وإلى شطر كبير من نهر النيل من الشمال والجنوب . وصار في استطاعة هذا الحصن السيطرة بالتالي على هذا المفرق الاستراتيجي الذي يربط مصر العليا بمصر السفلى ، فضلا عن الهيمنة على الطريق الرئيسي المؤدي إلى الاسكندرية .



أحد أبراج حصن بابليون .

وزاد فى منعة الحصن الواجهة التى أطل بها على النيل ، حيث كان لها برجان ويمتد بينهما سور ساتر ، ينفذ منه باب اشتهر عند العرب باسم « الباب الغربى » فكان هذا الباب يؤدى إلى مرسى هام ، دأبت سفن الروم على القاء مرساها عنده . وامتد أمام السور أيضا جزيرة الروضة ، وكانت ذات حصون تعتبر جزءا مكملا لمعاقل حصن بابليون ، وتسير المراكب بينهما دون عائق .

وكان للحصن أبواب أخرى ، غير الباب الغربى المطل على المرسى ، ومن أشهرها البابان الكبيران فى الواجهة التى تضم المدخل الرئيسى . وأطلق الروم على الفضاء الواقع بين هذين البابين اسم بريوجنا كولوم Propugnculum وهو الفضاء الذى أعدوه للمقاومة اذا اقتحم المهاجم الباب الأول وتمكن من كسر السياج الذى كان مشيدا من حسك الحديد . والحسك نبات شائك كان يعلق ثمرة بصوف الغنم . وكثر فى بلاد العرب حتى ضربوا بشوكة المثل . وكان لهذا الشوك ثلاث شعب صارت مثالا يقلده المقاتلون فى أسلحتهم . وكان هذا الفضاء مكشوفا وتحيط به جدران يعلوها دهليز تتجمع به القوات الموكل اليها الدفاع عن الحصن وعرقلة العدو . وفضلا عن ذلك أشرفت أبواب الحصن على المزارع المحيطة بالحصن من الجانب الشرقى ، وكذلك على الحدائق وبساتين الكروم بالناحية الشمالية وما تليها من الأديرة والكنائس الممتدة إلى جبل المقطم .

وكان هذا الموقع الهام بحصونه المنيعة هو المنظر الذى التقى به عمرو ابن العاص بعد انتصاره فى وقعة عين شمس . ومن ثم عمد إلى فرض الحصار على حصن بابليون ، مع الافادة من النصر الذى أحرزه . فنقل معسكره من هليوبوليس وضربه فى شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس ، وهو الموضع الذى قامت عليه مدينة الفسطاط فيما بعد . اذ أتاح هذا الموقع لعمرو بن العاص إحكام الحصار على الحصن من الجانب البحرى .

ولما بدأ الحصار كان الفيضان مرتفعا ومياهه تملاء الخندق المحيط بالحصن ، وتزيد من منعته . ومن ثم عمد عمرو إلى تفريق رجاله حول الحصن ، وتناوب كل قسم

مع الآخر الهجوم لارهاق الحامية المحاصرة ورميها بالمجانيق .

وانتهز المقوقس ارتفاع النيل ، وصعوبة اقتراب المسلمين من حصن بابليون وانتقل إلى جزيرة الروضة ، ليدخل فى مفاوضات سرية مع عمرو بن العاص مستهدفا انقاذ الموقف المتدهور .

وأعد المقوقس رسلا من خيرة رجاله ، وبعث بهم إلى عمرو بن العاص ، ومعهم الرسالة التالية للمسلمين :

انكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وأنتم عصبة يسيرة . وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل . وانما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه . ولعلكم تندمون ان كان الأمر مخالفا لطلبتكم ورجائكم ، فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملكم على ما نرضى نحن .

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس أبقاهم عنده يومين وبعد انقضاء اليومين رد عليهم عمرو قائلا : أنه ليس بينى وبينكم الا احدى ثلاث خصال :

١ ــ أما ان دخلتم فى الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا .
٢ ــ وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون .
٣ ــ وأما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين .

وسر المقوقس بعودة رسله وسألهم عن حال العرب فأجابوا :

رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لأحد فى الدنيا رغبة ولا نهمة . وانما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم .

وأرهب المقوقس هذا الكلام ورأى أن قوما هذه حالهم سوف يقتحمون الحصن وينتصرون عليهم . ولذا عمد إلى متابعة التفاوض لعقد الصلح قبل فوات الأوان ، وأرسل إلى المسلمين أن يبعثوا رسلا منهم يتداعى معهم إلى ما عسى أن يكون فيه صلاح الفريقين .

وبعث عمرو بن العاص إلى المقوقس عشرة رجال عليهم عبادة بن الصامت ، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم ، وأن لا يجيبهم إلا إلى احدى الخصال الثلاث التى سبق أن عرضها على رسل الروم عند بدء المفاوضات . فلما دخلت رسل المسلمين معكسر الروم هاب المقوقس عبادة لسواده وفرط طوله ، وأراد أن يتقدم اليه غيره ليكلمه ، فقال المسلمون :

ان هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وانا نرجع جميعا إلى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به.

ولم ير المقوقس بدا أمام اصرار وفد المسلمين من محادثة عبادة ومفاوضته ، وابتدأ عبادة الحديث وقال : انما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلبا للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك وجعل لنا ما غنمنا من ذلك حلالا . وما يبالى أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فان كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله واقتصر على هذا الذى بيده . انما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد الينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه .

ووافق المقوقس على كلام عبادة ، ثم عمد إلى أن يسلك معه طريق الارهاب المصوغ فى قالب النصيحة فقال : أيها الرجل قد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم مالا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل ، وانا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، وقد أقمتم بين

أظهرنا شهرا وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم . ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلة ما بين أيديكم ، ولن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم ثلاثمائة دينار ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكمّ قبل أن يغشاكم مالا قوام لكم به.

فقال عبادة : يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك ، ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه... ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما من شئ أقر لأعيننا ولا أحب الينا من ذلك . وان الله عز وجل قال فى كتابه (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وما منا رجل الا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده ، فانظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها إلا خصلة من ثلاث خصال ، فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل .

وألح المقوقس على عبادة وأصحابه أن يجيبوه إلى خصلة غير هذه الثلاث الخصال . فرفع عبادة يديه وقال : لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شئ ، مالكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم . فقال المقوقس لمن حوله : أجيبونى وأطيعوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله مالكم بهم طاقة ، وان لم تجيبوا اليهم طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين .

ورجع المقوقس وأصحابه إلى حصن بابليون حيث عقدوا اجتماعا مع قادة الروم ، وعرضوا لهم حالهم وحال المسلمين ازاءهم ، فأبوا أن يذعنوا لمطالب المسلمين وخالفوا المقوقس وقبحوا رأيه وعولوا على مواصلة القتال .

وتوقفت المفاوضات بين المسلمين والروم انتظارا لمزيد من التفاصيل . وغادر المقوقس جزيرة الروضة عائدا إلى حصن بابليون ، حيث أبلغ قادة الروم نتيجة مفاوضته . ولكنهم رفضوا المطالب التى قدمها وفد عمرو بن العاص ، وهو الأمر الذى أدى إلى استئناف القتال . وقد زاد موقف الروم سوء بسبب انخفاض الفيضان وقلة

المياه بالتالى فى الخندق المحيط بالحصن . فرمى جند الروم فى قاع الخندق حسك الحديد ، وكذلك أمام أبواب الحصن عوضا عن المياه . وعمد المسلمون إلى طم جزء من الخندق استعداد للهجوم ، اذ قال الزبير لعمرو بنّ العاص ، « انى أهب الله نفسى وأرجو أن يفتح الله على المسلمين ، فوضع سلما الى جانب الحصن ثم صعد » وأمر جنده أن يكبروا اذا سمعوا تكبيره ، وهو بأعلى الحصن . وتم هذا الشطر من « التعبئة » ، وانتهى الأمر باقتحام المسلمين الحصن ، على حين بادر الروم إلى قبول الشروط التى سبق أن عرضها عمرو بن العاص على المقوقس ، وعقدوا المعاهدة المشهورة باسم صلح بابليون ، وجاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم :

ــ هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم . لا يدخل عليهم شئ من ذلك ولا ينقص .

ــ وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا أجمعوا هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف .

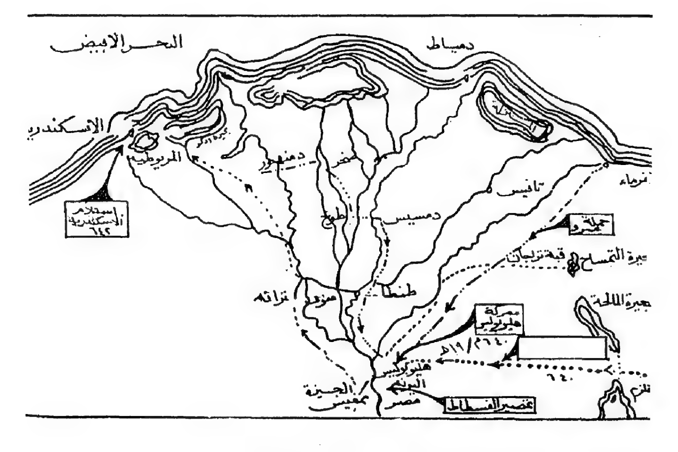
ــ ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل مالهم وعليه مثل ما عليهم .

ــ عليهم ما عليهم أثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم .

وقد تقرر بهذا الصلح مبادئ اسلامية سامية ، منها ارتباط الجزية بمقدار مياه النيل وانخفاضها ، وأن تدفع على ثلاثة أقساط من السنة . وانتهى بهذا الصلح عهد مصر البيزنطية وبداية عهد مصر الاسلامية ، برغم استمرار الفتح الاسلامى وسيره نحو الاسكندرية .

وكان عمرو بن العاص قد بادر غداة سقوط حصن بابليون بالزحف على الاسكندرية التى كانت عاصمة مصر البيزنطية ، وثانى مدن امبراطورية الروم ، وأشدها تحصينا وقوة . اذ كانت هذه المدينة تنعم بأسوار شاهقة تدفع عنها العدوان من ناحية

البر ، على حين تحصل على حاجتها من البحر ، وقد صمم الامبراطور هرقل على أن يخرج بنفسه إلى الاسكندرية ليحول دون استيلاء المسلمين عليها ، لأن هذا يعنى زوال ملك الروم نهائيا من الديار المصرية . غير أن هذا الامبراطور توفى سنة ٢٠هـ / ٦٤١م . وقد حالت الفوضى التى سادت البلاد البيزنطية عقب وفاة هرقل من وصول امدادات جديدة إلى الاسكندرية ، وذلك فى الوقت الذى اشتد فيه حصار المسلمين لها .



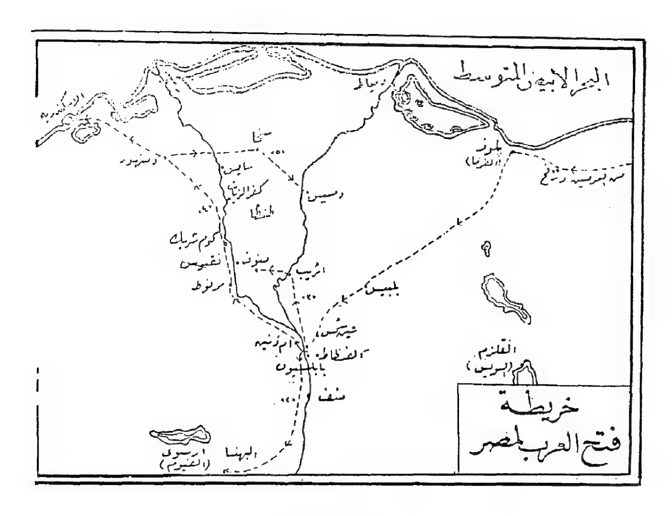
حملة عمرو بن العاص على الإسكندرية .

وقد استطاعت الحامية البيزنطية بالاسكندرية ان تقاوم المسلمين طويلا ، حتى ان عمرو بن العاص قضى على حصار هذه المدينة أربعة عشر شهرا ، مما أدى إلى قلق الخليفة عمر بن الخطاب على الأوضاع فى مصر . فأرسل كتابا إلى عمرو بن العاص يستفسر عن حقيقة الأمور ويستنهضه للقتال ويحثه وأتباعه على مواصلة الجهاد والصبر . وكان المقوقس الذى عقد مع عمرو بن العاص صلح بابليون يقيم اذ ذاك بالاسكندرية ، ورأى بعد وفاة هرقل أن الأوضاع تحتم التسليم للمسلمين ، والعمل على عقد معاهدة أخرى تضمن له ولجند الروم الخروج من البلاد .

ونجح المقوقس فى عقد اتفاق ثان مع عمرو بن العاص ، اشتهر باسم صلح الاسكندرية ، وتقرر بمقتضاه ما يلى :

١ ــ أن يدفع كل فرد ممن يدخل فى هذه المعاهدة جزية مقدارها دينارين فى السنة .
٢ ــ أن تعقد هدنة مدتها أحد عشر شهرا يتم خلالها جلاء الروم نهائيا عن مصر .
٣ ــ أن يظل المسلمون فى مواقفهم أثناء تلك الهدنة ، ولا يسعوا إلى حرب الروم .
٤ ــ أن ترحل حامية الروم عن الاسكندرية ومعها متاعها وأموالها ، أما الجنود الذين يرحلوا برا فعليهم دفع الجزية عن شهر ، وهى المدة التى يستغرقها عبورهم للبلاد قبل الرحيل نهائيا .
٥ ــ أن لا يعود الروم إلى استرداد مصر .
٦ ــ أن لا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء .
٧ ــ أن يبقى اليهود فى الاسكندرية .
٨ ــ أن يحتفظ المسلمون بمائة وخمسين من العسكر الروم ، كرهائن ضمانا لتنفيذ الاتفاقية ، التى تم ابرامها فى ٢١هـ / ٦٤٢م .

وارتبط باستيلاء المسلمين على الاسكندرية قصة مختلقة عن احتراق مكتبة هذه المدينة أثناء الحصار الاسلامى . وكان أول من نسج هذه الرواية المختلقة عبد اللطيف البغدادى (ت سنة ١٢٣١م) فى كتابة « الافادة والاعتبار » ، وذلك حين روى مشاهدته عرضا عن عمود السوارى بالاسكندرية ، فقال : « ورأيت أيضا حول عمود



خريطة الفتح الاسلامى لمصر .

السوارى عدة عمد مهشمة ، وأرى أنه كان الرواق الذى يدرس فيه أرسطو طاليس وشيعته من بعده ، وأنه دار العلم التى بناها الاسكندر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضى الله عنه » .

وزاد هذه القصة المختلقة تراهات وأباطيل مؤرخ آخر جاء بعد عبد اللطيف البغدادى واسمه أبو الفرج بن طبيب يهودى اسمه قارون (أهرون) ، الذى ولد فى ملطية سنة ١٢٢٦م وتوفى فى سنة ١٢٨٦م وقد ألف كتابه بالسريانية ثم نقله إلى العربية باسم « تاريخ الدول » ، وروى فيه الكثير من الأساطير دون تمحيص أو تدقيق . فقال عن حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو بن العاص وأسبابه ما يلى :

كان فى وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى « يوحنا النحوى » كان قسيسا قبطيا من أهل الاسكندرية ، وفى هذا الزمان اشتهر بين الاسلاميين بحنى المعروف عندنا « بغرما طيقوس » أى النحوى . وكان اسكندريا يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ، ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث .

فاجتمع اليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما عليه فلم يرجع ، فأسقطوه من منزلته ، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية . ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم ، فأكرمه عمرو ، وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسه ما هاله ففتن به . وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه ، وكان لا يفارقه ، ثم قال له يحيى يوما : انك قد أحطت بحواصل الاسكندرية ، وضممت على كل الأشياء الموجودة بها ، فمالك به انتفاع فلا أعارضك فيه ومالا انتفاع لك به فنحن أولى به . فقال له عمرو ، وما الذى تحتاج اليه؟ قال : كتب الحكمة التى فى خزائن الملوكية . فقال له عمرو : لا يمسكنى أن آمر فيها الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : وأما الكتب التى ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ، ففى كتاب الله عنه غنى ، وان كان منها ما يخالف كتاب الله ، فلا حاجة اليه ، فتقدم باعدامها . فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها فى مواقدها ، فاستنفذت فى ستة أشهر » .

وقد تناقل بعض الكتاب المحدثين هذه القصة المختلقة ورددوها على حين أنكرها الكثيرون ، ويلاحظ على اختلاق تلك للقصة وبطلانها ما يلى :

١ ــ أن هذه القصة جاءت لأول مرة عند عبد اللطيف البغدادى وأبى الفرج بعد فتح الاسكندرية بستمائة سنة . وهذا يضعف تلك القصة المختلقة ، ويهدم جذورها ، اذ لم يرد لها ذكر عند المؤرخين السابقين ، ولا سيما المسلمين منهم ، ممن عاصر أحداث الفتح الاسلامى ، وأقدمهم البطريق أوتيخوس الذى روى فى اسهاب أحداث فتح الاسكندرية ، وكذلك يوحنا أسقف نقيوس ، وهو مؤرخ عاش أيضا فى القرن السابع الميلادى ، ويعتبر كتابه عن تاريخ مصر من أهم المصادر الموثوق بها . وكذلك لم يشر إلى هذه القصة أحد من المؤرخين المسلمين المتقدمين الثقاة أمثال الطبرى واليعقوبى والكندى ، وابن عبد الحكم .

٢ ــ لم يكن للمكتبة الملكية التى أشار اليها أبو الفرج فى قصته أى وجود زمن الفتح الاسلامى للاسكندرية . لأن الكتب التى كانت بها ، وكذلك الكتب الموجودة فى مكتبة السيرابيوم المجاورة لها قد أصابهما الخراب بسبب الحريق الذى اشتعل فيها عندما هجم الامبراطور يوليوس قيصر سنة ٤٧ ق.م. على الاسكندرية . فقد روى المؤرخ « اليانوس مارسيلينوس » أن مكتبة الاسكندرية قد أصابها التلف التام ولا سيما بالسبعمائة ألف مجلد التى كانت تحتويها عندما حاصر يوليوس قيصر مدينة الاسكندرية . وأيد هذه الرواية « أورازيوس » الذى زار الاسكندرية فى القرن الرابع الميلادى وشاهد رفوف مكتبة الاسكندرية خاوية . ثم زاد من خراب هذه المكتبة وقضى على البقية الباقية منها قبل الفتح الاسلامى للاسكندرية العداء الذى نشب بين المسيحيين والوثنيين فى تلك المدينة سنة ٢٩١م . اذ قامت فى ذلك الوقت موجة من العداء للوثنية ، والقضاء على المخلفات الوثنية التى كانت تحتفظ بها مكتبة الاسكندرية ، هذا فضلا عن اغلاق المعابد الوثنية بأمر الامبراطور جستنيان .

٣ ــ أثبتت الأبحاث الحديثة التى قام بها نفر من المؤرخين ومن بينهم « بتلر » صاحب كتاب فتح العرب مصر ، أن يوحنا النحوى الذى نسب اليه أبو الفرج

روايته عن حريق مكتبة الاسكندرية لم يكن حيا يرزق سنة ٦٤١م ، أى زمن الفتح الاسلامى . اذ أشارت الروايات التاريخية أن يوحنا النحوى كان من الأشخاص الذين أسهموا مع ساويرس أسقف أنطاكية وديوسقوروس فى مهاجمة مجمع خلقدونية الذى انعقد سنة ٤٥١م ، وأنهم ظلوا على عدائهم لقرارات هذا المجمع إلى عهد الامبراطور جستنيان . وهذا يعنى أن يوحنا النحوى برغم أنه عاش إلى أوائل القرن السابع فانه بحساب سنى حياته يكون قد توفى قبل دخول عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة ، وهذا يهدم أساس رواية أبى الفرج ، ويصمها بالاختلاق .

٤ ــ ان معاهدة الاسكندرية تستبعد بنصوصها اتهام عمرو بن العاص بحريق مكتبة هذه المدينة . اذ نصت هذه المعاهدة على أن العرب لم يدخلوا الاسكندرية الا بعد هدنة مداها أحد عشر شهرا ، وأن الروم كانوا بمقتضى هذه المعاهدة أيضا قادرين على حمل جميع متاعهم وبالتالى جميع ما يروق لهم من مكتبة الاسكندرية ان كان لها وجود اذ ذاك . فلم يرد ذكر لمكتبة الاسكندرية فى مدونات القرون السادس والسابع ، وهى المرحلة التالية لحريق هذه المكتبة على يد يوليوس قيصر ثم ان الرومان كان فى استطاعتهم نقل هذه الكنوز العلمية معهم إلى القسطنطينية ، حيث أباحت لهم معاهدة الاسكندرية حمل ما يروق لهم من متاع .

٥ ــ وتكشف تفاصيل القصة التى رواها أبو الفرج أيضا عن مدى ما تحمله من أكاذيب وأساطير . اذ جاء فى تلك القصة أن الكتب وضعت فى سلات وأنها وزعت على أربعة آلاف حمام ، وأنها ظلت تستخدم وقودا لتسخين المياه مدة ستة شهور . فلا يعقل أن عمرو وقد أصر على اعدام مكتبة الاسكندرية أن يسمح بنقل كتبها وأن تظل ستة أشهر وقوداللحمامات . فهذه المدة تكفى لمن يريد الحصول على شئ منها ولا سيما « يوحنا النحوى » أن يجمع ما يشاء سواء دون مقابل أو بثمن بخس . ثم أن أبسط عملية احصائية تكشف بطلان قصة

حريق الاسكندرية ، فلو قدرنا لكل حمام مائة كتاب فى اليوم لسد حاجاته من الوقود ، وهو قدر ضئيل بسبب صغر حجم الكتب اذ ذاك ، لبلغ عدد الكتب التى التهمتها النيران فى ذلك الحريق نحو اثنين وسبعين مليونا من الكتب ، وهو ضعف عدد الكتب التى احتوتها مكتبة الاسكندرية فى أزهى عصورها القديمة . وهذا ينقض العدد الذى رواه يوحنا ، وهو أن المكتبة كان بها سبعمائة ألف مجلد فقط . ثم ان الكتب القديمة كانت تكتب على الكاغد والرق ، وهما لا يصلحان وقودا ، ولا سيما للاستخدام فى تسخين مياه الحمامات .

ولذا فان أسطورة حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو بن العاص لا نصيب لها من الصحة أو السند التاريخى ، فضلا عن انكار التاريخ الحضارى للمسلمين لمثل هذا العمل . فالمسلمون حافظوا على تراث الحضارات القديمة وأقبلوا على نقل كتبها فى شتى الميادين إلى اللغة العربية ، وسمحوا للقائمين على تلك الكتب ولا سيما ممن آثر البقاء على دينه بالمساهمة فى حركة الترجمة . وهذه الحقيقة يشهد عليها حرص المسلمين منذ تم لهم فتح مصر على حماية هذه البلاد بجميع تراثها وكنوزها وصد عادية الأعداء عنها ولا سيما الروم ، الذين تطلعوا إلى استردادها دون مراعاة لاتفاقية صلح الاسكندرية .

وكان الروم البيزنطيون قد استعادوا استقرارهم على عهد الامبراطور قنسطانز الثانى ، حفيد الامبراطور هرقل ، وأخذوا يستعدون لارسال حملة لاسترداد الاسكندرية والزحف منها على باقى الديار المصرية واخراج المسلمين منها .

وساعد هذا الامبراطور عل تنفيذ هذه الخطة نشاطه فى ميدان البحر المتوسط وتنظيم الأساطيل البيزنطية ودعم قواعد الامبراطورية فى الجزر المنتشرة فى شرق البحر المتوسط . وبلغ من دقة اعداد هذه الحملة البيزنطية المتجهة نحو مصر أن تولى القيادة العليا فيها أحد كبار رجال الجيش البيزنطى ، وهو مانويل الذى سبق أن تولى قيادة الحامية البيزنطية أثناء الدفاع عن الاسكندرية ، ضد حصار عمرو بن العاص لها . وكان هذا القائد منذ غادر الاسكندرية ، بعد اتفاقية الصلح بين المسلمين والروم ، يقدم

الآراء العديدة لشن حملة جديدة ضد المسلمين فى مصر ، وأخيرا قامت هذه الحملة سنة ٢٥هـ / ٦٤٥م ، وتضم ثلثمائة سفينة ، وتحمل العدد والعتاد الحربى ، فضلا عن خيرة المقاتلين .

وجاء وصول هذه الحملة البيزنطية على الاسكندرية مفاجأة تامة ، حيث سلمت الاسكندرية سريعا ، واتخذها مانويل قاعدة للتوغل فى الأراضى المصرية . وكان السبب فى هذا النصر البيزنطى السريع هو افتقار المسلمين اذ ذاك إلى اساطيل لهم فى البحر المتوسط ، وعدم استطاعتهم بالتالى معرفة حركات الروم البحرية . وتقدمت القوات البيزنطية من الاسكندرية ، حتى كادت تقترب من حصن بابليون . وأفزعت أنباء هذا الهجوم البيزنطى على مصر القيادة العليا فى الحجاز حيث كان يتولى الخلافة اذ ذاك عثمان بن عفان ، واضطرت تحت الحاح المصريين إلى اعادة عمرو بن العاص ، فاتح مصر الأول إلى تولى شئون مصر مرة أخرى . وكان هذا القائد قد عزله الخليفة عمر بن الخطاب عن ولاية مصر ، بسبب خلاف نشب بينهما حول خراج الديار المصرية .

ووصل عمرو بن العاص إلى مصر سريعا ، واستطاع بفضل مساعدة المصريين أن يحول دون تقدم الروم إلى حصن بابليون وأن يهزم قواتهم عند بلدة نيقيوس . واضطر مانويل ، قائد الروم إلى الانسحاب سريعا إلى الاسكندرية وتحصن بها ، ونصب المجانيق على أسوارها . ووقف عمرو بن العاص يلقى الحصار مرة أخرى على الاسكندرية ، وقد استبد به الحنق بسبب متانة أسوارها وشدة قذائف المجانيق فى أعلاها . وقد أقسم لئن استولى على تلك المدينة ليهدم أسوارها . ولم يستطع عمرو بن العاص اقتحام المدينة عنوة الا بفضل استمالة أحد حراسها ، وذلك فى سنة ٦٤٦م ، وأنزل بحامية الروم هزيمة فادحة ، خر فيها القائد البيزنطى مانويل نفسه قتيلا . وصارت مصر بهذا النصر آمنة من غدر الروم ، قادرة فى الوقت نفسه على أن تكون درع الاسلام وحماية المسلمين ودولتهم الوليدة فى بلاد الشام .

سمات العهد الاسلامى فى مصر :

جاء أول تقرير عن ميلاد مصر الاسلامية فى الرسالة التى بعث بها عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف فيها مصر ، فقال :

« أعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان ، يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، حتى اذا ما أصلخم عجاجه وتعاظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهم فى المخايل ورق الأصائل ، فاذا تكامل فى زيادته ، نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته ، وطما فى درته ، فعند ذلك تخرج (أهل مصر ....) يحرثون باطن الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ... فاذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذا هى عنبرة سوداء ، فاذا هى زمردة خضراء ، فاذا هى ديباجة قشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها منها ... »

وبلغ من قوة هذا التقرير عن طلائع العهد الاسلامى بمصر قول الخليفة عمر بن الخطاب حين استلم الرسالة حيث قال : لله درك يا ابن العاص ، لقد وصفت لى خبرا كأنى أشاهده .

ويحمل تقرير عمرو بن العاص حقيقة هامة هى : أن الفتح الاسلامى لمصر وضع حدا لمرحلة طويلة من السيادة الرومانية ثم البيزنطية ، اتسمت بالتشريعات المجحفة بحقوق الأهالى ، وحرمانهم من ممارسة الاشتراك فى ادارة شئون بلادهم [٧] . فقد كفل العهد الاسلامى لأهالى البلاد دستورا محكما يبين مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات وبيان العلاقة بينهم فى نفس الوقت وبين رجال الحكم والادارة . وساد هذا الدستور طابع العدالة والمساواة ، وصار اقرار الحقوق والواجبات للحكام والرعية السمة الأولى من سمات العهد الاسلامى فى مصر .

وتجلت معالم هذه السمة الأولى حين انتقلت إلى عمرو بن العاص ، وهو أول وال على مصر على عهد الخليفة عمر بن الخطاب مهام الحاكم البيزنطى العام ، الذى كان يعرف باسم « سيمبولوس » فى البلاد . وامتد نفوذ عمرو بن العاص إلى جوانب ادارية عديدة ، وأخرى اقتضاها الوضع الاسلامى للبلاد فأم الناس فى الصلاة نيابة عن الخليفة ، وهو أمر كان ينص اذ ذاك على أنه الرئيس الأعلى للبلاد . وجمع عمرو أيضا إلى جانب السلطان السياسى حق الاشراف على الادارة المالية للبلاد ، وهو أمر بالغ الأهمية حيث يصبح الوالى الذى يجمع بين امامه الناس فى الصلاة وجمع الخراج ، صاحب سلطان مطلق ، أى أن ولايته عامة ، على نحو المصطلح الذى أطلقه الفقهاء من الباحثين فى الشئون الادارية للدولة الاسلامية .

ولكن ظل عمرو بن العاص برغم هذا السلطان الواسع نموذجا للأمير المسلم الخاضع للادارة المركزية وسلطانها ، الأمين على تنفيذ تعاليمها المباشرة . فقد طلب الخليفة إلى عمرو بن العاص أن يسترشد بكبار رجال مصر فى ادارته ومعرفة أمثل السبل للقضاء على رواسب الادارة البيزنطية القديمة فيها . ذلك أن مصر كانت تعانى الكثير من المتاعب على يد الادارة البيزنطية الباغية ، والتى كان هدفها ابتزاز ثروة البلاد . فكانت مصر تعانى فى القرن السابق على الفتح الاسلامى مباشرة حالة من الفوضى ، سببها أن البيزنطيين (الروم) اعتبروا الفلاحين من أهلها مجرد أدوات لانتاج القمح ، وأن رجال الادارة فيها موكول اليهم فقط ابتزاز الأموال من الرعية دون أن يكون من مهامهم توفير الرفاهية لها أو تحسين أحوال الناس وتلبية مطالبهم .

وامتثل عمرو بن العاص لأوامر الخليفة عمر ، وسأل بنيامين ، أسقف مصر عن خير وسيلة لادارة البلاد وتنظيم أمورها . فأشار بنيامين بما يلى : أن يأتى عمارتها (أى مصر) وخرابها من وجوه خمسة : أن يستخرج خراجها فى ابان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ، ويرفع خراجها فى ابان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم ، وتحفر خلجانها وتسد ترعها وجسورها ، ولا تقبل محل أهلها ــ يريد البغى ــ فاذا فعل هذا فيها عمرت ، وان عمل فيها بخلافة « خربت » . وعلق بنيامين على الشرط الأخير

أهمية كبرى ، وهو ألا يختار عامل ظالم ليلى أمور الناس ، لأنه رجل الادارة المسئول عن تنفيذ الشروط الأخرى التى رأى ضرورة توافرها لعمران البلاد .

وسار عمرو بن العاص فعلا على هدى أقوال بنيامين المصرى ، اذ أتاح للأهالى الاشتراك معه فى ادارة البلاد ، وذلك بما يهيئ لهم الافادة من عدالة الادارة الاسلامية ، مع الاحتفاظ فى نفس الوقت بما ألفوه من نظم ادارية فى ظل الدولة البيزنطية . فظلت مصر تنقسم اداريا إلى أقسام تسهل للأهالى عملهم ، وهى الأقسام التى أطلق عليها العرب اسم « الكور » بدلا من الكلمة البيزنطية « باجارشى » . فكانت هذه « الكور » أو الأقاليم الادارية التى اشتملت عليها البلاد أشبه بالمحافظات فى الوقت الحاضر . وكان لكل اقليم حاكم حمل لقب « صاحب الكورة » ومهمته تنظيم العلاقات بين أهالى منطقته والادارة المركزية .

وجاء بعد هذه الطبقة من العمال من أصحاب الكور ، رؤساء القرى ومشايخها الذين عرفتهم الادارة الاسلامية باسم « موازيت » وهى نفس الكلمة اليونانية التى أطلقتها عليهم الادارة البيزنطية ، وتعنى القومة على شئون الحكم المحلى فى القرى . وجرى تنسيق العمل بين الادارة الاسلامية وتلك الادارات المحلية وفق خطة محكمة واشراف دقيق . فكان الموظفون المحليون المتصلون مباشرة بالأهالى يبدأون بدراسة المواضيع المطلوبة ، ثم يرفعون الأمر إلى رؤسائهم ، « فيجتمع عرفاء كل قرية ومازوتها ، ورؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة والخراب ، حتى اذا أقروا الأمر ... انصرفوا إلى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى » ، ويسير الأمر على هذا النحو من التدرج حتى يصل الأمر إلى الوالى .

واستطاع عمرو بن العاص عن طريق هذا النظام الادارى الدقيق أن يبقى على رجال الادارة البيزنطية ويستفيد من خبرتهم ، سواء احتفظوا بألقابهم القديمة أو بما يرادف تلك الألقاب من المسميات العربية . فكان « العريف » فى الادارة الاسلامية الجديدة هو « الكاتب » (Chartularius) فى الادارة البيزنطية ، ويقوم بنفس العمل ، ولا سيما من حيث الاحتفاظ بالسجلات الخاصة بدافعى الضرائب وممتلكاتهم ،

وأرباب المهن ، وهى السجلات التى سبق اعدادها بواسطة « الموازيت » من رؤساء القرى ومشايخها .

وقدم عمرو بن العاص تقريرا عن ولايته مصر بناء على طلب الخليفة عمر ابن الخطاب ، ضمنه وصفا رائعا لثرائها ، وما سبق أن أشار به بنيامين من ضرورة الاهتمام بشئون الرى فيها وحفر ترعها للنهوض بعمرانها الزراعى . واقتضى هذا النظام الادارى المركزى الذى سارت عليه مصر على عهد الخليفة عمر بن الخطاب قيام هيئة للاشراف على الولاة والعمال ، يمكن أن نسميها على حد المصطلح الشائع فى الوقت الحاضر باسم « الرقابة الادارية » ومهمتها التوجيه والارشاد ، ومنع وقوع الخطأ وفى نفس الوقت توقيع الجزاء الادارى على المخطئ والمنحرف . وتولى الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه القيام بهذه المسئولية الجسيمة .

وكانت الخطوات الأولى لهذا النظام الادارى تتجلى فى التوجيهات والارشادات التى أوضحها الخليفة عمر بن الخطاب لولاته، سواء قبل تعيينهم ، أو فى عهود التعيين التى يمنحها اياهم ، وكذلك فى الكتب التى بعث بها اليهم ، إما دوريا أو من حين إلى آخر حسب المناسبات . واشتملت تلك التوجيهات على جانبين ، أحدهما شخصى يتعلق بمظهر الولاة والعمال ، والثانى عام ينظم العلاقة بين أولئك العمال ورعاياهم . فمن حيث الجانب الشخصى كان الخليفة يشترط على العامل التمسك بالبساطة ، ومن ذلك ألا يركب برذونا [٨] ولا يأكل نقيا ولا يلبس رقيقا [٩] ولا يغلق بابه دون حاجات الناس . ثم يقول اللهم اشهد ، ويشهد على العامل رهطا من كبار رجال الدولة زيادة فى الرقابة والاشراف .

ونص عمر بن الخطاب على الشروط العامة للولاية فى « عهد التعيين » ، يلخصها للعامل فى قوله « انى لم أستعملك على دماء المسلمين ولا على أعراضهم ، ولكن استعملتك لتقيم فيهم الصلاة وتقسم بينهم فيأهم وتحكم فيهم بالعدل » . ودأب الخليفة على اذاعة تلك الشروط على جماهير الناس فى مؤتمرات الحج التى حضرها العمال والوفود العديدة من الولايات حتى يصبح الناس على بينة بالمسئوليات

الملقاه على عاتق العمال ، وليشتركوا بالتالى فى مراقبتهم وكشف أى انحراف يطرأ على سلوكهم . فخطب فى جمع من عماله أمام الناس قائلا لهم : « ألا وانى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم ، فأدروا على المسلمين حقوقهم ، ولا تضربوهم فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم ، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم ولا تجهلوا عليهم » .

ثم قال للناس :

« أيها الناس انى أشهدكم على أمراء الأمصار ، انى لم أبعثهم الا ليفقوا الناس فى دينهم ويقسموا عليهم فيأهم ، ويحكموا بينهم ، فان أشكل عليهم شئ رفعوه » . واختتم خطبته موضحا أنه سيقتص من أى وال ينحرف عن الطريق . وكان عمرو بن العاص حاضرا ، فهب قائلا : يا أمير المؤمنين ، أرأيت ان كان رجل من المسلمين واليا على رعيته فأدب بعضهم ، انك تقصه منه؟ . قال عمر أى والذى نفسى بيده لأقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه .

وتعرض عمرو بن العاص للتطبيق العملى للرقابة الادارية على يد الخليفة عمر ابن الخطاب نفسه ، وذلك حين استغل محمد بن عمرو بن العاص سلطات والده باعتباره أمير مصر ، وأساء إلى أحد أبناء البلاد . اذ أجرى ابن عمرو ابن العاص فرسه فى سباق مع فرس أحد المصريين . فلما سبقت فرس المصرى غضب ابن عمرو ، وانهال على المصرى بسوطه وهو يقول : « خذها وأنا ابن الأكرمين » فرفع المصرى شكواه إلى عمر بن الخطاب ، الذى استدعى عمرو بن العاص وابنه ، ثم أعطى المصرى عصاة وقال له اضرب بها ابن الأكرمين . وبعد أن انتهت العقوبة التفت إلى عمرو بن العاص وقال قوله المشهور : « يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

وتابع الخليفة ارشاداته لعمرو بن العاص ، فكتب له « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك ووقع إلى عنك أنك تتكئ فى مجلسك ، فاذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكئ » . وصارت مراسلات عمر بن الخطاب مع ولاته نموذجا لهذه الرقابة

والمتابعة المستمرة والتوجيه المتواصل ، ضمانا لحسن الادارة وتوفيرا للعدالة للرعية فى كل مكان .

وكان أهم صور الرقابة الادارية على عهد عمر بن الخطاب هو مقاسمة الولاة أموالهم عند انتهاء أعمالهم ، ولا سيما اذا عجزوا عن اثبات مصادر الزيادة على ثرواتهم . فكان الخليفة يحصى أموال كل وال قبل مباشرته أعماله ، ثم يفحص ما يطرأ على دخل هذا الولى من حين إلى آخر ، سواء أثناء مدة الولاية أو بعدها . وكان سبب هذا النظام شكوى وصلت الخليفة من أحد الشعراء اتهم فيها العمال فى بلاد الأهواز بمخالفة شروط التعيين واستغلال سلطاتهم فى جمع المال ، فاستدعى الخليفة اليه بعض أولئك العمال وحاسبهم ، على حين أرسل لبعضهم الآخر المسئول عن جهاز الرقابة الادارية وهو محمد بن مسلمة الأنصارى لتقصى حقيقة الأمر .

وكان ممن استدعاهم الخليفة اليه لمقاسمته أبو هريرة ، الذى كان عامله على البحرين ، اذا اجتمعت لأبى هريرة اثنى عشر ألفا قدم بها إلى المدينة . فقال له عمر : يا عدو الله وعدو المسلمين ، سرقت مال الله؟ فقال أبو هريرة لست بعدو الله والمسلمين ، ولكنى عدو من عاداهما ، ولم أسرق مال الله ، ولكن جاءت تلك الثروة نتيجة خيل لى تناتجت وعطاء مدخرا وسهاما اجتمعت . ولكن الخليفة لم يقبل هذا التعليل ، وقاسم أبا هريرة ماله .

وبعث عمر بن الخطاب عاملة محمد بن مسلمة الأنصارى إلى عمرو بن العاص فى مصر ، حيث سلمه خطابا من الخليفة جاء فيه « أما بعد فانكم معشر العمال قعدتم على عيون الأموال ، فجبيتم الحرام ، وقد بعثت اليك محمد بن مسلمة الأنصارى ليقاسمك مالك ، فأحضر مالك والسلام » . وكان محمد بن مسلمة الأنصارى خير ممثل لرجال الرقابة الادارية نزاهة وحرصا شديدا على أداء مهمته . اذ قدم له عمرو بن العاص هدية رفضها ، دون أن يأبه بقول عمرو له : ان الرسول الكريم كان يقبل الهدايا ،. وقال له : ان رسول الله (ص) كان يقبل بالوحى ما شاء ويمتنع مما شاء . ولو كانت هدية أخ إلى أخيه قبلتها ، ولكنها هدية أمام شر خلفها . وانتهى الأمر بأن أتم محمد بن

مسلمة الأنصارى مهمته وقاسم عمرو بن العاص ماله.

واستطاع الخليفة عمر بن الخطاب عن طريق « الرقابة الادارية » أن يحقق أمثل سبيل لانتظام العمل وفق النظام الادارى المركزى، اذ أطلق لعماله الحرية فى ادارة ولاياتهم مع تقييدهم فى المسائل العامة ومراقبتهم فى خلواتهم وحياتهم العامة « وكان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه فى مهاد واحد وعلى وساد واحد. فلم يكن له فى قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحى عامل ولا أمير جيش الا وعليه له عين لا يفارقه ما وجده. فكانت ألفاظ من فى المشرق والمغرب عنده فى كل ممسى ومصبح. وأنت ترى ذلك فى كتبه إلى أعماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الناس اليه وأخصهم به ».

ويعتبر التنظيم المالى لمصر فى عهد عمرو بن العاص التطبيق العملى للادارة الاسلامية القائمة على دعوة الاسلام إلى العدالة وتحرير الناس من قيود الطغيان والظلم. ويرجع السبب فى وضوح هذه الصورة المالية عن مصر إلى أحد مؤرخيها وهو ابن عبد الحكم الذى سجل فى كتابه « فتوح مصر » دراسة تفصيلية ودقيقة لمعالم هذا التطور المالى الاسلامى فى وطنه، مبينا علاقته فى نفس الوقت بالتنظيمات الأخرى التى سادت كلا من العراق والشام على عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

وتناول ابن عبد الحكم فى الفصل الرابع من كتابه « فتوح مصر » وصف التنظيم المالى فى عهد كل من عمرو بن العاص وخليفته عبد الله بن سعد بن أبى سرح، مع بيان القوى المحركة لذلك التنظيم من فلسفة التشريع الاسلامى وأسلوب تطبيق تلك التشريعات كذلك. واتخذ ابن عبد الحكم من مناقشة موضوع فتح مصر، هل تم صلحا أم عنوة، مدخلا لوصفه، لأنه كان يتوقف على اقرار هذا الوضع — فى فلسفة التشريع الاسلامى — أسس النظام المالى للبلد المفتوح، وأسلوب معاملة أهله من حيث الضرائب كذلك.

وكانت النافذة التى أطل منها ابن عبد الحكم أثناء دراسته للنظام المالى نافذة مصرية قوامها جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات التى تتعلق بفتح مصر، وما حاط

بهذا الفتح من ملابسات توضح طبيعته، وهل كان صلحا أم عنوة . وجمع ابن عبد الحكم الروايات التى دارت حول هذا الموضوع ، ثم قسمها قسمين : الأول احتوى الروايات التى تبين أن مصر فتحت صلحا ، والثانى اشتمل على الروايات التى تذكر أن مصر فتحت عنوة . واستند رواة القسم الأول على القول بأن حصن بابليون فتح صلحا لا عنوة بمقتضى المفاوضات التى دارت بين عمرو بن العاص والمقوقس . أما الفريق الثانى فحاول أن يبرر أقواله بأنه لم يكن للمصريين عهد .

وجعل ابن عبد الحكم من الأحداث التاريخية سندا لتفسير أسباب هذا الخلاف فى الرأى . فأوضح أن المصريين استقبلوا العرب الفاتحين بالترحاب منذ البداية ، « وأنه كان بالاسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين (بنيامين) فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال أن القبط الذين كانوا بالفرما يومئذ كانوا أعوانا لعمرو » .

وأورد ابن عبد الحكم نصوص صلح بابليون ، الذى صار المصريون بمقتضاه أهل ذمة ، ويؤدون الجزية ، وأن هذه الكلمة كانت تعنى على نحو ما جاء فى سياق نص الصلح « الجزية » و« الخراج » فى نفس الوقت . فأشار إلى العرب والمصريين فى ذلك الصلح قائلا : « فاجتمعوا على عهد بينهم ، واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، من بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ الفانى ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ، ولا النساء شئ .

وعلى أن المسلمين عليهم النزل لجماعتهم اذا نزلوا ، ومن نزل عليهم ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاث أيام مفترضة عليهم .

« وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرضون لهم فى شئ منها مطلقا » .

« وحصوا عدد القبط يومئذ ، خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض الديناران ، رفع ذلك عرفاؤهم بالايمان المؤكدة ، فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر ، أعلاها

وأسفلها من جميع القبط ، فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس . فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار فى كل سنة » .

ويدل هذا الرقم ، وهو مبلغ الأثنى عشر مليونا ، على ما كان يجئ من مصر كلها ، من الأهالى ، سواء ما كان باعتباره جزية رؤوس ، وكذلك ما كان يحصل عن أراضيهم . اذ لو أخذنا بحرفية التعداد الذى ذكره ابن عبد الحكم ، وهو أن من وجبت عليه الجزية من الأنفس هو ستة مليون رجل ، كان ذلك يعنى أن سكان مصر كلها بلغ عند الفتح الاسلامى ثمانى عشرة مليون نسمة ، وهو أمر لا يتفق مع ما أوضحته السجلات البيزنطية عن أن تعداد مصر بلغ سبعة مليون نسمة . وأوضح ابن عبد الحكم أن التفرقة بين استخدام الجزية والخراج لم يظهر الا فيما بعد ، فى أواخر العصر الأموى ، وانما شاع الخلط بين الكلمتين ، حيث روى عن ابن سعد قوله: الجزية جزيتان ، جزية على رؤوس الرجال، وجزية تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية » .

وأتبع عبد الحكم معاهدة الصلح برأى حسم موضوع كيفية فتح مصر وهو أن البلاد عوملت معاملة الأراضى التى فتحت صلحا ، وهى المعاملة التى أقر تشريعها الخليفة عمر بن الخطاب حين رفض تقسيم الأرض على الجند . اذ قام الزبير بن العوام ، وهو أحد قادة جيش مصر وقال لعمرو بن العاص : أقسمها يا عمرو (أى الأرض) . فقال عمرو والله لا أقسمها ، قال الزبير : والله لتقسمها ، كما قسم رسول الله (ص) خبير . وقال عمرو : والله لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين . فكتب اليه عمر ، وكان قد استقر رأى « الشورى » على اعتبار الأرض المفتوحة من الفئ ، وقفا على المسلمين ــ قائلا : أقرها ، حتى يغزو منها حبل الحبلة ، (أى حتى يكون للأبناء منها نصيب) .

واقتضى هذا التشريع الجديد ، وعدم تقسيم الأرض الاحتفاظ بالنظم المالية القديمة فى مصر مع بث روح العدالة الاسلامية فيها ، شأنها فى ذلك شأن البلاد الأخرى التى فتحها المسلمون . وأورد ابن عبد الحكم هذا الموضوع فى الوثيقة

التالية :

« ان عمر كتب إلى أمراء الأجناد ألا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه المواسى ، وجزيتهم أربعون درهما على أهل الورق (أى الفضة) منهم ، وأربعة دنانير على أهل الذهب ، وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مديان من حنطة ، وثلاثة أقساط من زيت فى كل شهر لكل انسان كان من أهل الشام والجزيرة ، وودك وعسل لا أدرى كم هو . ومن كان من أهل مصر فأردب كل شهر لكل انسان ، ولا أدرى كم من الودك والعسل ، وعليهم من البز والكسوة التى يكسوها أمير المؤمنين الناس ، ويضيفون من نزل عليهم من أهل الاسلام ثلاث ليال . وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعا لكل انسانا ، ولا أدرى كم لهم من الودك . وكان لا يضرب الجزية على النساء والصبيان » .

وكانت جباية الجزية فى مصر تختلف من مكان إلى آخر حسب امكانية كل فرد . ذلك أن صاحب اخنا جاء إلى عمرو بن العاص وطلب منه تقرير حد ثابت للجزية ، ليصبح كل فرد ملتزما بها . ولكن عمرو بن العاص رفض ذلك ، مبينا أن هذا التحديد أمر غير عملى ، وأن الأوضاع قد تتغير وأن الوالى صاحب الحق فى تعديل ما على الفرد من جزية حسب مقتضيات تلك الأوضاع . وكان لأبناء مصر قدر كبير من الحرية والمساهمة فى الادارة المالية لبلدهم ، وذلك بما يحقق لهم العدالة والتخلص من مساوئ الاستغلال الذى سبق أن عانوا منه الكثير زمن الروم .

وشرح ابن عبد الحكم هذا التطور الجديد فى النظام المالى لمصر قائلا : « لما استوثق له (أى لعمرو بن العاص) أقر قبطها على جباية الروم . وكانت جبايتهم بالتعديل و اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وان قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية ومازوتها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة ، انصرفوا بذلك القسط إلى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا على احتمال القرى وسعة المزارع . ثم ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية من الأرض العامرة فيبذرون ، فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم

وجماعاتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان . فاذا فرغوا نظروا إلى ما فى كل قرية من الصناع والأجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت فيها جالية (أى أهل ذمة) قسموا عليها بقدر احتمالها ، وقل ما كانت تكون الا الرجل المنتاب ، أو المتزوج ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع معهم على قدر طاقتهم . فان عجز أحد أو شكا ضعفا عن زرع أرضه زرعوا ما عجز عنه على الاحتمال . وان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف . فان تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم . وكانت قسمتهم على قراريط الدينار ، أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك » .

وسار التنظيم المالى فى مصر على هدى مراعاة مصالح البلاد وأهلها ، وأنه لم يرسل إلى الخلافة فى المدينة الخراج المطلوب الا بعد اقتطاع ما تحتاج اليه البلاد من « حفر خلجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها » . ثم أن هذا الخراج لم يرسله عمرو بن العاص أيضا الا بعد أن يفرغ الناس من الزراعة وعصر كرومهم ، عملا بنصيحة بنيامين ، أسقف مصر . وأدى هذا النظام المالى الجديد لمصر الاسلامية إلى تباين وجهات النظر بين الخليفة عمر بن الخطاب وبين عمرو بن العاص حول خراج مصر ، ولماذا صار فى العهد الاسلامى أقل مما كان عليه من قبل زمن الروم . ودارت بينهما المراسلات التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله إلا هو . أما بعد .

فانى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة ، وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر .

وأنها قد عالجتها الفراعنة ، وعملوا فيها محكما مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك . وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ، على غير قحوط ولا جدوب .

ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج ، وظننت أن ذلك عن غير نزر ، ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك ، فاذا أنت تأتينى بمعاريض تغتالها ولا توافق الذى فى نفسى ، ولست قابلا منك دون الذى كنت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست أدرى مع ذلك ما الذى أنفرك من كتابى وقبضك . فلئن كنت مجزئا كافئا صحيحا فان البراءة لنافعة ، وان كنت مضيعا نطفا فان الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن ابتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك . وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك الا عمالك عمال السوء ، وما توالس عليه وتلقف ، اتخذوك كهفا ، وعندى باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه . فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه . فان النهز يخرج الدر ، والحق أبلج ، ودعنى وما عنه تلجلج ، فانه قد برح الخفاء والسلام .

وبعث عمرو بن العاص إلى الخليفة بالرد التالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فانى أحمد الله اليك ، الله الذى لا اله إلا هو ، أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى ، واعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها منذ كان الاسلام . ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أراضيهم منا منذ كان الاسلام .

« وذكرت أن النهز يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع ذلك درها .

« وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرضت وثربت ، وعلمت أن ذلك عن شئ تخفيه على غير خبر ، فجئت لعمرى بالمفظعات المقذعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ، وقد عملنا لرسول الله (ص) ولمن بعده . ولكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحا ، والعمل به سيئا ، فيعرف ذلك لنا ، ويصدق فيه قبلنا .

« معاذ الله من تلك الطعم ، ومن شر الشيم ، والاجراء على كل مأثم . فاقبض عملك ، فان الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها ، بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ، ولم تكرم فيه أخا . والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد لنفسى غضبا ، ولها انزاها واكراما . وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقا ، ولكن حفظت مالم تحفظ . ولو كنت من يهود يثرب ما زدت ، يغفر الله لك ولنا . وسكت عن أشياء كنت بها عالما ، وكان اللسان بها عنى ذلولا ، ولكن الله أعظم من حقك مالا يجهل . والسلام » .

واضطر الخليفة عمر بن الخطاب إلى الرد على رسالة عمرو بن العاص قائلا :

« من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعد :

« فقد عجبت من كثرة كتبى اليك فى ابطائك بالخراج ، وكتابك إلى ببينات الطرق . وقد علمت أنى لست أرضى منك الا بالحق البين . ولم أقدمك على مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكم وجهتك لما رجوت من توفير الخراج ، وحسن سياستك .

فاذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج ، فانما هو فيئ المسلمين ، وعندى من قد تعلم قوم استنظرونى ، قوم محصورون والسلام » .

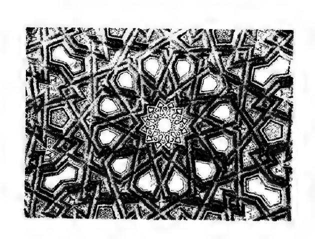
وبعث عمرو بن العاص برد آخر على رسالة الخليفة مؤكدا له عدم تأخره فى الخراج عن عمد ، وانما أحوال البلاد هى التى تحتم عليه ذلك ، وجاء فى رسالة عمرو ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص . سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله إلا هو . أما بعد :

« فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئ فى الخراج ، ويزعم أنى أعيذ عن الحق ، وأنكب عن الطريق . وأنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم . ولكن أهل الأرض

استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم ، فنظرت المسلمين ، فكان الرفق بهم خيرا من أن يخرق بهم ، فيصيروا إلى بيع مالا غنى بهم عنه والسلام » .

وتعتبر المراسلات السالفة مقارنة هامة بين وجهتين من وجهات النظر فى التنظيمات المالية فى مصر .أما وجهة نظر الخليفة عمر فتجلت فى اتهامه لعمرو بن العاص باعتماده على عمال السوء الذين حجبوا عنه الحقيقة ، وتسببوا بالتالى فى تأخير الخراج . غير أن دفاع عمرو بن العاص استند إلى أحوال البلاد ، مبنيا أن السبب فى تأخير الخراج هو انتظار مواعيد فيضان لنيل ، وليس عمال السوء ، وأنه يعلم تمام العلم أسس النهوض بالنظام المالى لولايته [١٠] ، ولاسيما منذ أيام الفراعنة . وكان خراج مصر الذى بعث به عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب هو : اثنى عشر ألف ألف ، على حين بلغ عمر بن الخطاب أن المقوقس جبى خراج مصر قبل عمرو بن العاص مباشرة ، مقداره عشرين ألف ألف .



الفصل الثانى

البناء السياسى لمصر الاسلامية

« ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة »

(عمرو بن العاص : أول ولاة مصر الاسلامية)

أولا : عصر الامارة فى مصر الاسلامية

أسس التكوين السياسى لمصر الاسلامية :

وصف عمرو بن العاص البناء السياسى لمصر الاسلامية قائلا : « ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة » ، وهو قول يعنى أن ولاية مصر تملك من المقومات ما يجعل « أمير البلاد » وهو لقب والى مصر من قبل الخلفاء ، يقف فى قوته على قدم المساواة مع الخليفة نفسه ، وله من الهيبة والمكانة ما للخليفة نفسه أيضا . وظهرت هذه السمة منذ خلافة عثمان بن عفان ، حيث جاء ارتباط مصر اذ ذاك بأحداث الدولة الاسلامية سبيلا أتاح بظهور جيل فيها على درجة طيبة من الثقافة السياسية ، حريص على ارتباط تفكيره السياسى دائما بالقيم الأخلاقية المستمدة من الاسلام ، وجعل تلك القيم دائما المقياس للحكم على كل ما يواجهه من أحداث أو يمر به من تجارب وتطورات .

وكانت العناصر الأساسية للفكر الاسلامى كما التقى بها أهل مصر قد تكامل وجودها منذ عهد الرسول الكريم ، واستقرت فى النواحى الثلاث التالية :

أولا : طبيعة النظام الاجتماعى الذى أقامه الرسول الكريم ، بعد نجاح الدعوة الاسلامية . فقد ظهر مجتمع جديد له قانون واحد ينظم حياته ويرسم لأفراده سبل التضامن ، فضلا عن دعم الوشائج بينهم من الجنس واللغة والدين . واكتسب هذا النظام إلى جانب الركن الدينى للاسلام الطابع السياسى الذى يوصف بأنه « دولة » ، وما تتطلبه من قواعد لتحقيق العدالة وجباية الأموال والدفاع عن كيانها . فهذه الأمور كلها تدور حول الفكر السياسى ، وقدرته على الانطلاق فى سبيل حماية « الدولة » أو المجتمع الجديد .

ثانيا : مبدأ حرية التفكير للفرد ، صار الجانب الهام الذى اتاح للنظام الجديد الافادة من جميع الطاقات الكامنة لدى ابنائه والعاملين من قادته على السير به نحو الطريق السليم . فهذا المبدأ الذى أطلق عليه الفقهاء المسلمون فيها بعد اسم « الاجتهاد » غدا المحرك الأكبر للآراء العديدة التى تميز بها الفكر السياسى للاسلام ، وما تولد عنها من نظريات ومذاهب صاحبت تطور الدولة الاسلامية وأسهمت فى احداثها مساهمات عميقة .

ثالثا : تفويض الأمر للأمة أصبح العنصر الثالث من عناصر الفكر السياسى الاسلامى والضابط له من الشطط والانحراف . فالاسلام لم يضع معتقدات جامدة تحارب الفكر الحر ، وانما هيأ لهذا الفكر كافة أسباب النشاط والبحث والانطلاق . وكان لذلك أثر كبير فى عدم تقيد الجماعة الاسلامية بقوانين جامدة قد تعجز عن مواجهة التطورات والملابسات الزمنية . ولكن فى نفس الوقت صار تفويض الأمر للأمة فى أى حدث من الأحداث دون تحديد وجهة نظر مسبقة بمثابة اعتراف بأن ارادة الأمة هى الفيصل الأخير ، وان الرأى العام للجماعة هو صمام الأمن الواقى من شطط « الاجتهاد » .

واستطاعت الدولة الاسلامية أن تجتاز مراحل التطور التى واجهتها فى ظل هذه القواعد الاساسية للفكر الاسلامى ، حين التقت بها مصر فى القرن الأول الهجرى . وتجلت أولى ثمار نجاح هذا الفكر السياسى فى التغلب على المشكلة التى واجهت المجتمع الجديد عقب وفاة الرسول الكريم . فقد استطاعت الأمة على هدى القرآن وسنة الرسول قولا وعملا أن تضع التقنين الدستورى والتطبيق العملى لهذا التقنين من أجل حل المشكلة التى واجهتها بوفاة الرسول الكريم . ثم اتضح التقنين فى انشاء منصب الخلافة الذى يتولى شاغله رعاية التراث الدينى والمدنى ، وذلك بالحفاظ على الدعوة الاسلامية ونشرها ، والاشراف على تماسك المجتمع الجديد فى مجال الدين والدنيا على السواء . وتقرر أيضا أن تتولى الأمة اختيار الخليفة عن طريق الجماعة التى اصطلح الفقهاء على تسميتها باسم « أهل الحل والعقد » .

وظهر مبدأ التطبيق العملى للتقنين الدستورى الجديد فى تقرير حق الرقابة والمناقشة من جانب الأمة . اذ لم ينفرد أهل الحل والعقد باختيار الخلفاء والبت فى الأمور ، وانما اشتركت الأمة معهم فى تصريف الشئون . فلم يصبح مثلا اختيار أهل العقد للخليفة قرارا نهائيا الا بعد أن تعتمده الأمة فى المسجد الجامع فى اليوم التالى ، دلالة على اتمام البيعة العامة . ودعم الخليفة عمر بن الخطاب مبدأ رقابة الأمة واشتراكها فى ادارة شئون الدولة ومسئوليتها فى محاسبة الخليفة . ونظم هذا الخليفة أيضا أسلوب الرقابة الشعبية باختيار عدد من كبار الصحابة ليمثلوا أهل الحل والعقد ، وجعلهم إلى جواره ليستعين بهم فى مواجهة ما يطرأ من أمور جديدة . وكان لذلك أثر عظيم فى حل أخطر مشكلة ظهرت على عهده فى مصر وغيرها من الولايات الاسلامية وهى « توزيع الأرض فى البلاد المفتوحة » على الجند . اذ رفض عمر تقسيم تلك الأرض على الجند باعتبارها غنائم ، وانما استطاع بفضل أهل الحل والعقد أن يجعل تلك الأرض ملكا للدولة ، ويعطى الجند رواتب أى « عطاء » مقابل نصيبهم فى الأرض .

طالب الجند المسلمون بعد فتح أرض السواد بالعراق والشام ثم مصر بتقسيم الأرض فى تلك الجهات بينهم وفق القاعدة الخاصة بغنائم الحروب ، والتى شرحتها الآية الكريمة « وأعلموا انما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » ، أما الأخماس الأربعة المتبقية فتكون للغانمين . وكتب قادة الجند فى الأمصار بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب يسألونه الرأى ومنهم سعد بن أبى وقاص الذى كان أول من تلقى هذه المشكلة فى أرض السواد بالعراق .

واستشار الخليفة عمر اصحابه من المهاجرين والأنصار ، وعرض عليهم وجهة نظره القائلة برفض طلب الجند ، لان تقسيم الارض بين الجند يحرم الدولة مصدرا هاما من مصادرها المطلوبة للانفاق على المرافق العامة وحماية البلاد وغيرها من متطلبات التطور الاجتماعى والاقتصادى . وانتهى الأمر باقرار وجهة نظر الخليفة . وتم فى مقابل ذلك تنظيم العطاء تعويضا للجند ، واقرار الديوان ، الذى صار نواة التطور

الادارى فى الدولة الاسلامية ومن بينها مصر .

واستطاعت الدولة الاسلامية أن تسير على هذا النمو السليم طيلة الثلاثين عاما الأولى من حياتها ، منذ السنة الأولى للهجرة حتى العام الثلاثين الهجرى ، أى أواسط خلافة عثمان بن عفان ، فقد أخذت عناصر المجتمع تتغير لأن سلطان المدنية المنورة اتسع من حدود هذه المدينة على عهد الرسول إلى مجال اشتمل على شبه جزيرة العرب كلها والعراق والشام ومصر وافريقية ببلاد المغرب . اذ تحولت الحكومة الاسلامية من « دولة المدينة » إلى « دولة عالمية » ، وما ارتبط بذلك من ضرورة تغيير أسلوب الحكم وتطوره لمواجهة الظروف الجديدة . وانقسمت الآراء ازاء هذه المشكلة ، شأن الحالة التى تسود دائما المجتمعات المتطورة . فرأى البعض أن « الدولة العالمية » يجب أن تدار بنفس الأسلوب الذى سارت فى ظله « دولة المدينة » ، على حين فرضت حتمية التغيير نفسها على آراء الفريق آخر .

ودار الفكر السياسى فى هذه المرحلة من التطور حول التطابق بين المثل العليا التى آمنت بها الجماعة فى ظل « دولة المدنية » وبين واقع الحياة العملية التى أخذت تسود « الدولة العالمية الاسلامية » . اذ وقع التضارب وانقسمت الجماعة وبدأ التساؤل عن الحل السليم . وكونت كل طائفة من الجماعة آراء خاصة بها ، وضعت لها نظريات ، كما عمدت إلى تنظيم نفسها لتحقيق تلك النظريات وجعلها مطابقة للحياة الواقعية . ولم تلبث تلك الطوائف أن غدت فرقا عديدة ، لها مدارسها الفكرية ومبادئها المعينة التى تسعى وتكافح من أجل اقرارها منهجا للحكم . وزاد من دعم هذه الفرق أنها نظرت إلى مبادئها على أنها عقائد ومثل أخلاقية يجب أن تنفذ ، وتجاهد فى سبيلها بشتى السبل . وغدا الاقتران بين الفكر والتطبيق اقترانا متلازما كوجهى العملة ، والطابع المسيطر على تطور الدولة الاسلامية وانتقالها من عهد الراشدين المثالى إلى عهد الأمويين الواقعى .

التاريخ السياسى لمصر الاسلامية زمن الدولة الأموية

دور مصر فى قيام الخلافة الأموية :

ظهرت طلائع التكوين السياسى لمصر الاسلامية حين شاركت فى النشاط السياسى للبيت الأموى وصراعه للوصول إلى عرش الخلافة الاسلامية . وكان هذا النشاط السياسى الأموى قد أخذ صورة واضحة منذ ولى عثمان بن عفان الخلافة أى بعد ثلاثة أعوام فقط من الفتح الاسلامى لمصر . واستهل هذا النشاط الأموى معاوية ابن أبى سفيان والى الشام ، مستغلا قرابته لعثمان بن عفان .

واتخذت الأوضاع على عهد عثمان بن عفان تيارا جديدا اختلف عما كانت تسير عليهأيام أبى بكر وعمر . ولكن تصدى لهذا التيار الجديد الجماعة التى رأت ضرورة التمسك « بحكم دولة المدنية » زمن أبى بكر وعمر ، وما شهده هذا العهد من عدالة مطلقة ، وبعد عن التعصب للأقارب . وعبر عن هذه الجماعة على بن أبى طالب حين دار بينه وبين الخليفة عثمان نقاش ونقد لاطلاق عمال بنى أمية فى مناصب الدولة الاسلامية . اذ قال على لعثمان : ان معاوية يقطع الأمور دونك ، وأنت تعلم ، ويقول للناس : هذا أمر عثمان ، فيبلغك ذلك ولا تغير على معاوية » .

وانطلقت بذلك الأزمة التى اشتهرت فى عهد عثمان باسم « الفتنة » ، ويقصد بها المؤرخون انفصام وحدة المسلمين السياسية واختلاف آرائهم ، وهى الوحدة التى بناها أبو بكر حين قضى على الردة ، ثم دعمها الخليفة عمر بحزمه وعدله . اذ أخذ الناس فى البلاد المفتوحة ينتقدون الخليفة وتصرفاته . وقد صارت مصر مركز الحركة المعادية لعثمان بن عفان ومحاباته لأبناء البيت الأموى حين وفد عليها الرأس المدبرة لتلك الحركة وهو عبد الله بن سبأ ، وكان يهوديا من أهل اليمن ثم أسلم ، واتخذ من ذلك سبيلا ليكيد للاسلام ، وانتهز السخط الذى ساد الولايات ضد سياسة عثمان فى محاباة أبناء البيت الأموى وأخذ يتنقل بين تلك الولايات ويثير أهلها على الخليفة . وقد اتخذ عبد الله بن سبأ من الدعوة لعلى بن أبى طالب ومناداته أيضا بأحقية بيت

النبى فى الخلافة سندا يخفى وراءه أغراضه الخبيثة . فنادى بآراء غريبة على الاسلام قائلا : بمذهب الوصاية ، بمعنى أن لكل نبى وصى ، وأن على بن أبى طالب وصى النبى محمد (ص) ، وبما أن محمد خاتم الأنبياء فان عليا خاتم الأوصياء ، أى أن عثمان قد اغتصب الخلافة من وصى رسول الله.

وقد وصل عبد الله بن سبأ إلى مصر بعد ست سنوات فقط من تولى عثمان الخلافة ، وأخذ يتراسل منها مع نفر من الرجال الذين مالوا إلى دعوته فى كل من البصرة ، والكوفة والشام . وكان ممن استجاب لدعوة ابن سبأ فى مصر نفر من كبار أبناء الصحابة ، منهم محمد بن أبى بكر الصديق ، ومحمد بن أبى حذيفة من سلالة عبد شمس بن عبد مناف ، هذا فضلا عن نفر آخر من رجالات مصر الذين كانوا يعتقدون أن عليا أحق بالخلافة بعد وفاة الرسول الكريم . وساعد على انتشار دعوة ابن سبأ فى مصر انشغال والى البلاد وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح بالفتوح الاسلامية ، التى امتدت من مصر إلى كل من النوبة وافريقية ببلاد المغرب . ولم يدرك الخليفة عثمان بن عفان بذلك خطورة دعوة ابن سبأ فى مصر ، لأنها اتخذت طابع السرية الشديدة .

وظهرت دعوة ابن سبأ جهارا سنة ٣٥هـ وهو العام الذى عاد فيه عبد الله بن سعد والى مصر منتصرا من وقعة بحرية عظمى فى البحر المتوسط انتصر فيها على أساطيل الروم ، وهى الواقعة التى اشتهرت باسم « ذات الصوارى » . وبعث الخليفة عثمان بن عفان بأحد رجاله وهو عمار بن ياسر إلى مصر ليستطلع حقيقة الأمر فيها ، ولكنه تأثر بدعوة ابن سبأ ، وانضم إليها . وأرسل والى مصر عبد الله بن سعد إلى الخليفة يخبره بما حدث . وعندئذ أمر الخليفة بعقد مؤتمر فى المدينة بالحجاز إستدعى إليه سائر عماله من الولايات الاسلامية لدراسة الموقف . وقد استخلف عبد الله بن سعد على البلاد عقبة بن عامر الجهنى ، ولكن رجال دعوة ابن سبأ ثاروا على هذا الوالى القائم بالأعمال فى مصر ، وأخذوا يعبئون صفوفهم تحت زعامة محمد بن أبى حذيفة .

وكان لعثمان بن عفان والبيت الأموي شيعة في مصر ، اشتهر من رجالها معاوية ابن حديج ، وخارجة بن حذافة ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبي أرطاه ، وهم من كبار القادة الحربيين والخبراء بشئون الإدارة كذلك . وحاول الخليفة عثمان معالجة الموقف في مصر باتباع سياسة اللين ، حيث أرسل إلى البلاد سعد بن أبي وقاص ، وفوضه إزالة أسباب السخط هناك . ولكن ابن أبي حذيفة تصدى لمندوب الخليفة ، وأثار عليه الناس وحمله على العودة فاشلا إلى الحجاز .وكذلك لم يستطع عبد الله بن سعد والي مصر أن يدخل البلاد عند عودته من الحجاز ، واضطر إلى الذهاب إلى عسقلان حيث ظل بها إلى أن قضى نحبه.

وظهر وسط هذا الموقف الحرج الذى أخذ يضيق على الخليفة عثمان شخصية معاوية بن أبي سفيان والي الشام . فقد استطاع وسط هذه « الفتنة » أن يبلور مفاهيم البيت الأموي ، ويوضح أيضا مسئولية هذا البيت في الدفاع عن الخليفة وعن حقوقه وبالتالي في الخلافة نفسها . وأفصح معاوية عن تلك المفاهيم إلى الخليفة حين وفد عليه سنة ٣٤هـ مع سائر ولاة بني أمية وغيرهم للتشاور في القلاقل والفتن التي انتشرت في بلاد الدولة . إذ قال معاوية للخليفة بعد انتهاء المؤتمر واتضاح الأسباب الحقيقية للسخط : « يا أمير المؤمنين ، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا » .

ورفض عثمان طلب معاوية وأبى مفارقة الحجاز . وعندئذ أعلن معاوية عن مسئولية بني أمية في الدفاع عن عثمان في خطاب ألقاه في جمع من المهاجرين بالمدينة قبل عودته إلى الشام ، فقال لهم : قد علمتم أنه ليس منكم رجل إلا وقد كان قبل الإسلام مغموراً في قومه ... حتى بعث الله رسوله ، فسبقتم إليه ... فسدتم بالسبق لا بغيره .. وسيدوم هذا الأمر ما استقمتم . فإن تركتم شيخنا هذا (أي عثمان) يموت على فراشه ، وإلا خرج منكم ولا ينفعكم سبقكم وهجرتكم . وكشف معاوية بذلك عن مفهوم جديد ، هو أن بقاء الخلافة في عثمان حق من حقوق البيت الأموي ، وأن الإلتجاء إلى القوة سوف يؤدى إلى رجحان كفة الأمويين لاعتمادهم على أهل الشام .

وكان تلويح معاوية لعثمان بالانتقال إلى لشام ، وبأهمية اعتماد البيت الأموى على هذا الإقليم يمثل مفهوماً جديداً فى التطور السياسى الذى شهدته الدولة الإسلامية إذ ذاك . فقد أثبتت الحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذى تدار منه شئون الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت رقعتها ، إذ هاجرت معظم القبائل الهامة من الحجاز ، وأقامت فى المعسكرات التى تحولت إلى مدن زاهرة فى الأقاليم المفتوحة ، وفقدت بلاد العرب بذلك مكانتها باعتبارها محور ارتكاز الدولة الإسلامية .

وظهرت صحة رأى معاوية وأبناء البيت الأموى فى الوضع السياسى حين وفد الثوار سنة ٦٥٥/٣٥م من مصر وغيرها من الأمصار الإسلامية إلى المدينة [(١)] المنورة لشد أرز الناقمين فيها على الخليفة . إذ حين حاصر الثوار بيت الخليفة قال لهم مروان ابن الحكم الأموى ، ومستشار عثمان بن عفان : « ما شأنكم ، قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ! شاهت الوجوه ؟ أجئتم تريدون أن تنتزعوا ملكنا من أيدينا ، ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا » . ولكن الثوار طلبوا من الخليفة أن يعزل نفسه، فأجابهم عثمان بقوله: « لا أخلع قميصا ألبسنيه الله » . ولم يلبث أن تطور الأمر إلى اقتحام الثوار لمنزل الخليفة وقتله وهو يقرأ القرآن ، كما تقطعت أصابع زوجته نائلة وهى تدافع عنه.

شيعة البيت الأموى فى مصر :

غدت مصر بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان مركزا من مراكز القوى الكبرى التى تطلعت إلى اجتذابه الأطراف المتصارعة على منصب الخلافة . وحمل لواء البيت الأموى فى هذا الصراع معاوية بن أبى سفيان والى الشام ، الذى رفض الاعتراف بعلى بن أبى طالب ، الذى بايعه الثوار خليفة بعد مقتل عثمان بن عفان . وكان معاوية قد أصبح يمثل فى الفتنة التى حدثت على عهد عثمان زعيم البيت الأموى والرأس المفكرة المدبرة لأبناء هذ البيت وتطلعهم إلى السيادة العليا فى الدولة الإسلامية . وحين انتهت الفتنة بمقتل عثمان بن عفان تولى معاوية بن أبى سفيان الزعامة السافرة للبيت الأموى فى المطالبة بدم الخليفة المقتول باعتباره من أبناء

البيت الأموى .

ورفض معاوية بن أبى سفيان الامتثال للخيفة الجديد على بن أبى طالب الذى عزل ولاة عمثان جميعاً ومن بينهم معاوية نفسه والى الشام ، إذ نادى معاوية بأنه يجب أولا المطالبة بدم عثمان ، ثم الاتفاق على خليفة المسلمين وأن الواجب يقضى على الخليفة الجديد ، وهو على بن أبى طالب المبادرة قبل أى شئ بتسليم قتلة عثمان إلى معاوية الممثل الشرعى للبيت الأموى وصاحب الولاية للخليفة القتيل . وكانت نائلة زوجة عثمان بن عفان قد بعثت بقميص زوجها المقتول ، وأصابعها التى قطعتها الثوار من قتلة الخليفة إلى معاوية بن أبى سفيان بالشام لتحرضه على الأخذ بثأر الخليفة . وقد علق معاوية قميص الخليفة وأصابع نائلة على المنبر فى دمشق لتحريض أهل الشام على الأخذ بثأر الخليفة القتيل .

وكانت الأحوال فى ذلك الوقت تجرى بما يزيد قوة معاوية بن أبى سفيان ودعوته، وذلك بفضل نشاط أبناء البيت الأموى وشيعتهم فى مصر . فعندما عاد الثوار إلى مصر بعد مقتل عثمان سنة ٣٥هـ بادرت شيعة البيت الأموى إلى التصدى لهم تحت زعامة معاوية بن جديج . وقد أخذت جماعات الأمويين بمصر تتجمع فى الصعيد بعيدا عن بطش واليها ابن أبى حذيفة ورأس الفتنة ضد عثمان . وعجزت قوات والى مصر عن القضاء على تجمعات أنصار البيت الأموى فى الصعيد ، ولقيت هزيمة فادحة عند البهنسا . وسار زعيم البيت الأموى بمصر وهو معاوية بن حديج على رأس قواته التى ازداد عددها إلى الاسكندرية . ونالت قوات الأمويين نصرا على جيش والى مصر مرة أخرى عند خربتا ، وهى مدينة تقع بالقرب من الأسكندرية ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٣٦هـ .

وجرت تلك الأحداث فى مصر فى صالح البيت الأموى دون أن يستطيع الخليفة الجديد ، وهو على بن أبى طالب التصدى لها . إذ كان مشغولا فى نفس العام بأحداث وقعة الجمل التى جرت فى العراق بينه وبين طلحة والزبير والسيدة عائشة . وعلى الرغم من انتصار على بن أبى طالب فى تلك المعركة إلا أنه اضطر إلى البقاء فى

العراق لإعادة تنظيم صفوفه وجيشه. ولذا انتهز معاوية بن أبى سفيان تلك الفرصة وخرج على رأس قواته إلى مصر نفسها لضمها إليه، أملا فى الإفادة من موقعها الاستراتيجى ومواردها الهائلة فى الصراع المنتظر بينه وبين على بن أبى طالب. ووصلت تلك الطلائع الأموية، وعلى رأسها معاوية نفسه فى شهر شوال سنة ٣٦هـ إلى «سلمنت» من كورة عين شمس.

وتصدى والى مصر وهو ابن أبى حذيفة لمعاوية ومنعه من دخول البلاد. ثم دارت بينهما مفاوضات ظهرت فيها مواهب معاوية فى الدهاء. إذ أعلن معاوية أنه حضر إلى مصر ليس فاتحا ولكن مطالبا بدم عثمان. ورد عليه ابن أبى حذيفه ذاكر إنه يرفض هذا الإدعاء، ثم قال لمعاوية: لو طلبت منا جديا رطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك! ». وقد تابع معاوية سياسة الدهاء حيث عرض على ابن أبى حذيفة تقديم نفر من الرهائن من قوات مصر حسما للقتال. وقبل ابن أبى حذيفة عرض معاوية وقدم نفرا من الشخصيات التى اشتركت فى مقتل عثمان، منهم ابن عديس وكنانة بن بشر، كما خرج بنفسه على رأس تلك الرهائن امعانا فى إبعاد معاوية عن مصر. ولكن معاوية ما كاد يعود برهائنه إلى الشام حتى قتلهم انتقاما مما قاموا به ضد الخليفة عثمان ابن عفان، وصار بذلك مرهوب الجانب عند أهل مصر برغم عجزه عن دخولها.

وتابع معاوية بعد ذلك سياسته فى العمل على ضم مصر إليه، وإبعاد الخليفة الجديد عن دعم سلطانه بها. إذ حين علم على بن أبى طالب بمقتل ابن أبى حذيفة بعث واليا من قبله جديدا على مصر، هو قيس بن سعد بن عباده، الذى دخل البلاد فى ربيع الأول سنة ٣٧هـ. وكان الوالى الجديد من دهاة السياسة، واستطاع بحسن سياسته أن يكسب إليه شيعة البيت الأموى فى مصر، ويحملها على الهدوء باغداق العطايا. ولكن معاوية لجأ هنا إلى المكيدة مرة أخرى، حيث أفسد ما بين هذا الوالى وبين على بن أبى طالب نفسه، فقد روج الشائعات التى تقول إن عطف الوالى على البيت الأموى ليس إلا سياسة منه إقرار بميوله للأمويين واحترامه أيضاً لحقوق البيت الأموى فى الخلافة. ونجحت هذه المكيدة حيث شك على ابن أبى طالب فى

اخلاص واليه على مصر وعزله عنها . وقال معاوية حين بلغه هذا النبأ « ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب إلى من مكايدة كدت بها قيس بن سعد حين امتنع منى قيس » .

وتعثرت جهود على بن أبى طالب وأتباعه من العلويين فى مصر بعد حادثة المكايدة الخاصة بقيس بن سعد . إذ أرسل الخليفة واليا جديدا على مصر هو الأشتر مالك بن الحارث النخعى . ولما وصل هذا الوالى إلى القلزم شرب عسلا مسموما ، ومات لتوه ، وذلك بتدبير معاوية . وحين « أخبر معاوية عمرو بن العاص [٢] بما حدث لهذا الوالى قال عمرو متهكما « إن لله جنوداً من عسل » وأرسل على بن أبى طالب واليا آخر إلى مصر هو محمد بن أبى بكر ، الذى دخل البلاد فى رمضان سنة ٣٧هـ . واتبع هذا الوالى سياسة خطيرة منذ اللحظة الأولى لوصوله، قوامها استفزاز شيعة البيت الأموى فى مصر ، دون أن يعمل أولا على دعم صفوف أتباع البيت العلوى فى البلاد . إذ بعث إلى دور شيعة البيت الأموى من قام بهدمها ومصادرة أموالها ، وعندئذ لجأت شيعة البيت الأموى إلى معاوية فى دمشق ، وشجعته على القيام بعمل حربى للاستيلاء على مصر .

وكانت أحوال معاوية بالشام تساعده إذ ذاك على تلبية مطالب شيعة البيت الأموى بمصر . إذ كان قد فرغ من وقعة صفين بينه وبين على بن أبى طالب بقيام التحكيم ، الذى كان بمثابة هدنة بين الفريقين المتحاربين .

وكان أخطر خطأ وقع فى اتفاقية التحكيم هو أنها جاءت خلوا من آية إشارة إلى مصر أو النص فيها على عدم قيام معاوية بأى عمل حربى فى هذه البلاد . ولذا بادر معاوية إلى الاستعداد للاستيلاء على مصر عملا بقول عمرو بن العاص له: « أهمك أمر مصر وخراجها الكثير وعدد أهلها فتدعونا لنشير عليك فيها فاعزم وانهض ، فى افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك » .

وتمت استعدادات معاوية الحربية للاستيلاء على مصر سنة ٣٨هـ ، ونصب على القوات الحربية الأموية أعظم رجاله دهاء وأوسعهم خبرة بمصر وهو عمرو بن العاص ، ووعده إن فتحها أن يجعلها طعمة له مدى سبع سنين . ووصلت قوات عمرو بن العاص

إلى مصر ، والتقت بجيش واليها محمد بن أبى بكر عند « المسناة » التى تقع بين عين شمس وأم دنين (شمال القاهرة الحالية) ودارت رحى معركة حامية انتصر فيها عمرو بن العاص ، وتم إلقاء القبض على محمد بن أبى بكر وقتله (وذلك فى شهر صفر سنة ٣٨هـ/٦٥٨م) .

وغدت مصر منذ سنة ٣٨هـ قوة تشد من أزر البيت الأموى ، وتساند قضاياه . وكانت إجراءات التحكيم بين على بن أبى طالب ومعاوية قد دخلت فى دور التنفيذ ، ولذا غادر عمرو البلاد ليشترك فى تلك الإجراءات ممثلا لمعاوية ابن أبى سفيان ، على حين كان على بن أبى طالب قد اختار أبا موسى الأشعرى ممثلا له . وقد انتهت إجراءات التحكيم بالخدعة التى أقر فيها أبو موسى خلع على بن أبى طالب من الخلافة ، على حين ثبت عمرو بن العاص شخص معاوية فى الخلافة . وزاد هذا الحدث من قوة البيت الأموى الذى صار يستند إلى دعامتين قويتين هما الشام ومصر ، وأخذ ينظم أمورهما بما يكفل له السيادة العليا فى الدولة الإسلامية . ولم تلبث الأحداث مرة أخرى أن ساعدت هذا البيت الأموى على الفوز حين قام نفر من الخوارج باغتيال على بن أبى طالب سنة ٤٠هـ / ٦٦٠م ، اذ تم اعلان معاوية خليفة بعد أن تنازل له الحسن بن على بن أبى طالب عن حقه فى الخلافة ، وصار هذا العام يعرف باسم « عام الجماعة » حيث اجتمعت كلمة المسلمين فيه على خلافة معاوية بن أبى سفيان ، وبدأت بذلك مرحلة هامة من مراحل التاريخ السياسى لمصر الإسلامية كانت فيها موضع أنظار القوى السياسية جميعها فى العصر الأموى .

ولاية مصر الإسلامية
فى العصر الأموى

موقف مصر من أحزاب المعارضة للدولة الأموية

شهدت مصر المعترك السياسى الذى واجه البيت الأموى بعد وصوله إلى منصب الخلافة ، ووقفت على أبعاد هذا المعترك وأهدافه. وقاد هذا المعترك ثلاث جماعات هى :

الخوارج : وكانوا أسبق من غيرهم فى نشاطهم وأعنف ضد نظام الخلافة الوراثية . وامتد نشاط الخوارج إلى مصر عقب هزيمتهم فى وقعة النهروان على يد على ابن أبى طالب ، اذ اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ــ الذى كان قد استرد مصر ووضعها فى خدمة البيت الأموى ، وذلك فى يوم واحد هو السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠هـ . وبينما نجح أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم فى اغتيال على بن أبى طالب فشل الخارجيان الآخران فى اغتيال معاوية وعمرو . وكان السبب فى نجاة عمرو هو عدم خروجه إلى الصلاة فى اليوم المحدد بسبب مرض ألم به ، وانتدب للصلاة خارجة بن حذافة قاضى مصر . ولما علم الخارجى أن الذى قتله هو خارجة صاح « أردت عمروا وأراد الله خارجة » وهو قول ذهب مثلا .

وكان نجاة عمرو سببا فى قبضه بيد من حديد على البلاد ، وحمل الخوارج فيها على الاختفاء ووأد كل نشاط لهم . وكان هذا العمل سببا فى حماية مصر من عنف الخوارج الذى انفجر ضد الخلافة الأموية .

وقد تجنبت مصر أيضا جميع هذه التيارات العديدة والعنيفة للخوارج طوال العصر الأموى بفضل ولاتها وحزمهم ، واستطاعت أن توجه جهودها نحو بناء الحضارة العربية الإسلامية ، والمساهمة فى حركة الفتوحات فى الميدان الأفريقى .

الشيعة : انطلق نشاط الشيعة إلى مصر نتيجة التطورات التى صاحبت بيت على ابن أبى طالب فى جهاده من أجل الخلافة واقرار نظامها المثالى [٣] . وكان أهم معالم تلك التطورات اشتراك الحسين بن على بن أبى طالب مع الساخطين على معاوية بن أبى سفيان لاقراره مبدأ الوراثة بالبيعة لابنه يزيد ، ثم خروجه ثائرا ضد خلافة يزيد . وقد لقى الحسين مصرعه على يد قوات الأمويين عند كربلاء بالقرب من الكوفة فى ١٠ محرم سنة ٦١هـ / ١٠ أكتوبر سنة ٦٨٠م . وصارت هذه الحادثة تمثل نقطة تحول هامة فى ظهور فرقة الشيعة ، وتنظيم قوتها المادية والمعنوية لمحاربة « نظام الخلافة الوراثى » للأمويين واشتراكها مع القوى الأخرى المناهضة لهذا النظام [٤] .

وقد تجنبت مصر أحداث هذا العنف بسبب يقظة ولاتها على نحو ما حدث مع الخوارج ، وسارت فى طريقها الذى رسمته لنفسها وهو تكريس جهودها لنشر الإسلام فى أفريقيا .

ثورة أبناء الصحابة بالحجاز : ظهرت طلائع التحرك السياسى لأبناء الصحابة فى مصر ، عقب مقتل الحسين بن على بن أبى طالب فى كربلاء . وكان يتولى قيادة هذا التحرك السياسى فى الحجاز عبد الله بن الزبير ، أعظم أبناء الصحابة شأنا فى ذلك الوقت .

وبدأ اعداد ابن الزبير للثورة حين أعلن معارضته ليزيد ، وأبى الامتثال لطلب والى المدينة الأموى بالتوجه إلى دمشق حيث احتمى بالكعبة وسمى نفسه العائذ بالبيت » .

ووجدت ثورة ابن الزبير فى أحداث البيت الأموى نفسه قوة أتاحت لها تهديد « نظام الخلافة الوراثى » للأمويين تهديدا مباشرا وفعالا . فاستغرقت تلك الثورة عهود أربعة من الخلفاء الأمويين هم يزيد بن معاوية ومعاوية الثانى من رجال الفرع السفيانى ، ومروان بن الحكم وعبد الملك ابن مروان من رجال الفرع المروانى . ودخل فى النصرة لهذه الثورة أيضا العراق ومصر ، فضلا عن الحجاز كما بايع نفر من أهل دمشق والشام ، حيث مقر الأمويين ، عبد الله بن الزبير بالخلافة .

غير أن أبناء البيت الأموى أجمعوا رأيهم فى ذى القعدة سنة ٦٤هـ على نقل الخلافة من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى ، حين عهدوا بالخلافة إلى مروان بن الحكم . وقد تولى الخليفة الجديد وأبناؤه من بعده فى حماسة وتخطيط رائع تضييق الخناق على ابن الزبير بقص الأجنحة الموالية له أولا ثم فرض الحصار عليه فى عقر داره بالحجاز أخيرا . فاستهل مروان بن الحكم أعماله غداة توليه الخلافة بانتزاع مصر من التبعية لابن الزبير ، ثم انتدب خيرة رجاله وقادة دولته ، ومن أشهرهم الحجاج لضرب مصعب بن الزبير الذى تولى أمور العراق نيابة عن أخيه القابع بالحجاز . وأخيرا جاء سقوط الحجاز فى يد الأمويين ثمرة تلقائية لسيطرتهم على كل من مصر والعراق . اذ سارت جيوش الأمويين تحت قيادة الحجاج إلى ابن الزبير ، الذى وجد نفسه بعد فوات الأوان وحيدا فى مكة ، وقد انفض من حوله الأتباع ، واضطر إلى خوض غمار معركة يائسة ، أودى فيها بحياته سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م .

وأخذت مصر بانتهاء ثورة ابن الزبير تتابع سياستها فى دعم كيانها الإسلامى وتوثيق الروابط بينها وبين التطور الجديد الذى ساد الدولة الإسلامية .

التنظيم الادارى لمصر :

كشف الدور الذى أسهمت به مصر فى قيام الخلافة الأموية وكذلك موقفها من أحزاب المعارضة لتلك الخلافة عن أهمية تلك البلاد فى الحفاظ على استقرار الأمور فى « دار الإسلام » وتشكيل معالمه وأحداثه العظمى أيضا . ومن ثم قامت سياسة معاوية بن أبى سفيان فى مصرعلى أساسين رئيسين ، أحدهما خلق ادارة قوية فى البلاد ، والأخرى تنظيم الميزانية المصرية بما يحقق أداء الرسالة الجديدة التى اضطلعت بها مصر فى ظل الدولة الأموية .

ورأى معاوية بن أبى سفيان أن تحقيق أهدافه ، على ضوء تجربته فى مصر يقتضى حسن انتقاء وإعداد الهيئة التى ستتولى الادارات التنفيذية ومؤسساتها . وجعل معاوية أساس هذه الهيئة ليست الكفاءة فحسب ولكن ضرورة العمل أيضا على أن يكون رجالها من شيعته المخلصين ، أو ممن يربطهم بالبيت الأموى روابط مادية أو

منافع يتطلبها التطور الجديد للدولة . وساعد معاوية على النجاح فى وضع أسس النظام الادارى اللامركزى ثلاثة عوامل : أولها ، اشتغاله بعد إسلامه مع الرسول الكريم ، وثانيا البيئة ، التى نشأ فيها وترعرع ، وثالثا ، دراسته للتطورات الجديدة التى سادت الدولة الإسلامية منذ نهاية عصر الخلفاء الراشدين .

وتجلى إفادة معاوية من العامل الأول فى تحديد علاقته بالشخصيات التى دفعت أحداث التطور فى الدولة الإسلامية أن يتصل بها سواء فى ميدان المحبة والصداقة أو العداوة والبغضاء . فكان كثير من الشخصيات التى ناهضت معاوية أو تلك التى استطاع أن يجذبها إلى جانبه من صحابة الرسول ، وممن إلتفت حوله واضطلعت بأداء مشاريعه . ووقف معاوية بالتالى على طبيعة كل شخص من صحابة الرسول ومطامحها ، كما عرف أمثل السبل لاكتسابها إلى جانبه والإستفادة منها فى إعداد النظام الإدارى اللامركزى الجديد للدولة الإسلامية . وكفلت هذه الخطوة لنظام الخلافة الوراثى أن يقترن منذ مطالع نشاطه بالنظام الإدارى اللامركزى ، وأن يتم الإنسجام بينهما بما يحقق للدولة الإسلامية أهدافها فى الداخل والخارج بنجاح باهر وسرعة فائقة ومنقطعة النظير .

وكان للبيئة التى نشأ فيها معاوية أثر كبير أيضاً فى اختيار رجال إدارته اللامركزية عن ثقة ودراسة وعلم راسخ . فهو ابن أبى سفيان ، زعيم مكة ، وأعظم شخصياتها حنكة وتجربة وأوسعها اتصالا وخبرة بالبيوتات الكبرى فى مدن الحجاز وخارجها كذلك . فتلقن معاوية على يد هذا الوالد الخبير أصول الحكم وإدارته كما يفهمه أهل مكة ، ووفق وجهة النظر التى آمن بها أبو سفيان من حيث تكوين الأنصار والأشياع واصطناع الرجال والعمال . ووقع اختيار معاوية على أبناء ثقيف من أهل الطائف لتشكيل إدارته الجديدة . ونبغ من بنى ثقيف على عهد معاوية المغيرة بن شعبة الذى تولى « إمرة الكوفة » وزيادة بن أبيه الذى تولى « إمرة البصرة » . إذ حمل هذان الرجلان فى إخلاص عميق ومثالية رائعة لواء النظام الإدارى اللامركزى فى شرق الدولة ، وأسهما مع معاوية فى وضع أسس هذا النظام الجديد وإقراره .

وأخيراً عزز معاوية هذه الطبقة من رجال إدارته بمجموعة اختارها من ذوى التجارب الواسعة ، وكذلك ممن لهم مطامح يمكن استغلالهم عن طريقها لتحقيق أهداف نظامه اللامركزى . ومن ثم ظهرت طبقة جديدة من الرجال (Homines Novi) استفاد منها معاوية لخلق توازن داخل الإدارة اللامركزية والهيئات المختلفة العاملة فيها . وتكونت هذه المجموعة من أبناء الطبقة الوسطى من قريش ، الذين لا يخشى الأمويون منهم بأساً أو ضراً ، وصار من الممكن الاعتماد عليهم فى إدارة المناطق النائية أو الولايات المليئة بأسباب الفتن والقلاقل .

ووضع معاوية بن أبى سفيان قاعدتين أخريتين لضمان سير النظام اللامركزى سيراً سليماً ، وللحيلولة دون أى انحراف قد يطرأعلى عماله. وتمثلت القاعدة الأولى فى فصل الإدارة المالية للولاية عن التبعية للأمير ، وجعلها تابعة مباشرة للخلافة فى دمشق . واشتهر رأس تلك الإدارة باسم « صاحب الخراج » الذى صار قوة يعمل أمير الولاية له كل حساب ، ولاسيما أن شئون المال كلها فى يده . غير أن الإلتزام بهذه القاعدة لم يكن مطلقا ، إذ عهد الأمويون إلى نفر من ولاتهم المشهود لهم بالتفانى والاخلاص التام بإدارة الشئون المالية ، أو تعيين « صاحب الخراج » من قبلهم وصار أولئك الولاة أصحاب سلطان عريض ، وخير نموذج لثقة الأمويين فى سلامة نظامهم الإدارى اللامركزى .

وتمثلت القاعدة الثانية التى وضعها الأمويون فى تعيين عمال لإدارة الولايات مهمتهم مراسلة الخلافة مباشرة ، وإحاطتها علماً بكل ما يجرى فى الولاية ، سواء ما يختص بالأميرأو بالأهالى . ولكن هذه القاعدة بدورها لم تكن قيداً على أمراء الولايات وإنما كانت سبيلا للمشاركة فى التوجيه بما يحفظ لنظامهم الإدارى الاستقرار وتجنب المزالق التى تخفى على الأمراء أنفسهم . إذ ظل الأمويون حريصين على منح أمراء الولايات كل حرية مطلقة ، إيمانا منهم بأن الشاهد أقدر من الخليفة المقيم فى دمشق على إدراك حقيقة الأمور ، وعلى البت وبالتالى دون إضرار بمصالح الرعية .

واحترم خلفاء بنى أمية هذه الحرية التى تمتع بها أمراء الولايات ولا سيما أولئك الخلفاء الذين عرف عنهم الحرص الشديد على الصالح العام . ومن أمثلة ذلك ما قام به الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى اشتهر لعدالته بأنه خامس الخلفاء الراشدين ، الحريص على إعادة سيرة سميه عمر بن الخطاب فى إدارة الدولة الإسلامية . إذ ظل هذا الخليفة متمسكا بالقاعدة الأساسية للنظام الإدارى اللامركزى للدولة الأموية ، والتأكيد على حرية الأمراء ، وتوجيه كل منهم إلى العمل مع حرية التصرف ودون الرجوع إليه فى بعض المسائل التى قد يضر تأخير البت فيها بمصالح أهالى ولاياتهم . فكتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عامله على اليمن : أما بعد فانى أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم ، فتراجعنى ولا تعرف مسافة ما بينى وبينك ، ولا تعرف أحداث الموت حتى لو كتبت إليك أن أردد على مسلم مظلمة شاة لكتبت أردها عفراء أو سوداء ، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعنى .وأكد هذا الخليفة نفس السياسة لسائر ولاته، حيث كتب إلى عامله على الكوفة « إنه يخيل إلى أنى لو كتبت إليك أن تعطى رجلا شاة لكتبت إلى أضأن أم ماعز ، فإن كتبت بأحدهما كتبت إلى أصغير أم كبير ، فإن كتبت إليك ، كتبت إلى أذكر أم أنثى . فإذا أتاك كتابى هذا فى مظلمة فاعمل به ولا تراجعنى [٥] .

وعرف فقهاء المسلمين هذا اللون من الإدارة اللامركزية للولايات بأنها « إمارة استكفاء » وهى « التى يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الأكفاء مفوضين إليهم إمارة الإقليم على جمع أهله، ويجعله عام النظر فى كل أموره . فصارت إمارة الإستكفاء لون من الإمتياز يختص به الخليفة الرجال ذوى القدرة العظيمة أو أصحاب الفضل الكبير على الدولة . فكان الخليفة يولى الفرد منهم ولاية كاملة على ناحية يعنيها أو على بضع نواحى ، أى كان يستكفى بهذا النفر عمن عداهم وبيدهم السلطات كلها على ما أيديهم ، فهم مسئولون عن الأموال والقضاء وإمامة الناس » .

ادارة مصر :

واقتضى الحكم اللامركزى إعادة التقسيم الإدارى للدولة بما يحقق للأمويين

السيطرة الفعلية على أزمة الأمور ، وتوجيهها فى نفس الوقت إلى ما يكفل لسلطانهم الهيبة والاحترام فى كل مكان . وجاء هذا التقسيم إستجابة لمظاهر التطور الذى ساد بلاد الدولة الإسلامية منذ « الفتنة » على عهد الخليفة عثمان ، وما صاحب هذا التطور من تباين المشارب والأهواء . ثم إن الفتوحات التى قام بها الأمويون فى المشرق والمغرب أضافت إلى الدولة الإسلامية أرجاء شاسعة كان لابد من تنظيمها بما يحقق لها الإنسجام الإدارى مع الدولة الشاسعة .

وقسم الأمويون دولتهم إلى ست ولايات كبرى ، جاءت متفقة مع مزاج أهالى تلك الولايات نحو الحكم المحلى ، وما سيطر عليهم من نزعات واتجاهات . ثم انتقى الأمويون لكل ولاية الأمير الذى يصلح لها ، مع مراعاة الأسس التى سبق أن تقررت منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان . وجرت إدارة مصر على النحو التالى :

تكونت مصر من نفس المقاطعات التى حافظ عليها العرب المسلمون عند فتح البلاد ، والتى أطلقوا عليهاإسم « الكور » بدلا من الإسم البيزنطى القديم وهو « بجارشى » . وأولى الأمويون مصر عناية فائقة بعد أن تبين لهم أهميتها أثناء الصراع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، وقدرة تلك البلاد ، بسبب موقعها الفريد ومواردها الوافرة على أن ترجح كفة من يسيطر عليها . واستطاع معاوية أثناء سعيه للحصول على الخلافة إنتزاع مصر من التبعية لعلى بن أبى طالب بفضل مهارة عمرو ابن العاص وذلك سنة ٣٨هـ ، ثم استفاد منها فى تحقيق النصر النهائى له .

وفرضت أهمية مصر على الأمويين إختيار أمرائها من طبقتين مميزتين ، الأولى من أصحاب الولاء التام للبيت الأموى مع القدرة العالية على التصرف السياسى والتنظيم ؛ والثانية من أبناء البيت الأموى ، ومن أصحاب القربى المباشرة للخلفاء أنفسهم . فكان من أمراء مصر زمن الفرع السفيانى عمرو بن العاص صاحب اليد الطولى على معاوية أثناء التحكيم ، والقائد الذى ضم مصر إلى قبضة الأمويين . وقد خلف عمرو على تلك البلاد عتبة بن أبى سفيان ، أخو الخليفة معاوية نفسه . وسار الفرع المروانى على نهج الفرع السفيانى فى انتقاء أمراء مصر ، حيث اشتهر منهم عبد

العزيز ابن مروان ، وهو ابن الخليفة مروان بن الحكم وأخو الخليفة عبد الملك بن مروان ، ثم قرة بن شريك الذى ولاه الوليد بن عبد الملك على مصر .

وحكم عمرو بن العاص مصر جرياً على أسس النظام الإدارى اللامركزى حكماً مطلقاً حيث منحها له معاوية بن أبى سفيان ، على نحو ماأوضحته المراجع « طعمة » أى يستأثر وحده بخراجها بعد سداد الإلتزامات التى تتطلبها الولاية من نفقات الجند والعمال والمرافق العامة . وظل عمرو بن العاص صاحب السلطان الأعلى فى البلاد منذ سنة ٤٠هـ ، وعمل طوالها على تنظيم أحوالها بما عرف عنه من خبرة عميقة وسابقة بشئون البلاد ، وتدعيم سلطان البيت الأموى فى سائر أرجائها . وازدهرت مصر فى تلك الحقبة من تاريخها ، واستطاعت أن تصبح قاعدة للفتوح الإسلامية فى ميدان شمال افريقيا ، وظل عمرو بن العاص يحكم مصر دون منازع حتى توفى سنة ٤٣هـ .

ونصب معاوية بن أبى سفيان على ولاية مصر أخاه عتبة بن أبى سفيان ، وهو من المشهود لهم بالكفاءة العالية فى الميدان السياسى والإدارى ، وهى المؤهلات التى اشتهر بها معاوية بن أبى سفيان نفسه . واستطاع هذا الوالى استكمال سياسة عمرو بن العاص فى القضاء على رواسب الفتن التى سبق أن تجمعت فى مصر منذ مقتل عثمان بن عفان ضد البيت الأموى ، وفرض النظام التام على البلاد . وسجلت المراجع سياسة هذا الوالى الإدارية في مجموعة من الخطب [٦] ذات الأسلوب الناصع البليغ ، الملئ بالحزم المقترن فى نفس الوقت بالشدة فى غير ضعف أو لين .

وتابع أمراء مصر من عمال الفرع المروانى إدارة البلاد وفق قواعد النظام اللامركزى وأهدافه أيضاً الخاصة بإقرار الأحوال ، والإفادة من هذه الولاية العظمى فى دعم سلطان البيت الأموى . وتجلى ذلك حين تقلد رأس الفرع المروانى ، وهو مروان ابن الحكم الخلافة سنة ٦٤هـ / ٦٨٤م . إذ سار بنفسه على رأس جيش لاسترداد مصر من أنصار ابن الزبير [٧] . وكان على مقدمة هذا الجيش ابنه عبد العزيز بن مروان الذى أثبت مهارة حربية عالية هيأت له النصر ، والسيطرة على البلاد فى جمادى الأولى سنة ٦٥هـ وبعد أن أقام مروان بن الحكم فى مصر شهرين غادرها فى رجب سنة ٦٥هـ ، مولياً

ابنه عبد العزيز عليها .

ونقل مروان بن الحكم لابنه « أمير » مصر خبراته فى ميدان الإدارة حين هم بمغادرة البلاد . إذ قال له ابنه : يا أمير المؤمنين كيف المقام فى بلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ ، فنصحه مروان قائلا : « يا بنى عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عيناً لك على غيره ، وينقاد قومه إليك . وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بنى أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخمولك فى منزلك » ؟

وتصرف عبد العزيز بن مروان فى ولايته تصرفاً مطلقاً ، وكرس مواردها المالية لدعم إدارته وللنهوض بمستوى المرافق العامة فيها أيضاً . وكان من مظاهر إدارته السديدة العناية بوسائل الرى ، وتوفير الأسواق والحمامات ، وإقامة القناطر ، وأخيراً تعمير حلوان سنة ٧٣هـ واتخاذها مقراً له بعد أن أصيب بمرض الجذام . وبلغت إمارة عبد العزيز بن مروان عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، وهى فترة تشهد بقوة النظام الإدارى اللامركزى للدولة الأموية ، وعظمة العاملين فى مؤسساته، إذ توفى عبد العزيز بن مروان وهو على ولاية مصر سنة ٨٦هـ .

وتعتبر ولاية قرة بن شريك على مصر سنة ٩٠هـ / ٧٠٩م نموذجا لسياسة الأمويين فى اختيار أمراء مصر من بين الشخصيات المشهود لها بالولاء مع الكفاءة الإدارية العالية . إذ كان على شئون مصر قبل قرة بن شريك عبد الله بن عبد الملك (٨٩هـ / ٧٠٨م) ، وهو ابن الخليفة عبد الملك بن مروان . وكان هذا « الأمير » مزوداً بتعليمات أوضحها له أبوه حين عهد إليه بولاية مصر ، قائلا : « أنظر — أى بنى — إلى أهل عملك ، فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان عشية فلا تؤخره إلى غدوة . وأعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق .

واستشر جلساءك وأهل العلم فإن لم يستبن لك فاكتب إلى يأتيك رأيى فيه إن شاء الله. وإن كان بك غضب من رعيتك فلا تأخذه به عند سورة الغضب، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك. ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة، فليكونوا أصحابك وجلساءك. ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم. أقول هذا، واستحلف الله عليك ».

وعجز عبد الله بن عبد الملك عن تنفيذ هذه الوصية حتى ساءت سيرته. ولذا اضطر الخليفة الوليد بن عبد الملك أن يعزل هذا الوالى برغم صلة القربى المباشرة معه، وعين على مصر قرة بن شريك، الذى أثبتت الوثائق علو كعبه فى ميدان الإدارة مع الإخلاص التام للبيت الأموى. ذلك أن مجموعة من وثائق البردى [٨] اكتشفت فى قرية كوم اشقاو، التى اشتهرت فى العصر البيزنطى باسم أفروديتو، واشتملت على معلومات قيمة عن إدارة قرة بن شريك لمصر، ودحضت كثيراً من الدعاوى الباطلة التى حاولت بعض المراجع ترويجها عن هذا « الأمير » الأموى.

وتناولت وثائق البردى فى تفصيل دقيق ادارة قرة بن شريك من حيث أسلوبه فى إسناد المناصب ومراقبته العمال والإشراف على الشئون المالية لولايته، وكذلك عن نظام المساهمات التى قدمتها مصر فى ميدان الفتوح الحربية، البرية والبحرية فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام ونشر رايته. واشتملت وثائق البردى على مراسلات دارت بين قرة بن شريك وصاحب كورة إشقاو، صارت نموذجا للادارة اللامركزية فى مصر، وعلاقتها بالخلافة فى دمشق فى نفس الوقت. فأوضحت تلك الوثائق امتداد سلطان قرة بن شريك المطلق على سائر أرجاء البلاد، ويقظته فى مراقبة عماله. ففى إحدى وثائق البردى نص كتاب أرسله قرة إلى صاحب كورة اشقاو يطلب منه إرسال كشف بالأماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال فيها، والمقدار المفروض عليهم من الجزية ونوع الأعمال التى يجيدونها، مع التأكيد على صاحب الكورة فى نفس الوقت بألا يظلم أحداً أو يدع مجالا للشكوى من أعماله. ويختم كتابه بأنه مصمم على مكافأة المحسن ومعاقبة المنحرف عن جادة الصواب.

وكشفت أوراق البردى عن قوة الصلة بين « الأمير » فى الفسطاط وبين رجال إدارته فى سائر أرجاء البلاد ، وسرعة إصدار الأوامر ، وسرعة تلبيتها فى نفس الوقت . ففى كتاب بعث به قرة إلى صاحب كورة أشقاو يخبره بأن عامل البريد أبلغه وقوع غرامة مجحفة على الأهالى ويطلب منه رد المظالم دون إبطاء . وبلغت المراقبة الإدارية أعظم صورها فى تدخل « الأمير » فى تقدير أجور العمال والصناع حرصاً على العدالة وتحقيق فرص المساواة أمام الجميع . وكان لدى قرة بن شريك مجموعة كبيرة من « الكتاب » تحرر له الرسائل إلى جميع العمال ، ويوقع كل كاتب فى نهاية الرسالة حتى يسهل مراجعة المواضيع والقضايا التى تتناولها . وظل قرة يدير الولاية بهذا الأسلوب القدير حتى توفى سنة ٩٦هـ تاركا عن طريق أوراق البردى أعظم النماذج عن قوة النظام الإدارى فى مصر .

(ب) الادارة المالية :

سارت معالم النظام المالى لمصر زمن الأمويين خطوة خطوة مع طبيعة النظام الإدارى اللامركزى وشخصية « أمراء مصر » . إذ جعل معاوية بن أبى سفيان بعد أن صار خليفة ولاية مصر « طعمة » لعمرو بن العاص ، بعد أن يدفع عطاء الجند ونفقات المرافق العامة فى البلاد . وقام عمرو بن العاص بتدوين الديوان ، أى تسجيل المستحقين للعطاء ، وهو أول تدوين بمصر فى ذلك العهد . وقد حاول معاوية بن أبى سفيان أن يفرض على ولاية مصر زيادة فى الخراج ، ولكن عمرو بن العاص رفض إرسال شئ إلى دمشق ، لأن فى ذلك إخلال بما سبق الإنفاق عليه ، وهى أن تكون مصر « طعمة » له ، أى يكون خراجها له ولآل بيته .

وظل النظام المالى لمصر بعد وفاة عمرو بن العاص سنة ٤٣هـ يسير على نفس المعالم الخاصة بالإدارة اللامركزية . إذ حاول الخليفة معاوية أن يفصل إدارة الخراج عن والى مصر الجديد وهو أخوه عتبة بن أبى سفيان ، وجعل شخصا اسمه وردان صاحب تلك الإدارة . ولكن سرعان ما اضطر الخليفة إلى العدول عن ذلك الإجراء . إذ حدث أن خرج والى مصر ، على رأس وفد من أهل البلاد لزيارة الخليفة فى دمشق ،

وعندما سأل معاوية رجال الوفد عن واليهم قالوا له : « حوت بحر يا أمير المؤمنين على بر » . فقال معاوية لأخيه عتبة ، اسمع ما تقوله فيك رعيتك ، فقال : صدقوا يا أمير المؤمنين ، حجبتنى عن الخراج ، ولهم على حقوق ، وأكره أن أجلس فأسال ، فلا أفعل . فضم إليه معاوية الخراج .

وكان السبب الحقيقى فى هذا التعديل هو أن معاوية كان قد طلب من وردان ان يزيد على كل رجل من المصريين « قيراطا » ، ولكن هذا العامل أبى ، وكتب إلى معاوية : كيف تزيد عليهم وفى عهدهم ألا يزاد عليهم شئ » . ومن ثم عزل معاوية وردان وعين أخاه عتبة بدلا منه . وكان معاوية فى حاجة ملحة إلى زيادة المال ليستطيع تلبية مطالب أنصاره وأعوانه العديدين ، وبخاصة فى مصر ، ذلك أن المسجلين فى ديوان مصر على عهد معاوية قد زاد عددهم ، حيث ارتفع من ستة عشر ألفا على عهد عمرو بن العاص إلى أربعين ألفا على عهد خلافة معاوية ، واضطر الخليفة معاوية أن يعين رجلا لتسجيل تلك الزيادة التى تطرأ على القبائل فى مصر يوما بيوم تحديداً للعطاء . وكان هذا العامل « يصبح كل يوم ، فيدور على المجالس ، هل ولد فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل . فقال : ولد لفلان غلام ، ولفلان جارية ، فيقول : سموهم ، فيكتب . ويقال : نزل بها رجل من أهل اليمن بعياله فيسمونه وعياله . فإذا فرغ من القبائل كلها أتى الديوان » .

وانفرد ديوان مصر على عهد الأمويين بكثرة الأشخاص الذين يأخذون عطاء ممتازا ، حيث بلغ عددهم عشر المسجلين فى ذلك الديوان ، وهو أمر لم يحدث مثله فى دواوين الولايات الأخرى . فكان الديوان « فى زمان معاوية أربعين ألفا ، وكان منهم أربعة آلاف فى مائتين (أى ينال مائتى دينار ، وهى العملة المصرية) . وظل أمراء مصر يشرفون على الإدارة المالية إلى جانب مهامهم الأخرى للنهوض بتلك الأعباء المالية ، وذلك على نحو ما حدث فى ولاية مسلمة بن مخلد ، الذى جمع له معاوية « الصلاة والخراج » على مصر من سنة ٤٧هـ ، إلى ٦٢هـ ، وهى مدة طويلة بلغت خمس عشرة سنة تقريباً . ولم يستطع هذا الوالى أن يبعث إلى دمشق نتيجة كثرة المصروفات

فى مصر إلا بالقليل من الخراج الذى بلغ ستمائة ألف دينار فقط . إذ « أعطى مسلمة ابن مخلد الانصارى ، أمير مصر ، أهل الديوان أعطياتهم ، وأعطيات عيالهم ، وبأرزاقهم ونوائبهم ، ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة ، وحملان القمح إلى الحجاز ، وبعث إلى معاوية ستمائة ألف دينار فضلا » .

واتضحت معالم النظام المالى لمصر زمن الأمويين على عهد ولاية قرة بن شريك على البلاد (٩٠ ــ ٩٦هـ) ، إذ كشفت أوراق بردى كوم إشقاو عن نظام الجزية والخراج فى مصر وغيرها من الضرائب التى كانت تجبى من الأهالى ، وذلك فى دقة تامة وإحصاء شامل . وكانت مصر تدفع الجزية حسب مقدرة أهاليها ، ووفق ما سبق أن تقرر على عهد الخليفة عمر بن الخطاب . إذ تشتمل إحدى أوراق البردى على أمر صادر من قرة بن شريك إلى صاحب كورة إشقاو يطلب فيه إرسال كشف بالأملاك المختلفة فى كورته، وعدد من بها من الرجال والجزية المفروضة على كل منهم ، ومساحة الأرض التى يملكها كل فرد أيضاً . إذ يحمل تحديد المساحة معنى التفاوت فى تقدير الجزية ، وذلك دفعاً لأى شكوى ، وسوء فى التقدير وإجحاف بالأهالى .

وكانت الجزية كما تدل على ذلك أوراق البردى تدفع نقداً ، على حين يدفع الخراج عينا ونقداً . وأطلق العرب على الضرائب العينية اسم « ضريبة الطعام » وهى مرادفة للكلمة اليونانية على عهد الروم « أمبوليه » . واشتملت هذه الضريبة غالبا على القمح ، فضلا عن مقادير من الزيت والعسل وأنواع أخرى من الأطعمة . أما الخراج فكان يقدر حسب مساحة الأرض ، ويراعى فى تحصيل مقاديره نظام الزراعة وفيضان النيل ووفرة المحصول . إذ ظل النظام المالى الإسلامى فى مصر هو النظام المالى البيزنطى ، مع تحقيق روح العدالة الإسلامية . إذ دأب قرة بن شريك فى أوامره التى اشتملت عليها أوراق البردى على تحذير عماله من التمادى أو الشطط فى جباية الضرائب .

وظل تقدير الجزية والخراج على كل كورة يسير على نفس الأسلوب الذى جرت عليه الإدارة المالية زمن عمرو بن العاص . إذ تحمل إحدى أوراق البردى تعليمات من

قرة بن شريك إلى صاحب كورة اشقاو تأمره بأن يجمع رؤساء كل قرية وأصحاب النفوذ فيها ليختاروا رجالا أمناء أكفاء يتولون تقدير الضرائب المطلوبة على كل قرية ، وذلك تحت إشراف صاحب الكور نفسه. ثم يرسل صاحب الكورة نسخة من تلك الكشوف بعد الاحتفاظ بصورة منها لديه. وطلب قرة من صاحب الكورة أن يكتب أسماء الذين أعدوا تلك الكشوف وألقابهم ومحل إقامتهم لمراجعته من أى خطأ قد يقع أو سوء تقدير قد يتضح ، وأن أمير البلاد سوف يعاقب هؤلاء الذين يحملون القرى ضرائب أكثر مما تتحمله مواردها [٩] .

وكانت هناك ضرائب أخرى تجبى من مصر إلى جانب الجزية والخراج ، وأهمها الضرائب على الصناع والأجراء ، وكانت تقدر بدورها حسب احتمال كل فرد منهم . وسجلت أوراق البردى نظام الخدمات والضرائب التى قدمها أولئك الصناع والأجراء من أجل بناء البحرية المصرية ، ومساهمتها فى النشاط البحرى الإسلامى . وصاحب هذه الضرائب الجماعية نوع آخر من الالتزامات الجماعية التى قدمتها كل قرية حسب ما تخصصت فيه من أنواع الإنتاج ، أو ما كان يفرض عليها من عمل عام . واشتهرت هذه الضرائب الجماعية باسم « اليتورجيا » وهو الإسم اليونانى القديم . ولكن كان أصحاب هذه الالتزامات يعفون فى ظل النظام الإسلامى من تقديم الضرائب الأخرى مقابل أدائهم ذلك الالتزام ، إذ حرصت السلطات الإسلامية على العدالة فى تطبيق النظام المالى ، وهو ما أيدته أوراق البردى التى ترجع إلى عهد قرة بن شريك وإشرافه على إدارة مصر وشئونها .

وظلت مصر طوال العصر الأموى تقوم بفضل نظامها المالى بالاكتفاء الذاتى فى الإنفاق على مرافقها ، فضلا عما أسهمت به فى ميادين النشاط الأخرى العامة للدولة الأموية . وكانت الزيادة فى الموارد المالية تتم وفق تعداد دقيق ومسح شامل . ومن أهم تلك النماذج للنظام المالى الأموى فى مصر ما قام به عامل الخراج على مصر وهو عبد الله بن الحبحاب زمن الخليفة هشام بن عبد الملك . إذ قام هذا العامل بإحصاء الناس والبهائم وإعادة مساحة الأراضى الزراعية والبور ، كما وضع علامات للمسافات فى

الحقول . ثم كتب إلى الخليفة بعد ذلك أن أرض مصر تحتمل الزيادة ، وزاد على كل دينار قيراطا .

وكان الولاة فى مصر يخرجون بأنفسهم لمسح البلاد عند إعادة النظر فى تقدير الخراج ، ومن ذلك ما حدث على عهد ولاية الوليد بن رفاعة من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك أيضا . إذ خرج هذا الوالى ومعه جماعة من الكتاب والأعوان لمسح البلاد ، حيث أقام فى الصعيد ستة أشهر بلغ فى نهايتها أسوان ، كما أقام بالوجه البحرى ثلاثة أشهر . وتم إحصاء أكثر من عشرة آلاف قرية وتعداد ما بها من السكان . وكان أصغر قرية منها تشتمل على خمسمائة رجل ممن يخضعون لضريبة الجزية .

وكان معظم موظفى عمال الإدارة المالية زمن الأمويين فى مصر من الأقباط ، وأشرف بعضهم على فروع ديوان الخراج فى الأقاليم ، حيث اشتهر صاحب هذا الديوان الفرعى بنفس الإسم البيزنطى القديم وهو « جسطال » . وتولت هذه الدواوين الفرعية إرسال الضرائب النقدية والعينية إلى الديوان الرئيسى فى الفسطاط عاصمة الولاية . واتسم النظام المالى الإسلامى فى مصر بالدقة ومراعاة أحوال البلاد أيضا . فكان كل فرد يتسلم بعد أداء الضريبة إيصالا اشتهر فى أوراق البردى باسم « براءة » . واتبع العرب عند جباية الخراج من مصر تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية القمرية ، وذلك عن طريق اتباع نظام « الازدلاق » ، ومعناه إسقاط سنة عند رأس كل اثنين وثلاثين سنة قمرية ، وذلك على أساس أن لكل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنتين وثلاثين سنة شمسية تقريبا .

وغدت الادارة فى مصر عنصرا هاما فى بناء مصر ليس سياسيا فحسب ، بل واجتماعيا كذلك ، وهو الأمر الذى ظهر جليا فى نهاية العصر الأموى .

دور مصر فى قيام الخلافة العباسية :

كان العصر الأموى عهد تحول كبير فى النظام الاجتماعى فى مصر وسائر أمصار الدولة الإسلامية ، بما يهئ سيادة المواطنة الكاملة فى ظل التعاليم الإسلامية

السامية . وتجلت أولى معالم هذا التحول الاجتماعى فى تخلى القبائل العربية عن كثير من مفاهيم البداوة ، وبخاصة التى تحتقر بعض المهن ، ونزول أفرادها إلى ميدان الاشتغال بالزراعة التى كانت محرمة عليهم من قبل .

وصاحب استيطان القبائل العربية واشتغالها بالزراعة تحول اجتماعى آخر كبير بين أبناء مصر وغيرها من ولايات الدولة الإسلامية من غير العرب ، اتخذ ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدن . واتخذت هذه الظاهرة الجديدة طابع الاقبال أولا على اعتناق الاسلام من بين سكان الولايات الجديدة سواء عن ايمان أو رغبة فى التخلص من الالتزامات المالية التى أهمها الجزية والخراج . ثم أعقب ذلك هجرة من الريف إلى الأمصار الإسلامية الجديدة للافادة من امكانيات الحياة الواسعة هناك ، والمشاركة فى معالمها الحيوية .

وبلغت ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدن حدا خطيرا زمن الأمويين ، وبخاصة على عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فقد اقترنت الأزمة الاجتماعية بالمشاكل الاقتصادية ، وذلك فى العراق ، زمن ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى وفى مصر على عهد ولاية قرة بن شريك . اذ أدى تطلع الفلاحين إلى الحياة الاجتماعية الجديدة إلى حرمان الريف من السواعد الفتية واصابة الانتاج الزراعى بالشلل ، فاتخذ كل من الحجاج وقرة بن شريك اجراءات عنيفة فى معالجة هذا الوباء الاجتماعى الخطير . اذ عمد كل منهما إلى اعادة الفلاحين إلى الريف بالقوة ، ووضع وشم على سواعدهم يبين القرى التى جاءوا منها ، وليسهل مراقبتهم وسد السبل أمام هجرتهم إلى المدن .

وساعد على سرعة التحول الاجتماعى فى مصر وغيرها من الولايات أواخر أيام الدولة الأموية تداخل التيارات التى اتخذت من تأكيد الإسلام على « العدالة الاجتماعية » قوة دافعة لها ، اذ أوجد الايمان بتلك المفاهيم نتيجة انتشار الدين الإسلامى الذى يدعوا اليها تيارا اجتماعيا جديدا تمثل فى ازدياد عدد الموالى وقوتهم كذلك .

وظهرت قوة الموالى حين شاركوا فى الفتوحات التى قامت زمن الأمويين سواء فى المشرق أو المغرب وقدموا خدمات جليلة فى هذا الميدان . وصاحب هذا المظهر الأخير مشكلة اجتماعية قوامها أن أولئك الموالى لم يدرجوا فى « ديوان الجند » الذى كان يحدد العطاء للمقاتلة طبقا للقواعد التى سبق أن تقررت منذ عهد عمر بن الخطاب . فأصبح المقاتلة من الموالى يغزون مع المقاتلين من العرب ولكن لا ينالون عطاء أو يأخذون عطاء أقل مما كان يأخذه المقاتل من العرب .

وبدأ الموالى يعبرون عن سخطهم عن هذه التفرقة التى حملت فى نظرهم هدما لأساس متين من أسس العدالة التى دعا اليها الإسلام . وظهر فى ذلك الوقت جماعة العباسيين الذين آلت اليهم قيادة المتذمرين والساخطين على بنى أمية ، نتيجة تنازل أحد قادة العلويين اليهم عن حقه فى توجيه شئون الدعوة لاسقاط بنى أمية . ويرجع هذا التحول إلى أن أحد العلويين وهو أبو هاشم بن محمد بن الحنفية حين أحس بعد احدى زياراته للخليفة الأموى هشام بالسم يسرى فى جسده أدرك أن دعوته ضد البيت الأموى قد انكشف أمرها . ومن ثم أسرع هذا الامام إلى مقره فى الحميمة بالشام ، وأفضى هناك بأسرار دعوته إلى أحد أقربائه من العباسيين وهو محمد بن عبد الله العباسى ، كما زوده بقوائم تضم أسماء دعاتة وأنصاره .

وبدأ العباسيون يدبرون أمر دعوتهم فى خراسان ، ولكن تقررت على أرض مصر مصير هذه الدعوة برغم قيامها فى خراسان ببلاد فارس ، حيث أعلن قائد العباسيين هناك وهو أبو مسلم الخرسانى الثورة على الأمويين (سنة ١٢٩هـ) . اذ بادر آخر الخلفاء الأمويين وهو مروان الثانى الملقب بالحمار بالتصدى للثورة التى سيطرت على فارس والعراق ، وأعلنت أبا العباس السفاح سنة ١٣٢هـ أول خليفة عباسى . وقد لقى مروان الثانى هزيمة أمام جيوش العباسين فى نفس السنة التى تم فيها اعلان السفاح العباسى خليفة ، وذلك فى معركة دارت عند نهر الزاب وهو أحد روافد دجلة .

وقد نقل مروان الثانى مقره بعد هذه المعركة سريعا إلى مصر حيث هاله انتشار الدعوة العباسية فيها وكثرة الموالين لها . وفى نفس الوقت أسرعت جيوش العباسيين

إلى مصر بقيادة صالح بن على العباسى لتفسد على مروان آخر تدبير له لضرب الدعوة العباسية . وانتهى عند بلدة بوصير من أعمال الجيزة مطاردة العباسيين لجيوش الأمويين وقتل الخليفة الأموى مروان الثانى (شهر ذى الحجة سنة ١٣٢هـ) .



ابريق من البرونز عثر عليه فى مصر (بجوار قبر مروان بن محمد — آخر خلفاء الدولة الأموية) .

تأسيس مدينة العسكر :

وأقام القائد العباسى ، صالح بن على ، بعد انتصاره على الأمويين فى مصر ، عاصمة له أطلق عليها اسم « العسكر » ، سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م . وقامت هذه العاصمة فى الفضاء الواقع فى الشمال الشرقى من الفسطاط ، والممتد من النيل حتى جبل يشكر ، وهو الفضاء الذى كان يعرف منذ الفتح الإسلامى لمصر باسم « الحمراء القصوى » وأنشأ القائد العباسى « دار الامارة » إلى جانب ثكنات جنده . وفى سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م أسس أحد الولاة العباسيين على مصر وهو الفضل بن صالح مسجدا إلى جانب دار الامارة بمدينة العسكر ، التى أخذ العمران يزداد بها بعد ذلك ، وحفلت بالدور والبساتين والأسواق حتى اتصلت بمدينة الفسطاط ، وغدت أشبه بضاحية لها ، وامتدادا جديدا لرقعة عاصمة مصر الأولى ، وهى الفسطاط .

عصر الامارة فى مصر الإسلامية

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكـــام	الآثـــار	السنة الهجرية
٦٤٠ ـ ٨٦٨	٢٠ ـ ٢٥٤	٩٨ حاكما فى ظل خلفاء دمشق وبغداد	جامع عمرو	٢١
			مدينة الفسطاط	٢١
			مقياس النيل الأول فى الروضة	٩٨
			العسكر	١٣٢
			مقياس النيل الثانى فى الروضة	٢٤٧

ثانيا : عصر الدول المستقلة فى مصر الإسلامية وطلائع الشخصية المصرية فى العالم الإسلامى

دور مصر فى الصراع بين الأمين والمأمون :

تعتبر فترة الولاة العباسيين فى مصر التربة التى نمت فيها طلائع الشخصية المصرية فى العهد الإسلامى ، والقاعدة التى قامت عليها الدول الاقليمية فى الديار المصرية ، وتبدأ هذه الفترة من سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م وذلك عقب مقتل الخليفة الأموى مروان الثانى بمصر . وتنتهى هذه الفترة سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م عندما قامت أولى الدول الاقليمية بمصر على يد أحمد بن طولون .

وامتلأت فترة الولاة العباسيين بالأحداث السياسية الجسام التى ظهرت فيها شخصية مصر ، وقدرتها على فرض معالم تلك الشخصية . وكان الصراع الذى قام بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون الثغرة التى انطلقت منها طلائع الشخصية المصرية وميلها إلى الاستقلال بأمورها . ذلك ان نفرا من الجند فى مصر غضبوا حين علموا بخلع الأمين لأخيه المأمون ، وطالبوا بعزل الأمين . وتزعم هذه الحركة المعادية للأمين أحد قادة الجند فى مصر ، وهو السرى بن الحكم . وفى نفس الوقت أخذ المأمون يشجع هذه الحركة المؤيدة له ، وجعل عباد بن محمد بن حيان هو المنظم للدعوة لخلافته بمصر . وفى ١٩٧هـ / ٨١٣م ، بعث عباد جيشا لحرب الحزب المعادى له ، والذى اتخذ من الحوف الشرقى فى الدلتا مقرا لحركاته . ولكن قائد هذا الجيش ، وهو عبد العزيز الجروى ، لقى هزيمة فادحة ، والتجأ إلى قومه من لخم وجذام فى فاقوس .

وفى تلك الأثناء أخذ الموقف فى مصر يتطور من نزاع بين « الأمين » و« المأمون » إلى نزاع بين رجالات البلاد للاستئثار بالسلطة من دون الخلافة . ذلك أن أقارب الجروى فى فاقوس حرضوه على أن يدعو لنفسه ، وقالوا له « لم لا تدعو لنفسك ، فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأمر » وصادف ذلك قبولا فى نفس الجروى ، واتخذ من بلبيس مقرا له . وبعث منها عماله لجباية الخراج من مصر

السفلى . ولم ينته النزاع فى مصر بعد أن وردت الأنباء بمقتل الأمين ، ومجئ والى جديد للبلاد من قبل الخليفة المأمون . اذ تطلع السرى الذى سبق له القيام بالدعوة للمأمون إلى السيطرة على مقاليد الأمور فى مصر ، ومنافسة الجروى فى الحكم . وانتهى الأمر بأن انقسمت البلاد بين هذين القائدين ، حيث امتد سلطان الجروى على شرق الدلتا ، على حين استولى السرى على الوجه القبلى ، من مصر (الفسطاط) إلى أسوان .

ولم يغير وفاة الجروى والسرى كذلك فى سنة ٢٠٥هـ / ٨٢٠م ، من الأحوال فى مصر . فقد ورث أبناء هذين القائدين ما كان بين أبويهما من خلاف ، واشتد النزاع بينهما ، دون أن يفعل الخليفة المأمون شيئا ، لانه كان مشغولا بمسائل داخلية عديدة . وانتهى هذا النزاع أخيرا فى صالح عبيد الله بن السرى ، حيث اضطر على بن الجروى إلى الفرار إلى العريش سنة ٢٠٩هـ / ٨٢٤م وخضعت مصر كلها لابن السرى ، الذى أسس لنفسه أسرة مستقلة فى البلاد .

وكان الخليفة المأمون قد انتهى اذ ذاك من متاعبه الداخلية ، وتفرغ لشئون مصر . فبعث قائده عبد الله بن طاهر على رأس جيش عظيم للقضاء على الفتن الداخلية بمصر . وعندما اقترب هذا القائد من البلاد انضم اليه على بن الجروى ، على حين رفض عبيد الله بن السرى التسليم . ولذا دارت الحرب بين الطرفين ، وانتهت بهزيمة عبيد الله بن السرى ، وطلبه الدخول فى مفاوضات من أجل التسليم ، والحصول على امان لنفسه من الخلافة . وانتدب عبد الله بن طاهر رئيسا لسفارته إلى ابن السرى ، والد المؤرخ ابن عبد الحكم ، وهو عبد الله بن عبد الحكم .

وكادت المفاوضات تفشل لولا حكمة عبد الله بن عبد الحكم مرة أخرى ، فقال لقائد الخليفة المأمون ليهدئ من غضبه : « أصلح الله الأمير ، ان الذى يجرى الله عز وجل على يدى الأمير من حقن الدماء وصلاح ذات البين يسهل مثل هذا عليه . » وأعجب القائد عبد الله بن طاهر بهذا الرد اللبق ، وقبل أن يشهد على ما جاء فى كتاب الأمان ، ثم منح ابن السرى قدرا كبيرا من المال . وانتهت بذلك الفتن التى ظلت

تقريبا عشر سنوات ، بفضل دبلوماسية والد المؤرخ ابن عبد الحكم .

وظل عبد الله بن عبد الحكم موضع ثقة القائد عبد الله بن طاهر ، ولا سيما بعد أن تولى ولاية مصر ، فقد جمع الوالى عبد الله بن طاهر مجلسا كبيرا من الفقهاء ، من بينهم عبد الله بن عبد الحكم ، واستشارهم فى تعيين قاض جديد ، وذكر الحاضرون عدة أسماء لم يقبل منها الوالى غير الشخص الذى أشار به عبد الله بن عبد الحكم ، وهو القاضى عيسى بن المنكدر .

ولكن لم تلبث أحوال عبد الله بن عبد الحكم أن تغيرت سنة ٢١٤هـ / ٨٧٩م حين وردت الأخبار بأن الخليفة المأمون عين أخاه المعتصم على مصر . اذ ذهبت جماعة من الصوفية بمصر إلى القاضى ابن المنكدر ، وطلبوا منه أن يكتب إلى الخليفة المأمون خطابا بأن المصريين لا يقبلون ولاية المعتصم . ولكن عبد الله بن عبد الحكم نصح القاضى بألا يستمع لاقوال الصوفية ، فأبى القاضى وكتب إلى المأمون ، وعندما ورد الخطاب إلى الخليفة عرضه على المعتصم ، الذى استبد به الغضب ، واقسم لينتقم من أهل مصر . وحين حضر إلى مصر عزل القاضى وحبسه كما حبس عبد الله ابن عبد الحكم ، متهما اياه بالاشتراك فى العمل الذى سبق أن قام به القاضى ، على الرغم من عدم ثبوت الأدلة عليه ، وظل عبد الله فى السجن أياما مرض بعدها وتوفى أثرها سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م .

موقف مصر من مسألة خلق القرآن :

يعتبر موقف مصر من مسألة خلق القرآن من أهم أحداث تلك البلاد فى عصر الولاة العباسيين ، والمظهر المبكر لطلائع الشخصية المصرية المستقلة وسط الكيان السياسى للدولة الإسلامية .

وترتبط أصول هذه المسألة بجماعة المعتزلة ، وهى احدى الفرق الإسلامية التى نادت بتحكيم العقل فيما نشب بين المسلمين من خلاف ونزاع حول الخلافة .

وتتلخص مبادئ المعتزلة فى النقاط الآتية :

(١) عدم تكفير مرتكب الكبيرة واعتباره فى منزلة بين المؤمن والكافر .

(٢) قالوا بالقدر أى أن الناس هم الذين يخلقون أفعالهم وأنهم بذلك يثابون ويعاقبون .

(٣) قالوا بالتوحيد المحض للخالق ونفى الصفات عنه سبحانه وتعالى .

(٤) نادوا بخلق القرآن وأنه مرتبط بالحوادث التى اقتضى نزوله ردا منهم على المحدثين والفقهاء الذى قالوا بأن القرآن كلام الله قديم قدمه سبحانه وتعالى .

وحمل المعتزلة لواء النشاط الفكرى والسياسى فى الدولة الإسلامية قرابة قرن من الزمان . وقد بلغوا قمة نفوذهم زمن الخلفاء العباسيين الثلاثة : المأمون والمعتصم والواثق .

واتخذت الدولة العباسية الاعتزال مذهبا رسيما لها فى هذا الوقت ، واهتمت بمسألة خلق القرآن التى بدأت تظهر بصورة عملية فى سنة ٢١٨هـ / ٨٢٣م وذلك حين أصدر الخليفة المأمون بتأثير القاضى ابن أبى داود وهو من المعتزلة اعلانه الخطير الذى قرر فيه مبدأ خلق القرآن مخالفا فى ذلك رأى أهل السنة الذين يقولون بأزليته . وصدرت الأوامر إلى عمال الدولة الإسلامية فى كل مكان بامتحان القضاة والفقهاء والمحدثين فى خلق القرآن ومعاقبة من لا يقر بخلقه . وكان والى مصر العباسى اذ ذاك هو كيدر نصر بن عبد الله الذى كان يحكم مصر نيابة عن المعتصم ، اذ وصل هذا الوالى خطاب من المعتصم بأن يكلف قاضى مصر وهو هارون بن عبد الله الزهوى أن يمتحن الناس فى مصر وألا يأذن لأحد فى حديث أو فتوى أو شهادة الا اذا أقر بخلق القرآن . غير أن هذا القاضى لم يشتد فى امتحان الناس ، وظل الحال على ذلك إلى أن توفى المعتصم وتولى الخلافة من بعده أخوه الواثق سنة ٢٢٧هـ / ٨٤٢م .

وكان الخليفة الواثق يقول بخلق القرآن عن عقيدة كما قال به المأمون . ولذا عهد إلى أحد الفقهاء المقيمين بمصر وهو محمد بن الليث الخوارزمى بأن يتولى امتحان الناس فى القول بخلق القرآن فلم يبق أحد إلا أخذ بالمحنة .

غير أن أهل مصر عارضوا معارضة شديدة المحنة دون أن يأبهوا بما نزل بهم من أذى . وكان خير مثال هو أبناء أسرة ابن عبد الحكم المصرى ، اذ كان فقهاء الأسرة من رؤساء المالكية وبالتالى من أنصار السنة الذين لا يقولون بخلق القرآن .

ووقع الأذى بأكبر أبناء هذه الأسرة وهو عبد الحكم الذى أبى أن يعترف بخلق القرآن ، ولم يثنه التعذيب عن رأيه ، واضطر القاضى إلى ارساله لبغداد لتتولى السلطة المركزية هناك استجوابه وامتنع عن أن يقول بخلق القرآن دون أن يأبه بما حدث له من ضرب بالسياط والسجن والتعذيب .

واستخدم ابن أبى الليث أساليب أخرى قاسية ضد الأخ الثانى فى هذه الأسرة وهو محمد بن عبد الحكم ، الذى آلت اليه اذ ذاك رئاسة طائفة المالكية فى مصر ، فأصدر القاضى أمرا بمنع اتباع هذه الفقية من الجلوس فى المساجد والتشهير به وبأتباعه فى كل مكان .

وقد تركت الاضطهادات التى صاحبت مسألة خلق القرآن أسوأ الآثار فى نفوس أهالى مصر وازدادت مقاومتهم لتلك الاضطهادات .

وظل الحال على ذلك حتى ولى الخلافة العباسية الخليفة المتوكل اذ رأى أن مسألة المحنة قد طال أمدها دون جدوى ، فبعث إلى واليه على مصر سنة ٢٢٤هـ / ٨٤٨م يأمره بترك الجدل فى القرآن وإبطال المحنة ، كما تم عزل القاضى محمد ابن أبى الليث الذى تولى اضطهاد للناس بالمحنة .

والأمر الجدير بالملاحظة هنا هو :

أن أهم النتائج التى ترتبت على موقف مصر من مسألة خلق القرآن فى عصر الولاة هى ظهور قوة الرأى العام المصرى واحترام السلطات له والعمل على استرضائه، وصار هو الأساس الذى شيد عليه دعاة الدول المستقلة فى مصر سلطانهم ، وذلك على نحو ما قام به أحمد بن طولون .

الدولة الطولونية

(٢٥٤ ــ ٢٩٢هـ / ٨٦٨ ــ ٩٠٥م)

قام فى مصر منذ القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى سلسلة متصلة الحلقات من الدول الاقليمية ، تمثلت فيها روح القومية فى تلك البلاد ، وأهميتها فى حماية « دار الإسلام » وكان النظام الادارى الذى وضعته السلطات العباسية فى القرن الثالث الهجرى لمصر ، عاملا مساعدا فى انطلاق ظاهرة الدول الاقليمية فى تلك الأرجاء واشتداد نشاطها . اذ كانت مصر تعتبر طبقا للتقسيم الادارى العباسى وحدة يتولى شئونها مع بلاد الشام ولى العهد الأول بنفسه ، باعتباره نائبا عن الخليفة ، وذلك دلالة على أهمية هذين القطرين فى حياة الدولة الإسلامية . ودأب ولى العهد الأول على تقسيم وقته بين دمشق والفسطاط للاشراف على شئونه الادارية . واستعان ولى العهد فى بعض الأحوال بنفر من العمال ينوبون عنه بدوره فى الحالات الضرورية .

وبدأ هذا النظام الادارى يهتز حين استخدم نائب الخليفة فى ادارته لمصر نفرا من العمال الأتراك الذين علا شأنهم فى الدولة العباسية منذ عهد المعتصم (٢١٨هـ / ٨٣٣م) . اذ وصل أولئك الاتراك إلى مركز القوة الحقيقى على عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢هـ / ٨٤٧م) ، وقبضوا على مقاليد الأمور ، وأطاحوا بكل من اعترض سبيلهم . وتجلى ذلك حين منعوا المتوكل نفسه من الانتقال إلى دمشق وتآمروا مع ابنه المنتصر ، صاحب مصر والشام طبقا للتقسيم الادارى العباسى ، وقتلوا الخليفة أخيرا سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م . ويعتبر المؤرخون المسلمون هذه السنة حدا فاصلا فى الحكم اللامركزى فى العصر العباسى الثانى وما ساده من انتشار ظاهرة الدول الاقليمية فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية عامة ، ومصر خاصة . وقام فى هذا القطر الدول المستقلة ومنها الدولة الطولونية .

وينتمى مؤسس الدولة الطولونية وهو أحمد بن طولون إلى العنصر التركى الذى زحف على مقاليد الدولة الإسلامية منذ ولى المأمون العباسى الخلافة ، حتى استبد بالأمور تماما حين تولى الخلافة المتوكل العباسى سنة ٢٣٢هـ . وقد بعث والى مدينة

بخارى فى بلاد ما وراء النهر بأحد اولئك الأتراك وهو طولون والد أحمد بن طولون هدية إلى الخليفة المأمون العباسى . ونال طولون اعجاب الخليفة وظل يمنحه المناصب حتى وصل طولون إلى منصب « أمير الستر » وهو يشبه منصب رئيس الحرس الخاص فى الوقت الحاضر . وامتد العمر بطولون حتى انه خدم المأمون ثم المعتصم ، وذلك طوال مدة بلغت عشرين عاما ، وانجب عدة أبناء كان من بينهم أحمد بن طولون الذى ولد سنة ٢٢٠هـ / ٨٣٥م وقد توفى طولون وابنه أحمد فى العشرين من عمره .

وقد تولى أحمد بن طولون منصب والده ، ثم تقلب بدوره فى الوظائف ، وأثبت طوال ذلك سعة أفق وقدره على تجنب المشاكل التى أحاطت بعزل الخلفاء العباسيين .

وبدأت صلة أحمد بن طولون بمصر حين أقطع الخليفة المعتز بلاد مصر لأحد القادة الأتراك من أصحاب النفوذ الواسع فى بغداد واسمه باك باك ، وذلك فى سنة ٢٥٣هـ اذ فضل هذا القائد التركى البقاء فى عاصمة الخلافة ليتابع المنافسات الدائرة فيها . وعهد إلى أحمد بن طولون بادارة مصر نيابة عنه ، وذلك لما عرف عنه من خبرة وكفاءة وأمده بجيش دخل به مصر سنة ٢٥٣هـ ــ ٨٦٨م . ولم يلبث سلطان أحمد بن طولون أن اتسع حين ولى اقطاع مصر يارجوخ وهو صهر أحمد بن طولون . اذ تلقى يارجوخ كتابا بولاية مصر جاء فيه « تسلم من نفسك إلى نفسك » وبدأ منذ ذلك الوقت جهود أحمد بن طولون للاستقلال بمصر . وتنقسم تلك الجهود إلى قسمين :

(١) الجهود لدعم الاستقلال الداخلى فى مصر .
(٢) الجهود لدعم الاستقلال الخارجى .

جهود أحمد بن طولون لدعم الاستقرار الداخلى :

رأى أحمد بن طولون أن مهمته فى ادارة مصر تتطلب توفير الاستقرار السياسى لها فى الداخل وكذلك فى الخارج نظرا لأهمية ولايته ومكانتها الفريدة فى الدولة الإسلامية . واقتضى الاستقرار السياسى الداخلى القضاء على عناصر العداء فى

البلاد للسلطان الجديد وتنظيم موارد البلاد المالية والقضاء على دعاة الفتن والفوضى .

ولم تكن مهمة أحمد بن طولون سهلة أو يسيره ، اذ كان عليه آن يتخلص أولا من صاحب البريد فى مصر وهو شقير غلام أم الخليفة المعتز . اذ كان صاحب البريد لا يخضع لأحمد بن طولون ويقوم بتتبع أخباره أولا بأول ويرسلها إلى الخلافة .

واستطاع أحمد بن طولون الحصول على الخطابات التى بعث بها عامل البريد ضده إلى الخلافة ، ونجح أخيرا فى الاطاحة بهذا العامل بعد مصرع الخليفة المعتز وذهاب سلطان أمه.

واصطدم أحمد بن طولون غداة دخوله مصر أيضا بعامل الخراج فيها وهو « أحمد ابن المدبر » الذى كان يشغل هذا المنصب منذ سنة ٢٤٧هـ ، وغدا قوة ذات بطش وله حرسه الخاص الذين بالغوا فى عسف الأهالى والاشتطاط فى جمع الضرائب .

وقد حاول ابن المدبر استمالة أحمد بن طولون اليه بتقديم الهدايا الثمينة وذلك جريا على العادة التى سبق أن اتبعها مع ولاه مصر السابقين . ولكن أحمد بن طولون رفض قبول تلك الهدايا وطلب بدلا منها وفى لباقة أن يحصل على الحرس الخاص « لأحمد بن المدبر » مستهدفا فى ذلك حرمان هذا العامل من مصادر قوته . ولذا وقع بين أحمد بن طولون وابن المدبر نزاع ، وانتهى الأمر بنقل ابن المدبر إلى دمشق سنة ٢٥٨هـ . وهناك تابع ابن المدبر دسائسه ضد أحمد بن طولون ولكن سنحت الفرصة لابن طولون حين استولى على بلاد الشام سنة ٢٦٤هـ للقبض على ابن المدبر وحبسه والتخلص من هذه الشخصية الخطيرة . وانتقل ابن طولون بعد ذلك إلى القضاء على الفتن الداخلية التى انتشرت فى مصر فى مطالع عهده .

نشاط أحمد بن طولون للقضاء على الفتن الداخلية :

واجه أحمد بن طولون بقايا الثورات التى كان ينظمها وبعد لها جماعات الكارهين للبيت العباسى .

وتلك الثورات تمثلت فيما يلى :

(أ) ثورة بوغا الأصغر سنة ٢٥٥هـ ، حيث اتخذ مقرها أولا فى مكان اسمه الكنائس

بين برقة والاسكندرية ، ثم بسط سلطانه على الصعيد . واستطاع أحمد بن طولون القضاء على هذه الثورة .

(ب) ثورة ابن الصوفى العلوى الذى جعل من اسنا بالصعيد مقرا له سنة ٢٥٥هـ . واستطاع أحمد بن طولون القضاء على تلك الثورة عند اخميم سنة ٢٥٦هـ حيث فر ابن الصوفى إلى بلاد الحجاز .

(جـ) تقليم أظافر أبو عبد الرحمن العمرى الذى انتهز هجوم « البجة » على بلاد الصعيد وكون جيشا طرد به « البجة » وصار قوة لا تعترف بطاعة أحمد بن طولون . ولكن تمكن أحمد بن طولون أخيرا من القضاء على العمرى .

(د) القضاء على ثورة العباس بن أحمد بن طولون ، اذ انتهز العباس خروج والده إلى بلاد الشام وأعلن العصيان بتشجيع نفر من الحاقدين على أحمد بن طولون . وقد خرج العباس على رأس قوات كبيرة من مصر سنة ٢١٥هـ وجعل مقره برقه ، ثم اتجه إلى افريقية « تونس الحالية » واصطدم فى أفريقية بعاملها هناك وهو ابراهيم بن الاغلب .

وقد تمكن أحمد بن طولون من القضاء على ثورة ابنه سنة ٢٦٨هـ ، أى بعد اضطراب دام ثلاث سنوات تهددت فيه الدولة الطولية الفتية بالفناء .

ويلاحظ أثناء ثورة العباس واتجاهه إلى افريقية اصطدامه مع القبائل من أهالى البلاد ومن أشهرها قبائل نفوسه.

جهود أحمد بن طولون لدعم الاستقرار الخارجى :

رأى أحمد بن طولون أن الاستقرار الخارجى أمر مهم لأنه يحمل معنى استقلال مصر وتثبيت أركان الدولة الجديدة التى أسسها فى تلك البلاد .

ويجب علينا أولا أن نحدد مفهوم الاستقلال فى تلك العصور الوسطى ، كان الاستقلال اذ ذاك على غير ماهو معروف اليوم من السيادة الكاملة للدولة ، اذ كان الاستقلال فى العصور الوسطى يستلزم اعتراف الوالى بسلطان الخليفة وذلك بذكر

اسمه فى خطبة الجمعة وسك اسمه على النقود ، وفيما عدا ذلك كان للوالى مطلق التصرف فى شئون الولاية وادارتها .

وقد اصطدم أحمد بن طولون غداة فراغه من مشاكله الداخلية بالدسائس التى كانت تحاك له فى بغداد لهدم استقلاله بمصر . وتولى تلك المؤامرات « الموفق طلحه » أخو الخليفة العباسى المعتمد ، بينما كان الخليفة حريصا على مودة أحمد بن طولون وكسب مساعدته. وكان « الموفق طلحة » يحقد على أحمد بن طولون ويرغب فى هدم استقلاله بمصر واتخذ « الموفق طلحه » من ثورة الزنج التى قامت فى العراق وطلب مساعدايت مالية من أحمد بن طولون وذلك سنة ٢٥٤هـ. ولما وصلت المساعدات المالية من مصر رأى الموفق طلحة انها قليلة وكتب إلى أحمد بن طولون يتهمه بالتباطؤ فى ارسال المبالغ المطلوبة . وكان الخليفة يطلع أحمد بن طولون فى ذلك الوقت على حقيقة دواعى « الموفق طلحه » ومؤامراته وجواسيسه الذين كان يرسلهم إلى مصر . ولم يقبل أحمد بن طولون اتهامات « الموفق طلحه » وبعث اليه بخطاب يدل على انه مستقل بمصر وله حرية التصرف فى أموالها وأحوالها . ودخل الصراع حول الاستقلال بمصر مرحلة هامة حين عمد أحمد بن طولون إلى الاتفاق مع الخليفة المعتمد سنة ٢٦٨هـ على الحضور إلى مصر والخلاص من سيطرة « الموفق طلحة » واستهدف أحمد بن طولون من ذلك تقويض شرعية « الموفق طلحه » فى الحكم وأن يجعل من مصر حامية حمى الخلافة العباسية نفسها ، وهو الأمر الذى يكسبها سمعة ومكانة عالية فى العالم الإسلامى . ولكن الموفق طلحة اكتشف هذا الاتفاق ، وحال بين الخليفة وبين خروجه من بغداد . وعندئذ عقد أحمد بن طولون مؤتمر دمشق واستصدر منه قرارا بخلع « الموفق طلحة » واتهامه بخيانة الأمانة فى الحكم .

وقد استغرق هذا الصراع بين أحمد بن طولون والموفق طلحة ثلاثة عشر عاما انتهى باقرار كل منهما بالأمر الواقع ، وهو ما ترتب عليه استقرار أحمد بن طولون بمصر وما آل اليه من حكم بلاد الشام ، لأن الخلافة العباسية اضطرت برغم سوء العلاقة مع أحمد بن طولون والموفق طلحة ان تعهد بحكم الشام ومناطق الثغور الشامية إلى أحمد

ابن طولون لقدرته على الدفاع عنها ضد اغارات الروم « البيزنطيين » . وقد استغل أحمد ابن طولون هذا الوضع وأنشأ لنفسه جيشا وأسطولا صار عماد استقلاله الحقيقى ومصدر هيبته فى العالم الإسلامى والبيزنطى .

أحمد بن طولون والشام :

اضطرت الخلافة العباسية أن تخطب ود أحمد بن طولون بسبب ما وصل اليه من قوة ، كما رأت أن تتخذ منه حليفا مؤيدا لها ضد الروم البيزنطيين الذين دأبوا على الاغارة من آسيا الصغرى على شمال الشام ، الذى كان يعرف وقتذاك باسم اقليم العواصم والثغور لاشتماله على المنافذ والحصون القائمة فى جبال طوروس . لذلك لم يكن عجبا أن يعهد الخليفة إلى أحمد بن طولون بولاية الثغور الشامية للدفاع عنها . فبعث بجزء من جيشه وأسطوله للمرابطة فى مدنها وحمايتها ، ثم لم تلبث الحوادث أن أيدت سلطان أحمد بن طولون فى بلاد الشام حين توفى واليها التركى سنة ٢٦٤هـ . فضم أحمد بن طولون بلاد الشام اليه استكمالا لوسائل الدفاع عن اقليم الثغور وحمايته. وصارت مصر والشام على عهد الدولة الطولونية وحدة لها قوتها فى الشرق العربى ، وتؤدى رسالتها فى الدفاع عن أرض الإسلام ضد الروم ، فى وقت عجزت فيه الخلافة العباسية عن القيام بأى عمل ايجابى فى ذلك الميدان .

وبلغ من قوة الوحدة العربية بين مصر والشام أن خشى أباطرة الروم سلطان أحمد ابن طولون وراسلوه لعقد هدنة معه. ثم حدث أن عزم الخليفة العباسى نفسه وهو المعتمد على مغادرة بغداد سرا ، فرارا من سيطرة أخيه الموفق طلحة ، وقرر الالتجاء إلى أحمد بن طولون صاحب القوة الجديدة فى مصر والشام ، فأعيد إلى عاصمته بالعراق . وعلى الرغم من ذلك ظلت وحدة مصر والشام قائمة ، وأخذت القوات البحرية والبرية الطولونية تحمى هذه الوحدة وتعلى من شأنها فى شرق البحر المتوسط .

خمارويه وعلاقته بالخلافة العباسية :

وبعد وفاة أحمد بن طولون آلت الدولة الطولونية إلى ابنه خمارويه . وتابع الحاكم الجديد سياسة والده فى الدفاع عن مصر والشام وحمايتها من قديم دسائس الموفق طلحة ، أخى الخليفة . فأعد خمارويه جيشا تولى قيادته بنفسه، وهزم قوات أخى الخليفة عند دمشق ، وعقد صلحا اعترفت فيه الخلافة العباسية بولاية خمارويه على مصر والشام ولأبنائه من بعده . ودعم هذا النصر سيطرة خمارويه على منطقة العواصم والثغور وصار قوة يرهبها الروم البيزنطيون .

وازدادت علاقة خمارويه بالخلافة العباسية قوة حين تولى المعتضد العرش فى بغداد ، اذ تزوج هذا الخليفة من العباسة ابنه خمارويه ، المشهورة باسم قطر الندى ، ولا يزال اسم الأميرة اسما لبلدة قرب الصالحية الحالية ، كما لا يزال اسمها باقيا فى الأغانى الشعبية بالقاهرة حتى الوقت الحاضر .

واتبع خمارويه سياسة والده فى الاهتمام بمرافق الدولة ، وتخصيص الأموال للفقراء والمحتاجين ، كما اشتهر بالقصور الفخمة التى شيدها فى عاصمته القطائع .

زوال الدولة الطولونية :

غير أن خلفاء خمارويه لم يستطيعوا السير على نهج سياسته وانغمسوا فى لهوهم مما آثار عليهم الناس والجيش ، وبدأ عمالهم فى الأقاليم يجنحون إلى الانفصال عن السلطة الطولونية فى القطائع ، فولى مصر بعد خمارويه ثلاثة من آل طولون لم يزد حكمهم على عشرة سنين ، ولم تستفد البلاد منها شيئا غير انتشار الفوضى واشتداد التنافس بين الطامعين فى السلطان . وانتهى الأمر بأن أعدت الخلافة العباسية جيوشها لاسترداد مصر من رابع الولاة الطولونيين عليها وهو شيبان ، الذى بلغت الفوضى والاضطرابات فى أيامه درجة خطيرة . وفى سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٥م دخلت الجيوش العباسية القطائع ، وأزالت الدولة الطولونية التى حكمت مصر والشام مدة ثمانية وثلاثين عاما .

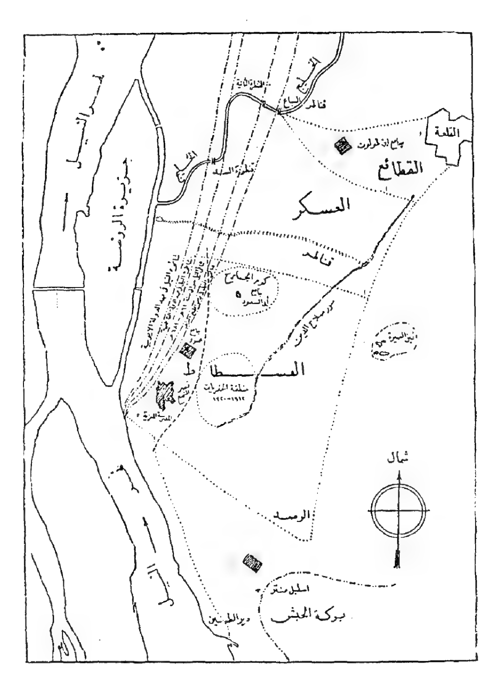
حضارة الدولة الطولونية :

أسهمت مصر فى عهد الدولة الطولونية بنصيب وافر فى شتى ميادين الحضارة الإسلامية ، وقدمت العديد من المنجزات التى حملت فى الوقت نفسه معالم الشخصية المصرية وأصالتها الإسلامية . وتتمثل مظاهر الحضارة لمصر الإسلامية زمن الطولونيين فيما يلى :

أ ـ فن العمارة :

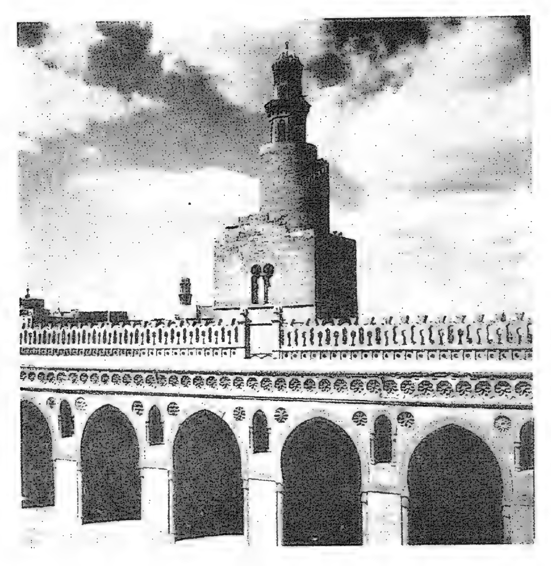
أسس أحمد بن طولون عاصمة جديدة لدولته ، حيث كان تأسيس العواصم فى مصر الإسلامية يعتبر دلالة على الاستقرار السياسى للعهد الجديد ، فسار أحمد بن طولون على نهج عمرو بن العاص الذى أسس الفسطاط ، وصالح بن على العباسى الذى أسس مدينة العسكر ، وأقام فى سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م عاصمة للدولة الطولونية فى المنطقة الواقعة شمالى الفسطاط بين جبل يشكر وسفح المقطم ، قرب دار امارة العسكر ، وأطلق على هذه العاصمة الجديدة اسم « القطائع » ، حيث اتخذت كل طائفة من الجند قطيعة لها سميت باسمها ، هذا فضلا عن أن كل جماعة من أرباب الحرف والصناعات قد نزلت فى مجموعة من تلك القطائع التى خصصت لها ، وموضع « القطائع » مجموعة الأراضى والشوارع والحارات الواقعة اليوم بين السيدة زينب والقلعة بالقاهرة .

وكثر العمران بالقطائع حتى امتدت معالمها إلى الفسطاط والعسكر ، وأصبحت هذه العواصم الثلاث مدينة واحدة تتصل مبانيها ومرافقها فى صورة تبعث على العظمة والبهاء . وكان القصر الذى بناه أحمد بن طولون بالقطائع أول معلم من المعالم العظمى للعاصمة الجديدة . وكان هذا القصر يشغل مساحة واسعة ، يقوم عليها اليوم ميدان صلاح الدين ، وبلغ من اتساع هذا القصر أن كانت له عدة أبواب يدخل منها الناس وهى باب الخاصة لدخول المقربين إلى الأمير وباب الميدان لدخول الجنود وباب الصلاة ، وكان يؤدى إلى جامع ابن طولون .



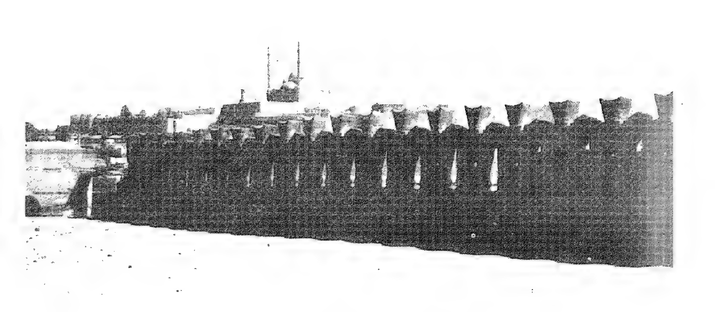
تخطيط الفسطاط والعسكر والقطائع

ويعتبر جامع ابن طولون بالقطائع من معالم التجديد فى فن العمارة فى مصر الإسلامية. ذلك أن المساجد الإسلامية كانت تعتمد على كثرة الأعمدة، وكان تخطيط جامع ابن طولون يتطلب ثلثمائة عمود، ولكن المهندس المعمارى الذى وضع نموذجا لمسجد أحمد بن طولون اعتمد على القليل من الأعمدة، وترك مساحات واسعة بينها، كما استخدم فى البناء الدعامات المبنية من الآجر.



جانب من جامع أحمد بن طولون ومئذنته الملوية.

وصار جامع ابن طولون منذ تأسيسه سنة ٢٦٣هـ مثالا يحتذى فى بناء المساجد الجامعة بمصر . وكان موقعه على جبل يشكر ، الذى سمى باسم أحد الصالحين ، وهو يشكر ابن جديله ، واشتهر المكان بأن الدعاء مستجاب فيه وكان هذا الجبل يشرف اذ ذاك على النيل . وقد شيد أحمد بن طولون جامعه على شكل مربع تبلغ مساحته ستة أفدنة ونصف الفدان . وفى وسطه صحن مكشوف يحيط به عدة أروقة . فى وسط الجامع فوارة عليها قبة مذهبة مقامة على عشرة أعمدة ، وأرض الفوارة مغطاة بالرخام . وعلق المهندس فى الجامع القناديل بالسلاسل الطويلة الرشيقة ، وعلى سطحه مزولة لتبين أوقات الصلاة ، مصنوعة من خشب الساج . على أن أهم عناصر الجامع المعمارية هى المئذنة التى جاءت على نمط ملوية جامع سامرا بالعراق . ومازالت آثار هذا الجامع باقية على حالها الأصلى إلى اليوم ، وذلك بجهة الصليبة وقلعة الكبش ، تؤكد عظمة العمارة بمصر الإسلامية وشخصيتها المميزة منذ الدولة الطولونية .



الشرافات التى تعلو جامع أحمد بن طولون .

وأهتم أحمد بن طولون بالعمارة المدنية حيث أمر سنة ٢٥٩هـ ببناء مارستان لمعالجة المرضى على اختلاف طبقاتهم ودون أجر ، وكان هذا المستشفى يقع بين الفسطاط والقطائع ، ويشتمل على حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء ، وتخضع ادارة المستشفى لنظام دقيق ، حيث كان المريض ينزع ملابسه عند الدخول ويعطى ملابس جديدة خاصة بالمستشفى ، كما دأب أحمد بن طولون على الذهاب بنفسه كل يوم جمعه للتفتيش على أعمال الأطباء ، ويواسى المرضى بما يبعد عنهم سأم المرض وكآبته . وكان الأطباء يفحصون المرضى فحصا دقيقا ويكتبون الدواء المناسب . وبلغ ما أنفقه أحمد بن طولون مع هذا المارستان نحو ستين ألف دينار .

وقام أحمد بن طولون سنة ٢٥٩هـ بإصلاح مقياس النيل بالروضة ، تنظيما للخراج الذى ارتبط بمياه النيل وتسجيل منسوبها . ولا يزال هذا المقياس باقيا إلى اليوم فى بساتين المانسترلى بجهة الروضة . وكان أحمد بن طولون قد بنى فى جزيرة الروضة حصنا منيعا له ولآل بيته .



جزيرة الروضة ومقياس النيل .

وأمر أحمد بن طولون بإنشاء قناطر تمتد من جهة البساتين الحالية إلى القرافة الكبرى لتزويد تلك المنطقة بما تحتاجه من مياه . وبنى أحمد بن طولون هذه القناطر على مثال ما شاهده فى مدينة طرسوس بآسيا الصغرى ، حين أقام فى تلك الجهات ، فقد أعجبه ما شاهده فى تلك المدينة من قناطر مقامة على أعمدة ، لتوصيل المياه إلى المناطق التى يتعذر وصول الماء اليها عن طريق الأنهار .

وازداد الاهتمام بالعمارة فى الدولة الطولونية على عهد خمارويه بن أحمد بن طولون . فقد قام بتوسيع قصر أبيه ، كما أنشأ المكان المعروف باسم « بيت الذهب » وكان عبارة عن غرفة فسيحة تتصل برواق واسع ، وطليت حيطانه بالذهب المجدول باللازورد (وهو نبات أزرق اللون ، طيب الرائحة) وعليها صور بارزة مصنوعة من الخشب ، تمثل خمارويه ومغنياته على مقدار قامة ونصف ، ويغطى رؤوس النساء أكاليل من الذهب الخالص .

وأقام خمارويه فى قصره بالقطائع بركة مربعة ، مساحتها حوالى مائتين وخمسة وعشرين مترا مربعا ، اشتهرت باسم « بركة الزئبق » ، أقامها للتغلب على ما كان يشكو منه من أرق ، وذلك بناء على مشورة طبيبه الخاص . وكانت الفسقية بتلك البركة تملأ بالزئبق ، ويلقى عليها مرتبة تنفخ بالهواء ، وهو الأمر الذى كان يؤدى إلى حركة المرتبة حين يرتج حركة الزئبق ، مما يبعث الراحة فى نفس خمارويه . وبنى خمارويه فى قصره أيضا قبة سماها « الدكة » ، حيث كان يجلس فيها ليستمتع بالنظر إلى البساتين والنيل . وأقام خمارويه فى قصره دارا للسباع ، تشتمل على بيوت صغيرة تسع كل منها زوج من الأسود ، ذكر وانثى ، ولكل بيت باب يفتح بحركة معينة ، كما اشتمل القصر أيضا على دار أخرى للنمور والفهود والفيلة أشبه بحدائق الحيوانات اليوم .

(ب) الحياة الاقتصادية :

كانت أولى ثمار الاستقلال هو عناية السلطات الطولونية بالفلاح باعتباره العمود الفقرى لاقتصاد البلاد المصرية والقاعدة العريضة للمجتمع المصرى ، فحققت له

العدالة وخففت عنه الضرائب وزودته بالبذور والآلات اللازمة للزراعة فضلا عن العناية بوسائل الرى .

وتدعمت الصناعات الأصلية فى البلاد مثل صناعة النسيج ، ودخلت صناعات جديدة ، ولاسيما الصناعات التى تستند إلى الانتاج الزراعى مثل استخراج الأصباغ وصناعة الذهب وغيرها من صناعات الترف .

وظهرت العناية بتشجيع التجارة والافادة من موقع مصر على طريق التجارة العالمى بين الشرق والغرب حتى أصبحت الاسكندرية تنافس بغداد فى تحديد أثمان السلع وتسويقها . وسك أحمد بن طولون عمله جديدة صارت تعرف نسبة اليه باسم « الدينار الأحمدى » وذلك لدعم التبادل التجارى عن طريق مصر . هذا فضلا عن اعتماد التجار على النشاط الزراعى والتقدم الصناعى .

وانعكست معالم هذا الاستقرار الذى صاحب الاستقلال فى رخاء الشعب المصرى وظهور طبقات جديدة فى المجتمع . وتألفت هذه الطبقات من كبار التجار وكبار رجال الجيش والعلماء ، وخير مثال لهذه الطبقات الجديدة أسرة « الماذرائيين » التى اشتهر أفرادها سنة ٢٦٩هـ فى عهد أحمد بن طولون حيث علا شأنها فى ميدان الخراج « ميدان المال » والكتابة « الدواوين » والادارة المدنية « والانشاء » وفن التعبير والمراسلات » .

وامتد الرخاء إلى عامة الشعب حيث انخفضت الضرائب التى يدفعها ، ونعم بما ساد الاقتصاد المصرى من ازدهار ، اذ انخفض سعر الغلال وخلت البلاد من الأزمات الاقتصادية وزاد الانتاج فى الحبوب زيادة هائلة . وانعكس صدى هذا الرخاء فى روعة الاحتفالات الشعبية بكل من الأعياد الإسلامية والمسيحية على حد سواء ، ومشاركة السلطات فيها ، ومن أمثلة ذلك الاحتفال فى مصر بيوم الغطاس . وقد شاهد هذا الاحتفال المؤرخ « أبو الحسن السعودى » وترك وصفا دقيقا رائعا عنه فى كتابه « مروج الذهب » .

وأخيرا بلغت مظاهر هذا الاستقلال أروع نتائجها فى استقرار القبائل العربية فى مصر وامتزاجها مع السكان المحليين ، وبناء الشعب المصرى العربى الذى احتل مكانة القيادة فى العالمين العربى والإسلامى منذ ذلك الوقت .

(جـ) الحركة العلمية والأدبية فى عهد الدولة الطولونية :

أسهمت مصر فى عهد الدولة الطولونية بنصيب وافر فى الحركة الثقافية التى شهدتها الدولة الإسلامية طوال القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى . وكان المسلمون قد أصبحوا بفضل هذه الحركة سادة التراث الانسانى سواء عن طريق الترجمة أو التأليف . ولكن مساهمة مصر فى هذه الحركة فى العصر الطولونى تتميز بطابع معين يكشف عن شخصية مصر الإسلامية . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الطولونيين اعتبروا المساهمة فى الحركة العلمية والأدبية عملا متمما لاستقلالهم ومظهرا من مظاهر دولتهم وهيبتها .

وتنعكس مظاهر الشخصية المصرية فى الحركة العلمية والأدبية فى عهد الدولة الطولونية فى الميادين التطبيقية التى أسهم فيها أولئك العلماء . فتجلى اهتمام المصريين بالعلوم ، ونرى بدايتهم فى علم الرياضيات وفى فن العمارة الدينى والمدنى على حد سواء .

وتجلت روعة العمارة المدنية فى اصلاح مقياس الروضة وانشاء القناطر لتوفير مياه الشرب .

وكان المهندس الذى بنى قناطر المياه فى عهد الدولة الطولونية حاذقا فى تطبيق النماذج التى يمكن الافادة منها من البلاد الأخرى . وكانت النماذج التى طبقت على قناطر الدولة الطولونية مقتبسة من مدينة طرسوس فى آسيا الصغرى . فقد كانت قناطر طرسوس مقامة على أعمدة هدفها توصيل المياه إلى الأماكن العليا ، وكان المكان الذى يصل اليه الماء عبارة عن صهريج بحيث يكون منسوب الماء يسمح بانتقاله إلى أعلا .

وكان ميدان الطب من أهم مظاهر تقدم النهضة العلمية فى مصر الإسلامية فى العهد الطولونى ، وكان الأطباء على درجة عالية من الكفاءة ومعهم هيئة مدربة على فن التمريض . وكان لكل طبيب أعوانه ومساعدوه ، ومهمتهم دق العقاقير وعجن الأدوية ، كما كانت للأطباء وسائلهم فى الفحص والعلاج وكانوا يحددون للمريض أنواع الأطعمة فضلا عن استخدام العلاج النفسى .

وكانت أعظم الأماكن التى تدرب فيها الأطباء وتابعوا فيها أبحاثهم هى (المارستان) الذى أمر أحمد بن طولون ببنائه لعلاج المرضى ، وجعله مستشفى عام دون تمييز بين الطبقات والأديان .

وكانت دلالة شفاء المريض قدرته على أكل رغيف ودجاجة . وعندئذ يعاد فحصه طبيا ثم يسمح له بمغادرة المستشفى .

وظهر تقدم العلوم البيلوجية وعلم النبات والحيوان ، وتجلى ذلك فى كثرة البساتين وتنسيق أشجارها . فكثرت السلالات وقامت دور خاصة للحيوانات سواء الأليفة أو المفترسة . وبلغت روعة النهضة العلمية أوجها فى صناعة المنسوجات التى اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور وما تطلبته هذه الصناعة من مهارات عالية فى فن الصباغة والألوان .

الحركة الأدبية فى عهد الدولة الطولونية :

تجلت مظاهر شخصية مصر فى الحركة الأدبية على عهد الدولة الطولونية فيما يلى :

(١) تشجيع الشعر والشعراء ، ليس تذوقا للفن فحسب ولكن استمرارا للمديح والافادة من أقلام الشعراء للاشادة بالدولة الطولونية . وكان أحمد بن طولون وابنه خماروية يقربان الشعراء ويبالغان فى الاغداق عليهم ، وظهرت من أولئك الشعراء طبقة من الشعراء المتكسبين تجلت فى قصائدهم طابع البيئة المصرية ومزاج أهلها .

(٢) تشجيع الكتابات الديوانية حيث أنشأ ابن طولون أول ديوان للانشاء فى مصر ، ومهمته متابعة المراسلات والنهوض بأغراضها مع أمراء العالم العربى وغير العربى . وحفلت مصر بطائفة من مشاهير الكتاب مازالت أعمالهم باقية فى كثير من المؤلفات التاريخية ، وتشهد لهم بالبراعة فى الصياغة مع دقة المعانى الدبلوماسية .

ومن أمثلة هؤلاء : جعفر بن عبد الغفار المصرى .

(٣) ازدياد نشاط المدارس التى سبق أن ظهرت فى مصر وأصبحت أكثر تخصصا فى العلوم الدينية ، مثل علم القرآن وعلم الحديث وعلم الفقه . وظهر فى هذا الوقت انتشار المذهب الشافعى فى مصر ، وكثر تلاميذه فى أنحاء البلاد . واشتداد دفاعهم عنه ، ووضع الكثير من المؤلفات لهذا المذهب لخدمة الأجيال التالية .

(٤) ازدهار الدراسات اللغوية وكثرة العلماء المتخصصين فيها ، منهم : أحمد بن جعفر ، صاحب كتاب المهذب فى علم النحو ، وأبو جعفر النحاس صاحب معانى القرآن .

(٥) اشتداد حركة التأليف من ميدان التاريخ المحلى ومن أمثلة ذلك ما قام به المؤرخ المصرى ابن عبد الحكم صاحب كتاب تاريخ فتوح مصر والمغرب والاندلس ، وما قام به المؤرخ أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية الذى ألف كتابا فى سيرة أحمد بن طولون .

وقد ترتب على هذه النهضة الأدبية ازدياد حركة التعريب فى مصر ولا سيما فى سائر أنحاء البلاد ، اذ اتخذت المدارس الأدبية فى الفسطاط فروعا لها فى المدن المصرية بالدلتا والصعيد . واجتذبت اليها الكثيرين من أبناء البلاد .

. الدولة الطولونية :

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكـــام	الآثـــار	السنة الهجرية
٨٦٨	٢٥٤	أحمد بن طولون	القطائع	٢٥٦
			قصور القطائع	٢٥٦
			المارستان	٢٥٩
			جامع ابن طولون (باقى إلى الآن)	٢٦٣ ـ ٢٦٥
٨٨٣	٢٧٠	خمارويه بن طولون	قصور القطائع	٢٧٠
٨٩٥	٢٨٢	جيش بن خمارويه		
٨٩٦	٢٨٣	هارون بن خمارويه		
٩٠٤	٢٩٢	شيبان بن طولون		
٩٠٥ ـ ٩٣٤	٢٩٢ ـ ٣٢٣	ثلاثة عشر حاكما من قبل الخلافة العباسية		

(ب) الدولة الأخشيدية
٣٢٣ ــ ٣٥٨هـ / ٩٣٥ ــ ٩٦٩م

قيام الدولة الأخشيدية :

ظل النفوذ العباسى غير مستقر فى مصر بعد زوال الدولة الطولونية مما شجع الولاة العباسيين على الاستقلال مرة أخرى بشئون البلاد . وتطلع أحد قادة الأتراك فى الجيش العباسى فى مصر وهو محمد بن طغج الأخشيد الى الانفراد بالسلطة دون القادة المتنازعين والولاة العباسيين الضعاف . وساعده على ذلك ما قدمه من خدمات فى الدفاع عن البلاد ضد هجمات الدولة الفاطمية التى قامت اذ ذاك فى تونس ببلاد المغرب . وفى سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م تولى محمد الأخشيد ولاية مصر وصار الحاكم المطلق فى البلاد .

ورغب الخليفة الراضى العباسى فى اكتساب محمد بن طغج الى جانبه ، فمنحه لقب الأخشيد ، وهو لقب ايرانى تلقب به الأمراء . على أن ذلك الحدث جاء دلالة على ما بلغه الأخشيد من سلطان واسع فى مصر ، وصار مؤسس دولة فى أسرته انتسبت الى اللقب الذى منحه اياه الخليفة ، وعرفت باسم الدولة الأخشيدية . وظلت العلاقات طيبة بين الخلافة العباسية والأخشيد حتى سار القائد العباسى محمد بن رائق الى الشام بأمر من الخلافة لانتزاع مصر من الأخشيد الذى قطع اسم الخليفة العباسى من خطبة الجمعة ، وأعلن استقلاله بمصر . واستطاع الأخشيد هزيمة القائد ابن رائق والاحتفاظ بملكه سليما . ونجح الأخشيد بعد ذلك فى القضاء على الفتن والقلاقل الداخلية ، وصار قادرا على دراسة أحوال العالم العربى المجاور لمصر ، وعمل على خلق وحدة بين أرجائه تحفظ له سلامته من العدوان الخارجى المتصل من جانب دولة الروم .

مصر والشام والحجاز :

وبعد سنتين من قيام الدولة الأخشيدية ضم الأخشيد اليه الشام ليعيد القوة الى الشرق العربى ، وليستطيع الوقوف فى وجه الروم البيزنطيين . وخشى أباطرة الروم قوة الدولة الجديدة ، وراسلوا الأخشيد كما راسلوا ابن طولون من قبل كسبا للسلام والمودة . واحتفظت المراجع بصورة من المكاتبات التى دارت بين الفريقين ، يتضح منها هيبة الشرق العربى فى ظل وحدة مصر والشام زمن الأخشيد .

وفى العام التالى لهذه الوحدة مد الأخشيد نفوذه الى مكة والمدينة ليكون له الاشراف على الحرمين الشريفين بهما .

كافور الأخشيد :

وبعد وفاة الأخشيد تولى وزيره أبو المسك كافور الوصاية على ولديه الصغيرين . وأثبت هذا الوصى مقدرة وهمة عالية فى ادارة شئون البلاد والدفاع عنها ضد الأخطار التى تهددتها من ناحية جيوش الطائفة المعروفة باسم القرامطة ، ونجح فى القضاء عليها ، وحافظ على وحدة مصر والشام وبلاد العرب . وامتد سلطان الدولة الأخشيدية الى جبال طوروس ، وصارت قوية الجانب ، وترهبها دولة الروم البيزنطيين .

وأبو المسك كافور هذا هو الذى أشاد به الشاعر المتنبى فى قصائده المشهورة سواء فى المدح أو الهجاء . وشجع كافور بدوره الشعراء والعلماء ، ونبغ فى عهده كثير من المؤرخين منهم الحداد وتليمذه الكندى والحسن بن زولاق . وبلغت امارة كافور على مصر ثلاثا وعشرين سنة ، حكم فيها باسم أبناء الأخشيد ، عدا سنتين انفرد فيهما بالأمر والحكم . وظل اسمه طوال هذه المدة موضع الهيبة والاجلال ، ويدعى له من منابر المساجد من طرسوس بأطراف الشام الى مصر والحجاز .

ولما توفى كافور خلفه أبو الفوارس أحمد حفيد الأخشيد ، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من عمره ، ولذا عادت الفوضى الى البلاد ، واشتدت المنافسات بين الطامعين فى الدولة . وزادت تلك الحالة سوءا اشتداد هجمات الفاطميين من بلاد

المغرب على مصر ، حيث تطلع الخليفة الفاطمى المعز لدين الله للاستيلاء عليها . وعجزت الخلافة العباسية عن مد يد المساعدة للأخشيديين ، وانتهى الأمر باستيلاء الفاطميين على مصر سنة ٣٥٨هـ وحلوا بها محل الدولة الأخشيدية .

حضارة الدولة الأخشيدية :

سارت الدولة الأخشيدية على نهج الدولة الطولونية فى رعاية معالم الحضارة بمصر الاسلامية . فأسس الأخشيد لنفسه قصرا بجزيرة الروضة أطلق عليه اسم « المختار » ، كما أقام ميدانا عرف نسبة اليه باسم « ميدان الأخشيد » جمع فيه الخيول السلطانية . وبنى الأخشيد قصرا آخر كان يقع غربى سوق النحاسين الحالى . وتولى كافور الأخشيدى هذا القصر بالرعاية ، وكان يتنزه به أيام الجمعة والأحد والثلاثاء من كل اسبوع ، كما يذهب الى الميدان المجاور له حيث يشاهد ما به من خيول ، وصار القصر يعرف باسم « البستان الكافورى » نسبة الى هذا الحاكم الساهر على مطالب الدولة .

واهتم كافور ببناء المساجد ، ومنها المسجد الذى أطلق عليه اسم « مسجد الفقاعى » ، والذى اشتهر بوجود محراب فى وسطه مبنى من الطوب ، كان أول محراب يبنى فى مصر . وشيد كافور الأخشيدى الدار التى تعرف باسم « دار الفيل » ، وكانت تقع على بركة قارون بالقرب من جامع أحمد بن طولون ، وسكن بها فى رجب سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م

واهتم رجال الدولة الأخشيدية بالعمارة أيضا ، حيث شيد أبو بكر محمد بن على المادرائى جوسقا ، أى ما يشبه الحصن وسط المقابر كان يجتمع به الناس فى ليلة النصف من شعبان وأيام الأعياد لتلاوة القرآن الكريم . وأنشأ الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات بئرا بالفسطاط تشتهر باسم « بئر الوطاويط » ، وذلك سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٥م

وقد اندثرت معالم هذه العمارة الأخشيدية ، ولم يبق إلا ذكرها فى كتب التراث ، بما يشهد بما كان لها من عظمة وبهاء .

ـ الدولة الأخشيدية :

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكـــام	الآثـــار
٩٣٤	٣٢٣	محمد الأخشيد	قصر فى جزيرة الروضة
٩٤٦	٣٣٤	أبو القاسم أنوجور بن الأخشيد	مارستان فى الفسطاط
٩٦٠	٣٤٩	أبو الحسن على بن الأخشيد	جامع الجيزة
٩٦٦	٣٥٥	أبو المسك كافور	البستان الكافورى
٩٦٨	٣٥٨	أبو الفوارس أحمد بن على	

(ج) قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب

وبينما تلك الحوادث تجرى ، قامت فى شمال أفريقيا حركة شيعية تنتسب الى فاطمة بنت النبى ، حتى صارت هذه الحركة تنسب الى اسمها . وأسفر ذلك عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧هـ — ٩٠٩م .

وتفصيل ذلك أن الدعوة الشيعية غدت منذ قيام الدولة العباسية سرية ، بسبب امعان معظم الخلفاء العباسيين فى اضطهاد أشياعها . واتخذ بعض دعاة الشيعة مقرا لهم فى اليمن لقربها من الحجاز ، ملتقى الحجاج المسلمين . وفى أحد مواسم الحج تعرف أحد أولئك الدعاة واسمه أبو عبد الله الشيعى بجماعة من الحجاج من قبيلة كتامة من سكان شمال أفريقيا ، ونجح فى استمالتهم الى العقيدة الشيعية ، وصحبهم بعد انتهاء موسم الحج الى بلادهم .

وتولى حكم أفريقية (تونس) وقتذاك من قبل العباسيين أفراد أسرة الأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦هـ / ٨٠٠ — ٩٠٩م) ، التى لم تنجح فى تأليف القلوب حولها ، وآذت الخلافة العباسية بمحاولة الاستقلال عن بغداد . فوجد أبو عبد الله الشيعى ميدانا لتأليف قلوب الناس بشمال أفريقية لدعوته . وما زال يعمل سرا حتى أضحى قوة عسكرية بفضل ما اجتمع حوله من الكارهين للأغالبة من مختلف القبائل العربية والبربرية . واستطاع أبو عبد الله أخيرا أن يقضى على الأغالبة نهائيا سنة ٢٩٦هـ — ٩٠٩م ، وأن ينادى بأحد سلالة على بن أبى طالب ، ويدعى سعيد بن الحسين أماما ، ولقبه عبيد الله المهدى .

واتخذ عبيد الله المهدى عاصمة له فى رقاده ، وهى ضاحية من ضواحى القيروان . ثم قويت شوكته وكثر أتباعه ، فانتقل سنة ٩٢٠م عن رقادة الى مدينة بناها لنفسه وسماها المهدية نسبة اليه ، وهى على ساحل تونس ، على مسافة ستة عشر ميلا من الجنوب الشرقى لمدينة القيروان الحالية . وبدأ عبيد الله المهدى يعمل من عاصمته الجديدة على امتداد سلطانه نحو مختلف البلاد المجاورة غربا ، مثل الجزائر

ومراكش ، وشرقا نحو برقة وليبيا ومصر . وأعلن نفسه خليفة ، فصار بالعالم الاسلامى ثلاث خلافات ، وهى العباسية ببغداد ، والأموية بقرطبة ، والفاطمية بمدينة المهدية . وبدأ الفاطميون يتطلعون الى الامتداد من بلاد المغرب الى مصر . وتتلخص أهداف الفاطميين وجهودهم للاستيلاء على مصر ابتداء من خلافة المهدى فى الخطوات التالية :

أرسل الفاطميون حملة سنة ٣٠٠هـ / ٩١٣م استطاعت القضاء على سلطان العباسيين فى برقه . وكانت برقه تعتبر تابعة اداريا لمصر ، وذلك تمهيدا لتحقيق أهدافهم فى مصر .

وفى سنة ٣٠١هـ سار جيش فاطمى بقيادة ابن الخليفة نفسه وولى عهده « القائم » وزحف على الاسكندرية والفيوم ، ولكن انتهى هذا الجيش بالعودة بعد أن تصدت له جيوش الخلافة العباسية بقيادة « مؤنس الخادم » .

وفى سنة ٣٠١هـ جاء جيش فاطمى آخر بقيادة « حباسة الكتامى » واستولى على الاسكندرية مرة أخرى . وتمت هزيمة هذا الجيش الفاطمى على يد « مؤنس الخادم » أيضا . ولكن الذى يستلفت النظر فى هذه الحملة الفاطمية الثانية هو ظهور شخصية « محمد بن طغج الأخشيد » ، وكان أحد عمال الادارة العباسية فى مصر . اذ اسهم هذا العامل فى صد تلك الحملة الفاطمية الثانية وأظهر مقدرة فائقة . مما جعل نجمه يعلو ويسير قدما نحو السيطرة على مصر واعادة سيرة أحمد بن طولون وجهاده للاستقلال بمصر . وكان تكرار الحملات الفاطمية على مصر هو الطريق الذى حقق لمحمد بن طغج تحقيق أهدافه .

وفى سنة ٣٠٧هـ جاءت حملة أخرى بقيادة « القائم الفاطمى » ثم تتابعت الحملات الفاطمية حتى كان أشدها خطرا سنة ٣٢١هـ . واستطاع العباسيون صد هذه الحملة عن مصر بفضل جهود « محمد بن طغج الأخشيد » . وعندئذ عهدت اليه السلطات العباسية بحكم مصر وذلك سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م . وجاء ذلك ايذانا بقيام الدولة الأخشيدية فى مصر ، وهى التى ستظل تحكم البلاد حتى سنة ٣٥٨هـ /

٩٦٩م ، وهى السنة التى استولى فيها الفاطميون على مصر .

وفى سنة ٣٥٨هـ كان « المعز لدين الله الفاطمى » رابع الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب قد أعد جيوش دولته واطمأن لقوة ونشاط دعاته داخل مصر ، وأرسل جيوشه بقيادة « جوهر الصقلى » الذى تمكن من فتح مصر . وقام القائد الفاطمى فى نفس تلك السنة بتأسيس مدينة القاهرة تمهيدا لانتقال السلطان الفاطمى اليها .

وفى سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢م انتقل « المعز لدين الله الفاطمى » الى مصر ، واحضر معه آل بيته حتى رفاة أجداده . وكان ذلك ايذانا بأن مصر أصبحت مقر دار الخلافة وهى خلافة جهد الشيعة على الوصول اليها منذ فجر تاريخهم السياسى .

الخلافة الشيعية :

وأدى استقرار الخليفة الفاطمى بالقاهرة الى اشتداد المنافسة بين الفاطميين والعباسيين . فأخذ المعز لدين الله الفاطمى وخلفاؤه يعملون على امتداد دولتهم شرقا حتى اشتملت على الشام ، ثم استقر نفوذ الفاطميين هناك على عهد العزيز بالله (٣٦٥هـ ــ ٩٧٥م) ، اذ ورث الفاطميون ممتلكات الأخشيديين فى الحجاز والشام ، وغدا اسم الخليفة الفاطمى يذكر فى خطب الجمعة من جميع المساجد من المحيط الأطلسى الى البحر الأحمر واليمن ومكة ودمشق .

وضعف شأن الخلافة العباسية ضعفا شديدا فى ذلك الوقت ، حتى أن اسم الخليفة الفاطمى ذكر فى بعض مساجد العراق نفسها . اذ اغتصب البساسيرى أحد قادة الأتراك فى بغداد جميع مظاهر السلطة من الخليفة العباسى ، وذكر اسم الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧هـ ــ ١٠٣٥م) فى مساجد العاصمة العباسية مدة أربعين جمعة متتالية نكاية فى العباسيين . وحذت مساجد واسط والبصرة حذو مساجد بغداد ، فأعلنت اسم الخليفة الفاطمى من منابرها . وترتب على ذلك كله ضعف الخلافة العباسية وحيرة خلفائها بين قادتهم العسكريين من الترك ، حتى أن الخليفة القائم العباسى كاد ينزل عن خلافته للفاطميين . وبذا وصلت الخلافة الفاطمية الى

مركز الصدارة فى العالم الاسلامى ، وغدت الدولة الوحيدة صاحبة النفوذ والسلطان فى شرق البحر المتوسط ، وبلغ أسطولها مبلغا كبيرا من السيطرة والتفوق على أسطول الامبراطورية البيزنطية فى العدد والضخامة وحسن الاستعداد . وتحدى الفاطميون خلافة الأمويين بالأندلس ، وحاولوا بسط نفوذهم على القسم الغربى من البحر المتوسط .

انهيار الدولة الفاطمية :

غير أن الدولة الفاطمية على عظمتها واتساع مساحتها وعنايتها بالترفيه عن الشعوب الخاضعة لها ، لم تستطع أن تجتذب اليها أهل السنة ، بل ابتعد عنها علماء السنة وفقهاؤها ، حتى اذا جاء الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦هـ ــ ٩٩٦م وادعى الألوهية لنفسه أخذت الدولة الفاطمية تفقد هيبتها فى قلوب الناس . وأساء الحاكم بأمر الله الى نفسه والى دولة آبائه وأبنائه بعده باصراره على الدعاية لمذهبه ، واضطهاد الطوائف التى أصرت على مخالفته ، بل امتد اضطهاده الى الأقباط واليهود . ويدل على ذلك اغتياله ليلا فى صحراء المقطم على يد رجل سنى بايحاء من سيدة الملك أخت الحاكم .

ومع هذا استطاعت الخلافة الفاطمية أن تعيش مدة طويلة بعد الحاكم بأمر الله ، اذ عمدت الى استجلاب مختلف الأجناس من السودان والبربر والترك والأرمن لتقوية جيوشها ، فهيأت بذلك أسباب كراهيتها ولا سيما فى مصر . ومع أن الرحالة الفارسى ناصرى خسرو أشاد أثناء زيارته لمصر سنة ١٠٤٥م بما فى القاهرة من بهاء ونظام وثروة على عهد الخليفة المستنصر فان الأحوال لم تلبث أن تغيرت لتنافس أجناس الجيش وثوراتهم ، واهمالهم أمر الأمن اللازم لنمو النشاط الاقتصادى والثقافى للدولة الفاطمية . ثم طرأ على الدولة الفاطمية غلاء فى عهد الخليفة المستنصر هذا ، وظل هذا الغلاء سبع سنوات أعقبها طاعون ، حتى سمى المعاصرون هذا الغلاء باسم « الشدة العظمى » . ومع حدوث غلاء فى عهود سالفة لأيام الشدة العظمى ،

فإنه يبدو أن ما حدث أيام الغلاء على عهد المستنصر أزال ما بقى من هيبة الدولة الفاطمية .

ولم ينقذ الدولة من الانهيار الا سلسلة الوزراء القادرين المعروفين باسم الوزراء العظام ، وهم يبدأون من بدر الجمالى على عهد الخليفة المستنصر ، وينتهون بشاور على عهد الخليفة العاضد . ذلك أن خطرا خارجيا أخذ يستولى على انتباه أولئك الوزراء من ناحية الدولة السلجوقية ومملكة بيت المقدس الصليبية ، اذ أزال السلاجقة سلطان الفاطميين من معظم الشام ، وأتم الصليبيون القضاء نهائيا على نفوذ الفاطميين فى تلك البلاد . وذهب كذلك سلطان الفاطميين عن شمال أفريقيا ، لاستقلال ولاتهم هناك ، ولم يبق للدولة الفاطمية سوى مصر .

وازداد الموقف سوءا فى الدولة الفاطمية حين أخذت مملكة بيت المقدس الصليبية تطمع فى مصر نفسها ، مع بقاء الخطر السلجوقى ماثلا كذلك فى صورة جديدة قوامها الدولة الزنكية ، التى تفرعت عن الدولة السلجوقية بقيام الأتابك عماد الدين زنكى فى الموصل وحلب . واستولى نور الدين بن عماد الدين زنكى على دمشق سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م ، وعمد الى سياسة منع الصليبيين من امتداد نفوذهم الى مصر . ثم تطورت هذه السياسة الى تنافس بين مملكة بيت المقدس الصليبية ونور الدين بن زنكى عندما اضطرب الموقف الداخلى فى مصر . ذلك أن الوزير الفاطمى ضرغاما سمح للصليبيين بالتدخل فى شئون الدولة الفاطمية ، بل رضى بأن يدفع لهم مبلغا سنويا من المال ضمانا لمساعدتهم له على منافسه فى منصب الوزارة وهو شاور والى الوجه القبلى ، وأن يعد الوعود الكثيرة نظير هذه المساعدة . ولم يستطع شاور الا أن يطلب بدوره المساعدة من نور الدين ، وسرعان ما أصبحت مصر ميدانا لحملات وحروب بين جيوش الصليبيين والجيوش النورية . أما الصليبيون فقاد جيوشهم الملك آمورى الأول ، على حين قاد الجيوش النورية شيركوه الأيوبى والشاب يوسف ، وهو الذى عرفته الأحداث باسم صلاح الدين ، وهو ابن نجم الدين أيوب أخى شيركوه .

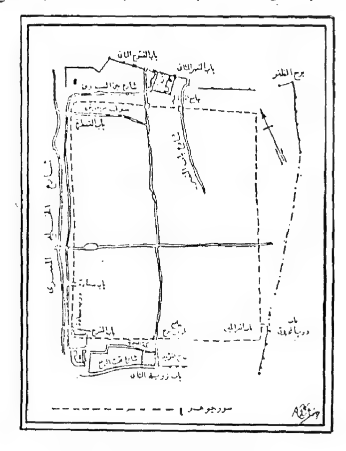
وتم النصر لجيوش نور الدين بقيادة شيركوه بعد مقتل ضرغام ، وطلب شيركوه من الوزير شاور أن يفى بما قدمه من وعود مقابل مساعدته على غريمه . لكن شاور نكث بوعوده وراوغ وماطل حتى قرر شيركوه التخلص منه ، وتم ذلك على يد الشاب صلاح الدين . ورأى الخليفة الفاطمى العاضد وقتذاك أن ينقذ الموقف بتعيين شيركوه وزيرا ، فقام فى الوزارة مدة ثلاثة أشهر ، وتوفى بعدها سنة ١١٦٩م . فرأى الخليفة العاضد أن يسند الوزارة الى الشاب صلاح الدين ، أملا أن يكون فى ذلك تمهيدا للتخلص من الجيوش النورية . لكن مواهب صلاح الدين عكست الآية ، اذ تولى صلاح الدين الوزارة ، وطلب الى سيده نور الدين أن يرسل اليه أهله ، كما طلب نور الدين من تابعه صلاح الدين أن يعمل على الغاء الدولة الفاطمية الشيعية . واستطاع صلاح الدين بفضل الخطط التى حبكها أهله ولا سيما أبوه أيوب أن يسقط الخطبة للفاطميين من منابر القاهرة سنة ٥٦٧هـ ــ ١١٧١م ، ويقال أنه توفى دون أن يعلم بذلك الحادث . وهكذا انتهت الخلافة الفاطمية فى غير جلبة أو ثورة أو حرب ، وهى الخلافة التى عجزت الدولة العباسية عن ازالتها بالحرب أو السياسة .



الدولة الفاطمية فى أقصى اتساعها

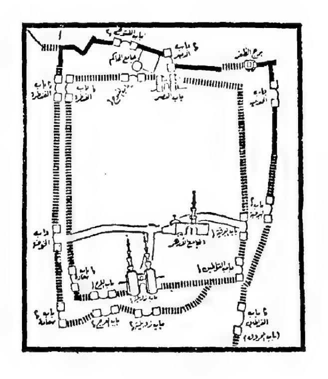
الحضارة الفاطمية

وأول مظهر من مظاهر الحضارة الفاطمية هو انشاء القاهرة ، حيث وضع جوهر الصقلى أساس هذه المدينة الحصينة الى الشمال من الفسطاط والقطائع . وجعل جوهر تخطيط القاهرة على شكل مربع تقريبا ، يواجه أضلاعه الجهات الأربع الأصلية ، اذ يتجه الجانب الشرقى نحو المقطم ، والغربى يسير بمحاذاة الخليج ، والشمالى يتجه نحو الفضاء الواقع فى الشمال ، والجنوبى يواجه الفسطاط ، يبلغ طول كل ضلع ألف ومائتى متر ، بحيث غدت مساحة القاهرة ثلثمائة وأربعون فدانا ، وكان هذا السور أيضا مبنيا بالطوب اللبن ، يقدر حجم اللبنة الوحدة بذراع فى ثلثى ذراع . وجعل جوهر للمدينة ثمانية أبواب باقى منها : باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح .



تخطيط مدينة القاهرة وأسوارها فى العصر الفاطمى .

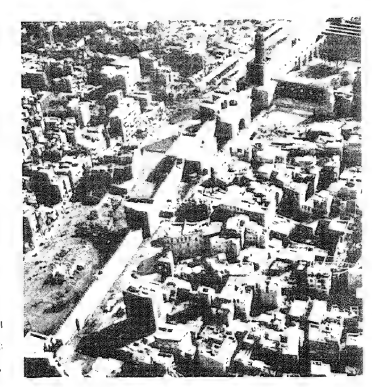
وكانت القاهرة أيام جوهر الصقلى صغيرة ، ليس بها سوى قصر الخليفة والجامع الأزهر وثكنات الجنود . وكان جوهر قد وضع فى ١٨ شعبان ٣٥٨هـ / ٩٦٩م أساس القصر الذى بناه لمولاه المعز لدين الله الفاطمى قبل حضوره الى مصر ، وكان هذا القصر يقع فى شرق المدينة وصار يعرف باسم القصر الشرقى الكبير . ثم أخذ العمران يدب الى القاهرة وتتسع أرجاؤها ، فبنى الخليفة العزيز قصراً آخر فى مواجهة قصر والده ، صار يعرف باسم القصر الغربى ، وكان أصغر من قصر أبيه بعض الشىء . وكان بين القصرين فضاء متسع ، يجتمع فيه عشرة آلاف جندى ، وهى المنطقة التى صارت تعرف باسم « بين القصرين » ، كما كان هناك طريق عام اختطه جوهر الصقلى يمر وسط المدينة ، بحيث يمتد من باب زويلة الى باب الفتوح .



أبواب القاهرة الفاطمية .

وأتم الخليفة المعز لدين الله عند حضوره الى مصر القصر الشرقى الكبير ، وذلك يوم ١٧ رمضان سنة ٣٦٢هـ واشتمل هذا القصر على دواوين الحكومة وخزائن السلاح ، حيث بلغت حجرات القصر أربعة آلاف حجرة . وكان لهذا القصر أبواب كثيرة ، منها باب الذهب حيث كانت تعلوه منظرة يجلس الخليفة بها ليشرف على الاحتفالات التى تقام هناك ، وكذلك باب العيد وأمامه رحبة متسعة كانت الجنود تقف بها فى يومى العيدين ، وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويصل الى باب الزعفران ، وهى مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة المالكة وموضعه الآن خان الخليلى . وكان المعز لدين الله قد أحضر معه جثث اقربائه الذين حكموا بالمغرب وهم : المهدى والقائم والمنصور ، حيث وضعها فى توابيت ثم دفنها فى هذه المقبرة تربة الزعفران .

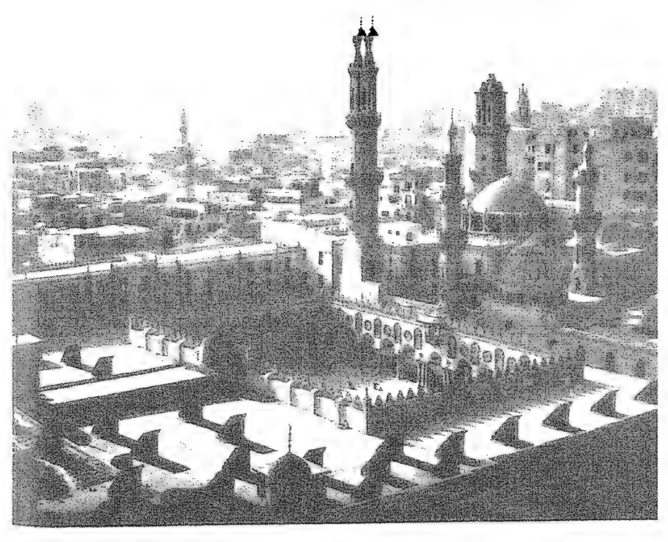
وأحيطت القاهرة الفاطمية بسور تناوله التجديد مرات عديدة باتساع رقعتها ، وأصبحت دار خلافة تنافس دار الخلافة العباسية ببغداد .



الجانب الشمالى للسور الذى بناه بدر الجمالى حول مدينة القاهرة الفاطمية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م .

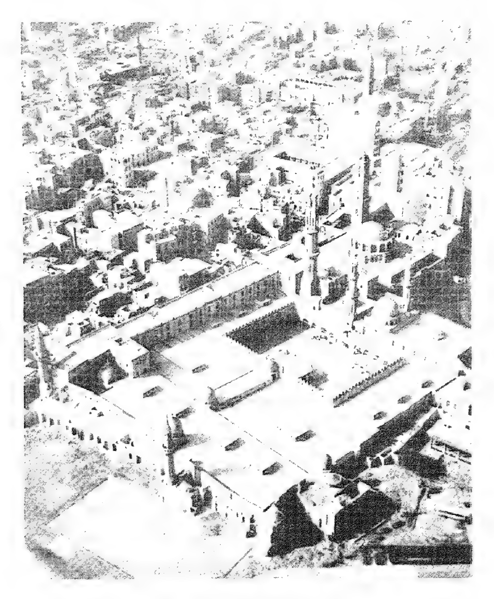
الجامع الأزهر :

ولما أتم جوهر تأسيس القاهرة رأى أن يبنى جامعا تقام فيه شعائر المذهب الشيعى ، تجنبا لاثارة شعور أهل السنة . فوضع الحجر الأساسى للجامع الأزهر المعروف سنة ٣٥٩هـ ــ ٩٧٠م ، وانتهى جوهر من بناء هذا الجامع الكبير بعد سنتين تقريبا ، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة فى رمضان سنة ٣٦١هـ . وكان هذا الجامع يقع على مقربة من القصر الشرقى الكبير .



ـقاهرة الفاطمية ويتوسطها الجامع الأزهر .

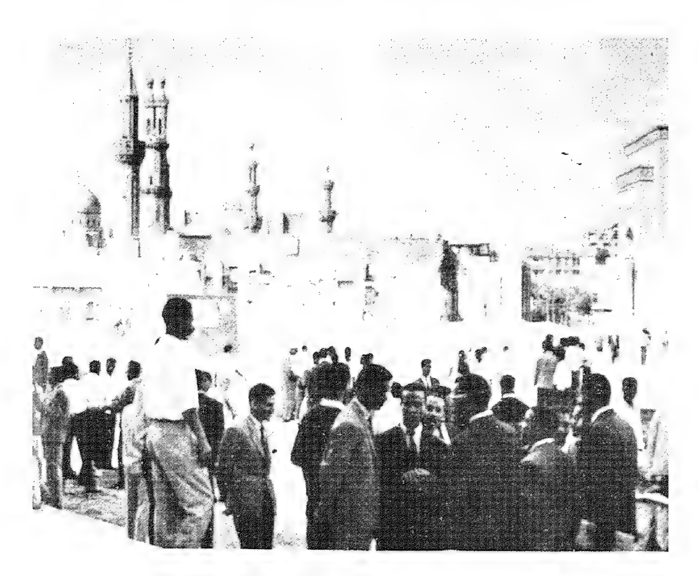
ولم يلبث أن تطور الجامع الأزهر الى جامعة تلقى فيها الدروس والمحاضرات فى علوم الدين على المذهب الشيعى ، وذلك باشارة يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بن المعز لدين الله سنة ٣٧٨هـ ، ليكون للدولة الفاطمية مركز علمى يفد اليه الطلاب من ممتلكاتها لدراسة العلوم الدينية ومبادىء الشيعة .



جامعة الأزهر بالقاهرة والمنطقة المحيطة بها .

واجتذب الخليفة العزيز وخلفاؤه الطلاب الى جامعتهم وقدموا اليهم المأكل والمسكن . ولم يفقد الجامع الأزهر مكانته العلمية بعذ زوال الخلافة الفاطمية ، اذ تولاه سلاطين مصر من المماليك بالرعاية والعناية ، وحفظوا له هيبته وسمعته .

ونال هذا المسجد عناية على مر العصور بحيث صار من الصعب الاهتداء الى تخطيطه الأصلى ، حيث أعيد تجديد الكثير من أجزائه خلال العصور المتتالية .



الطلبة الوافدون بجامعة الأزهر بالقاهرة .

قصور الفاطميين :

وأبدع الفاطميون فى بناء القصور الفخمة ، وتنظيم البلاط الخليفى على نسق فاخر ، فبنى جوهر الصقلى أثناء تأسيس القاهرة قصرا للخليفة المعز لدين الله . واهتم ابنه الخليفة العزيز كذلك بتشييد القصور ، وبنى لنفسه قصرا غربى مدينة القاهرة ، وبنت الملكة تغريد أم الخليفة العزيز قصر القرافة وألحقت به بستانا وحماما فاخرا ، وتردد الناس من علية القوم على هذا القصر طلبا للراحة . وأسست هذه الملكة كذلك « منازل العز » وهو قصر فخم على النيل ، دأب ابنها الخليفة العزيز وخلفاؤه على الاستجمام فيه طلبا للراحة .

واهتم الخلفاء الفاطميون بتزيين قصورهم أبهى زينة ، فأنشأ الخليفة العزيز قاعة الذهب التى جعلها مقرا لمجلس الحكومة ، ومكانا لاستقبال الوفود ، وزينها بالستور والطنافس الحريرية ، وكلها من رسم ولون واحد . واتخذ الخليفة العزيز مقعده فى صدر هذه القاعة خلف ستارة لا ترفع الا بعد انعقاد المجلس واكتمال عدد الحاضرين .

واشتهر الفاطميون فضلا عن ذلك ببناء « المناظر » ، وهى الأماكن التى تشرف على الجهات التى يقام فيها الحفلات الرسمية أو تقع فى نواح هادئة تصلح للاستجمام والراحة . ومن أمثلة هذه المناظر ، منظرة المقس التى استعرض الخلفاء منها الاحتفال بسير الأساطيل الحربية فى النيل ، ومنظرة باب الفتوح لاستعراض الجيوش الفاطمية حين خروجها من القاهرة أو عودتها اليها .

ومازال يشهد بتطور القاهرة الفاطمية ونموها بقايا الأسوار التى أقامها أمير الجيوش بدر الدين الجمالى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، وهى السور الثانى بعد سور جوهر ، وتميزت أبواب السور الثانى بأنها بنيت من الحجارة ، وما زالت باقية ، يشهد بعظمتها باب زويلة الحالى ، وكذلك باب الفتوح وباب النصر . ويشهد بعظمة القاهرة الفاطمية بعض آثارها الباقية أيضا الى اليوم وهى :

أ ــ جامع الحاكم ، الذى بدأ بناءه الخليفة العزيز بالله فى رمضان سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م ، ثم أتمه ابنه الخليفة الحاكم سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م ، وصار ينسب اليه ، ويعرف باسم جامع الحاكم . ويمثل هذا الجامع سجلا معماريا لما حفل به من الزخارف والكتابات ، فضلا عن انه يحتوى على باب للدخول بارز عن الواجهة ، بما يمثل أول طراز من نوعه عرفته العمارة بمصر الاسلامية .

ب ــ أضرحة السبع بنات ، حيث توجد آثارها على بعد نحو نصف ميل غرب ضريح الامام الليث بن سعد فى السهل القبلى لخرائب الفسطاط . وتنسب هذه الأضرحة الى سبعة أشخاص من أسرة المغربى الذى قتله الخليفة الحاكم سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م . وتتميز هذه البقايا المعمارية بأنها تمثل أول تحول فى طريقة بناء القبة ، حيث تحولت المنطقة المربعة الى منطقة مثمنة من الداخل بواسطة محاريب ركنية ، تعلوها رقبة مثمنة ، ثم قبة على منطقة دائرية .

ج ــ جامع الجيوشى ، ويقع على حافة جبل المقطم خلف القلعة ، أمر ببنائه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م . ويعتبر أول جامع بالقاهرة بنى بالحجارة ، كما تميز بمئذنته ذات القاعدة المربعة ، والتى تنتهى بمقرنص يعلوه آخر ، فمثمن مقام على قبة .

د ــ جامع الأقمر ، وهو يقع بشارع المعز لدين الله ، أنشأه الخليفة الأمر بأحكام الله سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م . ويتميز بواجهته التى تعتبر أول واجهة مزخرفة فى مساجد مصر الاسلامية .

هـ ــ المشهد الحسينى ، حيث دفن به رأس الامام الحسين بن على ابن ابى طالب بعد نقله من عسقلان ، حيث شيد لذلك قبة فى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م .

ز ــ جامع الصالح طلائع ، ويقع فى ميدان باب زويلة ، أنشأه سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م الصالح طلائع بن زريك ، وزير الخليفة الفاطمى الفائز . وقد بنى هذا الجامع مرتفعا بنحو أربعة أمتار عن سطح الأرض ، حيث توجد بأسفل الواجهة

حوانيت ، كما تميز باقتباسات معمارية نقلها الفاطميون من المغرب ومن سوريا . ويعتبر هذا الجامع آخر عمارة دينية قامت بالدولة الفاطمية .

الأعياد والمواسم :

وبالغ الفاطميون فى الاحتفال بالمواسم الاسلامية والأعياد وغيرها من المواسم غير الاسلامية كذلك ، واشتهر احتفال الفاطميين بيوم عاشوراء ومولد النبى وليلة النصف من شعبان . ويقال أن العرائس المصنوعة من السكر ، والحلوى والسكرية وغيرها من هدايا الموالد المصرية فى العصر الحاضر ترجع الى أيام الفاطميين .

ومن أعياد الفاطميين غير الاسلامية خميس العهد الذى يحتفل به النصارى قبل الفصح بثلاثة أيام ، ويوم الغطاس ، وعيد الميلاد عند المسيحيين .

واهتم الفاطميون كذلك باحياء المواسم المصرية القديمة مثل عيد النيروز وهو أول السنة القبطية ، اذ دأب الناس فى مستهل شهر توت على ابقاء النيران مشتعلة ليلة عيد النيروز مع رش الطرقات والبيوت تبركا بقدوم فيضان النيل . ووزعت الحكومة الرواتب الاضافية على موظفيها احتفالا بهذا العيد القومى .

غير أن القاهرة الفاطمية ظلت مدينة حربية ليس للمصريين فيها سوى أعمالهم فى الصناعة وخدمة قصور الخلفاء ، والوظائف الكتابية الصغرى ، والابتهاج بالمواكب الخليفية وليالى الوقود ، وهى ليالى أول رجب وليلة النصف منه ، وليلة أول شعبان والنصف منه كذلك وليالى رمضان .

ومما يدل على موقف المصريين من الدولة الفاطمية أن هذه الخلافة زالت فى صمت وسهولة ، وأن صلاح الدين الأيوبى لم يجد مقاومة عندما قام بالغاء الخطبة للخليفة الفاطمى فى صلاة الجمعة . وعندما زالت الدولة الفاطمية ظل المصريون على موقفهم الهادىء ، أما بقايا الفاطميين فأخذت تدبر المؤامرات لاسترداد سلطانها .

الدولة الفاطمية :

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكـــام	الآثـــار
٩٦٩	٣٥٨	المعز	تأسيس القاهرة
			القصر الشرقى العظيم
			جامع الأزهر
٩٧٥	٣٦٥	العزيز	القصر الغربى
			جامع الحاكم
٩٩٦	٣٨٦	الحاكم	
			جامع الحاكم
			جامع المقس
١٠٢١	٤١١	الظاهر	
١٠٣٦	٤٢٧	المستنصر	جامع الجيوشى
			باب النصر
			باب الفتوح
			السور الثانى
			باب زويلة
١٠٩٤	٤٨٧	المستعلى	جامع مقياس النيل
١١٠١	٤٩٥	الآمر	
			جامع الأقمر
١١٤٩	٥٤٤	الظافر	بضعة مساجد
١١٥٤	٥٤٩	الفائز	جامع الأقمر
١١٦٠	٥٥٥	العاضد	جامع الصالح طلائع

(د) الدولة الأيوبية

صلاح الدين :

ولد صلاح الدين يوسف الأيوبى سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م بمدينة تكريت على نهر دجلة شمالى سامرا ، واتصل والده نجم الدين أيوب وعمه شيركوه بالأتابك زنكى ، فنشأ صلاح الدين فى ظل البيت الزنكى ، وتعلم علوم أولاد الأمراء ، وهى حفظ القرآن ودرس الفقه والأدب ، والتدريب العسكرى والفروسية والفنون الحربية المختلفة . واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه فى الحملات التى أنفذها السلطان نور الدين لمنع الصليبيين من الاستيلاء على مصر أواخر أيام الدولة الفاطمية . وأسفرت هذه الحملات النورية عن قيام شيركوه ، ثم صلاح الدين فى الوزارة بالقاهرة ، ولم يكد صلاح الدين يستقر فى شئون وظيفته المزدوجة ، وهى قيامه وزيرا فى دولة شيعية لا خليفة لها ، ونائبا لمملكة صاحبها نور الدين ، حتى أخذ رجال القصر الفاطمى يحيكون له المؤامرات . ثم توفى نور الدين سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م فاستطاع صلاح الدين أن يعلن نفسه سلطانا على مصر وعلى جميع أجزاء مملكة نور الدين تدريجيا ، ووافق الخليفة العباسى على سلطنته . والتفت صلاح الدين الى كثير من الأعمال الداخلية فى مصر ، فبنى القلعة الحالية ، وأحاط القاهرة والفسطاط معا بسور واحد ، وشجع على اقامة معاهد الدراسة الفقهية السنية وهى المعروفة بالمدارس ، ومنها مدرسة الامام الشافعى التى زارها الرحالة ابن جبير سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م ، ووصفها فى مذكراته وصفا طيبا ، وأنشأ صلاح الدين فى مصر كذلك مستشفى ، هو الثانى من نوعه فى مصر فى تلك العصور .

ثم اتجه صلاح الدين الى حرب الصليبيين ، وتابع سياسة الجهاد ضدهم حتى انتصر عليهم انتصارا حاسما فى حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، بل استولى على كثير من مدنهم بعد ذلك ، حتى لم يبق لهم بالشام سوى صور وعكا وأنطاكية وطرابلس وبعض المدن الداخلية .

ضعف الدولة الأيوبية :

غير أن أبناء البيت الأيوبى فى مصر والشام اختلفوا فيما بينهم بعد صلاح الدين وتحاربوا حروبا انتحارية كثيرة . واستعان ملوك الأيوبيين سواء بالشام أو مصر بأجناد من المماليك المجلوبة من مختلف البلاد المجاورة . وازداد نفوذ أولئك الجند المماليك بسبب استمرار الحروب بين أبناء البيت الأيوبى ، حتى أضحى أولئك الجند المماليك أصحاب الأراضى والأملاك والسلطة والنفوذ والحكم والادارة ، فضلا عن القوة الحربية . وأولئك المماليك هم الذين دفعوا الصليبيين عن مصر ، والسلطان وقتذاك الصالح أيوب (سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) .

ثم توفى السلطان الصالح أيوب ، وولى شئون الدولة بعده زوجته شجر الدر ، وأصلها مملوكة لهذا السلطان . ثم جاء توران شاه بن الصالح أيوب ، واختلف مع زوجة أبيه ، فحرضت شجر الدر زعماء المماليك على التخلص منه بقتله حريقا غريقا فى فارسكور سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وبذا انتهت الدولة الأيوبية وقامت دولة المماليك فى مصر .

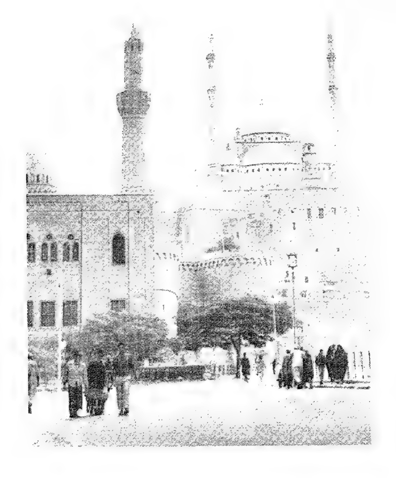
حضارة الدولة الأيوبية :

حفل عصر الدولة الأيوبية بالمنجزات العظمى فى حضارة مصر الاسلامية ومنها :

قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين)

تمثل القلعة التى بناها صلاح الدين على جبل المقطم فكرة مبتكرة فى ميدان العمارة بمصر الاسلامية . وقد عهد صلاح الدين الى وزيره بهاء الدين قراقوش سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م ببناء هذه القلعة ، ولكن أتم بناءها الملك الكامل سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م . وكان لهذه القلعة سور وأبراج وثلاثة أبواب ، أحدها من جهة القرافة وجبل المقطم والثانى من جهة جدارها البحرى ويعرف باسم باب السر ، والثالث يقع مدخله فى أول الجانب الشرقى من القلعة ، ويؤدى الى فناء مستطيل به دوواوين الحكومة .

وكان الملك الكامل قد انتقل الى القلعة بعد اتمام بنائها ، واتخذها مقرا لحكمه ولادارته . ومن ثم صارت القلعة مقرا للدواوين السلطانية ودور الحكومة ، وغدت تشتمل على كثير من القصور والايوانات والطباق والأحواش والميادين والاصطبلات والمساجد والمدارس والحمامات . وكان بها أيضا دار الوزارة وديوان الانشاء (وزارة الخارجية) وبيت المال وخزانة السلطان الخاصة والدور السلطانية والأبراج التى كان يحبس بها الخارجون على السلطان من الأمراء والمماليك .. ودخلت تعديلات عديدة على القلعة وبخاصة فى عهد محمد على حيث أخذت منذئذ شكلها الحالى .

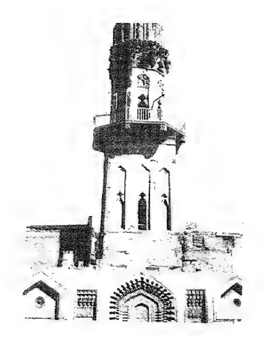


قلعة صلاح الدين .

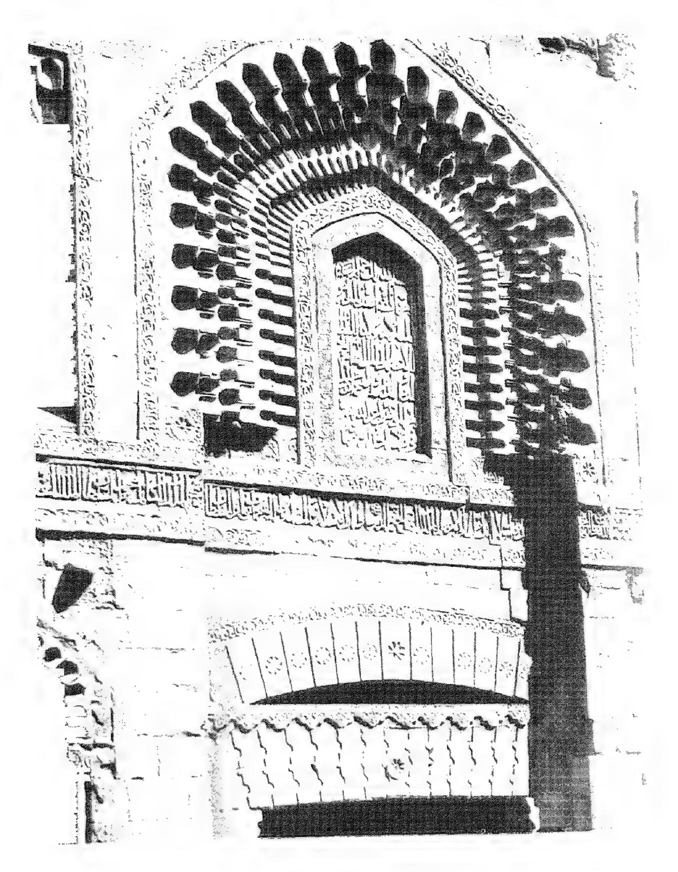
أسوار القاهرة :

وعمل صلاح الدين على ضم القلعة مع عواصم مصر الاسلامية السابقة وهى الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ، ثم أحاطها جميعا بسور عظيم بلغ طوله نحو خمسة عشر كيلو مترا ، ومتوسط عرضه نحو ثلاثة أمتار ، ويتراوح ارتفاعه بين سبعة وعشرة أمتار . وكانت واجهة هذا السور مبنية من الحجر المنحوت ، تتخلله الأبراج ، التى لا تزال بقاياها قائمة فى بعض نواحى القاهرة الى اليوم .

وأسس الأيوبيون المدارس لتدريس المذهب السنى ، رغبة فى ازالة أثر المذهب الشيعى ومعاهده فى مصر . فبنى صلاح الدين مدرسة بالقرب من قبر الامام الشافعى بالقرافة وكذلك المدرسة الناصرية والقمحية . وبنى الملك الكامل دار الحديث أو الكلية الكاملية . وكانت هذه المدارس عبارة عن بناء متجه الى القبلة ، وفى وسطه صحن كبير مربع ، وفى كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان تعلوه قبة تحتها محراب . وكانت هيئة المدارس فى جملتها أشبه بالمسجد ، وكان الطلاب يذهبون الى تلك المدارس ويتلقون العلم بالمجان .



مئذنة المدارس الصالحية .



زخارف تعلو مدخل المدارس الصالحية .

ومن أشهر عمائر المدارس الأيوبية مدرسة الصالح نجم الدين أيوب ، حيث كانت أول مدرسة فى مصر الاسلامية للمذاهب الأربعة ، وغدت أساسا لتطوير تصميم المدرسة . وتكونت مدرسة الصالح نجم الدين من جزئين رئيسيين يفصلهما ممر ، وتعلو مدخله مئذنة ، وكل جزء يتكون من إيوانين متقابلين بينهما فناء . وأضيف إلى المدرسة ضريح بجوار الايوان الغربى تعلوه قبة .

بناء المنصورة :

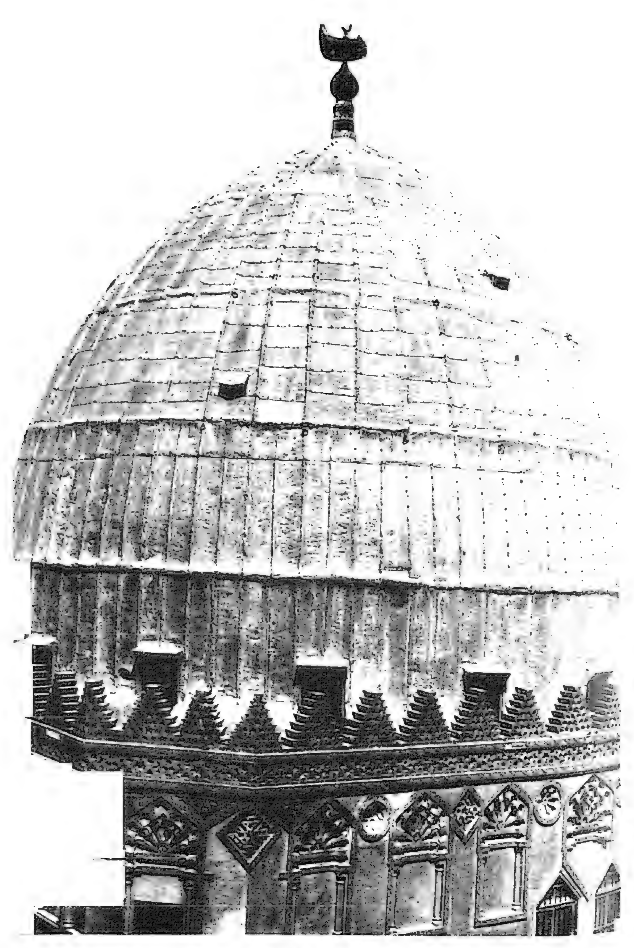
شيد الأيوبيون مدينة جديدة هى المنصورة ، أنشأها السلطان الكامل سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م . على الشاطىء الشرقى لفرع دمياط ، لتكون مقرا يصد منه زحف الصليبيين وحملتهم التى قادها ملك فرنسا لويس التاسع على مصر . واستطاعت المدينة الجديدة أن توقف الخطر الصليبى ، وأن توقع بالصليبيين الهزائم ، حيث أسر لويس التاسع نفسه ، ووضع أسيرا فى دار ابن لقمان بالمنصورة . ولم تلبث المنصورة أن اتسعت وازدادت عمارتها وغدت تحمل معالم الحضارة الأيوبية ومنجزاتها الرائعة .

القباب

وارتبط بالعمارة الأيوبية الاهتمام ببناء القباب ، ومنها قبة الامام الشافعى ، حيث بنى صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م تربة الشافعى ، وأنشأ بجوارها المدرسة الصلاحية . وفى سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م انتهى من عمل التابوت الخشبى الذى يعلو تربة الشافعى ، عليه ترجمة حياة الشافعى ، مع بعض الآيات القرآنية .

وشيد الملك الكامل قبة كبيرة ضمها الى قبر الشافعى ، حيث دفن بها ؛ كما أجرى اليها الماء ، وكان الفراغ منها سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م .

وما تزال بعض القباب الأيوبية باقية الى اليوم تشهد مع قبة الامام الشافعى بأهمية هذا اللون من العمارة الاسلامية ، ومنها قبة الخلفاء العباسيين التى انشئت حوالى سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ، وقبة شجر الدر التى بنتها سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وهى تقع بشارع الخليفة تجاه مشهد السيدة رقية .



قبة الامام الشافعي

قلعة الروضة

وتقترن هذه القلعة بالرغم من بنائها فى أواخر العصر الأيوبى بقلعة الجبل التى بناها صلاح الدين . ذلك أن قلعة الروضة من العمائر التى أمر ببنائها آخر السلاطين الأيوبيين فى مصر وهو الصالح نجم الدين ، حيث شيدها سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م بجزيرة الروضة لتكون سكنا وثكنات لمماليكه الذين أكثر من شرائهم ، وصاروا يعرفون نسبة الى هذا المكان من النيل باسم « المماليك البحرية » . ولما تم بناء هذه القلعة انتقل اليها السلطان وأفراد أسرته واتخذها مقرا لملكه ، وأطلق عليها اسم « قلعة الروضة » تمييزا لها عن القلعة التى بناها صلاح الدين ، حيث سماها « قلعة الجبل » . وأنشأ السلطان نجم الدين بقلعة الروضة القصور والأبراج ، كما جهزها بالكثير من الأسلحة والمعدات الحربية .

الدولة الأيوبية :

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكـــــام	الآثـــــار	السنة الهجرية
١١٦٩	٥٦٥	الناصر صلاح الدين بن أيوب	جامع نجم الدين أيوب	٥٦٦
			المدرسة الناصرية	٥٦٦
			المدرسة القمحية	٥٦٦
			المدرسة القطبية	٥٧٠
			المدرسة السيوفية	٥٧٢
			قلعة الجبل	٥٧٢
			البدء فى السور الثالث	٥٧٢
			المارستان	٥٧٥

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكـــام	الآثـــار	السنة الهجرية
١١٩٣	٥٨٩	العزيز بن صلاح الدين		
			المدرسة الشبكشية	٥٩٢
١١٩٨	٥٩٥	المنصور بن العزيز		
١٢٠٠	٥٩٦	العادل سيف الدين	المدرسة العادلية	
			المدرسة الشريفية	٦١٢
١٢١٨	٦١٥	الكامل بن العادل	أحياء مسجد الشافعى	٦٠٧
			المدرسة الكاملية	٦٢٢
			المدرسة الفخرية	٦٢٢
١٢٣٨	٦٣٥	العادل (الثانى) بن الكامل	المدرسة الصيرمية	٦٣٦
١٢٤٠	٦٣٧	الصالح أيوب بن الكامل	المدرسة الصالحية	٦٣٩
			جامع الروضة	
١٢٤٩	٦٤٦	المعظم توران شاه بن الصالح	زواية خدام	٦٤٧

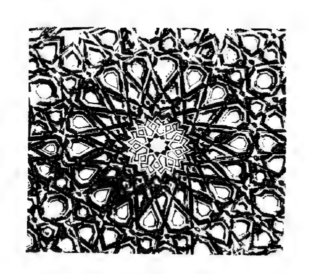
(هـ) دولة المماليك

وأقام المماليك شجر الدر سلطانة ، وعينوا أحدهم وهو أيبك التركمان الى جانبها . غير أن الخلافة العباسية صاحبة السيادة الأسمية على مصر لم ترض بتعيين شجر الدر سلطانة على البلاد ، فأقام المماليك أيبك سلطانا ، وخلعت شجر الدر نفسها وتزوجت من أيبك ، بعد أن انفردت بمقاليد البلاد مدة بلغت ثمانين يوما فقط . ويعد أيبك (سنة ٦٤٨ ـــ ٦٥٥هـ / ١٢٥٠م ـــ ١٢٥٧م) أول سلاطين المماليك . وجرى المصطلح على تقسيم عهد المماليك الى قسمين ، وهما دولة المماليك البحرية (٦٤٨ ـــ ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ ـــ ١٣٨٢م) ودولة المماليك البرجية (سنة ٧٨٤ ـــ ٩٢٣هـ / ١٣٨٢ ـــ ١٥١٧م) . والمماليك البحرية من حرس السلطان الصالح الأيوبى ، أما البرجية فنشأوا حرسا للسلطان المملوكى قلاوون (٦٧٨هـ / ١٢٧٩) . وجاء هؤلاء وأولئك من أجناس مختلفة ، فمنهم التركى والشركسى والمغولى والايطالى والألمانى واليونانى .

وتداول عرش مصر من سلاطين المماليك المعروفين باسم المماليك البحرية أربعة وعشرون سلطانا ، ومن المماليك المعروفين باسم المماليك البرجية ثلاثة وعشرون سلطانا . ولم يحترم المماليك مبدأ الوراثة للعرش لأنهم اعتبروا أنفسهم أسوياء ، لا فضل لمملوك على آخر الا بالشجاعة والسياسة والمقدرة على استمالة التابعين من المماليك .

وبلغت مصر مبلغا عظيما من القوة والثروة والأبهة على عهد سلاطين دولة المماليك الأولى والثانية ، وصدت كثيرا من الأخطار الجسيمة التى هددت البلاد الاسلامية عامة ، والشرق العربى خاصة . فقضى المماليك على الخطر المغولى الذى أزال الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦هـ ـــ ١٢٥٨م ، وأخرجوا جيوش الصليبيين من الشام . وأضحت دولة سلاطين المماليك هى القوة العظمى الوحيدة المدافعة عن كيان العالم الاسلامى ، وآخر الدول المستقلة التى عاشت بمصر .

وأصاب المماليك الترف والعافية بعد أن استقر الأمر لهم ، وتدفقت عليهم الثروات الواسعة بسبب التجارة . فذب الضعف فيهم وكثرت فئاتهم وأحزابهم ، وتضاربت مصالح هذه الفئات والأحزاب ، على حين تطورت الدولة العثمانية التركية فى ذلك الوقت من قوة الى قوة فى آسيا الصغرى والبلقان ، حتى غدت ترى نفسها جديرة بالسيادة العظمى على العالم الاسلامى . ولذا حاربت دولة سلاطين المماليك وقضت عليها فى مصر سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م .



نظام الحكم :

سار سلاطين دولة المماليك الأولى والثانية على وتيرة أسلافهم وسادتهم الأيوبيين . فالسلطان المملوكى رأس الادارة المصرية والموجه لشئون البلاد . واتخذ المماليك لفظ سلطان جريا وراء العرف الذى ساد الأيوبية فى تلقيب حكامها بالسلاطين . على أن السلطان المملوكى لم يختلف عن سائر مماليك الدولة ، اذ نشأ مثلهم وعاش نظامهم الحربى ، وكثيرا ما نعت نفسه بلفظ المملوك امعانا فى الدلالة على أن وظيفة السلطان لم ترفعه عن سائر اخوانه من المماليك .

وعلى الرغم من محاولة بعض السلاطين أن يجعلوا منصب السلطنة وراثيا فى أبنائهم بعدهم ، لم ينجح مبدأ الوراثة الا أحيانا . اذ اعتمد السلطان على قوته الحربية ، وكثيرا ما اغتصب قادة الجيش المملوكى الأقوياء منصب السلطنة لأنفسهم . فالجيش المملوكى هو الأداة المحركة للشئون السياسية فى البلاد ، وهو جيش اقطاعى يأخذ الأمير المملوكى منه اقطاعا من الأرض مقابل ما يقدمه من الجند والخدمات الحربية فى حروب السلطان . فيقوم أمير مائة مثلا بتقديم مائة جندى يكون هو على رأسهم ، ويقوم أمير خمسين بما يناسب اقطاعه ، أى خمسين جنديا يذهب بهم الى جيش السلطان ، وهكذا .

وسار النظام الادارى فى السلطنة المملوكية على قواعد المركزية الدقيقة ، فالسلطان هو الذى يختار رؤساء الدواوين الكبرى فى القاهرة ، ويعهد اليهم بالاشراف على الادارات المحلية فى الأقاليم . وتعددت الدواوين الحكومية على عهد سلاطين المماليك ، وأهمها ديوان الانشاء الذى تشبهه وزارة الخارجية فى العصر الحدث ، وأهم اختصاصاته تنظيم العلاقات الخارجية للدولة . وديوان الجيش وهو الديوان الذى يقوم على توزيع الاقطاعات وضبطها ونقلها من أمير مملوكى الى آخر . وديوان الأحباس وهو يقوم بما تقوم به وزارة الأوقاف اليوم . وديوان الخاص ويشرف على

الشئون المالية التى تتعلق بالسلطان . وديوان النظر وتشبهه وزارة المالية فى العهد الحاضر . ومن المعروف أن هذه الدواوين وغيرها من أدوات الجهاز الحكومى قامت زمن الفاطميين ، غير أنه زاد عليه ما أدخله سلاطين الأيوبيين والمماليك من تنظيم فى ادارتها واختصاصاتها ..

واشتهر رئيس كل ديوان باسم الناظر فى أعماله ، ثم يليه نائب يسمى مستوفى الصحبة ، لملازمته الناظر فى أعماله ، ثم يليه موظفون آخرون وهم المعروفون باسم المستوفين ، وكتاب التوقيع وكتاب الدرج والمشدين والكشاف .

انتقال الخلافة العباسية الى القاهرة :

دأب سلاطين المماليك منذ أيام السلطان أيبك على الرجوع الى الخلافة العباسية فى بغداد للحصول على تفويضها لهم بالسلطنة وليـ بوا حكمهم صبغة شرعية فى مصر . ثم تبدلت هذه السياسة تماما بعد أن زالت لاثة العباسية من بغداد على يد هولاكو وجنوده ، وفكر السلطان قطز ثالث سلا المماليك فى اعادة الخلافة العباسية الى بغداد . ثم حدث أن اغتيل السلطان قط تولى بيبرس السلطنة بالقاهرة ، فاستدعى بيبرس الى القاهرة أحد أبناء البيت العباسى ، واسمه أبو القاسم سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م ، وعقد مجلسا عاما حضره جميع رجال الدولة وكبار التجار والناس بالقاهرة ، وشهد جماعة من العربان أمام ذلك الجمع أن أبا القاسم هو ابن الخليفة الظاهر العباسى ، وبذا تمت له البيعة بالخلافة ولقب بالمستنصر . ولما تمت البيعة قلد الخليفة السلطان بيبرس البلاد الاسلامية وما يضاف اليها ، وما سيفتحه الله على يديه من البلاد .

وأخذ بيبرس بعد ذلك يجهز الخليفة بالمال الوافر والجند الكثير لاسترجاع بغداد من المغول . غير أن هذا الخليفة مات قتيلا على يد التتار قبل أن يصل الى بغداد ، فعقد بيبرس النية على اقامة الخلافة العباسية بالقاهرة ، واستدعى عباسيا ثانيا لمبايعته بالخلافة . فلما تمت البيعة وتلقب الخليفة الجديد بلقب الحاكم بأمر

الله ، أمر السلطان بيبرس بالدعاء له فى خطبة الجمعة ، وخطب له فيما بعد على منابر دمشق والمدينة والقدس . وهكذا بعثت الخلافة العباسية بالقاهرة .

وأفاد المماليك من الوضع الجديد ، اذ صار سلاطينهم منذ أيام السلطان بيبرس الى الفتح العثمانى لمصر يتمتعون بمقام سام فى العالم الاسلامى ، باعتبارهم حماة الخلافة ، والمتمتعين ببيعتها . وصارت القاهرة مركز الخلافة تأتى اليها وفود الملوك من البلاد الاسلامية القريبة والبعيدة تطلب تقليدها السلطة فى بلادها .

الأحوال الاقتصادية والاجتماعية :

وساعدت هذه الادارة المملوكية على تنشيط التجارة التى أفادت من موقع مصر الجغرافى على الطريق العالمى بين الشرق والغرب ، واستطاع المماليك بذلك الحصول على أموال كثيرة بالقياس الى ما حصل عليه الفاطميون قبلهم من هذا الطريق .

أما العناية بالزراعة وأحوال الفلاحين فاقتصر اهتمام السلاطين المماليك فيها على استغلال الأرض دون مصلحة الفلاح ، وعاشوا بعيدين عن الأراضى ما عدا أيام الخروج للصيد أو تربيع الخيل فى الربيع ، شأن الملاك المتغيبين الذين لا يعرفون عن أرضهم شيئا سوى محصولاتها من عرق الفلاح .

والواقع أن المماليك عاشوا طبقة منفصلة تمام الانفصال عن سائر سكان سلطنتهم بمصر والشام . ووصفهم المعاصرون بأنهم أرباب السيف تمييزا لهم عن أرباب القلم ، أى طائفة الموظفين المدنيين فى مختلف دواوين السلطنة وولايتها ودور القضاء والحسبة ومعاهد العلم . وجاءت هذه الطائفة من الموظفين من المصريين والشاميين الذين ظلوا كذلك طبقة منفصلة عن المماليك وعامة السكان من التجار وأرباب المهن . وعاشت هذه الطبقات الثلاث بمعزل عن الفلاحين وأهل الريف الذين لم يعرفوا عن القاهرة أو الاسكندرية شيئا ، وقنعوا بتأنية أعمال الزراعة وواجبات النظام الاقطاعى السائد فى البلاد ، وربما عاش الفلاح طول حياته دون أن يرى

صاحب الأرض التى يزرعها مرة واحدة . على أن هذا النظام الطبقى ظل جامدا ما عدا بعض حوادث الزواج والاختلاط بين بضعة المماليك وأصحاب القلم من العلماء أو القضاء وغيرهم من كبار الموظفين المدنيين .

ومع هذا غلبت القناعة على أهل البلاد ، بسبب ما أفادوا من أجور ومكافآت مقابل ما قاموا به للمماليك أرباب السيف وللموظفين أرباب القلم من صناعة الأسلحة والأقمشة والملابس والأوانى والأطعمة . ثم ان العصر المملوكى امتلأ بأنواع الملاهى مثل لعب الكرة بالصولجان « البولو » وسباق الخيل ، ومواكب النصر وحفلات الأعياد الاسلامية والمسيحية .

العلوم والآداب :

واستطاع المماليك بفضل حصولهم على الأموال الكثيرة توجيه عنايتهم الى العلوم . وتجلى التقدم العلمى فى ميدان الطب والتاريخ . فاشتهر فى دمشق على عهد المماليك ابن أبى أصيبعة ، أعظم مؤرخى الطب فى العالم العربى (١٢٠٣م — ٦٠٠هـ) ، وهو طبيب باطنى درس الطب فى دمشق والقاهرة ، وألف كتابه المشهور « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » . ويدل المستشفى الذى بناه قلاوون وهو « المارستان المنصورى » على مبلغ تقدم الطب على عهد المماليك ، واحتوى هذا المستشفى على أجنحة خاصة لمعالجة الأمراض المختلفة ، مثل الحمى والرمد ، وأقيمت به مدرسة لتعليم الطب ، ولا يزال مبنى قلاوون قائما الى العصر الحاضر ، اذ جعلته وزارة الأوقاف مستشفى للعيون بالقاهرة .

وحفل عصر المماليك بطائفة من كبار المؤرخين منهم ابن وصل وابن أيبك الصفدى وابن دقماق والذهبى والمقريزى والعينى وابن حجر والسيوطى وابن اياس . وحفظت مؤلفاتهم الكثير من أخبار دولة المماليك وألوان الحضارة فيها . وكثرت فى ذلك العصر المؤلفات المعروفة باسم الموسوعات وأشهرها « نهاية الأرب » للنويرى ، و« صبح الأعشى » للقلقشندى .

العمارة المملوكية :

وتجلى بذخ سلاطين المماليك وأمراؤهم وكذلك ثراؤهم فى ميدان العمارة ، حرصا على الظهور بالتقوى والصلاح معظم الأحيان . اذ امتلأت مصر الاسلامية بالمساجد والمدارس والمدافن التى تميز مآذنها وقبابها سماء القاهرة والاسكندرية حتى الوقت الحاضر . وعنى المماليك بتزيين عمائرهم وقصورهم بالمصابيح والنوافذ ذات الزجاج الملون فى أشكال زخرفية بديعة .

ويمكن القول بأن عصر المماليك هو العصر الذهبى فى تاريخ العمارة بمصر الاسلامية ، وذلك على امتداد دولة المماليك بشطريها المماليك البحرية والمماليك البرجية . وتتضح أهم منجزات هذا العصر الذهبى فيما يلى :

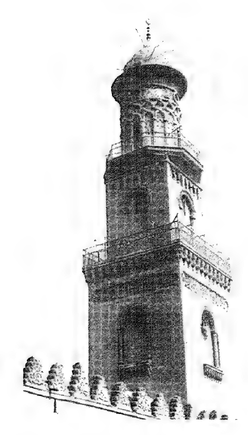
عمارة دولة المماليك البحرية

شهدت العمارة الاسلامية فى عهد دولة المماليك البحرية نشاطا واسعا وحافلا ، فضلا عن اشراف سلاطين تلك الدولة بأنفسهم على بناء منشآتهم ، والمشاركة أيضا مع المعماريين المسلمين فى التخطيط والتنفيذ . وبدأت معالم هذه العمارة وسماتها المميزة مع السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨هـ / ١٢٧٠م) الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك البحرية . فقد كثرت المنشآت المعمارية فى عهده حتى فاقت ما تم بناؤه على عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية ، وغدت كلها عمائر متصلة الحلقات ، تسود رقعة القاهرة التى اتسعت مساحتها ، وذلك فى تناسق معمارى بديع يجمع بين الأبنية والرباع والخانات والدور والمساجد والحمامات .

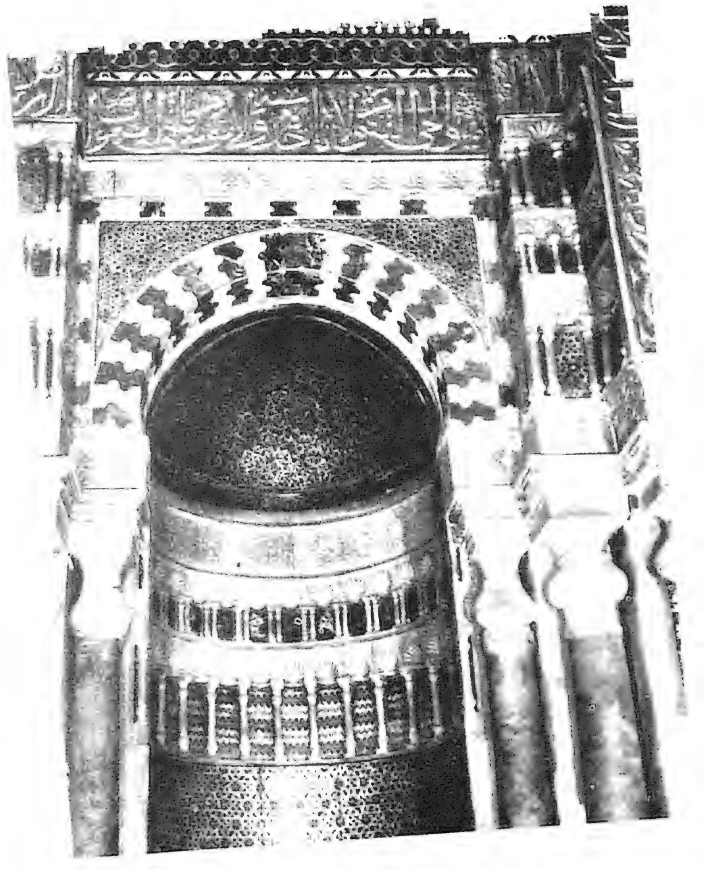
ويحمل تراث هذا النشاط المعمارى للظاهر بيبرس أثرين باقيين الى اليوم ، أحدهما المدرسة التى أسسها سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م ، والتى تطل على شارع المعز لدين الله اليوم ، والآخر هو الجامع الذى أسسه سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م خارج باب الفتوح ، والذى ما زال يحمل اسمه الى اليوم فى ميدان حى الظاهر . وبلغ من اهتمام السلطان الظاهر بهذا الجامع أنه شارك بنفسه فى اختيار موقعه وكذلك تخطيطه . أذ رفض هذا السلطان المكان الذى اختاره رجاله للجامع ، وإنما توجه بنفسه الى منطقة

الحسينية التي تقع خارج باب الفتوح في صحبة المهندسين حيث « نزل السلطان » ــ كما ذكر المقريزى ــ ومعه المهندسون الى الموقع الذى حدده ، ورسم بين يديه هيئة الجامع ، فأشار بأن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية وأن يكون على محرابه قبة على قدر قبة الامام الشافعى .

واستمر النشاط المعمارى من بعد السلطان الظاهر ، ولا سيما فى عهد أسرة السلطان قلاوون . فقد بدأ هذا السلطان العمارة بإقامة مجمع فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م وانتهى منه فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م ، ويضم المدرسة والبيمارستان والضريح ، القائمة آثارها الى اليوم بسوق النحاسين (حاليا شارع المعز لدين الله) . وقد ظل البيمارستان يؤدى وظيفته كمستشفى فى سنة ١٨٥٦م ، ثم أقامت وزارة الأوقاف مكانه فى سنة ١٩١٥ مستشفى لمعالجة أمراض العيون .

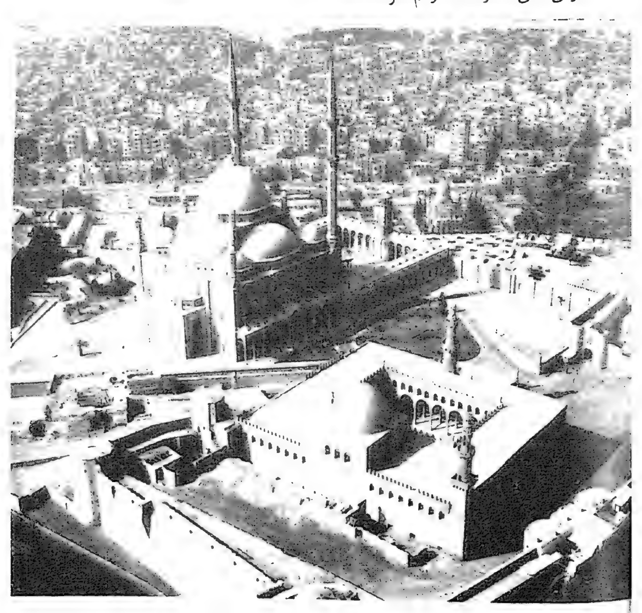


المئذنة التى تعلو ضريح المنصور قلاوون .



محراب داخل ضريح المنصور قلاوون .

وارتفع شأن العمارة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣هـ ــ ٧٤١هـ / ١٢٩٣ ــ ١٣٤١م) ، حيث بلغ من شغف هذا السلطان وحبه للعمارة أن خصص لها ديوانا قائما بنفسه سماه « ديوان العمائر » ، وبلغ مصروف هذا الديوان اليومى اثنى عشر ألف درهم نقرة .

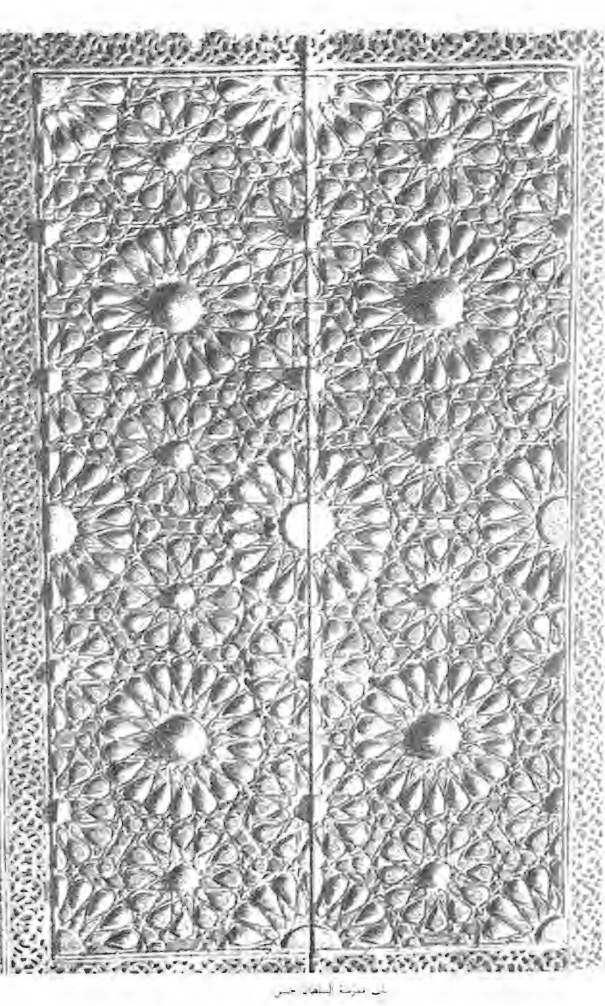


قلعة صلاح الدين وبداخلها مسجد الناصرمحمد وجامع محمد على .

وكان الناصر على دراية واسعة بالشئون الهندسية ، وشارك فى كل عمل معمارى تم على عهده حتى قال عنه المؤرخ المقريزى : « وكانت له (أى للناصر محمد) معرفة بأمور العمارة وحدث جيد ونظر سعيد ورأى مصيب » وقد شيد الناصر محمد عدة عمائر ، منها « المدرسة الناصرية » التى تقع فى شارع المعز لدين الله وخصصها لتدريس المذاهب الأربعة . وبنى الناصر أيضا القصر الأبلق بقلعة الجبل ، وهو اسم يدل على أسلوب بنائه ، وأنه كان من الحجر الأبيض والأسود . وشيد الناصر بالقلعة أيضا مسجده (٧١٨هـ / ١٣١٨م) ، كما أنشأ سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م خانقاه سرياقوس بضواحى القاهرة .

وجرى أمراء الناصر على دين سلطانهم فى العناية بالعمارة ، حيث شيد الأمير قوصون سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م جامعه الموجود حاليا بشارع القلعة (شارع محمد على سابقا) ، وأقام كذلك المارداني وكان ساقى الناصر محمد (٧٤٠هـ / ١٣٤٠م) جامعه بخط التبانة خارج باب زويلة (وهو حاليا بشارع التبانة بالدرب الأحمر ، وهو من أجل الآثار الباقية الى اليوم بالقاهرة من منشآت عصر الناصر محمد .

وتبلغ عمارة دولة المماليك البحرية أوجها فى المدرسة التى أسسها أحد أبناء السلطان الناصر محمد وهو السلطان حسن ، وذلك سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م ، وهى المدرسة التى ما زالت تقف شامخة الصرح الى اليوم بميدان صلاح الدين فى مواجهة القلعة . وخصص السلطان حسن مدرسته لتدريس المذاهب الاسلامية الأربعة ، كما ألحق بها مساكن للطلبة . وتبلغ مساحة هذه المدرسة ٧٩٠٠ متر مربع وارتفاع مدخلها ٣٧٫٨٠ مترا ، هذا فضلا عما تحفل به من زخارف عديدة تجعلها جديرة بأن تكون محط الزائرين الى القاهرة ، من داخل البلاد وخارجها ، وأن تهىء للعمارة الاسلامية نموذجا تزهو به وسط آثار مصر القديمة وتراثها



باب مدرسة السلطان حسن

أهم آثار عصر المماليك البحرية
(٦٤٨ ــ ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ ــ ١٣٨٢م)

رقم الأثر	اسم الأثر	التـــــاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٣٧	مدرسة الظاهر بيبرس البندقدارى بالنحاسين	٦٦٠ ــ ٦٢	١٢٦٢ ــ ٦٣
	جامع السلطان الظاهر بيبرس بالظاهر	٦٦٥ ــ ٦٧	١٢٦٦ ــ ٦٩
١٤٦	زاوية وخانقاه أيدكين البندقدارى بشارع السيوفية	٦٨٣	١٢٨٤ ــ ٨٥
٤٣	مدرسة وبيمارستان وقبة السلطان قلاوون بالنحاسين	٦٨٣ ــ ٨٤	١٢٨٤ ــ ٨٥
٢٧٥	قبة الأشرف خليل بشارع الأشرف (شارع الخليفة)	٦٨٧	١٢٨٨
٥٩٠	حسام الدين توران طاى	٦٨٩	١٢٩٠
٢٤٩	قصر الين آق (الحسامى) بشارع التبانة باب الوزير	٦٩٣	١٢٩٣
٤٤	قبة الناصر محمد ومدرسته بالنحاسين	٦٩٥ ــ ٧٠٣	١٢٩٥ ــ ١٣٠٤
٣١	مدرسة قراسنقر بالجمالية	٧٠٠	١٣٠٠ ــ ١
٢٢١	مدرسة ومسجد سنجر الجاولى بقلعة الكبش	٧٠٣	١٣٠٣ ــ ٤
٣٢	خانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية	٧٠٦ ــ ٩	١٣٠٦ ــ ١٠
٧٨	قناطر المياه (عصر الناصر محمد بن قلاوون) بفم الخليج	٧١٢	١٣١٢
٥٤٩	بقايا قصر محمد بن قلاوون	٧١٤	١٣١٤

رقم الأثر	اسم الأثر	التـــــاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٢٧٠	قبة صفى الدين جوهر بالركيبة	٧١٤	١٣١٥
٢٦٣	مدرسة وقبة سنقر السعدى (حسن صدقة)	٧١٥ ـــ ٢١	١٣١٥ ـــ ٢١
٢٤	مسجد الملك الجوكندار بشارع أم الغلام	٧١٩	١٣١٩
٢٣٣	جامع الأمير حسين بالمناصرة	٧١٩	١٣١٩
٢٧١	قبة سنجر المظفر	٧٢٢	١٣٢٢
١١٥	مسجد أحمد المهمندار بالدرب الأحمر	٧٢٥	١٣٢٤ ـــ ٢٥
٥٦١	سبيل الناصر محمد	٧٢٦	١٣٢٦
٢٦	مدرسة مغلطاى الجمالى بقصر الشوق	٧٣٠	١٣٢٩ ـــ ١٣٣٠
١٣٠	مسجد الأمير الماس بالحلمية	٧٣٠	١٣٢٩ ـــ ٣٠
١٤٣	مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة	٧٣٥	١٣٣٥
٩٢	قبة طشتمر (حمص أخضر) بالقرافة الشرقية	٧٣٥	١٣٣٥
٢٠٥	مسجد الأمير بشتاك (الباب الداخلى والمنارة)	٧٣٦	١٣٣٦
١٧٦	جامع شرف الدين بالحمزاوى	٧١٧ ـــ ٣٨	١٣١٧ ـــ ٣٧
٢٦٦	قصر الأمير يشبك (قوصون)	حوالى ٧٣٨	١٣٣٧
٣٤	قصر الأمير بشتاك بالنحاسين	٧٣٥ ـــ ٤٠	١٣٣٤ ـــ ٣٩

رقم الأثر	اسم الأثر	التـــــاريخ	
		الهجرى	الميلادى
١٢٠	مسجد الطنبغا المارداني بالتبانة	٧٣٩ ـــ ٤٠	١٣٣٩ ـــ ١٣٤٠
٢٥٢	مسجد الست مسكة بالحنفى	٧٤٠	١٣٣٩ ـــ ٤٠
١١	وكالة قوصون بباب النصر	قبل ٧٤٢	١٣٤١
٢٤٤	مدخل حمام بشتاك بسويقة العزى	قبل ٧٤٢	١٣٤١
١١٢	مسجد أصلم السلحدار بدرب شعلان	٧٤٥ ـــ ٤٦	١٣٤٤ ـــ ٤٥
٢٢	مسجد ايدمر البهلوان بأم الغلام	قبل ٧٤٧	١٣٤٦
١٢٣	مسجد آقسنقر ابراهيم أغا مستحفظان بشارع التبانة باب الوزير	٧٤٧ ـــ ٤٨	١٣٤٦ ـــ ٤٧
٢٠٣	مسجد أرغون شاه الاسماعيلى بالناصرية	٨٤٨	١٣٤٧
٢٤٢	مدرسة قطلوبغا الذهبى بسويقة العزى	٧٤٨	١٣٤٧
٣٧	قبة ومدرسة تتر الحجازية بالجمالية	٧٤٨ ـــ ٧٦١	١٣٤٨ ـــ ١٣٦٠
١٣٨	مسجد منجك اليوسفى بالحطابة بالقلعة	٧٥٠	١٣٤٩
١٤٧	مسجد الأمير شيخو بشارع الصليبة	٧٥١	١٣٥٠
٥٠	قاعة محب الدين	٧٥١	١٢٥٠
٢٦٧	قصر الأمير طاز بالسيوفية	٧٥٣	١٣٥٢

رقم الأثر	اسم الأثر	التـــــاريخ	
		الهجرى	الميلادى
١٤٤	سبيل الأمير شيخو بالحطابة	٧٥٥	١٣٥٤
١٥٢	خانقاه وقبة الأمير شيخو بشارع الصليبة	٧٥٦	١٣٥٥
١٤٠	مسجد خانقاه نظام الدين بالحطابة	٧٥٧	١٣٥٦
٢١٨	مدرسة سرغتمش بشارع الخضيرى (الصليبة)	٧٥٧	١٣٥٦
١٢٣	مسجد ومدرسة السلطان حسن بشارع القلعة	٧٥٧ ــ ٦٤	١٣٥٦ ــ ٦٢
٢٩٨	قبة تنكزبغا بالقرافة القبلية	حوالى ٧٦٠	١٣٥٩
٢٦٩	مدرسة بشير أغا الجمدار بنور الظلام	٧٦١	١٣٥٩ ــ ٦٠
٤٥	مدرسة الأمير مثقال بدرب قرمز	٧٦٢	١٣٦١ ــ ٦٢
٨٥	قبة الأمير تنكزبغا بالقرافة الشرقية	٧٦٤	١٣٦٢
٨٠	قبة الأمير طولبية بالقرافة الشرقية	٧٦٥	١٢٦٣ ــ ٦٤
١٥٣	مدرسة خشقدم الأحمدى بشارع الصليبة	٧٦٨ ــ ٧٨	١٣٦٦ ــ ٧٧
١٢٥	مدرسة أم السلطان شعبان بشارع التبانة (باب الوزير)	٧٧٠	١٣٦٨ ــ ٦٩
٣١٠	قبة أقسنقر بقنطرة سنقر	٧٧١	١٣٧٠
١٨٥	مسجد أسبنغا بدرب سعادة	٧٧٢	١٣٧٠

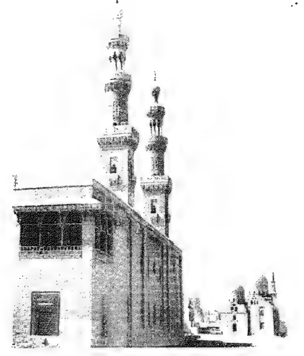
رقم الأثر	اسم الأثر	التـــــاريخ	
		الهجرى	الميلادى
١٨	المدرسة البقرية بحارة عطوف	قبل ٧٧٦	١٣٧٤
١٣١	مدرسة الجاى اليوسفى بسوق السلاح	٧٧٤	١٣٧٣
١٣٩	قبة الأمير يونس الدوادار بالحطابة	قبل ٧٨٣	١٣٨٢
١٥٧	قبة الأمير يونس الدوادار (أنس) بالقرافة الشرقية	٧٨٣ ــ ٨٤	١٣٨٢
٢٢٥	بوابة درب اللبانة بالمحجر (القلعة)	القرن الثامن	القرن الرابع عشر
٢٨٧	بقايا ربع طغج بالسيوفية	القرن الثامن	القرن الرابع عشر

هذا الجدول نقلا عن : عبد الرحمن زكى ، القاهرة ، ص ١٥٧ر١٠

عمارة دولة المماليك الجراكسة

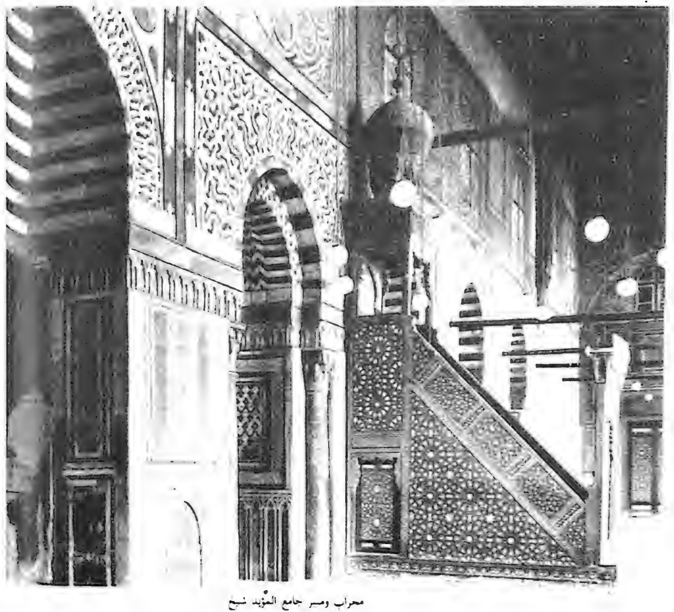
وقفت عمارة دولة المماليك الجراكسة تكمل مسيرة عمارة دولة المماليك البحرية ، وتقدم فى الوقت نفسه نموذجا رائعا فى تطوير فن العمارة بمصر الاسلامية . ذلك أن عمارة دولة المماليك البحرية اتخذت طابع الضخامة فى المبنى تقليدا لها ، على حين استبدلت عمارة دولة المماليك بالضخامة الاهتمام بجمال الفن ودقته وحسن التنسيق بين وحدات المبنى بالرغم من صغر حجمه .

وتتجلى أولى معالم عمارة دولة المماليك الجراكسة فى منشآت السلطان برقوق (٧٨٦ ــ ٧٨٨هـ / ١٣٨٤ ــ ١٣٨٦م) ومن آثارها الباقية الى اليوم مدرسته القائمة بشارع المعز لدين الله ، والتى فرغ السلطان من بنائها سنة ٧٨٨هـ ، وكذلك خانقاه برقوق التى أكملها ابنه فرج (٨١٣هـ / ١٤١٠م) وهى تقع فى الجزء البحرى من قرافة المماليك ، وتعتبر من أروع المجموعات فى ميدان العمارة الاسلامية ، والتى قامت لأداء أغراض متعددة ، اذ تجمع بين مسجد لاقامة الشعائر الدينية وخانقاه لاقامة الصوفية ومدافن للظاهر برقوق وأفراد أسرته ومدرسة لتلقى العلم وحفظ القرآن الكريم ، وكذلك سبيل لتزويد المارة بالمياه ..



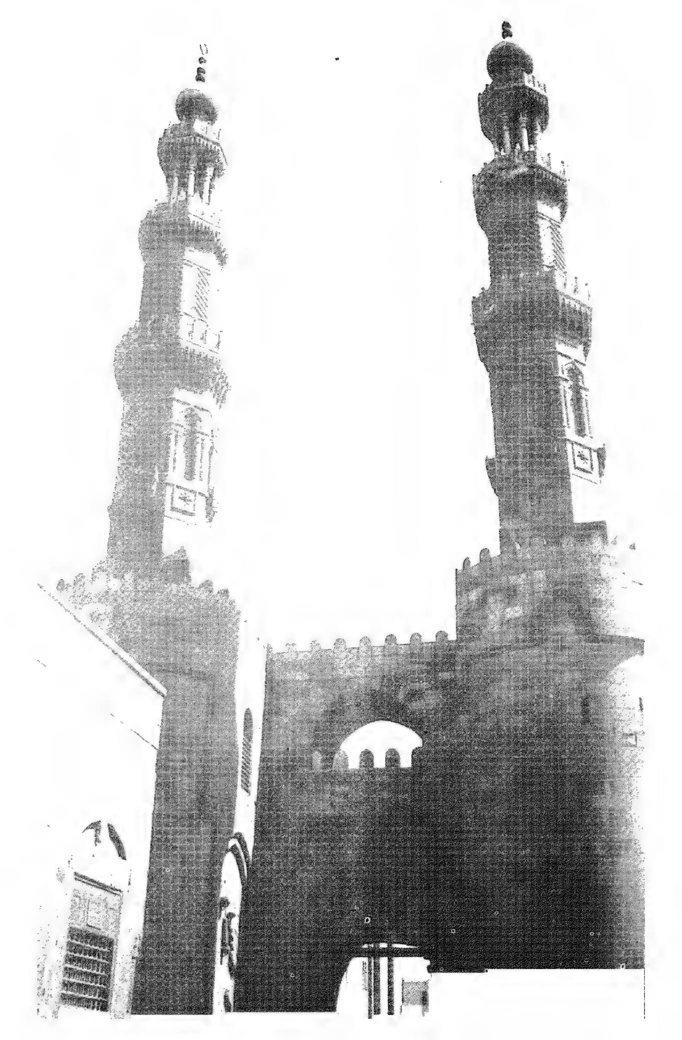
خانقاه فرج بن برقوق بقرافة المماليك .

وظهرت براعة العمارة فى عصر المماليك الجراكسة فى جامع المؤيد شيخ ٨٢٢هـ / ١٤١٩م ، اذ استغل المعمار وجود باب زويلة ملتصقا بالجامع ، واتخذ من بدنتى هذا الباب قاعدتين لمنارتى الجامع ، وأتاح لهما بالتالى ارتفاعا شامخا جميلا وسط عمائر مصر الاسلامية وعلما من أعلامها الباقية الى اليوم .

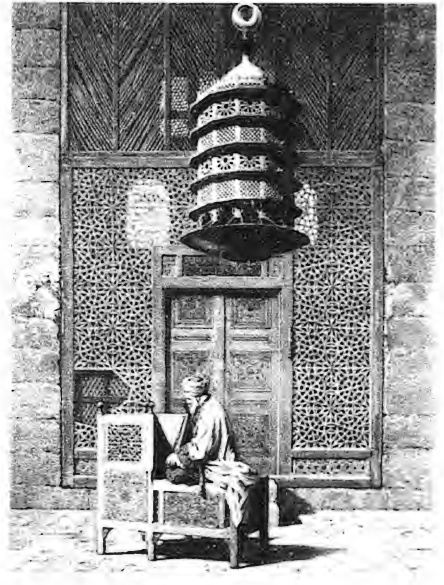


محراب ومنبر جامع المؤيد شيخ

باب زويلة تعلو بدنتيه مئذنتى جامع المؤيد شيخ



وأخذت معالم العمارة فى دولة المماليك الجراكسة تزداد وضوحا وتناسقا فى النظام الذى يضم عددا من الوحدات ، وذلك فى « خانقاه » الأشرف برسباى بالقرافة الشرقية ، حيث تم انشاء هذه المجموعة سنة ٨٣٥هـ / ١٤٣٢م ، وتشتمل على خانقاه لاقامة الصوفية ، ثم حوش كبير فيه قبور وبقايا قبة ، ومصلى لاقامة الشعائر الدينية .



دكة المقرىء يعلوها تنور من البرونز .

وتابع سلاطين الجراكسة بناء عمائرهم فى القرافة الشرقية حيث غدت فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى معلما هاما من معالم القاهرة وما حفلت به من عمارة اسلامية . ويتجلى ذلك فيما قام به السلطان قايتباى ، الذى أعاد النشاط الى العمارة المملوكية على نحو ما حفلت به أعمال الناصر محمد . فقد كان السلطان قايتباى موفقا فى أعماله فضلا عن ذوقه الرفيع فى فن الهندسة وعنايته بالتفاصيل المعمارية . ويتجلى ذلك فى مدرسته القريبة من جامع ابن طولون ووكالته بالقرب من الأزهر ، ومجموعة قايتباى بالقرافة الشرقية التى تعتبر من أجمل نماذج العمارة المملوكية ، حيث تضم مدرسة ومسجدا وسبيلا وكتابا وضريحا ومئذنة جيدة المنظر ، حسنة التنسق .

وامتد نشاط قايتباى فى ميدان العمارة الى خارج القاهرة ، حيث أقام قلعة بالاسكندرية سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م ، ما زالت تقف بآثارها شامخة على شواطىء مصر على البحر المتوسط . وينسب الى قايتباى ما يزيد عن سبعين أثرا اسلاميا .

وتصل عمارة دولة المماليك الجراكسة الى نهايتها فى عصر السلطان قانصوة الغورى الذى زالت بزوال حكمه تلك الدولة ، وما حفلت به من أمجاد سياسية وعمرانية . فقد قام السلطان الغورى ببناء وتجديد الكثير من العمائر ، شملت شتى النواحى بالقاهرة وخارجها ، بل وفى خارج القطر المصرى نفسه . ومن أهم ما قام به هذا السلطان هو اصلاح قلعة الجبل وأبراج الاسكندرية وجدد خان الخليلى وأصلح قبة الامام الشافعى ، ومسجد الامام الليث وأنشأ منارة للجامع الأزهر ، كما شيد عددا من القصور والوكالات والخانات يأتى فى صدارتها مجموعته الباقية الى اليوم فى نهاية شارع الغورية مع تقاطعه مع شارع الأزهر ، وهى المجموعة التى تتكون من وكالة وحمام ومنزل ومقعد وسبيل وكتاب ومدرسة وقبة ، ثم مسجد الغورى الذى يقف علما شامخا فى الوقت الحاضر على أمجاد دولة المماليك بشطريها البحرى والچركسى .

غير أن النشاط المعمارى للسلطان قانصوه الغورى كان أشبه بصحوة الموت ، فما كاد ينتهى فى سنة ٩٠٩ ــ ٩١٠هـ / ١٥٠٣ ــ ١٥٠٤م من العمل فى المجموعة



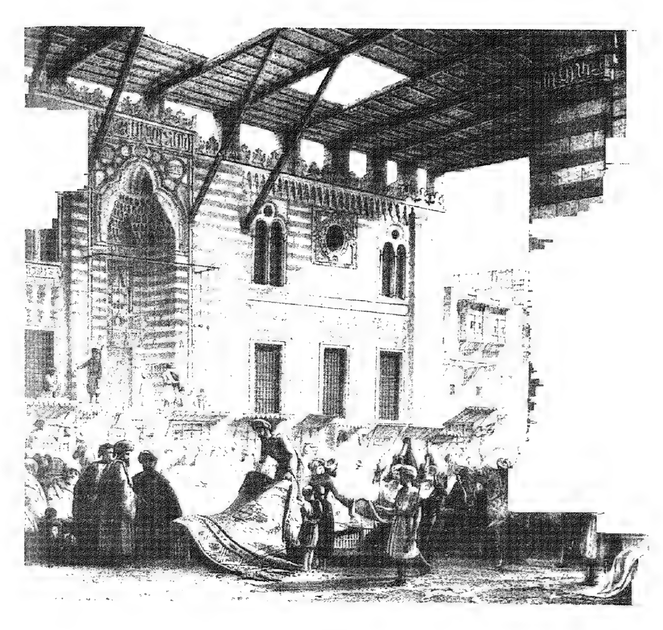
مدرسة السلطان الغوري .

الكبرى التى ما زالت شامخة الى اليوم بالغورية بحى الأزهر حتى دهمت مصر أخطار العثمانيين ، ومصرع السلطان قانصوه الغورى نفسه ، وهو يتصدى لهذا الخطر عند مدينة مرج دابق بالشام سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م . وطوت العمارة المملوكية نشاطها مع نهاية السلطان الغورى ، تاركة بآثارها العديدة والشامخة الى اليوم فى شتى أرجاء مصر نماذج عالية عن منجزات العمارة التى قدمتها مصر الاسلامية ، تلبية وخدمة لمطالب الدنيا والدين ، والنهوض بمتطلبات المجتمع على اختلاف طبقاته ومؤسساته .

نهاية دولة المماليك :

ويرجع علو المستوى الحضارى فى مصر زمن السلاطين الى التجارة الدولية التى قامت مصر فيها بدور الوسيط بين الشرق والغرب ، حتى غدا بعض التجار المصريين أصحاب فروع تجارية بالحبشة والسودان واليمن والهند والصين . وأدرك سلاطين المماليك أهمية هذه التجارة ، ففرضوا الضرائب الجمركية العالية على الصادرات والواردات ، وصرفوا من حصيلة هذه الضرائب على عمائرهم وقصورهم وحروبهم .

ثم أخذت هذه التجارة تتحول تدريجيا عن مصر والبحر الأحمر بعد أن كشف البرتغاليون طريق الوصول الى الهند والخليج العربى بالطواف حول افريقيا ورأس الرجاء الصالح ، والسفر بحرا من أوروبا الى الهند بهذا الطريق مباشرة . ومن ثم فقد المماليك أعظم مواردهم المالية السهلة ، فصارت الأحوال الاقتصادية تدريجيا من رخاء الى ضيق ، ومن غنى الى فقر . وعجز السلاطين ، وأصبح كيان الدولة مهددا ، حتى اذا هجمت جيوش العثمانيين على مصر ، زالت سلطنة المماليك فى سرعة غير منتظرة (سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) .



شكل يمثل سوق الغورية .



أهم آثار القاهرة فى أيام المماليك الچراكسة

(٧٨٤ ــ ٩٢٣هـ / ١٣٨٢ ــ ١٥١٧م)

رقم الأثر	اسم الأثر	التـــــاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٢٥٠	مسجد ايتمش البجاسى بباب الوزير	٧٨٥	١٣٨٣
١٨٧	مسجد السلطان برقوق بالنحاسين	٧٨٦ ــ ٨٨	١٣٨٤ ــ ٨٦
١١٨	مدرسة اينال اليوسفى بالخيامية	٧٩٤ ــ ٩٥	١٣٩٢ ــ ٩٣
١١٧	مسجد الكردى (المدرسة المحمودية) بالخيامية	١٩٧	١٣٩٥
١٧٧	مدرسة مقبل الداودى بالحمزاوى	٧٩٨	١٣٩٥
١٤٩	خانقاه الناصر فرج بن برقوق بالقرافة الشرقية	٨٠٣ ــ ١٣	١٤٠٠ ــ ١١
١٢٧	مدرسة الأمير سودون من زاده بسوق السلاح	٨٠٤	١٤٠١
٣٥	جامع جمال الدين يوسف الاستادار بالجمالية	٨١١	١٤٠٨
٢٠٣	زاوية وسبيل فرج بن برقوق بشارع تحت الربع	٨١١	١٤٠٨
٢٨٦	مسجد الامام الليث بمقبرة الامام الشافعى	٨١١ ــ ٩١١	١٥٠٥
١٠٢	مدرسة العينى بشارع الداودارى	٨١٤	١٤١١
١٥١	مسجد قايتباى المحمدى بشارع الصليبة	٨١٦	١٤١٣
١٩٠	جامع السلطان المؤيد بشارع السكرية	٨١٨ ــ ٢٣	١٤١٥ ــ ٢٠
١٨٤	مدرسة الأمير عبد الغنى الفخرى بشارع منصور باشا	٨٢١	١٤١٨

رقم الأثر	اسم الأثر	التـــــاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٢٥٧	البيمارستان المؤيدى بالمحجر	٨٢١ ـــ ٢٣	١٤١٨ ـــ ٢٠
٤١٠	حمام السلطان المؤيد	٨٢٣	١٤٢٠
٦٠	مدرسة القاضى عبد الباسط بالخرنفش	٨٢٣	١٤٢٠
١٧٥	المدرسة الأشرفية بالأشرفية	٨٢٩	١٤٢٥
١١٩	مسجد جانى بك بالمغربلين	٨٣٠	١٤٢٦ ـــ ٢٧
١٢٢	قبة جانى بك الأشرفى بالقرافة الشرقية	قبل ٨٣١	١٤٢٧
١٣٤	مسجد جوهر اللالا بدرب اللبان	٨٣٣	١٤٣٠
٣١٨	مسجد السويدى بمصر القديمة	حوالى ٨٣٤	١٤٣٠
١٢١	خانقاه ومسجد السلطان برسباى بالقراقة الشرقية	٨٣٥	١٤٣٢
	مدرسة ابن تغرى بردى بالصليبة	٤٤	١٤٤٠
	منارة قايتباى الجركسى بالمنشية	٨٤٥	١٤٤١ ـــ ٤٢
	مسجد قراقجا الحسنى بدرب الجماميز	٨٤٥	١٤٤١ ـــ ٤٢
٥٥٧	سبيل الوفائية	٨٤٦	١٤٤٢
١٨٢	جامع القاضى يحيى زين الدين ببين النهدين	٨٤٨	١٤٤٤
١٧٨	مسجد الجمالى يوسف بالحمزاوى	حوالى ٨٥٠	١٤٤٦
٣٤٤	مسجد القاضى يحيى ببولاق	٨٥٢ ـــ ٥٣	١٤٤٨ ـــ ٤٩
٢١٧	مسجد لاجين السيفى بشارع مراسينا	٨٥٣	١٤٤٩

رقم الأثر	اسم الأثر	التــــــاريخ	
		الهجرى	الميلادى
١٨٠	مدرسة جقمق بدرب سعادة	٨٥٥	١٤٥١
١٥٨	قبة وخانقاه ومدرسة السلطان الأشرف إينال بالقرافة الشرقية	٨٥٥ ـــ ٦٠	١٤٥١ ـــ ٥٦
٢٠٤	مسجد يحيى زين الدين بالحبانية	٨٥٦	١٤٥٢
١٢٤	قبة برسباى البجاسى بالقرافة الشرقية	حوالى ٨٦٠	١٤٥٦
٦١	رباط زوجة السلطان اينال بالخرنفش	حوالى ٨٦٠	١٤٥٦
٥٦٢	حمام اينال (بالمعز)	٨٦١	١٤٥٦
٢٥	جامع ابن برد بك بأم الغلام	حوالى ٨٦٥	١٤٦٠
٦٠١	قبة عمر بن الفارض	حوالى ٨٦٥	١٤٦٠
١٧١	مدفن جانى بك (نائب جده) بشارع القادرية	٨٦٩	١٤٦٥
٢٨٠	قبة عبد الله الدكرورى	حوالى ٨٧١	١٤٦٦
٢٠٧	مسجد ومنارة مغلباى طاز بحارة بنت المعمار	٨٧١	١٤٦٦
٧٧	منزل زينب خاتون بحارة الدوادار	قبل ٨٧٣	١٤٦٨
١٠٥	قبة سودون القصروى بالباطنية	قبل ٨٧٣	١٤٦٨
٩٧	باب قايتباى والمنارة بالجامع الأزهر	٨٧٣	١٤٦٩
٢١٦	مسجد وسبيل تمراز الأحمدى	٨٧٦	١٤٧٢
٩٩	مسجد وضريح السلطان قايتباى بالقرافة الشرقية	٨٧٧ ـــ ٧٩	١٤٧٢ ـــ ٧٤

رقم الأثر	اسم الأثر	التـــــاريخ	
		الهجرى	الميلادى
١٨٣	حوض وضريح السلطان قايتباى بالقرافة الشرقية	٨٧٧ ـ ٧٩	١٤٧٤
١٠١	مقعد وضريح السلطان قايتباى بالقرافة الشرقية	٨٧٩	١٤٧٤
١٠٠	قبة الكلشنى بالقرافة الشرقية	حوالى ٨٧٩	١٤٧٤ ـ ٧٥
١٠٤	ربع قايتباى بالقرافة الشرقية	٨٧٩	١٤٧٤
٤١٢	سبيل قايتباى	٨٧٩	١٤٧٤
٢٢٢	حوض السلطان قايتباى بقلعة الكبش	٨٨٠	١٤٧٥
٢٢٣	مدرسة قايتباى بقلعة الكبش	٨٨٠	١٤٧٥
٧٦	سبيل وكتاب السلطان قايتباى بالأزهر	٨٨١	١٤٧٧
٧٥	وكالة السلطان قايتباى بالأزهر	٨٨٢	١٤٧٧
١٢٩	مدرسة وقبة جانى البهلوان بالسروجية	٨٨٣ ـ ٩١٦	١٤٧٨ ـ ١٥١٠
٤٩	مدرسة أبو بكر مزهر خان مرجوش	٨٨٤	١٤٧٩ ـ ٨٠
٣٢٤	سبيل السلطان قايتباى بالصليبة	٨٨٤	١٤٧٩
	وكالة السلطان قايتباى بباب النصر		١٤٨٠ ـ ٨١
٥	قبة الفداوية	٨٨٤ ـ ٨٦	١٤٧٩ ـ ٨١
١١٤	مسجد وحوض قجماس الاسحاقى بالدرب الأحمر	٨٨٥ ـ ٨٦	١٤٨٠ ـ ٨١
٥١٩	مسجد قايتباى	٨٨٦ ـ ٩٦	١٤٨١ ـ ٩٠
٢٢٨	منزل قايتباى بحارة الماردنى	٨٩٠	١٤٨٥

رقم الأثر	اسم الأثر	التـــــاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٣٤٠	مسجد السلطان أبى العلاء	حوالى ٨٩٠	١٤٨٥
٢٧٨	باب قايتباى بالسيدة عائشة (المنشية)	٨٩٩	١٤٩٤
٢٣٥	باب قايتباى بسويقة العزى	القرن التاسع	القرن الخامس عشر
٩٠	قبة ازدمر بالقرافة الشرقية	نهاية القرن التاسع	أواخر القرن الخامس عشر
٢١١	مدرسة الأمير أزبك اليوسفى بشارع أزبك	٩٠٠	١٤٩٤ ـــ ٩٥
٧٤	حوض السلطان قايتباى بالأزهر	قبل ٩٠١	قبل ١٤٩٦
٢٢٩	مسجد السلطان شاه بغيط العدة	قبل ٩٠٤	١٤٩٦
٥١	مقعد الأمير ماماى بالنحاسين	٩٠١	١٤٩٦
٣٠٣	قبة يعقوب شاه المهمندار بسفح المقطم	٩٠١	١٤٩٥ ـــ ٩٦
٣٦٠	قبة قانصوه أبو سعيد	٩٠٤	١٤٩٩
١٦٤	قبة السلطان قانصوه أبو سعيد	٩٠٤	١٤٩٩
٢	قبة طومانباى بالعباسية	٩٠٦	١٥٠١
٢٤٨	مسجد خير بك بشارع التبانة باب الوزير	٩٠٨	١٥٠٢
١٢٦	مدرسة قايتباى أمير أخور بالمنشية	٩٠٨	١٥٠٣
٦٦و٦٧	منزل ومقعد وقبة وسبيل وكتاب قانصوه الغورى بالغورية	٩٠٩ ـــ ١٠	١٥٠٣ ـــ ٤
١٤٨	مسجد السلطان قانصوه الغورى بالمنشية	٩٠٩	١٥٠٤

رقم الأثر	اسم الأثر	التـــــاريخ	
		الهجرى	الميلادى
١٨٩	مدرسة السلطان الغورى بالغورية	٩٠٩ ــ ١٠	١٥٠٤ ــ ٥
٦٤	وكالة قانصوه الغورى بشارع التبليطة	٩٠٩ ــ ١٠	١٥٠٤ ــ ٥
٢٩٤	قبة الأمير سودون	حوالى ٩١٠	١٥٠٤
٢٥٤	مسجد قايتباى الرماح بالناصرية	٩١١	١٥٠٦
١٦٢	مسجد الأمير قرقماش (أمير كبير) بالقرافة الشرقية	٩١١ ــ ١٣	١٥٠٦ ــ ٧
١٢	جامع الدشطوطى بباب الشعرية	٩١٢	١٥٠٦
٧٨	قناطر المياه (عصر الغورى) بفم الخليج	٩١٢ ــ ١٤	١٥٠٦ ــ ٨
٣٢٢	بقايا قصر الغورى بالصليبة	٩٠٦ ــ ٢٢	١٥٠١ ــ ١٦
٥٤	باب خان الخليلى بخان الخليلى	٩١٧	١٥١١
٥٦	باب خان الخليلى بخان الخليلى	٩١٧	١٥١١
١٧٠	قبة قرقماش بشارع باب الفتوح	٩١٧	١٥١١
٣٥١	خان الزراكشة	أول القرن العاشر	أول القرن السادس عشر
٤٢٥	وكالة الجلابة	أول القرن العاشر	القرن السادس عشر

هذا الجدول نقلا عن : عبد الرحمن زكى ، القاهرة ، ص ١٨٩

الفصل الثالث

بناء الجيل العربى فى مصر

« ولن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا فى هذه الخريطة ، ودورنا بحكم هذا المكان ... أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا وليس كلام » .

(جمال عبد الناصر ــ فلسفة الثورة)

أولا : جذور الجيل العربى فى مصر

يكون الجيل العربى البنية الأساسية لمصر الاسلامية وما قام على تلك البنية من شوامخ الصروح المجيدة التى شيدتها مصر فى الميدانين السياسى والحضارى لكل من العالمين العربى والاسلامى على حد سواء . وصاحب ارساء قواعد بناء هذا الجيل العربى طلائع الفتح الاسلامى لمصر ، وما اقترن بذلك من قيام ادارة اسلامية حققت فى نجاح تطبيق العدالة الاسلامية ورعاية حقوق المواطنين فى مصر ، وكذلك نجاح أول عاصمة اسلامية فى مصر وهى الفسطاط فى ربط مواطنى البلاد بمنابع العروبة الأصلية ، وتقديم اسهامات مبكرة فى بناء الجيل العربى الذى ما زالت تزهو به مصر الى اليوم ، ليس بين العرب والمسلمين فحسب ، بل بين أبناء الدنيا كلها أيضا .

وتجلت معالم جذور الجيل العربى وامتداده الأصيل حين نجحت الادارة الاسلامية فى مصر ، منذ ولاية عمرو بن العاص فى خلق انسجام بين سكان البلاد يوفر لهم أسباب الطمأنينة والعيش الرغد لكل منهم . وقام هذا النظام على أساس تحديد حقوق المواطنة بما يكفل لمصر الاسلامية كيانها ويهيء لها أداء رسالتها السامية ، وهى نشر الدين الاسلامى واعلاء كلمته . واشتمل هذا النظام على قواعد جليلة الشأن ، ليس بالمسلمين فحسب ، بل بأولئك الذين آثروا البقاء على دينهم أيضا من سكان مصر ، امتثالا لقوله تعالى : « لا اكراه فى الدين » . فأرسى النظام الاجتماعى الاسلامى قواعد

محددة للجماعات التى أطلق عليها من سكان الدولة اسم « أهل الذمة » ، وهم أهل الكتاب من أصحاب الديانات السماوية المنزلة ، من اليهودية والنصرانية . اذ نص القرآن الكريم على حسن معاملتهم ومعاشرتهم ، وذلك فى قوله تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا تعبدوا الا الله ، ولا نشرك به شيئا [١] » وقال تعالى : « اليوم احل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتو الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم [٢] » .

وكلمة الذمة تعنى لغويا العهد والأمان والضمان ، أى أن أهل الذمة هم الذين شملهم الاسلام من النصارى واليهود بعهده وأمانه ، ثم أولئك الذين طبق عليهم المسلمون فيما بعد قواعد « نظام أهل الذمة » من غير النصارى واليهود . وقد أشار القرآن الكريم الى طوائف أهل الذمة وتحديد طبيعة معاملتهم وعلاقتهم بالمسلمين فى قوله تعالى : « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة [٣] .

وكان الرسول الكريم أول من طبق عمليا قواعد « نظام أهل الذمة » على النصارى واليهود فى الحجاز ، ثم على مجوس البحرين حين امتد اليهم سلطان الدولة الاسلامية الفتية . اذ فرض الجزية على النصارى واليهود ، ثم قررها أيضا على المجوس قائلا لعمالة « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » . وكان أخذ الجزية امتثالا لقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتو الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . ولم تكن تلك الجزية كما حاول البعض تحريفها نوعا من العقوبة أو الجزاء على الذمى ، وانما كانت اسمى قاعدة لاقرار أهل الذمة على دينهم ، ودفعها مقابل تعهد المسلمين بالمحافظة على أرواحهم وأموالهم ودياناتهم ، واعفائهم من أداء الخدمة العسكرية . ثم ان الجزية فرضت على الذكور البالغين وحدهم من أهل

الذمة ، مما يدل على انها نظام من نظم الدولة ، وليس عقابا ، والا كانت قد تم فرضها على جميع أهل الذمة دون استثناء ، اطفالا ونساء وشيوخا الى جانب الرجال .

وهيأ « نظام أهل الذمة » لغير المسلمين أن يكونوا رعايا من أبناء الدولة الاسلامية ينعمون بحمايتها ويمارسون جميع حقوقهم وواجباتهم فى ظل الأمان والضمان والعهد الذى يحصلون عليه مقابل أداء الجزية . وساعدت السوابق التى تقررت على عهد الرسول الكريم على توضيح معالم هذا النظام بما لا يدعو الى أى خلل فيه ، نظرا لأهميته ومكانته فى البناء الاجتماعى للدولة الاسلامية . فكان يباح لهم الحرية التى يرغبون القيام فيها . وتجلى ذلك فى العهد الذى أعطاه الرسول الكريم لنصارى نجران ، اذ جاء فيه « ولنجران ، وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم ، وأرضهم وملتم ، وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم ، وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقفا من أسقفيته ، ولا راهبا من رهبانية ولا كاهنا من كهانيته ، وليس عليهم دية ، ولادم جاهلية ، ولا يحشرون ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم جزيتهم فسهمهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر ، وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله » .

واستهدفت سياسة الرسول الكريم بتأكيد هذه العهود العمل على مزج أهل الذمة مع أبناء المجتمع الاسلامى الجديد ، وتوفير كافة أسباب الطمأنينة الاجتماعية لهم باعتبارهم من رعايا الدولة . فكان يحضر ولائمهم ويعود مرضاهم ويشيع جنازاتهم ويكرمهم . وكان آخر ما تكلم به النبى هو الحث على احترام هذا النظام الاجتماعى الخاص بأهل الذمة ، وذلك فى قوله : احفظونى فى ذمتى .

وتابع الخلفاء الراشدون رفع القواعد التى وضعها الرسول الكريم فى « نظام أهل الذمة » وذلك فى دقة واحترام كامل . ذلك أن الفتوحات الاسلامية تطلبت تطبيق

« نظام أهل الذمة » على سكان الولايات التى خضعت للمسلمين من حدود الصين شرقا الى جبال البرت (البرانس) غربا . وتباينت أديان أولئك السكان ومذاهبهم الدينية ، التى كان أهمها المجوسية فى فارس والبوذية فى الهند الى جانب المسيحية فى مصر والأندلس .

وواجه الخلفاء الراشدون هذا الحشد من السكان وديانتهم فى طمأنينة بفضل قواعد « نظام أهل الذمة » والسوابق التى سبق اقرارها منه على عهد الرسول الكريم . فقد تردد عمر بن الخطاب أولا فى معاملة مجوس العراق وقال : « ما أدرى كيف أصنع بالمجوس ؟ » فقال له عبد الرحمن بن عوف : أشهد أنى سمعت رسول الله يقول « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » . ثم خطا الخليفة عمر خطوة هامة فى دعم نظام أهل الذمة حين حدد مقدار الجزية التى تجبى منهم وأسلوب تطبيقه لتلك الجزية فجعلها حسب ثروة كل فرد من أهل الذمة من الذكور فقط ، مع ابقاء شروط هذا النظام وهو اعفاء الأطفال والنساء والشيوخ من أدائها . فكانت الجزية على القادر أربعة دنانير أو ثمانية وأربعين درهما ، وعلى متوسط الحال ديناران أو أربعة وعشرون درهما ، وعلى الشخص العادى دينارا أو اثنا عشر درهما . واستهدف الخليفة من ذلك الاجراء جعل الجزية تقنينا محددا لا يصح لأحد أن ينحرف به أو يستخدمه للاساءة الى أولئك الرعايا من أهل الذمة .

ودعم الخليفة سياسته ازاء أهل الذمة بأن قال : لا يحل تكليفهم مالا يقدرون عليه ولا تعذيبهم على أدائها ، ولا حبسهم ولا ضربهم » وقد روى عن هذا الخليفة أنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس ، فقال له عمر : ما أنصفناك ان كنا أخذنا منك الجزية فى شبيبتك ، ثم ضيعناك فى كبرك . ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه . وروى أن هذا الخليفة أكد دائما لعماله حسن معاملة أهل الذمة ، حيث روى لهم قول الرسول الكريم : من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجة يوم القيامة .

وتابع الخلفاء الراشدون من بعد عمر بن الخطاب سياسة حسن معاملة أهل الذمة ، فكتب عثمان بن عفان الى عماله : لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم .

وقد تولى فاتح مصر ، وهو عمرو بن العاص تطبيق « نظام أهل الذمة » بنفسه على الأقباط سكان مصر ، وأتاح لهم التمتع بالحرية الكاملة فى ظل العهد الاسلامى الجديد . ذلك أن مصر كانت تعانى قبل الفتح الاسلامى لها الاضطهاد الشديد من البيزنطيين لاختلافهم فى المذهب الدينى مع أولئك المستعمرين المستبدين . فكان سكان مصر يدينون اذ ذاك بالمسيحية على المذهب « اليعقوبى » على حين كان المستعمرون البيزنطيون على المذهب الملكانى . وقد بلغ اضطهاد البيزنطيين الدينى للمصريين أشده حتى اضطر أسقف الاسكندرية المصرى ، وهو بنيامين الى الاختفاء ، وقيادة حركة المقاومة ضد البيزنطيين .

وظل بنيامين مختفيا حتى فتح عمرو بن العاص مصر . ولما علم هذا القائد المسلم بقصة ذلك البطريق المصرى واختفائه أصدر الى جميع أقاليم مصر كتابا جاء فيه « الموضع الذى فيه بنيامين بطريق النصارى القبط ، له العهد والأمان والسلامة من الله فليحضر آمنا مطمئنا ، ويدبر حالة بيعته وسياسة طائفية » . وحين علم الأب بنيامين بذلك عاد الى الاسكندرية وتولى رئاسته الدينية بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عاما ، وسط مظاهر فرح الأقباط وحفاوة المسلمين . وقد ألقى بنيامين خطابا فى حضرة عمرو بن العاص عبر فيه عن تقديره لنظام المسلمين ازاء أهل الذمة قائلا : « كنت فى بلدى وهو الاسكندرية ، فوجدت بها أمنا من الخوف واطمئنانا بعد البلاء ، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم » .

وردد عمرو بن العاص لعماله وصايا الرسول بأهل الذمة وخاصة بالقبط من أهل مصر . ومن ذلك أنه روى عن الرسول قوله : « ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر . فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لهم منكم صهرا وذمة » لأن هاجر زوج ابراهيم الخليل وأم ولده اسماعيل كانت مصرية ، وكذلك تزوج الرسول الكريم نفسه من مارية

القبطية ، وأنجب منها ابنا سماه ابراهيم . وترك عمرو بن العاص للبطريق بنيامين الحرية الكاملة فى رعاية شئون الأقباط وتدبير أمورهم . ثم ان هذا القائد بسط تلك السياسة الخاصة بنظام أهل الذمة على الأديرة المنتشرة فى سائر أرجاء البلاد . ومن ذلك أنه كان بوادى هبيب ـــ بين مريوط والفيوم المعروف اليوم باسم وادى النطرون مائة دير للنصارى . وقد خرج منه سبعون ألف راهب ولقوا عمرو بن العاص بالطوانة بالقرب من الاسكندرية وسألوه الأمان لأنفسهم وأديارهم ، فكتب لهم بذلك أمانا بقى عندهم .

وتجلت فى مصر الحرية فى احتفال الأقباط ليس بأعيادهم الدينية فحسب ، بل وبأعيادهم القومية كذلك . وذكر ابن عبد الحكم من تلك الاحتفالات قصة فيضان النيل وما جرت به عادة المصريين اذ ذاك . فقال ان المصريين ذكروا لعمرو ان لنيلنا هذا سنة لا يجرى الا بها . فقال لهم : وما ذلك . قالوا : انه اذا كان لأثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر بؤونة ، عمدنا الى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل . فقال لهم عمرو : هذا لا يكون فى الاسلام ، وان الاسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى لا يجرى فيضان النيل قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء . فلما رأى ذلك عمرو كتب الى عمر بن الخطاب ، فكتب اليه عمر : قد أصبت ، ان الاسلام يهدم ما كان قبله ، وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل اذا أتاك كتابى . فلما قدم الكتاب على عمرو وفتح البطاقة فاذا فيها : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل أهل مصر ، وأما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وان كان الله الواحد القهار الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك . فألقى عمرو بالبطاقة فى النيل قبل يوم الصليب (عيد يحتفل به الأقباط يوم ١٧ توت) بيوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل . فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا فى ليلة ، وقطع تلك ألسنة آلسوء عن أهل مصر » .

وهذه الرواية التى انفرد ابن عبد الحكم بذكرها فى كتابه « فتوح مصر » تحمل على غرابتها وما فيها من مبالغة معنى هاما وهو أن السلطات الاسلامية بدأت تهتم فى مصر بأعياد الأقباط حتى القومية منها ، جريا على القواعد الخاصة بأهل الذمة . اذ أخذ عيد فيضان النيل مظهرا اسلاميا مع احتفاظه بالطابع القومى ، وغدا مناسبة طيبة للتقارب بين الأقباط باعتبارهم من رعايا الدولة الاسلامية وبين العرب المسلمين من أولى الأمر فى مصر . ولم يلبث الأقباط أن اشتركوا مع العرب المسلمين أيضا فى صلاة الاستسقاء ، وذلك فى الحالات التى يأتى فيها النيل فى موسمه منخفضا .

ونعم أهل مصر منذ فجر تاريخهم الاسلامى بما توافر لهم وفق « نظام أهل الذمة » ، من حرية فضلا عن الأمان واحترام العهود . وأفاق المصريون من الاضطهادات الطائفية والمذهبية التى سبق أن عانوا منها أيام تبعيتهم للروم (البيزنطيين) قبل الفتح الاسلامى . وعبر عن هذه الحقيقة المبكرة أحد الأساقفة المسيحيين ، وذلك بعد الفتح الاسلامى لمصر بخمس عشرة سنة ، اذ قال : « ان العرب الذين وهبهم الله السيادة فى أيامنا قد أصبحوا سادة لنا ، ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحى قط ، بل يحافظون على ديننا ، ويحترمون الأساقفة والقديسيين ، ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا » ، وهو قول يشبه ما أكده الأساقفة المسيحيون فى البلاد الاسلامية الأخرى .

وأتاحت قواعد نظام أهل الذمة للأقباط فى مصر سرعة الامتزاج مع العرب المسلمين ، وتفهم الدين الاسلامى عن ايمان صادق . ثم اقترن بتلك الظاهرة سرعة اقبال الأقباط المصريين على تعلم اللغة العربية ، والتحدث بها . وأتى نظام أهل الذمة ثماره فى مصر حين أتاح لأهلها اعتناق الاسلام فى سرعة رائعة وأن يصبحوا جزء لا يتجزأ من أبناء الدولة الاسلامية الشاسعة ، ويعيشون معهم متمتعين بالوحدة والمساواة ، فى ظل تعاليم الاسلام السامية التى تقررت قواعدها فى « نظام المواطنة الكاملة » .

ثانيا : دور الفسطاط فى بناء الجيل العربى

الظاهرة الكبرى فى تاريخ مصر هو سرعة ازدهار الحياة العربية فيها ، وتفانى المصريين فى خدمة الحضارة العربية ونشر رسالتها . فاذا كانت مصر تعتبر درة العالم قبل الاسلام . فانها أصبحت أغلى درة فى الوطن العربى بعد الاسلام . ويرجع السبب فى ذلك الى سرعة امتزاج العرب الوافدين الى مصر بعد الفتح الاسلامى ، بسكان البلاد ، وظهور جيل عربى جديد صار الحارس الأمين على المجتمع العربى الناشىء ، وتنمية تقاليده ودعم أوتاده .

وبدأت طلائع الجيل العربى الجديد فى مصر عقب الفتح الاسلامى لها بوقت قصير ، اذا اقتضى انتشار العرب فى مصر وضع نظام اجتماعى يكفل لهم تحقيق الرسالة السامية التى خرجوا من أجلها من ديارهم ، وهى نشر الاسلام والجهاد فى سبيله . وتمخضت معالم هذا النظام عن تأسيس الأمصار ، لتحفظ لأولئك العرب كيانهم وتوفر لهم المناخ السليم فى البيئات الجديدة التى انتشروا فى أرجائها . ووضع الخليفة عمر بن الخطاب أسس تلك « الأمصار » فى الولايات الاسلامية ، ومنها مصر ، التى شهدت تأسيس الفسطاط .

وأسس هذا المصر المعروف بالفسطاط القائد عمرو بن العاص بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب . وكان هذا القائد حين فتح الاسكندرية وشاهد منازلها وديارها هم باتخاذها معسكرا لجنده وقال : « مساكن قد كفيناها » . ثم كتب الى الخليفة عمر ابن الخطاب يستأذنه فى ذلك . وسأل الخليفة الرسول : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : « نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل » . فكتب الخليفة الى عمرو : « انى لا أحب أن ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بينى وبينهم فيه شتاء ولا صيف » .

وتحول عمرو بن العاص عن الاسكندرية ، واختار مكانا قرب حصن بابليون كان قد سبق اقامة معسكره فيه أثناء حصار هذه الحصن ، وتأسس فى هذا المكان « المصر » الذى اشتهر باسم الفسطاط . وتشعبت الآراء حول السبب الذى من أجل

اختار عمرو بن العاص المكان الذى شيد عليه الفسطاط . فروت المراجع العربية كابن عبد الحكم والمقريزى وغيرها حادث اليمامة على أنه السبب الأساسى . وخلاصة روايتهم أن عمرو بن العاص ، بعد أن استولى على حصن بابليون ، وهم بالسير الى الاسكندرية أمر بنزع فسطاطه ــ أى خيمته ــ فاذا فيه يمامة قد أفرخت وعندئذ قال : تحرمت بمتحرم ، وأمر بالفسطاط فأقر كما كان وأوصى أحد المصريين بالمحافظة على الخيمة حتى تفرخ اليمامة وتطير فراخها . ثم ان عمرو بن العاص حين عاد من الاسكندرية وجد الفسطاط فى مكانه ، فنزل هو وجنده بجواره ، حيث شيد عاصمته هناك ، وانها سميت لذلك باسم « الفسطاط » سنة ٢١هـ / ٦٤١م .

وذكرت المراجع الأوروبية فى تعليل اسم الفسطاط رأيا يختلف عما روته المصادر العربية ، اذ قال مؤرخو الفرنجة ان اسم العاصمة مشتق من الكلمة الاغريقية fossatum أى المدينة . وان العرب نقلوا هذه الكلمة عن اليونان عند اتصالهم بهم فى حروب الشام . وقد ناقش الاستاذ الدكتور الشيال آراء كل من المؤرخين العرب والأوربيين قائلا : غير أننا يجب أن ندلى برأى يختلف عن هذين وأقرب منهما الى الحقيقة ، ذلك أن كلمة « الفسطاط » كلمة عربية تعنى « مجمع أهل الكورة » ووجدنا أن الكورة هى « الصقع أو المدينة » وبذلك تكون الفسطاط هى مجمع أهل المدينة .

وجاء اختيار مكان الفسطاط فى موضع ثبت أنه موضع مثالى على اختلاف العصور لحكم مصر ، والاشراف عى شئون الوجهين القبلى والبحرى ، ومراقبة المداخل المصرية من الصحراء الغربية . وقد بدأ اتخاذ العواصم فى هذا المكان منذ فجر التاريخ المصرى ، عندما أنشأ الفراعنة منف ، واتخذوها عاصمة لهم عقب توحيد الوجهين . وشيد الفراعنة فى نفس الوقت موضعاً آخر على الضفة الشرقية للنيل الى الشمال ، وهو الذى عرف باسم مدينة « أون » التى عربها العرب الى « عين شمس » ، ولا زال اسمها عين شمس الى اليوم . وفيما بين عين شمس وحصن بابليون امتدت مبان وحدائق كان يطلق عليها اسم بابليون ، واحيانا مصر .

وكان فى مصر زمن الفتح العربى مدينتان هامتان ، احداهما الاسكندرية التى كانت العاصمة زمن العهد الرومانى لوقوعها على البحر المتوسط الذى تسيطر عليه الدولة الرومانية ، والمدينة الثانية « بابليون » أو « مصر » . وكانت العاصمة الثانية لوقوعها على رأس الدلتا واشرافها على كل من الوجهين ومداخل الطرق الصحراوية . ولذا لم يكن اختيار عمرو بن العاص هذا المكان ليشيد عليه « الفسطاط » اختيارا اعتباطا ، وانما توافر لهذا المكان جميع الشروط التى اشترطها عمر بن الخطاب على قادته عند تأسيس « الأمصار » وأهمها القرب من الصحراء ، وسهولة الاتصال بالسلطات المركزية فى شبه الجزيرة العربية .

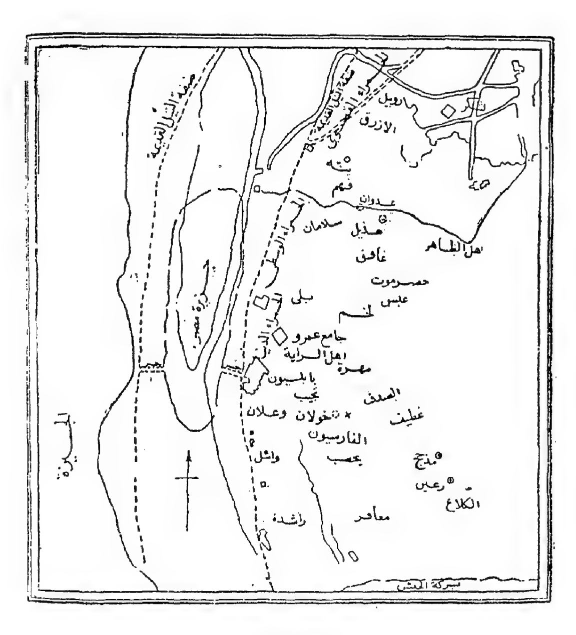
وبدأ عمرو بن العاص تأسيس « المصر الجديد » المعروف باسم الفسطاط على نفس النهج الذى اتبع فى الأمصار الأخرى . اذ شيد أولا المسجد ، ثم أخذت القبائل العربية تشيد لها خططا حول هذا المسجد الذى اشتهر باسم مسجد عمرو ، والذى صار أيضا بمثابة قلب العاصمة النابض . والخطة معناها الأرض التى ينزلها الانسان ، ولم ينزلها قبله نازل ، أو ما يخطه الانسان لنفسه من الأرض ، أى يجعل لها حدودا ليعلم أنه نازلها . ثم اتسع معناها ، وصار يقصد به الحى الذى يختص به القبيلة أو اصحاب المهنة الواحدة ، أو طائفة من الناس عند تعمير مدينة من المدن .

واتخذت كل قبيلة من القبائل العربية التى جاءت مع عمرو بن العاص خطة فى الفسطاط ، أى أن كل قبيلة نزلت فى جهة معينة أو قسم من تلك المدينة التى اختطوها . وصارت كل خطة تعرف باسم الجماعة التى نزلت فيها . وانتدب عمرو بن العاص أربعة رجال للأشراف على توزيع القبائل على تلك الخطط ، وهم : معاوية بن حديج التميمى . وشريك بن سمى الغطيفى ، وعمر بن مخزوم الخولانى ، وحيويل بن ناشرة المغافرى . وأتم هؤلاء الأربعة عملهم فى سرعة ودقة تامة . وبدأ تخطيط الفسطاط بسيطا ، حيث اختط عمرو بن العاص داره قرب المسجد ، والى جوارها دار ابنة عبد الله .

وروى ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص كتب الى عمر بن الخطاب ، أنا قد أخططنا لك دارا عند المسجد الجامع . فكتب اليه عمر . انى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر ؟ وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين . وشيد كبار الصحابة خططا لهم بالفسطاط الى جانب خطة عمرو بن العاص ، منهم خارجة بن حذافة العدوى . وعبد الله بن عمر ، وقيس بن أبى العاص التميمى ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن سعد ابن أبى سرح العامرى ووردان مولى عمرو بن العاص ، وكان حامل لواء عمرو بن العاص ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد الانصارى والزبير بن العوام . وغيرهم كثير . والى جانب منازل قريش والأنصار من رؤساء الجند ، شيدت القبائل الأخرى خططا خاصة بها .

واشتهر من بين خطط الفسطاط خطة مهرة ، وخطة تجيب ، وخطة لخم وجذام وخطة بنى بحر وهم قوم من الأزد ، وخطة ثقيف ، وخطة غافق ، وخطة حضرموت وخطة يحصب ، وخطة بنى وائل وخطة بلى وغيرهم من القبائل العربية . وكانت هذه الخطط فى أول الأمر متقاربة ، لا يفصل الواحدة منها عن الأخرى غير فضاء بسيط ، وكانت بيوت الفسطاط أيضا فى هذه المرحلة من فجر حياتها تتكون من طابق واحد ، ولم يسمح الخليفة عمر بأن يبنى الناس فيها « غرفا » أى طابقا ثانيا [٤] . فروى ابن عبد الحكم : « واختط خارجة بن حذاقة غربى المسجد . وكان أول من بنى غرفة بمصر ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب الى عمرو بن العاص ، أما بعد ، فانه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة ، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه ، فاذا أتاك كتابى هذا فاهدمها أن شاء الله والسلام .

وأخذت الفسطاط تتسع وتنمو منذ عصر مبكر . وساعد على اتساعها نزول بعض القبائل العربية فى الضفة المقابلة لها على النيل المعروفة باسم « الجيزة » اذ نزلت تلك الضاحية قبيلة همدان ومن تبعها . واتخذت لنفسها منازل هناك دون أن تنضم الى سائر القبائل فى الفسطاط . ووافق الخليفة على ذلك ، مما دعى الى اهتمام السلطات الاسلامية فى مصر بربط الفسطاط بالجيزة ، حتى غدت المنازل



ـ خطط الفسطاط .

على ضفتى النيل آهلة بالسكان العرب . وتنافس أهل الجيزة فى تجميل دورهم حتى ان ابن عبد الحكم أشاد بدار شخص اسمه « عمير بن مدرك » ، دأب والى مصر اذ ذاك وهو عبد العزيز بن مروان سنة ٦٥هـ / ٦٨٥م ، على التردد على هذا المنزل ونقل الكثير من أشجاره الى قصره .

وحافظ العرب فى الفسطاط على النظم الاجتماعية التى عاشوا فى ظلها أقرانهم فى « الأمصار » الاسلامية الأخرى . فكان لكل قبيلة عريف أخذت سلطاته تحل تدريجيا محل سلطات شيخ القبيلة فى العصر الجاهلى . وبدأ هذا النظام الجديد منذ خط عمرو بن العاص الفسطاط ، اذ جعل لكل جماعة من الناس عريفا ، صار مسئولا عما يتعلق بشتى شئون القبيلة ، وساعد العريف « المحرس » وهم رجال يتولون حراسة خطة القبيلة أشبه بالخفراء اليوم . وكان لكل قبيلة مسجد خاص تعقد به اجتماعاتها ، ولها أيضا مكان خاص فى المسجد الجامع ؛ واشتهر من هذه الأمكنة « مجلس قيس » الذى طلا قرة بن شريك والى مصر ، رؤوس أعمدته بالذهب . ففى هذه المجالس تابعت القبائل تدبير شئونها فى ظل النظم الاسلامية وشرائعها .

ومارست القبائل العربية نظمها الاجتماعية فى اطار التكوين الاسلامى ، فقام تحالف بين بعض القبائل رغبة فى توسيع نفوذها السياسى أو الاقتصادى . فتحالفت مثلا قبيلة مدلج (من مضر) مع قبيلة ذبجان (من حمير) واختار أفرادها لأنفسهم بعض الأماكن الخصبة للاقامة فيها . ولعب الجوار أيضا دورا هاما بين تلك القبائل وخاصة وقت الأزمات السياسية . ومن ذلك ما قام به كريب بن أبرهة سيد حمير ، اذ أجار الخليفة مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ ، حين تجمع المصريون على بابه يريدون قتله ، انتقاما لما أوقعه ببعض رجالاتهم . وكان نفر من الأفراد يتبع قبائل أخرى لا ينتمى اليها أصلا ، وكان يطلق عليه اسم « عديد قبيلة كذا » . ومن أمثلة ذلك قاضى مصر سنة ٨٣هـ وهو مالك بن شراحيل الخولانى ، فكان من همدان ، ولكنه كان « عديد خولان » أى أن اسمه مسجل فى ديوان العطاء ضمن قبيلة خولان وليس همدان .

نظام الارتباع

عاشت القبائل العربية فى « الأمصار » فى ظل نظمها الاجتماعية وتحيا حياتها الخاصة بها . ولكن تلك « الأمصار » لم تكن أماكن منعزلة عما حولها من بلاد ، أو مراكز للاستعلاء العنصرى وانما غدت منذ فجر حياتها مراكز للتنسيق الاجتماعى بين القبائل العربية وأهالى البلاد ، وينابيع لنشر الاسلام وحضارته أيضا بين أولئك السكان . ونمت هذه الرسالة الاجتماعية للأمصار الاسلامية وفق قواعد محددة هيأت للنظام الاجتماعى الاسلامى السمو والاجلال وأن يساعد هذا الدين على أداء رسالته الاجتماعية الجليلة .

وكان خير نموذج لهذا التنظيم الاجتماعى الجديد للعرب الصورة التى اشتهرت فى مصر باسم « نظام الارتباع » منذ عهد فاتح مصر نفسه القائد عمرو بن العاص ومؤسس الفسطاط . فلم تبق القبائل العربية رهن الفسطاط ، وانما كانت تخرج كل ربيع الى القرى المصرية ، حيث يطلقون خيولهم ترعى فى حقول البرسيم الخضراء ، على حين يمارس أفراد القبائل الصيد ويتناولون اللبن الذى يقدمه لهم المصريون ، ويلتهمون الخراف التى يحصلون عليها أيضا ، وقد تمت هذه العملية وفق قواعد محددة ، بعيدة عن الارتجال وحسب نظم تنسق مجراها الاجتماعى دون انحراف أو أضرار . وجاءت الخطوط الرئيسية لنظام الارتباع فى خطب عمرو بن العاص التى دأب على القائها على جنده فى مطلع كل ربيع حين يأتى ميعاد هذا النظام . ومن ذلك قوله فى احدى تلك الخطب لجنده :

« يا معشر الناس انه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل وعلى الراعى بحسن رعيته وحسن النظر . فحى لكم على بركة الله الى ريفكم ، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا خيولكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فانها جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم وأثقالكم .

واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا . وأياى والمشمومات والمعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (ص) يقول : ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة . فعفوا أيديكم وفروجكم ، وغضوا أبصاركم .

« ولا أعلمن حال رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك » .

« واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (ص) يقول : اذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولم يا رسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » .

« فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم ، فاذا يبس العود ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوخ البقل ، وانقطع الورد من الشجر فحى على فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله الا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته » .

وأوضح الخطاب السالف قواعد الارتباع على النحو التالى :

أولا : ان موسم الارتباع كان يبدأ فى آخر الشتاء ، وقد « تدلت الجوزاء وذكت الشعرى » ، ويستمر هذا الموسم ثلاثة أشهر تقريبا حتى ينتهى بأوائل الصيف ، وعلامته « اذ يبس العود ، وسخن العمود » .

ثانيا : الاهتمام بالخيل باعتبارها ركيزة القوة الحربية . وأن الوالى سيعترض الخيل كاعتراض الرجال بعد انتهاء موسم الارتباع ، وأنه سيوقع عقوبة مادية على كل شخص ، تخصم من عطائه اذا أهزل فرسه .

ثالثا : حسن معاملة أهالى البلاد المحليين أثناء موسم الارتباع . فكان محظورا على العرب الاساءة الى أولئك الأهالى والغض عما يجلب الفحش .

رابعا : بيان أهمية مصر وضرورة الاستعداد العسكرى الدائم للدفاع عنها بسبب كثرة الأعداء حولها ، وأن يكون الارتباع وسيلة لدعم هذا المفهوم وتحقيقه .

خامسا : حمل الهدايا من الريف الى نساء العرب فى الفسطاط وأولادهم ، امعانا فى ربط أواصر المودة بين أفراد القوات الاسلامية وأسرهم ، ودعما لنظمهم وحياتهم الاجتماعية .

وصار « نظام الارتباع » وتكراره كل سنة وسيلة لتوسيع الروابط الاجتماعية بين القبائل العربية بعضهم البعض أولا ، ثم بين مجموعاتهم الكبرى وأهل البلاد المحليين ثانيا ، وفق القواعد المقررة لهذا النظام . ثم أن السلطات الاسلامية نظمت أيضا الخطوات التنفيذية للارتباع بتحديد الأماكن التى تتجه اليها القبائل العربية . فكان الوالى يصدر كل ربيع كتابا يبين فيه لكل قبيلة الجهة التى تذهب اليها وتحديد كميات اللبن المسموح لها الحصول عليها . وتركزت حركة الارتباع أولا فى الجهات القريبة من الفسطاط ، ثم اتسعت رويدا رويدا حتى شملت أرجاء الدلتا والصعيد . وكانت « الكور » الخصبة المتاخمة من الشرق للصحراء محط أنظار كثير من القبائل ، مثل كور عين شمس وأتريب وبنا ، وهى الكور التى صارت تتألف منها فيما بعد منطقة « الحوف الشرقى » .

وكانت القبائل الكبيرة وذات النفوذ الواسع تستأثر بالقرى الخصبة المجاورة للفسطاط ، فكانت بلى وتجيب وآل عبد الله بن سعد تختار أماكن ارتباعها فى منف ووسيم قرب العاصمة . واشتركت عدة قبائل فى اختيار أماكن معينة تبعا لقوتها ونفوذها أيضا . وصارت الفسطاط أشبه بمركز الدائرة لنظام الارتباع ، تخرج منه القبائل بمطلع الربيع ، وتقضى حوالى ثلاثة أو أربعة شهور ، ثم تعود الى الفسطاط . ولكن لم تلبث بعض القبائل أن اتخذت من مناطق الارتباع أوطان دائمة لها ، وذلك على نحو ما قامت به مذحج وذبحان حيث سكنت كل منهما فى حربتا ، ولحم وجذام فى

مناطق الحوف الشرقى . ووصلت بعض القبائل الى أقاصى الصعيد وتخوم الدلتا الشمالية ، ثم ان كثرة المناطق الساحلية المعرضة لهجوم الأعداء ، وهى المعروفة باسم « الثغور » ساعدت على اقامة الجند العرب وأسرهم هناك ، وذلك فيما بين العريش ولوبيه فى برقة . واشتهرت من تلك المناطق رشيد واخنا والبرلس ودمياط ، وهى الجهات التى صار يطلق عليها اسم « المواحيز » ، أى المكان الواقع بين القوم وأعدائهم ، أى مناطق الأطراف والتخوم .

وقد اختارت بعض القبائل مناطق نائية ذات مناخ يتفق ومزاجها الطبيعى ، أى البيئة التى سبق أن جاءت منها . فاقبل العرب من قريش وأهل الحجاز على الاقامة فى أسوان ، لأن جوها يشبه جو الحجاز ، فضلا عن سهولة اتصالها عن طريق عيذاب على البحر الأحمر ببلاد الحجاز نفسها . وغدت الديار المصرية تشهد مجتمعا جديدا يتكون نتيجة « الارتباع » واختلاط القبائل العربية مع أهالى البلاد المحليين . وزادت سنة التطور فى دعم هذا النظام الاجتماعى ورفع قواعده ، وبخاصة حين اتجهت القبائل العربية الى الاشتغال ببعض الأعمال التى كان محرما عليهم من قبل القيام بها ، مثل الزراعة .

وكان ولاة مصر يسهلون للقبائل العربية التى ينتمون اليها سواء من حيث القرابة أو الولاء السياسى المجىء الى مصر والاقامة بها ، وهو الأمر الذى أعلا من شأن « نظام الارتباع » وحافظ على أهدافه . ومن ذلك ما حدث على عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ، اذ وفد اليه عبيد الله بن الحجحاب سنة ١٠٩هـ / ٧٢٧م وسأله أن ينقل الى مصر بيوتا من قبيلة قيس ، وذلك لتعمير منطقة بلبيس ، ولا سيما أن نزولهم هناك لن يضر أحدا . فوافق الخليفة على ذلك ، وبعث ابن الحجحاب الى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر ، ومائة أهل بيت من بنى عاضم ، ومائة أهل بيت من أبناء هوزان ، ومائة أهل بيت من بنى سليم . فأنزلهم ببلبيس وأعطاهم الصدقة من العشور ، فاشتروا بها ابلا ، واشتغلوا بحمل الطعام الى القلزم والسويس وكسبوا أرباحا وفيرة ، ومن تلك الأرباح كان الفرد يشترى المهر ، ويربيه

شهرا واحدا يصبح بعدها صالحا للركوب ، وذلك نظرا لجودة المراعى ، وللتسهيلات العديدة التى قدمتها لهم السلطات الرسمية . ولما بلغ قبيلة قيس ما أصابه أهلهم فى مصر من الرخاء ، جاء منهم خمسمائة أهل بيت أخرى ، حتى أنه لم ينته عهد الخليفة هشام حتى صار فى بلبيس ألف وخمسمائة من أهل بيت قيس .

وتوضح الحقيقة السالفة أن نظام الارتباع أتاح للعرب الوافدين الى مصر الاختلاط بالمصريين ، وأنه لم يأت عهد الخليفة الأموى هشام حتى صار العرب يشتغلون فى شتى النواحى الاقتصادية بالبلاد ومنها الزراعة ، العمود الفقرى لثروة مصر ، وبدأت بنهاية القرن الأول الهجرى ، تظهر أولى ثمار « نظام الارتباع » وهو تغلغل القبائل العربية فى ريف مصر ، وامتزاجها مع أهالى القرى وبناء طلائع الجبل العربى الاسلامى الجديد فى الديار المصرية .

وصار نظام الارتباع أعظم مظاهر التنظيم الاجتماعى للعرب ، وصورة لما حدث فى شتى الأرجاء التى حمل اليها العرب راية الاسلام . اذ اتخذت القبائل العربية فى كل بلد من البلاد التى أقامت فيها سبلا تتفق وطبيعة « العمران » فيها من أجل الامتزاج مع أهلها ، والارتباط فى نفس الوقت مع مهدها الأصلى فى شبه الجزيرة العربية . فهيأ نظام الأمصار للقبائل العربية أن تظل مرتبطة مع بعضها البعض برغم انتشارها فى النواحى التى أقامت بها ، وأن تتولى الأمصار فى نفس الوقت ربط هذه الدوائر الواسعة من الانتشار العربى بمركز الخلافة ، سواء حين كانت فى المدينة المنورة المهد الأول للعروبة والاسلام ، أو فى دمشق حيث تابع الأمويون سياسة الاهتمام بالعنصر العربى والتقاليد العربية .

وظل سيل القبائل العربية على هذا النحو يتدفق على مصر كذلك فى العصر العباسى الأول ، وكثر تصاهرها مع المصريين . ومن ذلك أنه قدم الى مصر بعد سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٣م ، أى فى خلافة المتوكل على الله العباسى ، جماعة من أولاد الكنز ، وأصلهم من ربيعة بن معد بن عدنان ، أى من عرب الشمال . وهذه الظاهرة بدورها لها أهميتها أيضا ، لأن معظم العرب الذين وفدوا الى مصر منذ أيام الفتح كانوا

من عرب الجنوب ثم من أولاد الكنز الذين انتشروا فى سائر أنحاء البلاد ونزلت طائفة منهم بأعالى الصعيد . وكان لهذه الطائفة الأخيرة أثر كبير فى استقرار الأمور فى مصر العليا . ذلك أن القرى الشرقية بالصعيد تعرضت لاغارات جماعات تعرف باسم البجة ، سكنت المنطقة الممتدة من صحراء قوص الى أول بلاد الحبشة . واضطرت السلطات الرسمية فى مصر الى مصالحة البجة لتأمن شر اغاراتهم على القرى . ولكن بمجىء أولاد الكنز الى الصعيد وقفت اغارات البجة ، كما بدأت تنتعش اقتصاديات البلاد ، لأن أرض البجة المجاورة للصعيد غنية بمعدن التبر ، وبدأت القبائل العربية فى استخراجه .

وانتشرت القبائل العربية فى شتى ارجاء البلاد المصرية ، واختصت كل ناحية بقبيلة أو أكثر . فسكن حول أسيوط عرب من جهينة ، وفى الفيوم نزل بنو كلاب ، ومن منية غمر الى زفيتا سكنت جماعات من جذام ، واشتغل أكثرهم مشايخ للبلاد وخفراء ، وامتلكوا المزارع . وفى نفس الوقت انتقلت طوائف من فزارة الى الغربية وقليوب ، كما سكن الدقهلية عرب ينتسبون الى قريش ، واستقر حول تنيس ودمياط قوم ينتسبون الى هوزان ، وصار لهم شأن عظيم فى تلك الأرجاء . واختصت مدن مصر بعدد كبير كذلك من العرب الذين رابطوا فيها للدفاع عنها ، وحماية الاسلام فى البلاد . ومن أمثلة المدن التى اعتبرها العرب من الثغور — أى الواجب حراستها ، والجهاد فى سبيلها — البرلس ورشيد والاسكندرية والبحيرة واخنا ودمياط وشطا وتنيس والأشتوم والفرما والعريش وأسوان وقوص والواحات . وبعبارة أخرى صار العرب يعيشون تماما بين المصريين سواء فى المدن الكبرى أو فى صميم الريف ، وأخذت تقوى بينهم أواصر المودة والألفة .

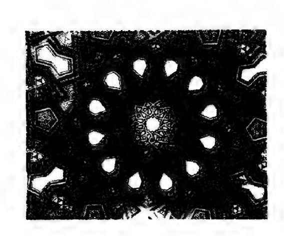
ووفد مع القبائل العربية كثير من مواليها ، الذين أسهموا بدورهم فى الاشتغال بشتى النواحى الاقتصادية فى البلاد . وبمرور الوقت لم يعد هناك أية تفرقة بين العرب ومواليهم فى أرض الوطن الجديد ، وأخذت حدة العصبية القبلية تضعف ، وبدأت تتلاشى . وساعد هذا التطور الهام على سرعة الامتزاج بين العرب والمصريين ، حتى

أنهم وقفوا صفا واحدا أمام عنت بعض الولاة الذين جنحوا أحيانا الى الاشتطاط فى جمع الضرائب ، أو التمادى فى فرض أخرى جائزة . فاحس الجميع ، من العرب والمصريين أنهم أبناء وطن واحد ، وأن الروابط تجمع بينهم فى السراء والضراء .

ولم تلبث الأحداث ان زادت من انصهار العرب والمصريين ، ليس نتيجة التزاوج فحسب ، ولكن بسبب التطورات الجديدة التى خضعت لها الدولة الاسلامية على عهد الخليفة المعتصم العباسى . ذلك أن العرب فقدوا على عهد هذا الخليفة مركزهم فى ادارة الدولة بسبب اعتماده على الاتراك فى الحكم والادارة . اذ ضاق المعتصم ذرعا بالنزاع والتنافس بين العرب والفرس على السلطان ، وظن واهما ان تخليه عن كل من العرب والفرس ، واستبدالهم بالعنصر التركى فيه ضمان لاستقرار الأمور لدولته . وكان العرب لهم ديوان تسجل فيه اسماؤهم من أجل الحصول على العطاء الذى قررته الدولة لهم . وترجع هذه الظاهرة الى أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، وظلت تعتبر عنوانا على تمتع العرب بمكانة ممتازة فى ادارة الدولة . ولذا عندما جاء الخليفة المعتصم الى عرش الخلافة ، وأخذ يفضل الأتراك على العرب والفرس فى مناصب الدولة رأى أن يحرم العرب نهائيا من العطاء .

وكتب الخليفة المعتصم الى والى مصر ، وهو كيدر نصر بن عبد الله (٢١٦هـ / ٨٣١م) باسقاط من فى الديوان من العرب ، وعدم صرف العطاء لهم . وكان الاختلاط قد عظم بين العرب والمصريين اذ ذاك ، لأن قرار المعتصم بمنع العرب من أخذ العطاء لم يكن له رد الفعل عنيف بين أصحابه . فعندما قطع كيدر العطاء عن العرب ثار « يحيى الجروى » ، ولكن لم يتبعه أكثر من خمسمائة شخص . والنتيجة الهامة التى ترتبت على قرار المعتصم هو ازدياد الامتزاج والمصاهرة والاختلاط بين العرب والمصريين ، واشتركوا جميعا فى أعمال الزراعة والتجارة والصناعة ، والتعاون على النهوض بمستوى بلادهم الاقتصادى . وبعبارة أخرى أفاد قرار المعتصم من حيث لايدرى ، فى تدعيم الجيل العربى الناشىء فى مصر ، وتقوية الطابع العربى فى تلك البلاد .

ومن ثم لم يكد ينتهى القرن الأول والقرن الثانى للهجرة حتى ظهرت طلائع الجيل العربى فى مصر قوية وواضحة . ذلك أن العرب احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى هذين القرنين من الزمان ، حيث أوضحت معظم شواهد القبور التى اكتشفت منذ وقت قريب فى مقابر أسوان والفسطاط أن اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة . ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى ، أى بعد قرار الخليفة المعتصم باسقاط العرب من الديوان ، نجد أن اسم القبيلة قد حل محله اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى ، وصار يكتب فلان المصرى . وفى نفس الوقت أقبل المصريون على تعلم اللغة العربية ، حتى ظهرت آيات التجاوب الطيب بين الجيل الجديد فى مصر ، ممثلة فى اعتزاز الأفراد ـــ دون نظر لأصلهم الأول ـــ بوطنهم المصرى ، وتعاونوا جميعا على تدعيم أواصر القربى بينهم وبين الوطن العربى الكبير .



حركة التعريب وانتشار اللغة العربية

صاحب بناء الجيل العربى فى مصر ظاهرة أخرى فريدة اختصت بها مصر من دون غيرها من البلاد التى شاركتها فى الانضمام الى دائرة العروبة . فالشعب المصرى وقف طوال تاريخه العريق وقفة عناد لكل لغة أجنبية يحملها إليه أى دخيل عليه ، من أمثال اليونان والرومان . فلم تتغلب اللغة اليونانية أو الرومانية على لغة المصريين الأصلية برغم سيادة اليونان والرومان على البلاد المصرية ، حتى اضطر أحد المعاصرين لأولئك الدخلاء الى القول : « اذا أراد يونانى أن يعلم المصريين شيئا من القانون فخير له أن يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع أن يتفاهم معهم ، أما إذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه » . وفضلا عن ذلك أبطل المصريون اللغة اليونانية فى الكنائس واستبدلوها باللغة القبطية ، على نحو ما حدث فى القرن السادس الميلادى ، أى القرن السابق مباشرة للفتح الاسلامى لمصر .

وباستقرار الفتح الاسلامى فى مصر ، وانتشار القبائل العربية فى سائر أرجاء البلاد المصرية ، بدأ المصريون يقبلون على تعلم اللغة العربية عن طواعية ، ودون إكراه ، مما يدل على شدة التجاوب بين العرب والمصريين ، وأن عهدا جديداً أخذ يشرق على الديار المصرية . وساعد على هذا التجاوب القواعد الجديدة التى وضعتها الدولة الأموية لتعريب ديون الخراج ولضبط النظام المالى ، وهى أمور ساعدت أيضا على سرعة التعريب فى مصر .

إذ اقتضى اتساع موارد الدولة وتعدد أوجه إنفاقها إذ ذاك ضبطاً للمؤسسات المالية ، ووضع قواعد جديدة للاشراف على نشاطها وسير العمل بها . وكان معاوية ابن أبى سفيان أول من أحس تلك الحاجة نتيجة الاستقلال المالى للولايات . إذ أمر لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم ، وسلمه كتابا بذلك ليأخذ المبلغ من والى العراق زياد ابن أبية ، وفتح عمرو بن الزبير الكتاب فى الطريق وجعل المائة مائتين . وعند مراجعة الخليفة لميزانية العراق ساورته الشكوك ، وأنكر هذا التلاعب . وعلى الرغم

من استرداد السلطات المالية لهذا المبلغ إلا ان معاوية رأى أنه لابد من ضبط جديد للمؤسسات المالية ، وأنشأ لهذا الغرض « ديوان الخاتم » .

وصار هذا الديوان الجديد من أهم معالم القواعد المالية الجديدة زمن الأمويين . فكانت له نظم دقيقة وعمال يقظون ، فإذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور ، أحضر التوقيع إلى ذلك الديوان ، وأثبتت نسخته فيه ، وحزم بخيط وختم بشمع ... وختم بخاتم صاحب الديوان » . وتولى رئاسة هذا الديوان على عهد معاوية أحد القضاة العدول وهو عبد الله بن محصن الحميرى ، رغبة فى توفير الأمانة للمسائل المالية .

واتضح على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد أن ديوان الخاتم وحده لم يعد كافياً . وأن التنظيم المالى للدولة بات يتطلب تعريب ديوان الخراج فى كل ولاية ، باعتباره المؤسسة المالية الرئيسية المشرفة على الموارد وكافة الشئون المتعلقة بها . فكانت لغة دواوين الخراج فى الولايات هى نفس اللغة التى اتبعتها قبل الفتح الاسلامى ، إذ كانت لغة ديوان الخراج فى العراق هى الفهلوية (الفارسية) وفى الشام اليونانية ، وفى مصر اليونانية والقبطية . ولم يعد هذا الوضع يتفق مع اتساع سلطان الولاة العرب ، وتعدد موارد الدولة .

وصار الدافع على تعريب دواوين الخراج هو تمكين الولاة العرب من الاشراف إشرافا تاما على شئون ولاياتهم المالية . إذ كان تدوين السجلات باللغات الأجنبية حافزاً شجع صغار العمال على التزوير والتلاعب فى السجلات دون أن يكتشف أمرهم . وقد روت بعض المراجع أسباباً أخرى مبهمة لتعليل نقل الدواوين إلى العربية : فذكر البلاذرى مثلا : « أن رجلا من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماء ، فبال فى الدواه ، فبلغ ذلك عبد الملك ، فأدبه « وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان » .

وكان سليمان بن سعد الخشنى كاتب الخليفة عبد الملك بن مروان على الرسائل هو الذى تولى تعريب ديوان خراج الشام ، وذلك سنة ٨١هـ . وجاءت هذه

الخطوة عملا هاماً فى التنظيم المالى للدولة الاسلامية ، حيث كان المشرف العام على هذا الديوان وأسراره منذ عهد معاوية هو « منصور بن سرجون الرومى » . ومنح الخليفة سليمان بن سعد مقابل هذا العمل الجليل خراج الأردن مكافأة له ؛ وقدره ١٨٠ ألف دينار . وكان أبلغ تقدير لنجاح تعريب ديوان الخراج قول منصور بن سرجون لكتاب الديوان القدامى من أصحاب اللغة اليونانية : « أطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة » .

وكان يشرف على ديوان الخراج بالعراق فى ذلك الوقت « زادان فروخ » من قبل الحجاج بن يوسف الثقفى . وتصادف أن قتل هذا العامل أثناء فتنة عبد الرحمن ابن الأشعث بين سنتى ٨٢ ، ٨٣هـ ، وهو الأمر الذى سهل على الحجاج تحقيق سياسة الدولة المالية الجديدة . إذ كلف « صالح بن عبد الرحمن » ممن كان يجيد اللغة الفارسية والعربية تعريب ديوان خراج العراق . وقد حاول « مردانشاه » « ابن زادان فروخ » أن يدفع رشوة لصالح بن عبد الرحمن حتى يثنيه عن عمله . وأبى هذا العامل العربى ، وأتم عمله بنجاح باهر ، وتخرج على يديه نفر من كبار موظفى المالية العرب فى العراق .

وتم تعريب ديوان خراج مصر على عهد الوليد بن عبد الملك ، وذلك تحت إشراف أخيه والى مصر ، عبد الله بن عبد الملك سنة ٧٨هـ / ٧٠٧م . إذ عزل صاحب هذا الديوان ، وهو « أنتناش » ، وعين مكانه أحد رجال العرب واسمه « ابن يربوع الفزارى » . وتبع ذلك تعريب باقى الدواوين فى بلاد المغرب على يد موسى بن نصير ، وكان آخرها ديوان خراج خراسان ، الذى تولى تعريبه سنة ١٢٤هـ « اسحق بن طليق » بتكليف من الوالى نصر بن سيار .

وصارت جميع دواوين الخراج فى الدولة الاسلامية تستخدم لغة واحدة هى اللغة العربية ، وهى خطوة هامة مهدت السبيل لنشر العروبة بين سائر أرجاء تلك الدولة . إذ اضطر الناس إلى تعلم اللغة من أجل تسهيل التعامل مع رجال إدارتها الجدد ، وضماناً للحصول على حقوقهم وصيانة مستحقاتهم أيضاً . وكانت هذه

الظاهرة الخاصة بتعريب دواوين الخراج هى التى جعلت الذهن ينصرف عن أهميتها فى النواحى المالية إلى تتبع آثارها فى ميدان الحضارة العربية الاسلامية . وتنهض هذه الظاهرة دليلا رائعاً فى نفس الوقت على أن النظام المالى ليس نظاما جافا ، على نحو ما حاولت الدراسات النظرية الحديثة بتر معالمه ، وإنما هو عضو فعال فى بناء الدولة العربية الاسلامية ، يتداعى مع سائر الأعضاء الأخرى للنظم الاسلامية من أجل السهر على سلامة المجتمع الاسلامى وحمايته .

واقترن بتعريب دواوين الخراج سك عملة جديدة من أجل دعم النظام المالى للدولة ، وضبط المعاملات المالية بين الولايات ، وتحقيق العدالة فى جباية الضرائب من أهلها . إذ كان بعض تلك الولايات مثل الشام ومصر تتعامل بالدينار من الذهب ، وهو الوحدة الأساسية للنقد الذى ساد كل منهما منذ أيام تبعيتهما لدولة الروم قبل الاسلام . وتعاملت العراق وفارس بالدرهم من الفضة الذى ساد نشاطهما الاقتصادى منذ أيام الساسانيين قبل الاسلام . وعرف العرب هذين النوعين من العملات منذ العصر الجاهلى ، حيث كانت ترد عليهم الدنانير من الروم والدراهم من بلاد فارس . وكان سعر التبادل عندهم هو كل عشرة دراهم تساوى سبعة دنانير . « فأقر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وأقره أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . فكان معاوية فأقر ذلك عى حاله » .

وسرعان ما تبين صعوبة الاستمرار بهذا الازدواج النقدى ، نظراً لاتساع رقعة الدولة من ناحية ، وللفساد الذى دب إلى بعض هذه العملات من ناحية أخرى . إذ دأب الناس على أداء الخراج بالعملات ذات القيمة المنخفضة ، والاحتفاظ بالعملات العالية القيمة ، مما أضر بالخراج ، وأساء إلى العدالة فى جبايته . وواجهت هذه الأوضاع السيئة الخليفة عبد الملك بن مروان عند مطالبة الناس بالكسور ــ وهو بقايا الأموال المتخلفة ــ ومبادرة دافعى الضرائب إلى تسديد تلك الكسور بالعملات المنخفضة القيمة . وشرح الماوردى هذه الظاهرة قائلا « ثم فسد الناس : فصار أرباب الخراج يؤدون الطبرية التى هى أربعة دوانق ، وتمسكوا بالوافى

الذى وزنه وزن المثقال . فلما ولى زياد العراق طالب بأداء الوافى وألزمهم الكسور . وجار فيه عمال بنى أمية . إلى أن ولى عبد الملك بن مروان فنظر بين الوزنين وقدر وزن الدراهم على نصف وخمس المثقال ، وترك المثقال على حاله » .

وزاد فى اضطراب العملة الفارسية المستخدمة فى الولايات الشرقية بالعراق وفارس وخراسان سوء وزن الفضة فيها ، وكثرة المغشوش منها أيضاً . وأشار إلى ذلك الماوردى فى قوله : « وقد كان الفرس عند فساد أمورهم فسدت نقودهم . فجاء الاسلام ونقودهم من العين والورق غير خالصة ، إلا أنها كانت تقوم فى المعاملات مقام الخالصة » . وأدت هذه الظاهرة بدورها إلى سوء جباية الخراج . وقلة مقاديره الحقيقية لما ورد على ديوان الخراج من عملات زائفة أو غير جيدة الضرب . وصار الموقف يتطلب سرعة إصدار نقد جديد يقضى على تلك المفاسد ويزيل آثارها السيئة .

وكانت ولايات الدولة ، وبخاصة فى مصر والشام تعانى متاعب من نوع آخر نتيجة احتكار الروم (البيزنطيين) للدينار ، وتحكمها فى سعره . وسرعان ما انفجرت أزمة بين الدولة الأموية وإمبراطورية الروم عجلت بالسلطات الأموية نحو وضع نقد جديد لولاياتهم ، وذلك على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه ، ذلك أن مصر كانت تصدر القراطيس ، وهى ورق الكتابة إذ ذاك لامبراطورية الروم منذ تبعيتها لها قبل الفتح الاسلامى . وجرت عادة أقباط مصر على كتابة اسم السيد المسيح وعبارة التثليث فى رؤوس الطوامير ، وهى قطع الورق الكبيرة . ولكن الخليفة عبد الملك رأى أن هذه الصيغة لاتتفق ومظهر الدولة الاسلامية الجديدة . فأمر أن يستبدل بهذه الصيغة عبارة « قل هو الله أحد » .

ووصلت هذه القراطيس الجديدة إلى إمبراطورية الروم ، وأحدثت ضجة كبرى فى البلاط ، إذ غضب الامبراطور جستنيان الثانى واستكبر قيام الدولة الاسلامية بممارسة حق من حقوقها فى السيادة ، وكتب إلى الخليفة عبد الملك « إنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فإن تركتموه ، وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر

نبيكم ما تكرهونه » . وأغضب هذا الخطاب الخليفة عبد الملك كثيراً ، وخشى اضطراب أحوال العملة بسبب تهديد إمبراطور الروم ، وما قد يحدثه ذلك من أثر سيء فى نفوس عامة المسلمين ، لأن دنانير الروم كانت العملة الرسمية للتجارة فى الأسواق الاسلامية الداخلية ، ومع الدول الخارجية أيضاً .

وظهر أثناء هذه الأزمة قوة البيت الأموى ، وما ساور تفكيرهم إذا ذاك من رغبة فى التخلص من هذه التبعية النقدية ، وإصدار عملة جديدة خاصة بالدولة الاسلامية . إذ أشار خالد بن يزيد على الخليفة عبد الملك بالتمسك بالقراطيس الجديدة ، دون أن يخشى تهديد البيزنطيين فقال : « يا أمير المؤمنين ، حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها ، وأضرب للناس سككاً ، ولا تعف هؤلاء الكفره مما كرهوه فى الطوامير » . وصادف هذا الاقتراح هوى فى نفس الخليفة ، ورأى أنه يصلح خطوة أساسية لدعم النظام المالى للدولة وخلق وحدة إقتصادية عن طريق عملة خاصة بها .

وأقبل عبد الملك على سك دنانير إسلامية جديدة عليها آيات من القرآن الكريم ، عرفت باسم الدنانير الدمشقية ، كما أصدر أوامره للحجاج بن يوسف الثقفى فى العراق بضرب دراهم إسلامية بدلا من الدراهم الفارسية . وقد حدد الخليفة عياراً ثابتاً لهذين النوعين من النقود ، وذلك وفق الشرع . ولقيت هذه العملة الاسلامية الجديدة احترام الناس فى كل مكان لسلامة أوزانها ، وأقبلوا سريعاً على التعامل بها ، دون أن يحدث خلل فى النظام المالى للدولة . ودعم هذا التعامل النقدى الجديد أن الخليفة أصدر أوامره باعتبار دور الضرب التابعة للدولة هى الجهة المعتمدة لسك النقود ، وتحريم أى نقد يضرب خارجها ، وسحب النقود القديمة المتداولة من الأسواق .

واستفاد النظام المالى للدولة الأموية من هذا الاستقرار النقدى ، حيث كفلت النقود الجديدة العدالة لكل من الرعية والخراج الخاص بالدولة . وأجمع المؤرخون على أن الوزن الذى سكت عليه تلك النقود كان هو الوزن الشرعى الذى ساد عهد الرسول الكريم ، من العملات السليمة إذ ذاك وهى الدرهم الفارسى ودينار الروم .

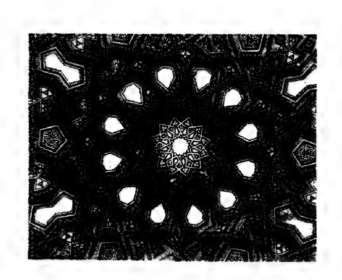
وروى ابن خلدون وصف المعاصرين لهذه العملة الجديدة قائلا : « وقد طلعت عملة عبد الملك مطابقة لهذه الأوزان واستقر الاجماع أيضاً على أنها هى النقود الشرعية ، وأطبق الكل على العمل بها ، ووافق الفقهاء عليها ـــ قاطبة ـــ وعلى أنها هى التى تؤخذ بها الزكاة وتؤدى بها كل الحقوق التى أوجبها الشرع أو ندبها ، وسار العمل بهذه الأوزان فى العصور الاسلامية .

وأجاد بعض المصريين اللغة العربية فى هذه المرحلة المبكرة من حركة تعريب الدواوين والعملة الاسلامية ، حتى أن القس بنيامين شرح الانجيل بالعربية للأصبغ ابن والى مصر . ثم إن المصريين الذين اعتنقوا الدين الاسلامى تعلموا اللغة العربية حتى يستطيعوا قراءة القرآن الكريم ، وفهم دروس الفقه .

واستطاع العرب الذين أقاموا بمصر نشر لغتهم كذلك بين المصريين لمعرفتهم اللغة القبطية والتخاطب بها مع جيرانهم من المصريين . ومن ذلك أن أحد قضاة مصر العرب ، وهو خير بن نعيم « كان يسمع كلام القبط ويخاطبهم بها ، وكذلك الشهود منهم ، ويحكم بشهادتهم » . وكان كثير من العرب يحضرون مجالس القبط ، ويفهمون الأحاديث التى تدور بينهم بالقبطية ، كما تحادثوا معهم أحيانا بلغتهم .

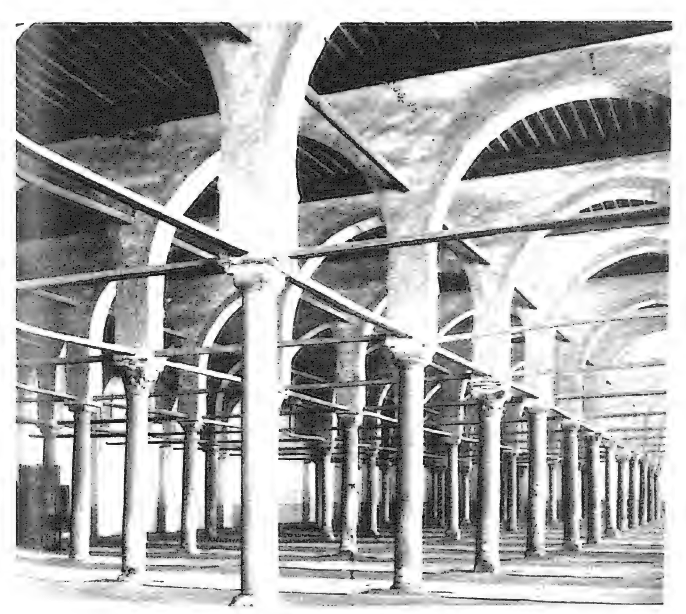
وصارت مصر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، تشارك مشاركة واضحة فى الحياة الأدبية العربية ، وظهر فيها نفر من أهل البلاد ، أجادوا اللغة العربية إجادة تامة . وصاروا يقفون فيها على قدم المساواة مع أعرق الشخصيات العربية . فيروى أن الامام الشافعى وهو الامام فى العربية وعلوم الدين ، التقى برجل من أهل مصر يعرف باسم « سرج الغول » وكان هذا الرجل حجة فى اللغة العربية ، وكان الامام الشافعى يأنس له كثيراً ، ويقول لتلميذه الربيع بين حين وآخر : « يا ربيع أدع لى سرج الغول » ، فيأتى به ، ويناظره الشافعى ، ويعجب بغزارة علمه ، ولا يقول أحد شيئاً من الشعر إلا عرضه عليه ، وعندما ينصرف « سرج الغول » يقول الشافعى : « يا ربيع ، نحتاج أن نستأنف طلب العلم » .

ونبغ فى مصر فى أواخر القرن الثانى ومطالع القرن الثالث الهجرى علماء أفاضل ، بعضهم ممن كان أصلا من المصريين الذين اعتنقوا الاسلام ، والبعض من سلالة القبائل العربية التى استوطنت فى البلاد . ومن أمثال هؤلاء أحمد بن يحيى التجيبى ، والحافظ النحوى ، الذى كان من أعلم أهل زمانه بالشعر والأدب والتاريخ وعلوم الدين . وكانت هذه الظاهرة الخاصة بظهور أسر مصرية فى ميدان الثقافة العربية من أهم الأحداث التى دفعت بالحضارة العربية خطوات واسعة إلى الأمام ، وأثبتت أن مصر تصعد سريعاً فى مدارج الحياة العربية الجديدة ، وتضطلع بمسئولياتها فى تنمية التراث العربى وتوسيع أهدافه ، والعمل على تثبيت أوتاده ودعائمه .



(ج) المدارس الدينية المصرية وتدوين التراث العربى

صاحب انتشار اللغة العربية فى مصر ، وساعد على أصالتها فى البلاد قيام حركة دينية واسعة النطاق ، عقب الفتح الاسلامى مباشرة . وتركزت هذه الحركة فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، حيث اتخذه الصحابه الذين شهدوا فتح مصر مقرأ لهم ولتدريسهم . وترتب على ذلك ظهور مدرسة دينية بمصر ، نشأت ثم نمت



رواق القبلة بجامع عمرو بن العاص .

بالتدريج ، وصار لها أتباع عديدون ، أسهموا فى دعم الثقافة الدينية ، التى أمتلأت بها سائر أرجاء الدولة الاسلامية فى صدر حياتها ، وجعلوا من وطنهم فى مصر مركزاً هاماً من مراكز هذه الحركة الدينية الزاهرة . فتخصص نفر من علماء مصر فى دراسة القرآن الكريم ، وكذلك الحديث ، واستنباط الأحكام منهما ، حتى صارت الديار المصرية مقصد الطلاب من الأقطار المجاورة لها .

ويرجع السبب فى هذا النشاط المبكر لمصر فى ميدان الدراسات الدينية إلى أن الخلفاء اختاروا لها خيرة العلماء العرب ، وأوسعهم ثقافة وفهما لشئون الدين . فمثلا نرى الخليفة عمر بن الخطاب يبعث إلى أهل مصر حيان بن أبى جبلة ليفقههم ، وليكون مرجعا لهم فى شئون دينهم . وسار على هذا النهج من جاء بعده من الخلفاء على اختلاف أزمانهم ، حتى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أوفد إلى مصر نافعاً ، مولى بن عمر ، وهو فقيه أهل المدينة ، ليفقه أبناء مصر بشئون دينهم ، وليعلمهم السنن . وأقام نافع بمصر مدة طويلة ، وترك فيها كثيراً من التلاميذ الذين حملوا من بعده لواء الدراسات الدينية فى البلاد .

وخطت الدراسات الدينية فى مصر خطوات واسعة بظهور المذاهب الأربعة التى قوى شأنها فى العصر العباسى . وأقدم هذه المذاهب الأربعة هو مذهب الامام أبى حنيفة ، الذى ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ ، وتوفى ببغداد سنة ١٥٠هـ ، ويعد أبو حنيفة امام أهل الرأى والقياس ، وثانى أئمة المذاهب الأربعة الامام مالك بن أنس ، الذى ولد بالمدينة المنورة سنة ٩٣هـ أو سنة ٩٥هـ ، وتوفى بها سنة ١٧٩هـ . ويمتاز مذهب مالك بالاعتماد على الحديث ، ويقال لأتباعه أهل الحديث . وثالث أولئك الأئمة هو الامام الشافعى ، ولد بغزة سنة ١٦٠هـ ، وتوفى بمصر سنة ٢٠٤هـ . ويتصف مذهب الشافعى بأنه جمع بين مذهبى الرأى والحديث . ورابع هؤلاء الأئمة هو الامام أحمد بن حنبل الذى ولد ببغداد سنة ١٦٤هـ .

وعلى الرغم من أن مذهب الامام أبى حنيفة هو أقدم المذاهب الأربعة ، فإن مذهب الامام مالك هو الذى دخل مصر أولا ، وانتشر بها ، كما لقى بها قبولا

عظيما ، مما يدل على قوة الوازع الدينى لدى أهل البلاد . وكثر فقهاء المالكية بمصر ، واشتهروا بسعة علمهم ، أمثال عبد الله بن وهب ، الذى صحب الامام مالك نفسه عشرين سنة ، وكان مالك إذا كتب إليه فى مسائل خاصة أو عامة ، بدأها بقوله : إلى عبد الله بن وهب المفتى ، ولم يكن يفعل ذلك مع غيره .

وظل المصريون يتبعون مذهب مالك حتى قدم الامام الشافعى إلى مصر ، ونشر مذهبه الجديد بها . وعندئذ تبع كثير من المصريين مذهب الشافعى ، ونبغ منهم علماء أفاضل ، من أشهرهم يوسف بن يحى البويطى ، نسبة إلى بويط ، وهى قرية من قرى صعيد مصر . وخلقت مدرسة الشافعى جوا جديدا من العلم فى مصر ، إذ استطاعت أن تنافس المذاهب الأخرى ، وأن تناظرها . ومن ثم بدأت أذهان المصريين تدرك قيمة المناظرات العلمية ، إذ كان يأتى بالآية أو الحديث ويشرحه ، ثم يستنبط منه ما ينتهى إليه رأيه ، كما كان يختار الألفاظ أو الحديث ويشرحه ، ثم يستنبط منه ما ينتهى إليه رأيه ، كما كان يختار الألفاظ الجيدة التى تلائم المعنى . وبذلك ظهرت روح الكتابة عند المؤلفين المصريين ، ونقل عنهم جيرانهم هذا النمط من الكتابة العلمية .

وبذلك لم يكد يقترب القرن الثانى الهجرى من نهايته حتى ظهر فى مصر علماء أفاظل صاروا طليعة الجيل العربى فى مصر ، وحملت مشاعل الثقافة الاسلامية إلى سائر أرجاء العالم العربى المجاور لبلادهم . ومن ثمار هذا الجيل الجديد فى مصر « ورش المقرىء » واسمه عثمان بن سعيد المصرى الذى انحدر من أصل قبطى . وأخذ هذا العالم المصرى القراءة عن نافع ، وهو الذى لقبه بورش لشدة بياضه ، ويقال لأن الورش شىء يصنع من اللبن ، وقيل ولقبه ورشان ، وهو طائر معروف . وقد انتهت إلى هذا العالم المصرى رياسة القراءة فى مصر ، كما اشتهر بإجادته للغة العربية . وتوفى ورشان سنة ١٩٧هـ / ٨١٣م ، تاركا وراءه تلاميذ نجباء ، منهم يعقوب الأزرق ، الذى أتقن الأداء فى الاقراء ، على نحو ما تعلمه من أستاذه .

ولم يقتصر نشاط العلماء المصريين على وطنهم ، فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخها فى ظل العروبة ، وإنما جعلوا من بلدهم مركزا اجتذب إليه الطلاب من الأقطار المجاورة ، وهى إفريقية (تونس الحالية) ، والمغرب ، والأندلس كذلك . فأثرت مصر على المغرب والأندلس فى المذاهب وفى العلوم الدينية أيضاً . فمن علماء إفريقية الذين أخذوا عن المصريين ، البهلول بن راشد ، الذى توفى سنة ١٧٢هـ / ٧٩٩م . ومن علماء الأندلس الذين وفدوا إلى مصر إذ ذاك عيسى بن دينار ، الذى تلقى العلم على مشاهير فقهائها . وحين عاد عيسى إلى الأندلس تولى رياسة الفتيا بقرطبة ، ولم يتقدم عليه أحد لأنه تعلم على خيرة علماء مصر ، وتوفى عيسى فى طليطلة سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م . وهكذا انتشرت هذه المذاهب المبكرة فى مصر . ولكن الغالبية من أهالى تلك البلاد مالت الى فقه المالكية والشافعية .

طلائع علماء مصر الاسلامية

وتعتبر أسرة المؤرخ المصرى ابن عبد الحكم نموذجا لهذا اللون الجديد من الطابع الدينى الذى ساد الديار المصرية . وتنتسب هذه الأسرة الى بلدة الحقل بالقرب من أيله (العقبة) ، كما تستمد أصولها من قبيلة قريش . واختص أبناء هذه الأسرة خالفا عن سالف بالاهتمام بالدراسات الدينية وعلو كعبهم فيها . فأول شخص ذاع اسمه من أسرة ابن عبد الحكم ، وهو أبو عثمان عبد الحكم بن أعين بن الليث بن رافع ، كان على صلة وثيقة بالامام مالك وبحوثه . وتوفى هذا الجد الأكبر سنة ١٧١هـ / ٧٨٧م ، تاركا لابنائه من بعده سياسة واضحة المعالم للسير فى سبيل خدمة الاسلام وحضارته . فحمل لواء العلم بعد جد تلك الأسرة ، والد المؤرخ ابن عبد الحكم ، وهو عبد الله بن عبد الحكم بن أعين ، الذى ولد سنة ١٥٥هـ / ٧٧٢م .

وكان بيت عبد الله بن عبد الحكم مقصد كبار العلماء والفقهاء الوافدين الى مصر ، حيث عرف بالثراء والكرم كذلك . وبلغ من ثرائه أنه تلقى الامام الشافعى حين جاء الى مصر سنة ١٩٩هـ ، وأنزله فى داره ، وأعطاه من ماله الخاص ألف دينار . واستطاع عبد الله بنفوذه أيضا أن يجمع للشافعى الف دينار أخرى من بعض

المصريين ، ومن أحد مشاهير التجار اذ ذاك ، وهو ابن عسامه ألفا ثالثة . وترك هذا الكرم أطيب الأثر فى نفس الامام الشافعى وحبب اليه البقاء فى مصر بعد أن كاد يغادرها فى أول الأمر .

وانعكست آثار هذا النشاط العلمى العظيم الذى ساد حياة عبد الله بن عبد الحكم فى مؤلفات ابنه المؤرخ ابن عبد الحكم . اذ تجلى فى تلك المؤلفات الخبرة الواسعة بأحوال مصر وما جاورها من بلاد ، وذلك عن طريق أوثق المصادر وأدقها . ثم ان صلة المؤرخ ابن عبد الحكم بالحياة الثقافية لم تنقطع بوفاة والده ، ذلك انه كان رابع أخوة ثلاث تابعوا جميعا رسالة والدهم فى النهوض بالدراسات الدينية فى الديار المصرية ، وجعل وطنهم كذلك كعبة يحج اليها طلاب تلك الدراسات ، والراغبين فى الاستزادة منها . ووجد المؤرخ ابن عبد الحكم بالتالى فى أخوته مصادر أخرى غزيرة ، جعلت لمؤلفاته مكانة فريدة فى ميدان الدراسات العربية .

وجاء نشاط ابن عبد الحكم العلمى فى مرحلة هامة من مراحل التطور فى حياة مصر فى أواخر القرن الثانى ومطالع القرن الثالث الهجرى . وهى مرحلة تكون عصراً من أهم عصور اليقظة الفكرية ، ليس فى تاريخ الفكر والثقافة العربية فحسب ولكن تاريخ الفكر والثقافة فى العالم كذلك .

وكان من آيات هذا التطور الفكرى الهام انطلاق حركة الترجمة إلى العربية انطلاقا واسع المدى ، حتى أنها قطعت أشواطا هائلة فى طريق التقدم . فصار العرب سادة مناهل الفكر القديم . ويملكون فى دوائرهم الثقافية أشهر مؤلفات أرسطو الفلسفية وغيرها من كنوز العلماء اليونانيين القدامى ، وذلك فضلا عن المؤلفات الفارسية والهندية التى تتناول البحوث العلمية .

ولم تمض سنوات قليلة على حركة الترجمة حتى هضم العلماء العرب ما أنفق القدامى القرون فى توضيحه ، وعمدوا إلى الملائمة بين ذلك التراث القديم وبين تراثهم الاسلامى الجديد . وظهرت معالم الامتزاج بين الثقافات العربية الأصلية وبين الثقافات القديمة فى اشتغال العرب بمعارف جديدة لم يكن لهم بها علم من قبل .

غير أن هذه النهضة الثقافية التى قام بها العلماء العرب تمشت مع انتشار الاسلام ، وصارت الصبغة الاسلامية هى الغالبة عليها . وكانت الدراسات التاريخية التى ازدهرت فى هذه المرحلة من عصر الثقافة العربية خير نموذج لهذه الروح الاسلامية الخالصة .

ويرجع السبب فى تلك الخاصية الفريدة التى اتصفت بها الدراسات التاريخية إلى أن القائمين بها لم يكونوا فى أول أمرهم من الرجال الذين عاشوا فى كنف الأمراء ، أو ممن عهدت إليهم الدولة بجمع الوثائق والأسانيد ، ثم عرضها بما يتفق ووجهة نظر السلطات الحاكمة ، وإنما عاش أولئك المؤرخون العرب عيشة بساطة تامة ، بعيدين عن زخرف الحياة وبريقها ، وقانعين بالقليل من أسباب العيش ، وفى نفس الوقت صرف هذا النفر من المؤرخين جهودهم فى تتبع أحداث ماضى بلادهم وشرح ما امتلأت به حياة أهلها من نزعات مذهبية ، وعقائد سياسية ، وصور اجتماعية ، واستهدفوا من ذلك تجنيب مواطنيهم العثرات ، وأخطاء السلف ، وتوضيح النماذج العالية الجديرة بالدرس والأقتداء . وبذلك جاءت الدراسات التاريخية التى قام بها المؤرخون العرب صورة نزيهة للمجتمع الذى عاشوا فيه وتعبيراً صادقاً عن مشاعرهم وتجاربهم .

وساعد على نزاهة تلك الدراسات العربية الأولى فى ميدان التاريخ أن القائمين بها نشأوا فى مهاد الدين ، وشبوا وترعرعوا فى خدمة مطالبه كذلك . فاقترنت الدراسات التاريخية العربية فى أول أمرها برواية الحديث وتفسير القرآن الكريم . ذلك أن المشتغلين بجمع القرآن وتفسيره ، واستقصاء الحديث كذلك ، احتاجوا إلى الأحاديث وتحروا فى ذلك منتهى الدقة والأمانة . فالقرآن الكريم حوى الشرائع والأحكام والأخبار التى تهدى الناس سواء السبيل ، فضلا عن أن الأحاديث المأثورة تعين على توضيح ما يواجه الناس من مشاكل ويساعدهم على حلها .

واقتضت هذه الدراسات الدينية أن يكون النبى الكريم وسيرته أول موضوع تتناوله الدراسات التاريخية فى هذه المرحلة من عصر اليقظة الفكرية العربية ، فحياة الرسول

الكريم وجهاده أمر جوهرى يفيد أبناء المجتمع ، للسير على هدى سنته والاسترشاد بتعاليمها . وأضفت هذه الدراسات التاريخية الأولى على المشتغلين بها روحا خالصة من النزاهة والورع . ذلك أن تاريخ النبى الكريم كان داخلا فيما يروى من الحديث ، حيث دأب المحدث فى أول أمره على أن يجمع كل ما وصل إليه علمه من أحاديث النبى ، من غير ترتيب ، ولكن متوخياً الدقة التامة فى الحصول عليها ، والتأكد من نزاهة رواتها . ولما بدأ المشتغلون بالحديث يرتبونها فى أبواب خاصة من حيث المواضيع التى تتناولها ظهر منها باب مستقل يقتصر على سيرة الرسول الكريم . وهذا الأمر الأخير كان إيذاناً بمولد الدراسات التاريخية ، التى نهض بها طبقة المؤرخين العرب .

وظهرت باكورة الدراسات التاريخية الأولى فيما يعرف باسم « المغازى والسير » لأن المغازى ولو أنه يقصد بها الغزو ، إلا أنها لم تلبث أن صارت قاصرة على جهاد النبى ومرادفة لسيرته . ثم أخذت الأبواب الخاصة بسيرة النبى الكريم تنفصل شيئا فشيئاً عن الأحاديث وصار يطلق على المتخصصين فى أخبار السيرة وغيرها من الحوادث الماضية اسم « الاخباريين » . واشتهر بالتأليف فى هذا الميدان الجديد من المغازى والسير أربعة هم : أبان بن الخليفة عثمان بن عفان ، وعروة بن الزبير ، وشرحبيل بن سعد ، ووهب بن منبه . وتخرج على أيدى هؤلاء الأساتذة الأربعة عدة أجيال من المؤرخين ، الذين وضعوا الحجر الأساسى للدراسات التاريخية فى البلاد التى فتحها العرب ، وحملوا إليها راية الاسلام .

وقد أسهمت مصر عقب الفتح العربى فى هذه الحركة الثقافية ، حيث تأسست بها مدرسة للتاريخ ، تخرج منها عدد عظيم من نجباء المؤرخين ، الذين يقف على رأس قائمتهم ابن عبد الحكم . إذ استطاع هذا المؤرخ المصرى الأول أن يجد فى تلك المدرسة من الدراسات التاريخية القيمة ، ويلقى فيها من الرواة الثقاة ، ما أتاح له تسجيل صورة دقيقة عن وطنه فى أهم مرحلة من مراحله الأولى فى ظل العروبة والاسلام ، وترك لمن جاء بعده من أجيال المؤرخين تراثاً ثميناً ، وطريقاً قويما ، هيأ

لهم الاستمرار فى عملهم من أجل خدمة الثقافة العربية وتدعيم أوتادها .

واختصت مدرسة التاريخ فى مصر بلون هام من الدراسة ، كان له أكبر الأثر فى إنتاج ابن عبد الحكم العلمى ، إذ انتشر فى مصر عقب الفتح الاسلامى لون من القصص الدينى ، شجع على ظهور طبقة من الناس لجمع أخبارها ، وعرض مادتها عرضاً طيباً . وأطلق على هذا النفر من الناس الذين عنوا بجمع الأخبار الشائقة ، والتى تثير حب الاستطلاع اسم « القصاص » ، وأحيانا اسم الرواة والاخباريين . وجرت العادة على أن يجلس القاص فى المسجد وحوله الناس ، ويقص عليهم حكايات وأحاديث تدور حول شخصية النبى وأبطال الاسلام ، أو عن الأنبياء الوارد ذكرهم فى القرآن ، متبعاً فى ذلك أسلوب الترغيب والترهيب . وشاع هذا اللون من القصص التاريخى لأنه يتفق وميول الناس ، ولأن الأحداث السياسية على عهد الفتن بين على ومعاوية ، جعلت منه أداة فى يد الأحزاب المتنافسة .

وأدت هذه التطورات الهامة إلى أن يصبح القصص عملا رسمياً ، وعهدت الدولة به إلى رجال رسميين وأعطتهم عليه أجراً ، وبدأ هذا التنظيم الجديد على عهد معاوية بن أبى سفيان الذى احتاج إلى رواة القصص لتشجيع أنصاره ضد على بن أبى طالب . وحفلت المدرسة المصرية بأعداد كبيرة من أساتذة هذا اللون من القصص التاريخى ، كما نبغ منهم بعض الأفراد العلماء . ومن أول هؤلاء العلماء وأشهرهم « سليم بن عتر التجيبى » ، وكان من التابعين . « وهو أول من قص سنة ٣٩هـ . وولاه معاوية القضاء سنة ٤٠هـ ، فأقام قاضيا عشرين سنة . واشتهر هذا العالم بأنه أول من أحدث فى مصر سجلات للمواريث ، وبأحكامه المأثورة أيضا » . ولم يتخل سليم ابن عتر عن وظيفة القاص حتى بعد أن ترك القضاء . واستمر يعظ الناس ، متخذا مقراً له جامع عمرو بن العاص . وظل هذا العالم الجليل موضع تقدير الناس لما عرفوه عنه من كفاية علمية فى قصصه وأحكامه ، وكفاية إدارية أيضاً فيما وكل إليه من أعمال أخرى ، مثل تنظيم الخراج والقضاء .

واشتهر من مدرسة مصر أيضاً « عبد الرحمن بن حجيرة » ، الذى ولى القضاء لعبد العزيز بن مروان ، وجمع إليه القضاء وبيت المال . وحصل هذا العالم على راتب عظيم نظير المهام التى قام بها . ومن ذلك أنه نال فى السنة « من القضاء مائتى دينار . ومن القصص مائتى دينار ، وكان رزقه فى بيت المال مائتى دينار . فلا يحول عليه الحول وعنده شيء منها يفضل على أهله وإخوته » . وظل ابن حجيرة فى منصب القضاء اثنتى عشر سنة ، واشتهر بمعلوماته التاريخية ، ولا سيما فيما يتعلق بعصر الخلفاء الراشدين ، فكان يستشهد بأقوال للخليفة عمر بن الخطاب ويشرحها للمستمعين له .

واضطلعت القصة التاريخية منذ ذلك الوقت بدور هام فى تدعيم أركان الحياة الثقافية بمصر ، ونشر الوعى بين أهلها ، من أبناء الجيل العربى الجديد بها . ذلك أن القاص اتخذ من تاريخ مصر القديم ، ولا سيما ما ورد منه فى القرآن الكريم مادة له ، كما استمد من أخبار القبائل العربية قبل الاسلام ما يساعده على تحقيق الأغراض السياسية أو الاجتماعية التى تطلبتها السلطات الرسمية . ووجدت هذه القصص طريقها بعد ذلك إلى التدوين ، ونقل منها المؤرخ ابن عبد الحكم الشيء الكثير فى مؤلفاته ، خاصة فيما كتبه عن تاريخ مصر القديم ، والمرحلة السابقة للفتح الاسلامى لها .

وظلت هذه الحركة العلمية رائد الدراسات التاريخية فى مصر ، كما غذاها مجيء عدد من الاخباريين وأصحاب المغازى إليه ، ومن هؤلاء محمد بن اسحق ، صاحب السيرة ، وعبد الملك بن هشام راويها . أما الأول فجاء إلى مصر سنة ١١٥هـ / ٧٣٢م ، أى قبل مولد المؤرخ ابن عبد الحكم بحوالى سبعين سنة تقريباً . وقد اتصل صاحب السيرة بعدد من أساتذة المدرسة التاريخية فى مصر ، ونقل عنهم كثيراً من المادة التاريخية التى ضمنها مؤلفه القيم عن المغازى . وعاد ابن اسحق إلى المدينة ، بعد أن تزود بقدر جليل من المادة التاريخية ، جعلته يعتبر حجة فى سيرة الرسول ، وموضع تقدير المعاصرين له من العلماء .

ولم يصل إلينا من سيرة ابن اسحق سوى مختصرها ، الذى قام به أحد المؤرخين من أبناء مدرسة مصر ، وهو عبد الملك بن هشام ، الذى أسهم فى نشاط تلك المدرسة حتى وفاته سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م ، أى أنه عاصر مؤرخ مصر الأول ابن عبد الحكم وهو فى العقد الرابع من عمره . وصادف دخول ابن هشام مصر وجود الامام الشافعى بها فى ضيافة أسرة ابن عبد الحكم ، وكان لهما مساجلات رائعة ، تركت أثراً عظيماً فى البلاد ، وفى مؤلفات ابن عبد الحكم نفسه . وظهر فى مختصر السيرة الذى قام به ابن هشام استفادته من مدرسة مصر التاريخية ، فروى عن علماء هذه المدرسة كثيراً ، ومن ذلك على سبيل المثال : حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عبد الله بن لهيعة ، عن عمر مولى عفرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الله فى أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء ، الشحم الجعاد ، فإن لهم نسباً وصهراً . قال عمر مولى عفرة : نسبهم أن أم اسماعيل منهم ، وصهرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى فيهم . وقال ابن لهيعة : أم اسماعيل هاجر من « أم العرب » قرية كانت أمام الفرما من مصر ، وأم ابراهيم مارية سرية النبى صلى الله عليه وسلم التى أهداها له المقوقس من حفن من كورة أنصنا » .

وجاء ظهور ابن عبد الحكم نقطة تحول هامة فى مدرسة التاريخ بمصر ، ذلك أن القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى لم يكد ينتهى حتى ظهرت بمصر مجموعة هائلة من المادة التاريخية ، اشتملت على عدد كبير من القصص الشائع والأساطير ، فضلا عن الروايات المختلفة الألوان ، بعضها مكتوب والبعض الآخر ، وهو الغالب شفوى ، حيث تناقلته الأجيال تلو الأجيال . وبمطلع القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى تطلب الأمر تدوين تلك الروايات والأساطير تدويناً منظماً ، لأن الاعتماد على الذاكرة وحدها أمراً مستحيلا ، لأن بعض الروايات المزيفة بدأت تأخذ طريقها إلى الوجود ، بسبب الفتن العديدة التى أمتلأت بها أرجاء البلاد العربية فى ذلك القرن ، ومحاولة الأحزاب المتنافسة دس الأحاديث أو الأقوال المأثورة التى تضمن لها تحقيق مأربها . ولذا كان لابد من تجريد الروايات الصادقة من براثن هذه الحشود الهائلة من الأخبار ، وعرضها بما يكفل للأجيال المتعاقبة الاستفادة منها .

وساعد كذلك على هذا التطور الهام فى حركة تدوين التاريخ فى القرن الثالث الهجرى رغبة السلطات الرسمية فى تدعيم النظام المالى فى الدولة ، لأن الخراج فى البلاد التى فتحها المسلمون اختلف من مكان إلى آخر حسب فتحها صلحا أو عنوة أو بعهد ، وتبعاً للأحداث السياسية والاجتماعية التى سادت تلك البلاد أثناء الفتح ، وصارت ذاكرة الرواة لا تستطيع أن تعى ملابسات الفتح ، فإن الأمر بات يتطلب التدوين ، حتى لا يثار خلاف حول جباية الخراج من البلاد المفتوحة .

ولذلك حان الوقت فى القرن الثالث الهجرى لكتابة التاريخ بطريقة منظمة ، مؤسسة على القصص والروايات والأخبار ، ووفق الأغراض التى استهدفها مؤرخو هذا القرن . وكان هدف ابن عبد الحكم تجريد الأخبار المتعلقة بمصر ، وإفرادها بالتأليف ، حتى يكون كتابه الحجة التى يرجع إليها المعاصرون ، ومن يأتى بعدهم من الباحثين فى تاريخ مصر ، ومعرفة الدور الذى قامت به تلك البلاد فى خدمة العروبة والاسلام . ولم تكن مهمة هذا المؤرخ المصرى سهلة ميسورة ، بسبب كثرة الأقوال والروايات فى مصر ، سواء عن طريق القصاص الذين امتلأت بهم المساجد ، أو الرواة الذين وفد إليهم الناس لسماع الأحاديث ، أو المخطوطات التى دأب نفر من الباحثين على تدوينها طول النصف الأخير من القرن الثانى ، ومطلع القرن الثالث الهجرى .

وكان المنهج الذى سار عليه ابن عبد الحكم فى تأليفه ، هو المنهج العام الذى اتبعه المعاصرون له من مؤرخى القرن الثالث الهجرى ، وهو المعروف بطريقة « الاسناد » ، التى جرى عليها رواة الحديث . فكانت كل حادثة تروى بألفاظ شاهد عيان أو معاصر ، ثم تصل إلى الرواية النهائى أو المؤلف عن طريق سلسلة من الرواة (أو الاسناد) . وأدى الاسناد إلى نظام الدقة التامة فى تدوين التاريخ ، ولاسيما من حيث الاصرار على تاريخ الحوادث وإرجاعها إلى الشهر ، بل وإلى اليوم . ثم إن نظرية الاسناد لم تكن عملا هينا ، وإنما سببت للقائمين بها متاعب لا نهاية لها ، لأن الأبحاث التى قام بها المؤرخ لتوثيق كل راو تطلب جهدا عظيما ، وصارت صحة الأخبار المروية تتوقف على اتصال سلسلة الاسناد ، والثقة فى أمانة كل رواية ، أكثر

من توقفها على الفحص النقدى للخبر نفسه .

وحرص ابن عبد الحكم على الدقة فى تحرى أسانيده ، ولا سيما أنه كان محدث ، غلبت عليه طريقة المحدثين من حيث القدرة على تتبع الرواة المشهود لهم بالأمانة . وإذا أحس هذا المؤرخ بأن هناك شك فى إحدى الروايات فإنه أعاد ذكرها ، مع بيان سلسلة الاسناد لكل مظهر من مظاهر تلك الرواية ، وذلك مبالغة منه فى الأمانة العلمية . ومع ذلك ظلت نظرية نقد الرواية التاريخية نفسها أمراً لا يعرفه ابن عبد الحكم ، كما لم يعرفه معاصروه من مؤرخى القرن الثالث الهجرى . وترتب على ترك الرواية نفسها دون نقد تسرب كثير من الأساطير والقصص المبالغ فيها إلى التاريخ الذى وضعه ابن عبد الحكم . ولكن ذلك لا يقلل من قيمة العمل الذى قام به ، وخاصة أن أمثال تلك الأساطير والقصص تتضاءل أمام الحقائق التاريخية القيمة ، التى كان يتعذر معرفتها عن تاريخ مصر ، لولا مجهودات ابن الحكم ، ودأبه المتواصل على جمع الأخبار وتنسيقها .

وهناك ناحية أخرى نجح فيها ابن عبد الحكم ، كما أجاد استخدامها كذلك كل مؤرخى القرن الثالث الهجرى ، وهى إعادة أواصر المودة والألفة بين مادة التاريخ وميدان جمع الأحاديث النبوية وتبويبها . ذلك أن مؤرخى السيرة منذ فصلوا التاريخ عن الحديث ، وصاروا يعملون على جمع الحوادث والأخبار ، وهم موضع نقد رجال الدين الذين أطلقوا عليهم اسم الأخباريين ، للتفرقة بينهم وبين المحدثين . غير أن ابن عبد الحكم استطاع ، كما فعل معاصروه من المؤرخين ، أن يعيد تيار التاريخ وتيار الحديث إلى الالتقاء مرة ثانية . فابن عبد الحكم محدث بارع ، ومن بيت اشتهر كل أبنائه بالفقه والاجادة فى الحديث ، وصار حجة فى دينه ، وموضع ثقة الجميع . ولذا نجح هذا المؤرخ المصرى بفضل ما توافر له من خصال الدين والدنيا ، أن يرفع من شأن التاريخ وشأن المشتغلين به كذلك .

واستطاع بن عبد الحكم أيضاً بفضل إجادته للمنهج العام الذى اتبعه كل المعاصرين له من المشتغلين بالتاريخ أن يضمن لمؤلفه الاحترام ، وأن يصبح مرجعا لا

يستغنى عنه أحد من الراغبين فى الدراسات العلمية المتعلقة بالمرحلة المبكرة من تاريخ انتشار العروبة والاسلام فى مصر . وفى نفس الوقت ضمن ابن عبد الحكم لاسمه أن يقف على رأس قائمة المعاصرين له من كبار المؤرخين أمثال الطبرى ، والبلاذرى ، وابن قتيبة ، ويجدد فى بناء النهضة التاريخية التى اختص بها القرن الثالث الهجرى .

ذلك أن مؤلفات المؤرخين فى القرن الثالث الهجرى ظلت ــ على الرغم من أهميتها العظمى ــ تفتقر إلى التنسيق أو التبويب الذى يعين القارىء على تتبع موضوع واحد تتبعا منطقيا سليما ، والخروج بنتائج واضحة محددة المعالم عن ذلك الموضوع الذى يرغب دراسته . ذلك أن حرص مؤرخى القرن الثالث الهجرى على تتبع كل ما يصل إليهم من مختلف الروايات عن شتى المواضع جعلهم أصحاب ملكات عالية من حيث إدراك الجزئيات إدراكا دقيقا ، ولكن دون أن يقدروا على ربط الحوادث برباط جامع . وصار على الباحث فى هذه المؤلفات أن يتذرع بالصبر وهو يطلع على الروايات العديدة المتشابهة فى المعنى ، والمختلفة من حيث رواتها ، وأن يطوى الصفحات تلو الصفحات حتى يستطيع أن يتابع ربط الأحداث التى يحاول دراستها .

وانفرد المؤرخ ابن عبد الحكم ، من بين مؤرخى القرن الثالث الهجرى ، بمحاولته تجنيب الباحثين التخبط فى تيه الصفحات العديدة ، وما تحتويه من كل واردة ، وقدم روايته فى موضوع خاص ، بلغة البحث العلمى فى الوقت الحاضر . فجمع الروايات المتعلقة بتاريخ مصر فى كتاب سماه « فتوح مصر » مستهدفا بيان الدور الذى قام به العرب فى نشر دعوتهم فى تلك البلاد وما جاورها من الأقطار ، وليكون هذا البحث هادياً لمواطنيه لمعرفة الحقائق المتعلقة بوطنهم ، وسط التيارات العديدة والمتعارضة من أقوال القصاص وغيرهم من العلماء الذين انتشروا فى المساجد والمحافل .

ويعتبر ابن عبد الحكم بذلك من طليعة المجددين فى كتابة التاريخ من أبناء القرن الثالث الهجرى ، إذ جمع بين طريقة الاسناد الشائعة فى المنهج العام لدى مؤرخى هذا القرن ، ولكن خالفهم من حيث موضوع الدراسة ، وتبويب مادته العلمية كذلك . أما من حيث الموضوع فيعتبر كتاب ابن عبد الحكم تسجيلا لنمو القومية العربية فى مصر وشمال إفريقية ، وكيف كانت مصر محور نشاط الأصول الأولى لهذه القومية ، والينبوع الصافى الذى تولى تغذيتها بأسباب البقاء والازدهار ، والحارس الأمين كذلك على سلامتها ودعامة أوتادها .

ثم ان ابن عبد الحكم أضاف فنا جديدا فى التاريخ لم يسبقه إليه أى مؤرخ آخر من معاصريه ، وهو فن « الخطط » ، ويقصد به تاريخ الأمصار أو المدن وبيان ما لها من أثر فى بناء الحضارة العربية ونشر معالمها ومظاهرها على اختلاف ألوانها فيما جاورها من أرجاء . واعتمد ابن عبد الحكم فى معالجته لهذا الموضوع الجديد على مشاهداته للأمصار فى وطنه بمصر ، وأهمها الفسطاط التى غدت فى سرعة ملحوظة مركزا هاما من مراكز العمران العربى ، والنشاط العلمى والاقتصادى للحياة العربية الناشئة فى الديار المصرية ، وجاراتها من بلاد شمال إفريقيا كذلك .

وابتكر ابن عبد الحكم طريقة جديدة فى معالجة المادة التاريخية التى تناولها بالذكر فى مؤلفه ، وهو الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى تدوين التاريخ القومى العربى ، وتوضيح جوانبه العديدة . إذ قسم موضوعه إلى سبعة أقسام ، وأدرج تحت كل قسم منها المادة الخاصة بتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أن وصل إلى سنة ٢٤٦هـ ، أى قبل وفاته بعشر سنين . وكان المنهج الذى اتبعه ابن عبد الحكم طوال الأقسام السبعة التى وضعها لكتابه هو ربط مواضيعها بالتاريخ العربى سواء قبل الاسلام أو بعده ، بحيث يلمس القارىء صورة واضحة عن مكانة مصر فى التاريخ القومى العربى ، وذلك على نحو ما جاء فى دراسته عن الصحابة فى مصر .

مدرسة الصحابة فى مصر

كان الشغل الشاغل لرجال الدين فى الأمة الاسلامية هو التحديد الجامع لما يواجه الناس فى الحياة العامة من أمور على هدى هذين المصدرين : القرآن الكريم والسنة النبوية ، بما يكفل السعى إلى نجاة النفوس فى الدنيا والآخرة .

ونقل الصحابة بعد وفاة الرسول الكريم هذين المصدرين وأسلوب العمل بهما الى مصر وكذلك الى كل مكان ذهبوا اليه بعد اتساع الفتوح الاسلامية ، كما حمل هذه الرسالة من بعدهم التابعين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين ، حتى وصلت الحدود الاسلامية من الصين شرقا الى جبال البرانس غربا .

وسجل تاريخ الصحابة فى مصر المؤرخ ابن عبد الحكم فى كتابه « فتوح مصر » اذ خصص فى مؤلفه القيم فصلا مطولا عن الصحابة الذين وفدوا الى مصر ، وروى عنهم بعض الأحاديث المختارة ، وأسهم هذا المؤرخ بذلك فى الحركة العلمية التى اتجهت الى دراسة تاريخ الصحابة نظرا لارتباط حياتهم برواية الحديث ، وهو الموضوع الذى كان يلى القرآن الكريم من حيث أهميته للناس ، وتبصرتهم بشئون دينهم ودنياهم . فالصحابة كانوا يعاشرون النبى (ص) ، ويسمعون قوله ويشاهدون عمله ، ثم يتحدثون بما رأوا وما سمعوا . واشترط العلماء فى الصحابى عدة أوصاف منها ، أن يكون شخصا طالت صحبته للرسول الكريم ، أو حفظ روايته ، أو اشترك معه فى غزوة من الغزوات ، أو من رآه ولو لم يجالسه ، أو سمعه ولم يره بسبب العمى مثلا .

واختلف أولئك الصحابة فيما بينهم من حيث درجتهم العلمية ، حيث كان بعضهم أعلم من بعض . فيروى عن الرسول الكريم (ص) قوله : « ان مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لا

تمسك ماء ولا تنبت كلأ . » واشتهر من الصحابة ستة أو سبعة صاروا يكونون الطبقة الأولى فى العلم ، هم : عمر وعلى وابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس وزيد بن ثابت وعائشة ، وجاء بعد هؤلاء الستة الأعلام حوالى عشرون من الطبقة الثانية ، ثم نحو مائة وعشرون من الطبقة الثالثة ، وهكذا .

وكانت التربية الدينية التى تلقاها ابن عبد الحكم سببا فى اهتمامه بتاريخ أولئك الصحابة ، وتسجيل نشاطهم وخدماتهم للدولة الاسلامية الناشئة . والمعروف عن أسرة ابن عبد الحكم انها كانت على المذهب المالكى ، الذى يعطى الأحاديث النبوية الكريمة الأهمية الكبرى فى التشريع ، واتخاذها الأساس الأول ، والمرجع الأخير لكل فقيه أو عالم فى شئون الدين . وتطلبت هذه الظاهرة بالتالى اهتمام أفراد الأسرة بالصحابة الذين رووا أحاديث الرسول (ص) ، ومعرفة قدر كل منهم من العلم والاجادة . ولابد ان هذا الاهتمام اثار عند بنى عبد الحكم اتجاهات عديدة ، استمع اليها ابنهم المؤرخ وهو صغير السن ، وأدرك من متابعته للمناقشات التى دارت حول هذه الاتجاهات ان دراسة حياة الصحابة أمر واجب لفهم الأحاديث التى رووها عن الرسول الكريم .

وأول الاتجاهات التى لابد أن ابن عبد الحكم قد استمع اليها من أفراد أسرته أن عدد الصحابة كان عظيما ، وانهم بلغوا عند وفاة الرسول الكيم ما يقرب من ١٤٠٠٠ صحابى ، كلهم سمع منه الأحاديث ورواها عنه . هذا فضلا عن أقوام أخرى شاهدت أفعالا للرسول لم يشاهدها غيرهم .

وثانى هذه الاتجاهات التى لابد وأن ابن عبد لحكم قد استمع اليها أيضا ، هو تفاوت مقدرة أولئك الصحابة على رواية الحديث ، وان بعضهم قد اشتهر بالاكثار من الرواية ، على حين جنح البعض الآخر الى تحرى الدقة التامة فى كل ما يرويه ، وبالتالى الى التقليل من رواية الحديث .

وخرج ابن عبد الحكم من دراساته لهذه الاتجاهات العديدة برأى جديد ، هو الاقتصار على تدوين تاريخ الصحابة الذين وفدوا الى مصر وذكر مختارات من

أحاديثهم ، مع بيان المناسبات التى وردت فيها تلك الأحاديث . واستطاع هذا المؤرخ الجليل ان يعطى بذلك صورة واضحة المعالم عن نشاط مدرسة الصحابة فى مصر ، ويوضح مكانتها فى خدمة الحضارة العربية الاسلامية .

وقسم ابن عبد الحكم رجال هذه المدرسة أقساما عديدة ، ورتبها ترتيبا طيبا ، حسب الصحابة الذين شهدوا فتح مصر مثلا ، وأولئك الذين جاءوا اليها بعد الفتح ، ثم الصحابة الذين دخلوا مصر وهم فى طريقهم الى شمال أفريقيا . واستعرض ابن عبد الحكم تاريخ أولئك الصحابة ونشاطهم على النحو التالى :—

أولا :

أشار الى المنازل التى شيدوها فى الفسطاط ، وآقاموا بها ، وكيف أن بعض أولئك الصحابة مال الى تجميل داره ، والانفاق عليها عن سعة . فأشار مثلا الى أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد أن فرغ من بناء داره قال للصحابى ، المقداد بن الأسود : كيف ترى بنيان هذا الدار ؟ . فقال المقداد : ان كان مال الله فقد أسرفت ، وان كان من مالك فقد أفسدت .

وجاءت ملاحظات ابن عبد الحكم فى هذا الموضوع ذات قيمة كبيرة فى تتبع أخبار الصحابة ، وخاصة أولئك الذين غادروا مصر . فقال مثلا واختط قيس بن سعد ابن عبادة فى قبلة المسجد الجامع .. كانت فضاء ، فبناها (أى بنى داره) ولما ولى البلد (الفسطاط) ، فولاه اياها على بن ابى طالب ، ثم عزله فكان الناس يقولون ، انها له حتى ذكر له ذلك ، فقال : وأى دار لى بمصر ؟ فذكروها له ، فقال انما تلك بنيتها من مال المسلمين لا حق لى فيها .

ثانيا :

وروى ابن عبد الحكم أحاديث الصحابة فى مصر . مبينا الأحداث التى ارتبطت بها ، أو المناسبات التى تتعلق بها . وغلبت على ابن عبد الحكم روح

التاريخ ، حيث أسهب فى ذكر الوقائع التى أحاطت بهذه الأحاديث ومن ذلك هذا النص الذى دونه ابن عبد الحكم عن عمرو بن العاص ، وجاء فيه ما يلى : « وهو أول من أمر على أهل مصر فى الاسلام ، ولهم عنه أكثر من عشرين حديثا » ، منها :

أن عمرو بن العاص قال لما انصرفنا من الخندق (غزوة الخندق ، ولم يكن عمرو قد اعتنق الاسلام اذ ذاك) جمعت نفرا من قريش ، بينى وبينهم خاصة ، فقلت لهم : تعلموا والله أنى أرى أمر محمد يعلو .. فهل لكم فى رأى قد رأيته ؟ . قالوا : وما هو ؟ قلت : نلحق بالنجاشى (ملك الحبشة) فنكون عنده حتى ينقضى ما بيننا وبين محمد . قالوا : قد اصبت .

ثم خرجنا ، فبينما نحن قد دنونا منه (أى ملك الحبشة) ، اذ نظرت الى عمرو بن أمية قد بعثه رسول الله (ص) الى النجاشى . فقلت أيها الملك أنى قد رأيت ببابك رسول محمد ، وهو لنا عدو أعطنيه أضرب عنقه .. ، فقال (النجاشى) : تسألنى رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى يأتى موسى ، والذى نفس النجاشى بيده ويحك يا عمرو ، فأطعنى واتبعه . والذى نفسى بيده ليظهرن هو ومن اتبعه على من سواهم ، وعلى من خالفهم .

فخرجت على اصحابى ، وقد حال رأيى عما كان عليه معهم .. فانطلقت تهوى بى راحلتى .. حتى جئنا رسول الله ، ثم تقدمت فبايعت . فقلت : يا رسول الله أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ، ولم أذكر ما تأخر ، فقال الرسول (ص) : بايع يا عمرو ، فان الاسلام يجب ما كان قبله ، وان الهجرة تجب ما كان قبلها .

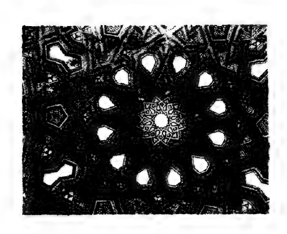
ثالثا :

أشار ابن عبد الحكم الى الأحاديث التى انفرد بها الصحابة فى مصر ، وكذلك تناول ذكر الصحابة الذين حاط الغموض بتاريخهم من صحبتهم للرسول الكريم . وتعتبر هذه الدراسة التى قام بها ابن عبد الحكم فى ذلك الموضوع عملا فريدا ، أشبه

بالتحقيق التاريخى الذى نشاهده فى دراساتنا التاريخية المعاصرة . فقال ابن عبد الحكم فى ذلك مثلا : « ومعاوية بن حديج الكندى ، وهو كان رسول عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية . وقد اختلف فى معاوية بن حديج ، فقال قوم : له صحبة ، واحتجوا فى ذلك بحديث حدثناه عن أبى عبد الله بن عبد الحكم .. وقال آخرون : ليست له صحبة ، واحتجوا بحديث حدثناه يوسف بن عادى » .

رابعا :

أشار ابن عبد الحكم الى عدد الأحاديث التى رواها كل صحابى فى مصر ، وخاصة تلك التى رواها أهل مصر أنفسهم . فقال نقلا عن الصحابى عن عبد الله بن الحرث الزبيدى وهو آخر صحابى توفي فى مصر (٨٦هـ / ٧٠٥م) ، ولأهل مصر عنه ، عن النبى (ص) ما يقرب من عشرين حديثا ، منها : سمعت رسول الله (ص) يقول : أن الله أعد لعباده الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت . ولا يخطر على قلب بشر .. ومنها حديث عن عبد الله بن الحرث . قال : ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله (ص) .



ارتباط مصر بأهل الجماعة

دخل الجيل العربى فى مصر مرحلة النضوج مبكرا منذ القرن الأول الهجرى ، اذ توافرت لمصر جميع المقومات اللازمة لهذا النضوج من صلاحية المناخ والمنعة من العوارض والنزلات حتى غدا الكيان المصرى قلعة شامخة من القلاع الكبرى الساهرة على مقدسات العروبة والاسلام .

وكانت أولى العلامات الطيبة فى هذه المرحلة هو محافظة مصر على الروابط القوية مع أهل الجماعة الاسلامية ، والسير على نهجها الذى يحث على الوحدة بين أبناء الدولة الاسلامية ، ونبذ كل ما من شأنه اثارة الشقاق والنزاع . وحدد معالم هذا النهج القويم ، ووضعه موضع التنفيذ العملى صحابة رسول الله الذين أجمعوا كلمتهم عقب وفاة النبى الكريم على مبايعة أبى بكر خليفة لرسول الله ، واجتياز المشكلة الخطيرة الكبرى التى واجهت الأمة الاسلامية الفتية ، وضربوا المثل العملى على أن اجماع الكلمة هو الصراط المستقيم ، والملاذ الآمن من شرور الفردية والانانية ، والعاصم للنفس من الشطط والهوى .

وكان التشريع الاسلامى هو الرباط الآخر المتين الذى وحد مصر مع أهل الجماعة ، وزودها بينبوع دافق من ينابيع الحضارة العربية الاسلامية . وعرفت تلك البلاد أيضا ، وهى فى مستهل مرحلة النضوج جميع مصادر التشريع الاسلامى ورجاله ، بحيث استطاعت ان تنتقى ما يتفق ومزاجها القومى ، ويحفظ لها كيانها الاسلامى والعربى . ذلك أن آراء أهل مصر لم تختلف عن آراء الجماعة الاسلامية التى صار يطلق عليها فى ذلك الوقت اسم أهل السنة لتمسكها الشديد بالقرآن الكريم وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام لمواجهة التحديات العديدة من آراء الخوارج والشيعة بصفة خاصة .

وكانت الرحلات لأداء فريضة الحج وطلب العلم تخرج بانتظام من مصر الى أرجاء العالم الاسلامى ، وأتاحت لعلمائها المصريين الاتصال بأهم مدرستين ظهرتا اذ

ذاك فى التشريع الاسلامى ، وهى مدرسة العراق ومدرسة الحجاز . واستندت هاتان المدرستان على المصدرين الأساسين للتشريع الاسلامى وهما القرآن الكريم ، والسنة أو أحاديث الرسول الكريم . فكان هناك احساس عند كل منهما بأنه لا غنى للحياة العامة فى الأمة الاسلامية من أن تؤسس على القرآن الكريم وحسبما تفسره وتشرحه أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام . ثم تباينت اتجاهات هاتين المدرستين بعد ذلك فى مدى التزام كل منهما بهذين المصدرين الأساسيين .

وكان السبب فى ذلك أن القرآن الكريم وضع قواعد للعلاقات الأساسية فى المجتمع الاسلامى الجديد ، تناول بعضها بالتفصيل كالزواج والقرابة والميراث والنشاط الاقتصادى والحرب ، والبعض الآخر بالاجمال . وتطلب ذلك الرجوع إلى أحاديث الرسول الكريم باعتباره الأسوة الحسنة والاقتداء بما أثر عنه من قول أو فعل أو تقرير . فالقرآن الكريم لم يبين مثلا المقادير الواجبة فى الزكاة ولا شروطها ، انما بينها النبى (ص) بقوله أو أفعاله التى صارت تشريعا يجب أن يحتذى . وهذان الأصلان ، الكتاب والسنة ، هما مصدر التشريع ، وليس لأية سلطة حق مخالفتهما ولا الخروج عليهما ، وهو الأمر الذى التزم به الجيل العربى فى مصر ، انطلاقا مع أهل الجماعة الذين ابتعدوا عن مساوىء الفرق الاسلامية وتطرفها .

وظل أهل مصر بذلك مع أهل الجماعة حماة التطور السياسى للدولة الاسلامية وتأييده بقوة العقيدة فى أن الله يهدى الجماعة ، وأنها لذلك مبرأة من الخطأ بقوة الاجماع ، عملا بقول الرسول الكريم فى حديثه الشريف « لا تجتمع أمتى على ضلالة » . وتصدى أبناء مصر وأهل الجماعة بذلك لخصومهم من الخوارج والشيعة الذين اتخذوا لأنفسهم آراء خاصة فى الخلافة ، واتهموا بها أهل الجماعة حسب تلك الآراء الخاصة بأنهم تنكبوا جادة الاسلام ، وترددوا فى الآثام لأنهم دانوا بالولاء لخلفاء لا حق لهم فى هذا المنصب . ومن أمثلة ذلك قولهم : إن أهل الجماعة وقعوا فى خطأ مبايعة ابى بكر وإقرارهم خلافة معاوية كذلك .

ويلاحظ أن تلك الاتهامات وما اقترن بها من آراء لم تستطع أن تصمد أمام قوة أهل الجماعة . ذلك أن نظرية الخوارج والشيعة اعتمدت فى كثير من الأحيان على وضع احكام لقضايا لم تقع بعد ، فضلا عن بعض الاستنباطات الافتائية . أما أهل الجماعة فقد تمسكوا بجوهر عقيدتهم القائل بأن الأمة تسير فى تطورها بخطوات يرسمها الله ، وأن ستمرارها منوط بقوة الاجماع المبرأ من الخطأ . وهيأت أهل الجماعة بذلك للمجتمع الاسلامى الجديد إطاراً اجتماعيا ودينيا صلبا ، له شعائره الجديرة بالاحترام . فهو مجتمع قلما تعكر صفوة المشكلات الكلامية ، ومتدينوه زهاد لا حكماء ، وأن مراعاة شعائر هذا المجتمع هى الاشارة الظاهرة الدالة على انتماء الفرد للأمة الاسلامية .

وصار أهل الجماعة بذلك هم مدرسة الوعى الاسلامى السليم القادر على أن يهدى العامة سواء السبيل ، واشباع فطرتهم وتحقق السعادة لهم فى الدنيا والآخرة . وسلكت عقيدة أهل الجماعة طريقها إلى مصر على هذا النمط المتين منذ الفتح الاسلامى لتلك البلاد ، ووجدت إستجابة قوية من جميع أهلها . ذلك أن الجند العرب الذين حملوا راية الاسلام إلى مصر كانوا جميعا من أهل الجماعة ، والمتمسكين بالتعاليم الحقة لهذا الدين الحنيف . وكان لهذه الظاهرة أثرها البعيد المدى فى مرحلة النضوج للتكوين الاسلامى والعربى لمصر ، إذ غدا لتلك البلاد ــ بفضل ارتباطها بأهل الجماعة ــ مقياس حساس ، كشف لها جميع الآفات التى تصيب مراحل النضوج وأتاح لها كافة أسباب الانطلاق السليم نحو استكمال مقوماتها الاسلامية والعربية مع الاحتفاظ بها نقية طاهرة الى اليوم .

الفصل الرابع

مصر رباط الاسلام

قال عمرو بن العاص:

حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صـــلى الـــله عليه وسلم يقول:

اذا افتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا، فذلك خير أجناد الأرض.

فقال له أبو بكر:

ولمَ يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة

أولا : دور مصر فى بسط السيادة الاسلامية على البحر المتوسط

طلائع القوة البحرية لمصر الاسلامية :

فتح المسلمون باستيلائهم على مصر صفحة جديدة فى تاريخ البحر المتوسط ، دون سطورها الأولى كل من عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر ، ومعاوية بن أبى سفيان والى الشام وملآها بأخبار عظيمة المسلمين ونشاطهم الرائع فى ميدان العمليات البحرية . فقد تعاونا سويا فى رسم سياسة المسلمين ازاء البحر المتوسط منذ زمن مبكر ، وحل المشكلة البحرية التى اعترضتهم منذ فتوحاتهم الأولى فى الحوض الشرقى من ذلك البحر ، اذ أطل المسلمون على مياه البحر المتوسط من شواطىء طويلة تمتد من طرسوس شمالا الى برقة جنوبا ، وواجهوا فى هذه المياه أعداء الداء ، دأبوا على الاغارة على الشواطىء الاسلامية وقض مضاجعهم بها .

وأدرك كل من معاوية وعبد الله بن سعد المقومات الضرورية اللازمة لبقاء المسلمين فى حوض هذا البحر ، والاحتفاظ بهيبتهم بين دوله . فالبحر المتوسط يعتبر منذ أقدم التاريخ المحور الذى دارت عليه أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى من أجل السيطرة والسلطان ، وكان بقاء الدولة الفائزة رهنا بسيطرتها على مياه هذا البحر وما به من مراكز استراتيجية هامة . فتطلع عبد الله بن سعد ومعاوية الى ابعاد مخالب البيزنطيين التى كانت تتحفز لتنشب مرة أخرى فى شواطىء مصر والشام ، وعمدا الى الاستيلاء على الجزر القريبة من مقر ولايتيهما ، والتى كانت قواعد للأساطيل البيزنطية ، تخرج منها لتسديد ضرباتها حيثما تشاء بأرض المسلمين .

وقد وضع هذان الواليان خطة سليمة لتحقيق أهدافهما البحرية ، ثم تطورت مع الزمن حتى تركا لخلفائهما سياسة مرسومة واضحة المعالم والأهداف . ولم تكن خطتهما من وحى الارتجال ، أو من محض الصدف وتقدير المقادير ، وانما كانت ثمرة تفكير صحيح وئيد بدأت طلائعه منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب . وتعتبر فترة ولاية معاوية على الشام وعبد الله بن سعد على مصر الحجر الأساسى فى صرح العمليات البحرية . وفاتحة المجد البحرى الاسلامى عند الاطلاق . وتجلت الخطوط الرئيسية لهذا البرنامج البحرى حين أرسل معاوية الى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى غزو جزيرة قبرص ، مبينا له شدة خطورة هذا المعقل البيزنطى على سلامة مدن الشام ، اذ جاء فى خطابه : « يا أمير المؤمنين ان بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » ، وختم خطابه بعد هذا الوصف الدقيق المؤثر طالبا السماح له بغزو هذه الجزيرة .

ولم يكن الخليفة عمر بالشخص الذى يندفع فى آرائه ، ولا سيما فى مهام الأمور التى تتعلق بسلامة جند الاسلام والمسلمين . وكان عمر بن الخطاب على صواب فى استشارة قادة الدولة الاسلامية فى هذا الموضوع الجديد الذى أثاره معاوية . ووقع اختياره على استطلاع رأى عمرو بن العاص والى مصر ، لما لهذه الولاية من شواطىء على نفس البحر المتوسط مثل بلاد الشام ، ولأنها كذلك معرضة للاغارات البحرية التى شنها البيزنطيون على سواحل المسلمين . وجاء رد عمرو بن العاص وصفا رائعا لطبيعة البحر وركوب مياهه ، وما يلاقيه المرء فى ذلك من صعاب ، فكتب الى الخليفة : « انى رأيت خلقا كبيرا ، يركبه خلق صغير ، ان ركن خرق القلوب ، وان تحرك أزاغ العقول ... هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق » .

ولذا لم يكن عجبا أن يؤثر عمر بن الخطاب التريث فى اجابة طلب معاوية ، ولا سيما أنه رأى ألا توجد حاجة ملحة تتطلب دخول المسلمين فى ميدان المغامرات البحرية ضناً منه بسلامة المسلمين ، اذ قال لمعاوية فى رده « تالله لمسلم أحب الى

مما حوت الروم » . ولكن معاوية لم يكن بالوالى الذى يغمض عينيه تماما عن أى خطر يلوح فى الأفق مهددا ولايته وأرض الاسلام . فكتب الى عمر بن الخطاب مرة أخرى يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هى عليه من خراب وافتقارها الى وسائل الدفاع القوية ، اذ كانت الخطة التى اتبعت فى الفتوحات على عهد عمر هو أن المسلمين « كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين ، فان حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو ، سربوا اليها الأمداد » . فكان هذا الأسلوب المتبع يتطلب العناية بحالة المدن الساحلية لتصبح مهيأة لاقامة الجند الاسلامى ، وتمكنه من الدفاع عنها . ولم يتردد الخليفة عمر فى أن يطلق يد معاوية لاصلاح حال السواحل بما يراه كفيلا لسلامتها من « مرمة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها » .

واستغل معاوية هذا التصريح واتخذ خطوة أساسية يبنى عليها فيما بعد مشاريعه البحرية . فأثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المحاربه ، بما يجعلها قواعد فى المستقبل تنقل منها الجنود بحرا الى أى مكان يشاء . ووضع لهذه المدن نظاما عرف بالرباط ، وهو ما يقصد به الأماكن التى تتجمع بها الجند والركبان استعدادا للقيام بحملة على أرض العدو . واعتنى معاوية بهذا النظام حتى أصبح جزءا مرتبطا أشد الارتباط بالجهاد أو الحرب المقدسة . اذا اجتذب الرباط اليه كل الأتقياء المتحمسين ، العاملين دائما على اعزاز الاسلام ونصرته .

ويبدو أن معاوية استعار هذا النظام من البيزنطيين ، وأدخل عليه عدة تغييرات جعلته صالحا لتنفيذ مشاريعه . اذ عرف البيزنطيون نظام الأديرة المسلحة وهى الأماكن التى انقطع فيها الرهبان للعبادة واجتمعوا فيها سويا لخدمة مطالبهم مبتعدين عن الحياة وزخرفها الباطل . ولكن لا توجد شواهد قاطعة على اشتراك أشباه أولئك الرهبان المقيمين فى الأديرة المسلحة فى العمليات الحربية التى قامت بها الدولة البيزنطية . على أن الرباط غدا دائما مجمع المتحمسين والغلاة المتدينين الذين وقفوا حياتهم لشد أزر أخوانهم من الجند النظامى

وتدرج معاوية فى تدعيم هذا النظام على نحو ما اتبعه فى كل أعماله التى اتسمت بالدقة والابتعاد عن الارتجال والاندفاع . فأعد الربط لتكون حصونا يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لاغارات الأساطيل البيزنطية ، ولتكون ملجأ يحتمى بها الأهالى فى المناطق التى يدهمها العدو . وقد خصص حاميات فى الرباط لانذار الأهالى فى المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم اذا ما لاح خطر السفن البيزنطية فى المياه الاقليمية . فكان الحصن فى الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم ، ومخازن للأسلحة والمؤن ، وبرجا للمراقبة . ثم يلبث الرباط أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الاغارات .

واكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى ولى الخلافة عثمان بن عفان ، اذ خطا منذئذ خطوة ثانية فى متابعة سياسته البحرية وتشجيع الناس على النزوح الى المناطق الساحلية لينمى عندهم ملكة ركوب البحار . وساعد معاوية على تحقيق خطته أن الخليفة أمر بمنح كل راغب فى الاقامة بالمدن الساحلية اقطاعات من الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها . فترتب على ذلك ازدياد العمران بالسواحل وانثيال الناس عليها للتمتع بامتيازات الاقامة بها ، دون أن يأبهوا بمخاوف التعرض لاعتداءات السفن البيزنطية ، وذلك لأن معاوية أعد جيوشا دائمة فى المدن الساحلية للدفاع عنها الى جانب القوات التى تخرج للغزو والاغارات ، ودأب على أخذ أرض من يتخلف عن الغزو واعطائها للجند المقيم على حراسة السواحل أثناء الخروج للاغارة .

وتعتبر سياسة منح الاقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة فى سلم السياسة البحرية الدفاعية التى رسمها معاوية قبل أن يستطيع ركوب البحر فى عهد عثمان بن عفان . اذا أتم بفضل هذه الامتيازات اعداد القواعد البحرية التى أخذ ينشىء فيها أساطيله . وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالى بعلبك وحمص وانطاكية سنة ٤٢هـ / ٦٦٢م الى صور وعكا وغيرهما من المدن بسواحل الأردن . كذلك أصلح معاوية حصون هاتين المدينتين ، ولا سيما عكا التى خرج منها بأولى حملاته البرية ضد قبرص . وبسط معاوية اهتمامه الى سائر المدن الساحلية ، فمنح

الجند أراض أيضا فى انطرسوس ومرقية وبلنياس ، واهتم اهتماما خاصا برباط عسقلان والجند الموكلين بحمايتها . وأخيرا جدد بعض الحصون فى المدن التى خربت معاقلها القديمة ، كما فعل فى مدينة جبله ، اذ بنى لها حصنا آخر غير حصنها القديم الذى كان من قبل مقر رهبان بيزنطيين ، أقاموا به للعبادة . ومن ثم آتت سياسة الاقطاعات ثمارها ، فعمرت الثغور البحرية لأن « الناس انتقلوا الى السواحل من كل ناحية » على حد قول المؤرخين المسلمين .

وجنى معاوية ثمار هذه السياسة التمهيدية السابقة حين استطاع أن يظفر من الخليفة عثمان بن عفان بتصريح يبيح له غزو قبرص . اذ سمح له الخليفة بالقيام بالغزو البحرى على شرط ألا يكره أحدا على ركوب البحر ، وأن يعبىء أساطيله من المتطوعة فقط . ولم يلق معاوية عناء فى اجتذاب الجند الذى أخذه معه فى حملاته البحرية ، اذ كانت المدن الساحلية عامرة بالمغامرين وغيرهم ممن ذاقوا ثمار الاقطاعات وامتيازاتها ، وتطلعوا الى خوض غمار الميدان البحرى تحت راية معاوية ، مخلدين أسمهم فى طليعة الحملات الاسلامية البحرية لتقليم أظافر البيزنطيين .

وظهر فى هذه الفترة المبكرة من نشاط معاوية البحرى مدى الارتباط والتعاون بين الشام ومصر فى ميدان العمليات البحرية . اذ كانت مصر فى تلك الفترة من ولاية معاوية على الشام تحت امرة عبد الله بن أبى سرح ، أخى الخليفة من الرضاع . واشترك معاوية وعبد الله فى الاغارات البحرية على جزر البيزنطيين فى البحر المتوسط ، وفى صد اغارات أساطيلهم . وكانت بمصر اذ ذاك دور صناعة السفن ، وتخرج منها الأساطيل الحربية الى قواعد الشام البحرية ، حيث جرى النظام البحرى على أن تتجمع السفن الاسلامية بموانى الشام للهجوم على أراضى البيزنطيين القريبة منهم .

وحرص معاوية دائما على تحقيق التعاون البحرى بين مصر والشام لأنهما كانتا من قبل أهم ولايات الامبراطورية البيزنطية فى ميدان النشاط البحرى كذلك ، سواء أيام السلم أو الحرب . فكان التقسيم الادارى للدولة البيزنطية قبل ظهور الاسلام

يجمع بين الشام ومصر فى العمليات البحرية ، ويقضى بتعبئة أساطيلهما معا لاخضاع العناصر التى تشق عصا الطاعة على السلطات البيزنطية فى أى بلد من البلاد التابعة لها فى حوض البحر المتوسط . وفضلا عن ذلك ربطت العوامل الطبيعية بين مصر والشام فى الشئون البحرية وجعلت كلا منهما لا تستغنى عن الأخرى . فمصر فقيرة فى أخشابها التى تصلح لبناء السفن ، على حين تكثر بالشام الأشجار التى تزود دور صناعة مصر بما تحتاجه من أجود الأخشاب وكانت مصر دائما تطمع فى الحصول على هذه الأخشاب ، ودفعها حرصها فى بعض العصور القديمة الى محاولة السيطرة على الشام . ولكن فى ظل الاسلام انتظمت العلاقات بينهما على أساس التعاون لما فيه نصرة أرض الاسلام ، ولا سيما أمام عدوهم المشترك من البيزنطيين .

واتسعت سياسة معاوية البحرية وأخذت مظهرا جديدا بعد سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م ، ففى هذه السنة شن البيزنطيون غارة على سواحل الشام ، وكانت من العنف والشدة بحيث جعلت معاوية يفكر فى انشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها الى جانب دور الصناعة بمصر . وهدف من وراء ذلك الى ايجاد أساطيل دائمة بموانى الشام على استعداد لدفع أى هجوم بيزنطى مفاجىء ، وليخفف العبء عن أساطيل مصر . فأمر معاوية سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م أى فى نفس السنة التى حدثت فيها الاغارة البيزنطية على الشام بجمع الصناع والنجارين وارسالهم الى عكا ، التى وقع اختياره عليها لينشىء بها أول دار لصناعة السفن بالشام . وكانت عكا تستطيع الحصول على ما يلزمها من أخشاب لبنان ، التى اشتهرت بصفة خاصة بصلاحيتها للمجاديف .

وكان من حسن طالع دولة الاسلام أن يتعهد كل من عبد الله بن سعد ومعاوية شئونها فى الميدان البحرى ، ويوقفا أساطيلهما على صد عدوان البيزنطيين ، اذ بينما استولى المسلمون نهائيا على دولة الفرس الساسانيين وضموها الى رقعة الدولة الاسلامية ، ظلت الآمال تداعب البيزنطيين فى معاودة الكرة على المسلمين واخراجهم من الشام ومصر . ولكن بفضل حملات مصر والشام البحرية أفاق البيزنطيون الى رشدهم ، وأدركوا أنهم أمام قوة منظمة ، تسير قدما وباضطراد من نصر

الى نصر ، وتعمل جاهدة وبنجاح على انتزاع السيادة منهم على البحر المتوسط .

دور الأسطول المصرى فى فتح قبرص :

استهل معاوية باكورة نشاطه البحرى مع مصر بمحاولة الاستيلاء على جزيرة قبرص التى كانت محور مكاتباته مع الخليفتين عمر وعثمان ، يطلب منهما الأذن له بتقليم أظافر البيزنطيين فى هذا المعقل القريب من أرض الاسلام . وكانت استعدادات معاوية البحرية لغزو هذه الجزيرة تتناسب مع أهمية الحملة وضخامة أهدافها . اذا كانت هذه الجزيرة من أقدم المعاقل فى شرق البحر المتوسط . وحرصت القوى المتنافسة فيه على ابقائها فى دائرة نفوذها . فمنذ بزغت شمس الحضارات فى حوض البحر المتوسط الشرقى والصراع مستمر على سيادة جزيرة قبرص ، التى تعتبر حجر الزواية فى قوة أية دولة تصل الى مركز الزعامة فى بلاد الشرق الأدنى . وتجلت هذه الظاهرة منذ أيام تحتمس الثالث امبراطور مصر الفرعونية حتى العصر الحاضر ، حيث حرصت الدول الكبرى التى عرفها حوض البحر المتوسط الشرقى على السيطرة على قبرص .

وتستمد هذه الجزيرة أهميتها من موقعها الجغرافى الذى يوحى للناظر أنها أشبه بمدفع يدوى (مسدس) فوهته مصوبة الى اقليم الشام . والى جانب ذلك تحتل ركنا ممتازا فى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر المتوسط الشرقى ، يجعل لها سهولة التحكم فى مياه هذا الشطر الهام من البحر وما يطل عليه من البلاد . اذ يمكن للمرء أن يرى من قبرص بالعين المجردة آسيا الصغرى والشام ، ويبحر منها مباشرة ، وفى وقت قصير ، متجها الى بيروت أو بور سعيد أو الاسكندرية . غير أن أحداث قبرص اتصلت اتصالا مباشرا مع اقليم الشام وارتبط مصيرها بأحوال القوى التى ظهرت فى هذا الاقليم سواء فى مشاريعها الحربية أو التجارية . اذ يقترب طرف جزيرة قبرص الشرقى من خليج الاسكندرونة الذى يقع خلفه الممر الجبلى الهام الممتد من ساحل البحر المتوسط الى شمال العراق . وكان هذا الطريق من أهم المسالك التجارية التى

عبرتها القوافل المحملة بالمنتجات الشرقية الى أسواق البحر المتوسط .

وأدرك معاوية أهمية هذه الجزيرة ، وضرورة الاسراع بمهاجمتها بسبب اغارات البيزنطيين البحرية على مصر والشام ، واتخاذهم جزيرة قبرص محطة تموين فى الطريق ، وملجأ يعتصمون به حين تدفعهم الأحداث الى الانسحاب . ودلت أحداث الحملة التى أعدها معاوية لغزو قبرص سنة ٢٨هـ / ٦٤٩م على الأغراض الملحة التى حملت المسلمين على البدء بالاغارة على هذه الجزيرة ، كما أن معاوية حرص على اختيار كبار الشخصيات الاسلامية لمصاحبته فى هذه الحملة ليكسبها مظهر الجهاد الحق الرائع .

وحشد معاوية أساطيله وقواته فى ميناء عكا ، وكانت السفن جميعها من مصر ، على حين اشترك مع الجند الاسلامى كبار رجال الشام وغيرهم من مشاهير القادة المسلمين مثل عبادة بن الصامت . واتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها حيث اصطحب معاوية زوجته فاخته ، وأخذ عبادة بن الصامت كذلك امرأته أم حرام بنت ملحان الانصارية . وكان الخليفة عثمان بن عفان هو الذى أمر معاوية بأن يأخذ زوجته معه ليضمن صدق عزيمته فى الاغارة على هذه الجزيرة ، وليعلم مدى قربها من الشام على نحو ما ذكره فى مكاتباته ، اذ كتب الى معاوية قائلا : « فان ركبت البحر ومعك امرأتك ، فاركبه مأذونا لك ، والا فلا » .

ولم يكن معاوية فى حاجة الى أن يقدم الدلائل على صدق مشاريعه البحرية فقد كانت حماسته لغزو قبرص تفوق فى شدتها أى دليل ، وأبحر من ميناء عكا على رأس أسطوله وأسطول مصر بعد انتهاء شتاء سنة ٢٨هـ / ٦٤٩م ونزل بالساحل مسجلا أول عبور حققه جند الاسلام لمياه البحر المتوسط . وشاءت الأحداث أن تجعل هذه الغزوة رمزا على صدق عزيمة المسلمين جميعا رجالا ونساءا ، فقد استشهدت أم حرام زوجة عبادة ابن الصامت على أرض قبرص ، اذ حين رست السفن الاسلامية على الشاطىء وأخذ الجند يزلون منها ، تقدمت أم حرام لتركب دابتها ، فنفرت الدابة وأوقعت أم حرام التى لقيت حتفها ، مخلفة ذكراها على أرض قبرص فى أول غزوة

بحرية اسلامية عرفها البحر المتوسط . ودفنت أم حرام فى أرض هذه الجزيرة ، وعرف قبرها منذئذ باسم « قبر المرأة الصالحة » .

وبعد أن أنزل المسلمون عدتهم وعتادهم الى الشاطىء أرسلوا الى أهالى قبرص يخبرونهم أنهم لم يأتوا طمعا فى جزيرتهم ، وانما ليتفقوا معهم على ما فيه سلامة المسلمين وبلادهم . غير أن سكان قبرص أبوا الدخول فى مفاوضات مع المسلمين واعتصموا بأسوار مدنهم . فتقدم المسلمون نحو العاصمة قنسطنطينا Constantina التى كانت غاصة بالسكان ، وبها جميع ثروات المدينة وذخائرها . وبعد حصار قصير اقتحم المسلمون هذه المدينة واستولوا على كنوزها ، وأخذوا كثيرا من الأسرى . واضطر حاكم المدينة ، أو أركونها ، الى عقد صلح مع المسلمين ، دلت شروطه على العوامل الحقيقية الكامنة وراء الحملة الاسلامية ، وأهداف معاوية فى المبادرة بالهجوم على قبرص .

وصالح أهالى قبرص معاوية والمسلمين على أن يدفعوا لهم جزية سنوية قدرها ٧٢٠٠ دينارا ، على نحو ما يؤدونه كل عام كذلك للدولة البيزنطية ، ووعدوا بألا يساعدوا البيزنطيين فى اغاراتهم على أرض الشام ، وألا يطلعوهم على أسرار المسلمين ، كما قبلوا أن يزودوا المسلمين بأنباء أية حملة يزمع البيزنطيون القيام بها ضد الدولة الاسلامية . وكذلك كان على أهالى قبرص التزام الحياد التام فى النزاع الاسلامى البيزنطى ، حيث لم يطلب منهم المسلمون تقديم أية مساعدة حربية لهم فى اغاراتهم على البيزنطيين ، « فكان المسلمون اذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ، ولم ينصرهم أهل قبرص ، ولم ينتصروا عليهم » .

وعاد الأسطول المصرى الشامى مظفرا ، مدونا أول سطر فى سجل النشاط البحرى الاسلامى ، وحقق فوزا باهرا فى ميدان جديد ، أعلا به من روح المسلمين المعنوية ، وأزال ما اتصف به العرب من تهيب لركوب المياه ، وأظهر أنهم فى سبيل عزة الاسلام وأرضه يذللون سائر العقبات . وكذلك برهن هذا الأسطول الاسلامى بانتصاره على أهالى قبرص أن السياسة الاسلامية قامت على أسس وطيدة لابد أن

تؤتى أكلها ، حيث كان خضوع قبرص بداية طريق جديد سلكه المسلمون مظفرين .

وبعد عودة معاوية الى الشام لم يركن الى الدعة ، مطمئنا الى الصلح الذى عقده مع أهالى قبرص ، وانما أخذ يراقبهم ليرى مدى تنفيذهم لالتزاماتهم ازاء المسلمين . وكان معاوية صادقا فى حذره وفى تتبعه لحركات سكان قبرص ، اذ حدث فى سنة ٣٢هـ / ٦٥٢م أن أخل أهالى قبرص بشروط الصلح ، وأمدوا البيزنطيين ببعض السفن فى اغارتهم على أراضى المسلمين . فصمم معاوية على الاستيلاء على قبرص وادخالها فى التبعية للدولة الاسلامية ، ليحرم البيزنطيين نهائيا من استغلال الجزيرة وأهلها . وجهز حملة بحرية كبرى فى السنة التالية ، فى عام ٣٣هـ / ٦٥٤م ، وكانت مكونة من خمسمائة سفينة معظمها من مصر وعدد كبير من الجند . وتمكن بهذه الحملة الكبيرة من فتح الجزيرة عنوة ، رغم مقاومة أهلها ، وأخذ منهم كثيرا من الأسرى ، ونجح فى تلقين السلطات بها درسا قاسيا لاخلالهم بشروط الصلح .

وعول معاوية على تدعيم نفوذ المسلمين بالجزيرة فى هذه المرة ، اذ فضلا عن الزام أهلها بأداء المطالب المالية وغيرها من الالتزامات ، التى كانوا متعهدين بأدائها طبقا لشروط الصلح السابق ، بعث معاوية الى قبرص اثنى عشر ألف رجل من الجند النظامى ، وأجرت لهم الدولة الاسلامية الرواتب ، ليكونوا جيشا مقيما بالجزيرة يصد عنها عدوان البيزنطيين ، ويقضى على أية اغارة يحتمل أن تحل بهذه الجزيرة . وأتبع معاوية ذلك بنقل جماعة من أهل بعلبك الى قبرص ، وأغراهم على البقاء بها ومنحهم الرواتب ، وليشد من أذر الحامية الاسلامية ، ويقلل من تطلع السكان الأصليين بالجزيرة الى العودة الى مساعدة البيزنطيين . وشيد معاوية لهذه الجالية الاسلامية مدينة جديدة فى الجزيرة ، ومسجدا يؤدى فيه المسلمون شعائرهم ، وهذه الظاهرة الأخيرة تنهض دليلا على حرص معاوية على ابقاء جزيرة قبرص خاضعة للمسلمين ، اذ كان تأسيس المسلمين للمدن فى الجهات التى ينزلون بها ، فضلا عن بناء مسجد لهم ، من العلامات الدالة على عزمهم الراسخ على الاستقرار بالمكان

الذى نزحوا اليه .

ويعزى تشدد معاوية فى معاملة أهالى قبرص بعد هذه الحملة الثانية الى رغبته فى وضع حد نهائى لتقلب أهوائهم وتكرار مساعدتهم للبيزنطيين اذ كان موقف أهل قبرص من الدولة الاسلامية مثار جدل وتشعب فى الآراء بين قادة المسلمين حين نقضوا شروط الصلح السابق ، وغدوا موضع شك من حيث اخلاصهم ، حتى قال أحد المسلمين فى مناقشاته : « ما وفى لنا أهل قبرص قط » وأشار آخر بانزال أشد العقوبة بهم مستشهدا ببعض السوابق على عهد الرسول ، قائلا « انه من نقض عهدا فلا ذمة له » .

وآثر معاوية أن يوفق بين الآراء السابقة باحتلال قبرص وتجديد ما فى الصلح السابق من مميزات للدولة الاسلامية ، دون أن يشتط فى معاملة أهالى قبرص أنفسهم ، وليتجنب بذلك ما قد يثار فى نفوسهم من حقد نحو المسلمين . اذ أدرك أن أولى الأمر فى هذه الجزيرة هم المسئولون وحدهم عن مؤازرة البيزنطيين ، وتشجيع أهاليهم على مناوأة المسلمين . وكان قادة المسلمين يبررون الاستيلاء على الجزيرة بحجة انقاذ أهاليها من نير البيزنطيين قائلين : أهل قبرص أذلاء مقهورون ، يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم ، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم » .

الأسطول المصرى فى معركة ذات الصوارى ٣٤هـ / ٦٥٥م :

جاء الاستيلاء على جزيرة قبرص حافزا شجع المسلمين على توسيع خططهم البحرية ، والقيام بمشاريع حربية على نطاق كبير . وسارت هذه الأهداف الجديدة فى نطاق الفكرة العامة التى رسمها كل من والى مصر عبد الله بن سعد ومعاوية والى الشام ، وهى تأمين أرض الاسلام وإزالة أى شبح بيزنطى يحتمل أن يهدد هذا الأمن . وكانت أولى الخطط الاسلامية الجديدة هى محاولة الاستيلاء على القسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، ورأس المقاومة لحركات الفتح والتوسع الاسلامى .

وكان الامبراطور البيزنطى قنسطانز أول من أدرك هذا التطور البحرى الاسلامى ، اذ ترامت اليه فى سنة ٦٥٥م أنباء استعدادات بحرية هائلة ، وأخرى برية يعدها معاوية بالاشتراك مع عبد الله بن سعد لضرب عاصمة البيزنطيين الضربة الأخيرة ، والاطاحة بعنادها فى مقاومة المسلمين . فجهد قنسطانز على أن يتلافى هذا الخطر المقبل على عاصمته قبل اقترابه منها ، وعول على الخروج قاصدا الشام ليدمر الأساطيل قبل ابحارها من قواعدها . وفى الفترة التى أسرع فيها قنسطانز باعداد سفنه الحربية ، نشط وكلاء الدولة البيزنطية بالشام لعرقلة الاستعدادات الاسلامية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكان معاوية قد حشد معداته الحربية فى مدينة طرابلس استعدادا لقيام الحملة البحرية ، على حين عبأ القوات البرية بدمشق للسير عبر آسيا الصغرى . ولكن شخصين مسيحيين من مدينة طرابلس من عملاء الروم هجما على سجن المدينة حيث به أسرى الروم وفتحا أبوابه وأطلقا سراحهم . ثم تابعا عملهما بدفع الأسرى الى مهاجمة دار الحاكم الاسلامى بالمدينة وقتله هو وأتباعه ، ثم أحرقوا العدد والعتاد التى بذل معاوية فى جمعها كثيرا من الجهود والعناء ، وهربوا جميعا الى القسطنطينية .

واذا كان وكلاء الدولة البيزنطية قد نجحوا فى تنفيذ خططهم داخل أرض الاسلام ، فان معاوية أعد من آلات الحرب ما فاق العتاد الذى دمر ، وأتم سائر استعداداته بسرعة . وتمخضت الحادثة السالفة عن الهاب الحماسة بين المسلمين وحفزتهم على الحذر من عدوهم العتيد . وسار معاوية على رأس قواته البرية سنة ٦٥٥م الى مدينة قيصرية فى قبادوقيا بآسيا الصغرى ، على حين وصلت سفن حربية من مصر الى سواحل الشام وانضمت الى أساطيلها الزاحفة صوب القسطنطينية . على أن الأسطول الاسلامى ألقى مرساه بالقرب من ساحل ليكيا (عند فوينكس Phoenix) حيث بلغه هناك نبأ اقتراب أسطول بيزنطى على رأسه الامبراطور نفسه بهدف صد تقدمه .

ودلت استعدادات الأسطول البيزنطى على أن قنسطانز صمم على وضع حد

لاتساع الفتوحات الاسلامية وكسر شوكتها نهائيا ، على حين دلت المجهودات التى بذلها كل من عبد الله بن سعد ومعاوية فى اعداد أساطيلهما على صدق عزيمة المسلمين فى الجهاد والزود عن أرض الاسلام ، واظهار التعاون الوثيق بين قوات مصر والشام البحرية فى هذه المرحلة المبكرة من دخولهما فى حظيرة الاسلام . فقد خرج على رأس أساطيل مصر واليها نفسه عبد الله بن أبى سرح ، الذى خلد له التاريخ اشتراكه فى معركة من أعظم المعارك البحرية الفاصلة فى تاريخ البحر المتوسط ، وصد أكبر خطر بيزنطى كاد يدهم المسلمين وأرضهم . ذلك أن قسطانز « خرج فى جمع لم يجتمع للروم مثله منذ كان الاسلام » فكان أسطوله يتألف من خمسمائة سفينة مزودة بآلات الحرب ، راع منظرها المسلمين ، ولا سيما الذين سبق لهم أن اشتبكو مع البيزنطيين فى معارك بحرية ، ووصف أحد المشتركين فى الحملة البحرية الاسلامية شعوره حين تقابلت الأساطيل الاسلامية مع سفن البيزنطيين قائلا : « فالتقينا فى البحر ، فنظرنا الى مراكب ما رأينا مثلها قط » .

وكانت الرياح غير ملائمة حين التقى الجمعان فى البحر ، فقضى المسلمون والبيزنطيون ليلتهما انتظارا لما يسفر عنه الصباح ، وأخذا يستعدان فيها ، ويعملان على تقوية روحهما المعنوية . فبات المسلمون ليلتهم يصلون ويدعون الله ، على حين قضى البيزنطيون ليلتهم يضربون بالنواقيس . وفى صبيحة اليوم التالى دارت المعركة ، واشترك فيها الامبراطور قنسطانز نفسه ، اذ أخذ يصدر من سفينته تعليمات لقتال المسلمين ، ويتابع منها الأنباء بانتظام عن سير المعركة .

وبدأ المسلمون القتال باستخدام الأقواس والسهام . فادرك قنسطانز تفوق جنده عليهم ، لأن المسلمين يجيدون هذا السلاح فى الحروب البرية فقط ، وأن ذخيرتهم سوف تنقد سريعا . وتحقق ما رآه قنسطانز ، اذ اضطر المسلمون الى استبدال الأقواس والرماح بالحجارة وقذف العدو بها . فأيقن قنسطانز أيضا أن الفوز حليف أساطيله . ولكن لما رأى المسلمون نفاد ذخيرتهم من الحجارة كذلك وأن العدو ما زال بعيدا عن متناولهم ، وأنه يراوغ ويماطل لأنهاك قواهم ، ربطوا سفنهم بعضها الى بعض وقذفوا

خطاطيف فى البحر ، جذبوا بها سفن البيزنطيين اليهم ، ثم اتخذوا من ظهور السفن جميعا ميادين للقتال . وحين وصلت أنباء هذه الخطة الجديدة الى الامبراطور قنسطانز أدرك فشل حملته ، وأن الهزيمة لاشك محيقة بجنده .

وتحقق استنتاج قنسطانز ، اذ وثب المسلمون على البيزنطيين بالسيوف والخناجر وأعملوا فيهم التقتيل . واشتد الصراع وكثر القتلى ، حتى وصف شاهد عيان هذه الحالة قائلا : « رجعت الدماء الى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما » . وأبدى الفريقان المتحاربان من صنوف التفانى فى الواجب ومن ضروب الشجاعة ما سجلته المراجع الاسلامية والبيزنطية . فكان لشجاعة المسلمين أثر عظيم فى احراز النصر ، على حين اسمات البيزنطيون فى الدفاع عن أنفسهم ، وتجلى ذلك حين عمد الامبراطور قنسطانز الى نشر الفوضى فى صفوف المسلمين ، بعد أن صارت يدهم هى العليا فى المعركة ، وأن كفتهم أخذت ترجح على البيزنطيين . اذ قذف جنده خطافا علق بسفينة أمير البحر الاسلامى عبد الله بن أبى سرح ، وأخذوا يجذبون المركب الاسلامى اليهم . واستهدف البيزنطيون من ذلك الاطاحة بالرأس المدبرة لعمليات قتال المسلمين ، وكاد البيزنطيون ينجحون فى أسر مركب القيادة الاسلامية لولا شجاعة أحد الجند المسلمين ويدعى علقمة . اذ رمى هذا الجندى نفسه على السلاسل التى جذبت المركب الاسلامى ، وأخذ يعمل فيها القطع رغم ما تعرض له من ضربات العدو . وتكلل عمل علقمة بالنجاح ، اذ قطع السلسلة وانقذ السفينة الاسلامية من الوقوع فى الأسر . ونال هذا الجندى ثناء زوجة أمير البحر التى تسمى بثيثة ، اذ كانت على ظهر السفينة أثناء القتال ، واستطاع أن يظفر بزواجها فيما بعد ، حين توفى زوجها .

وأظهر البيزنطيون أيضا تفانيا فى الدفاع عن سفينة الامبراطور حين هاجمها المسلمون . اذ أعمل المسلمون القتل فى جندها ، وكادوا يفوزون برأس الامبراطور نفسه ، لولا أنه تنكر باستبدال زيه مع ملابس ابن أحد ضاربى الطبول على السفينة ، وهرب من المعركة على ظهر مركب آخر اتجه به الى صقلية . وبفرار الامبراطور قضى

المسلمون على هذه الحملة البزنطية ، وخرجو ظافرين من معركة حامية الوطيس . ولا يعرف ما قام به معاوية فى آسيا الصغرى فى تلك الفترة التى دارت فيها المعركة البحرية ، ولكن يبدو أنه هدف الى قطع الاتصال بين جند البيزنطيين فى آسيا الصغرى وأساطيلهم البحرية ، اذ كانت الدولة البيزنطية تعتمد فى ذلك الوقت اعتمادا كليا فى تعبئة قواتها والحصول على النجدات من فيالق جيشها ورعاياها بآسيا الصغرى .

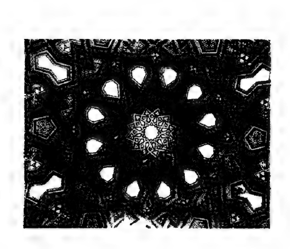
وتعتبر هذه الوقعة البحرية من المعارك الحاسمة القلائل التى غيرت مجرى تاريخ البحر المتوسط ، اذ تقف وقعة ذات الصوارى على قدم المساواة مع معركة أكتيوم (سنة ٣١ ق.م) [١] فى التاريخ البحرى القديم لهذا البحر ، ومعركة النيل (أو أبى قير البحرية سنة ١٧٩٨م) [٢] فى العصر الحديث . فكما أن معركة أكتيوم جعلت البحر المتوسط بحيرة رومانية حتى آل الى الامبراطورية البيزنطية ، وكما أن معركة النيل رسمت الخريطة السياسية التى نراها فى عصرنا الحاضر للبحر المتوسط ، فان معركة ذات الصوارى قضت على اتصاف البحر المتوسط بأنه « بحر الروم » وجعلته حريا أن يدعى « بحر المسلمين » [٣] . فقد انطلقت فيه السفن الاسلامية فى حرية تذهب حيثما تريد ، رافعة علم الاسلام .

وتجلت أولى النتائج الهامة التى تربت على هذه المعركة الفاصلة عندما تخلى الامبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة عن فكرة طرد المسلمين من البلاد التى استولوا عليها فى شرق البحر المتوسط ، واستعادة ما كان لهم من سالف النفوذ والسلطان هناك . اذ أدرك أولئك الأباطرة أن هذه الفكرة ضرب من الأحلام التى فات أوانها ، وأن قدم المسلمين رسخت نهائيا على شاطىء البحر المتوسط الشرقى ، فجنحوا الى الاعتراف بالأمر الواقع ، وادخار جهودهم وقوتهم الى وقت قد يحتاجون فيه للدفاع عن دولتهم وحمايتها من التردى نهائيا فى أيدى المسلمين .

ويضيف الى أهمية التغيير الجديد الذى طرأ على سياسة الدولة البيزنطية تجاه المسلمين بعد معركة « ذات الصوارى » أن الدولة الاسلامية نفسها دخلت بعد هذا الانتصار مباشرة فى دور من القلق والنزاع بسبب مقتل الخليفة عثمان . ثم تطور الأمر

بعد ذلك الى نشوب حرب أهلية بين على ومعاوية ، وانقسام العالم الاسلامى نتيجة هذا الصراع الى قسمين متناضلين . فكانت هذه الاضطرابات فرصة سانحة يستطيع البيزنطيون أن يوقعوا فيها أشد الأضرار بالمسلمين لو أنهم لم يتخلوا تماما عن فكرة استعادة أملاكهم فى البحر المتوسط من أيدى المسلمين . وقد كانت التخوم الاسلامية خلوا من الرباط المدافع عنها لأن معاوية سحب معظم قواته منها لتشد أزره فى حربه مع على بن ابى طالب .

وهكذا لم تتعرض الدولة الاسلامية بعد هذاالنصر المبين فى وقعة « ذات الصوارى » لخطر البيزنطيين ، اذ رأت الدولة البيزنطية أن الأجدى بها هو تصفية علاقاتها مع العناصر الضاربة على حدودها الشمالية ، والأكتفاء بتأمين أراضيها فى الجبهة الجنوبية من آسيا الصغرى لدرء ما قد يقوم به المسلمون من نشاط حربى جديد . فاتجه الامبراطور قنسطانز الى تأديب عناصر السلاف بالبلقان ، وكانت قد جددت نشاطها ضد البيزنطيين وأراضيهم أثناء انشغالهم بالحروب مع المسلمين . ثم ذهب الامبراطور بعد أن فرغ من هذه المشكلة السلافية الى صقيلة ليقوى جبهة دولته الغربية فى شمال أفريقيا ضد الزحف الاسلامى الذى بدأ من مصر .



ثانياً : جهود مصر فى تكوين الجناح الأيسر للاسلام :

كان اتجاه عمرو بن العاص لفتح مصر ضرورة اقتضتها العمليات الحربية وتأمين الفتوحات الاسلامية بالشام . اذ كانت مصر معقلا حصينا للبيزنطيين وقاعدة تهدد سلامة الجيوش الاسلامية بالشام . ولكن بعد أن تم لعمرو فتح مصر أدرك أن ذنب الأفعى البيزنطية مازال قائماً فى شمال أفريقيا ، وأنه لابد من القضاء عليه . فقد تلقت الحاميات البيزنطية بمصر مددا وعونا من شمال افريقيا مكنها من مقاومة الزحف الاسلامى ، وجعلت عمرو بن العاص يعرف أن برقة وما والاها من بلاد تابعة للبيزنطيين ، ولهم فيها منعة وعزة . وفضلا عن ذلك كان أهل برقة وطرابلس ، بصفة خاصة على علاقات قوية مع مصر حتى أن بعض قبائلها اعتبر من سكان مصر الأقباط . وقامت بين مصر وهذه البلاد سبل الاتصال فى سهولة ويسر ، مما حفز عمرو على أن يتابع سيره اليها بعد فتح الاسكندرية للقضاء على ما قد يكون بها من تجمعات للبيزنطيين .

ولم يضيع عمرو بن العاص وقتا حين وجد الظروف تحمله على غزو شمال افريقيا ، اذ بادر بارسال عقبة بن نافع الفهرى فى سريه صغيرة إلى برقة ليستطلع أحوالها ريثما ينتهى من اتمام فتح مصر . ولما أطمأن إلى سلامة موقفه بمصر ، ووصلته أنباء مشجعة من عقبة عن حالة برقة ، زحف بنفسه على تلك البلاد وفتحها . وقد سارع البربر بالدخول فى طاعة المسلمين وصالحوهم على دفع جزية كبيرة . ودفع أهالى برقة الجزية عن طيب خاطر وبعثوا بها إلى مصر ، حتى أنه « لم يكن يدخل برقة ، منذئذ جابى خراج ، وانما كانوا يبعثون بالجزية اذا جاء وقتها » .

وسار عمرو بن العاص بعد ذلك إلى طرابلس ، واستولى عليها . غير أن طرابلس خرجت عن طاعة المسلمين بعد عودة عمرو بن العاص إلى مصر واحتلها البيزنطيون مرة أخرى . أما برقة فقد ظلت على التبعية للمسلمين ، وبقى بها عقبة بن نافع ، حيث قضى وقته متنقلا بين قبائلها الضاربة حولها وبالقرب من واحاتها . ولكن المسلمين لم يغضوا الطرف عن شمال أفريقيا ، حيث رأى خليفة عمرو بن العاص على مصر ، وهو

عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، خطورة بقاء البيزنطيين فى تلك البلاد بالقرب من التخوم الاسلامية ، فبعث يستأذن الخليفة عثمان فى غزو شمال أفريقيا للقضاء على جرجير ومملكته.

أذن الخليفة لعبد الله بن أبى سرح بالزحف على أرض المغرب ، فخرج على رأس قوات كبيرة ووصل إلى سهل تونس حيث نال نصر باهرا على البيزنطيين هناك .

وبادر رؤساء البربر إلى عقد اتفاق مع عبد الله بن أبى سراح يقضى بأن يدفعوا له قدرا معينا من المال سنويا ، وأن يترك بلادهم . وقد آثر عبد الله بن أبى سرح انتهاز فرصة عرض البربر الصلح وصمم على الرجوع إلى مصرلقلة عدد الجند فى جيشه، وعدم استطاعتها مواصلة القتال .

ولم يستطع عبد الله بن أبى سرح الحصول على أمداد جديدة من الخليفة عثمان تمكنه من استئناف الزحف على شمال أفريقيا . فقد أخذت بذور السخط على الخليفة عثمان تنمو رويدا لتفضيله أبناء البيت الأموى فى ادارة الأقطار الاسلامية ، ثم شبت وترعرعت حتى غدت عاصفة هوجاء . فقتل الخليفة عثمان ، وشغل بنو أمية فى الدفاع عن أنفسهم تحت لواء معاوية والى الشام .

وانقضت فترة بلغت ثلاثة عشر عاما تقريبا بعد عودة عبد الله بن سرح من شمال أفريقيا وقفت فيها المجهودات الاسلامية للقضاء على البيزنطيين فى تلك البلاد . ولكن بعد أن استتب الأمر لمعاوية وأصبح خليفة للمسلمين وجه عنايته لمحاربة البيزنطيين بشمال أفريقيا مثلما بذل من جهود للاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية .

الحملات المصرية لفتح بلاد المغرب

١ ــ حملة معاوية بن حديج سنة ٤٥هـ / ٦٦٦م :

أخذت موجة الفتوحات الاسلامية تنطلق مرة أخرى من مصر بعد استقرار الأمور لمعاوية بن أبى سفيان ، واتسمت فى هذه الحقبة بطابع النشاط والعمل المتواصل ، اذ عهد معاوية بمشاريعه الحربية إلى رجال مخلصين خبرهم وعجم عودهم . واختص الجبهة الافريقية بالشخصية الأولى من رجاله الممتازين وهو عمرو بن العاص فاتح مصر الأول ، وواضع الحجر الأساسى لفتوح شمال افريقيا .

وكان عمرو اذ ذاك قد تقدم به العمر ، ومازالت مشاكل الخلافة بالشرق لا تسمح بحشد جيوش كبيرة لفتح شمال أفريقيا ، فآثر أن يبعث سرايا حربية صغيرة إلى برقة وطرابلس تحت إمرة عقبة بن نافع الفهرى ، دون الدخول فى مشاريع واسعة النطاق . وكانت الامبراطورية البيزنطية اذ ذاك قد أخذت تولى عنايتها بشمال أفريقيا ، وتعمل على تدعيم نفوذها .

وتجلى هذا التغيير فى السياسة البيزنطية بعد واقعة ذات الصوارى البحرية (٣٤هـ / ٦٥٥) ، اذ بينما شغلت الدولة الاسلامية بفتنة مقتل عثمان وما تلاها من صراع بين على ومعاوية ، تحول الامبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى إلى العناية بشئون شمال أفريقيا .

ودفع الامبراطور قنسطانز إلى الاهتمام بأحوال شمال أفريقيا ادراكه عجز دولته عن اخراج المسلمين من الشام ومصر بعد واقعة ذات الصوارى . ومن ثم أخذ يعمل على تنظيم دولته بما يجعلها تواجه الأمر الواقع ، وهو أن المسلمين غدوا قوة كبرى فى البحر المتوسط . وبدأ قنسطانز سياسته الجديدة بأن نقل عاصمته إلى جزيرة صقلية ، حيث يستطيع من هذا المقر الآمن البعيد عن متناول الاغارات الاسلامية اعادة تنظيم صفوفه . واستهدف فى الخطة الجديدة ربط ما تبقى لدولته من أملاك بايطاليا مع أفريقيا البيزنطية ، وتوجيهما إلى صد الزحف الاسلامى الذى أخذ يمتد إلى هذا الشطر من أملاك دولته.

وجاء هذا التطور البيزنطى فى الوقت الذى عزم فيه الخليفة معاوية على استئناف الجهاد ضد البيزنطيين بشمال أفريقيا . وكان عمرو بن العاص والى مصر قد توفى سنة ٤٣هـ / ٦٤٤م وكان يشرف على شئون أفريقيا إلى جانب ولاية مصر . فنصب الخليفة معاوية عقبة بن عامر الجهنى على مصر ، وعلى حين خصص لشئون شمال أفريقيا معاوية ابن حديج [٤] حيث جعله على قيادة الجيوش التى أعدها لفتح تلك البلاد ، وتولى إمارة ما يفتحه منها .

وخرج معاوية بن حديج من مصر سنة ٤٥هـ / ٦٦٦م على رأس جيش كبير يضم عددا عظيماً من الصحابة والتابعين وسار على طول الساحل حتى وصل سهل تونس ، ونزل عند مكان يدعى قمونية ، التى يرجح أنها الموضع الذى شيدت عليه مدينة القيروان فيما بعد . وكان البيزنطيون قد علموا بزحف معاوية بن حديج على شمال أفريقيا ، فأعدوا جيشاً كبيراً بقيادة رجل يدعى نقفور ، نزل فى تلك البلاد ، ليصد زحف المسلمين . ولكن البيزنطيين أدركوا قوة المسلمين وعجلوا بالانسحاب بحرا بعد المناوشات الأولى .

وسار معاوية بعد ذلك شمالا قاصدا مدينة بنزرت ، واستولى عليها ، كما لقى من بعض أهالى البلاد القريبة منها عطفاً ومساعدات ، وهذه الظاهرة من الأمور الهامة التى ستنمو وتترعرع فيما بعد ابان الحملات الاسلامية التالية الأخرى . اذ كان ترحيب الأهالى بالمسلمين مما ساعد الجيوش الاسلامية على القضاء على البيزنطيين رغم الكر والفر الذى تبادله الطرفان على امتداد شمال أفريقيا .

ولم يعمل معاوية على تدعيم هذه الفتوحات الاسلامية قبل عودته إلى مصر ، اذ اكتفى بهذا القدر من الفتوحات وقفل راجعا فى أوائل سنة ٤٧هـ . وخرجت المدن التى فتحها عن طاعة المسلمين بعد عودته ، مما جعل حملته لا تتمخض عن نتائج لها أهميتها فى فتح شمال أفريقيا . ولكن لم تلبث موجة الفتح الحقيقى أن بدأت بالحملة التى تلت أعمال معاوية بن خديج ، وكان بطل هذا الفتح رجلا عرف شمال أفريقيا وطالت خبرته وبأحولها .

٢ ـ حملة عقبة بن نافع الأولى :

تعتبر حملة عقبة بن نافع الفهرى حدا فاصلا بين عهد الأغارات الاسلامية السريعة على شمال أفريقيا وعهد الفتح المنظم المستقر لهذه البلاد ، اذ قام بعدة أعمال فى ذلك الميدان تعد الحجر الأول فى بناء أفريقيا الاسلامية ، ويعزى نجاح عقبة فى وضع الأسس الأولى لبناء دولة المسلمين بشمال أفريقيا إلى خبرته الواسعة بشئون هذا الاقليم . فقد عرف أحواله منذ ولاية عمرو بن العاصى الأولى ، كما دان بظهوره على مسرح التاريخ الاسلامى فى هذا الميدان إلى تلك الفترة المبكرة من ولاية عمرو على مصر . فكان عقبة قرشيا من فهر يتصل بعمرو بصلة قربى من ناحية أمة ، وعرف عمرو فيه المقدرة والشهامة ، ووثق به ثقة كبرى . فعهد اليه استطلاع أحوال برقة ، ثم عينه عليها سنة ٢٣هـ / ٦٤٣م أثناء زحفه على طرابلس . ولبث عقبة مقيما ببرقة حتى حملة عبد الله بن أبى سرح سنة ٢٧هـ / ٦٤٦م ، ثم عاد إلى مصر حين رجع عبد الله بن أبى سرح سنة ٢٨هـ / ٦٤٨م . وقد تركت السنوات الست التى قضاها عقبة فى برقة أثرا كبيرا فى نفسه اذ صرف هذه الفترة فى التنقل بين قبائل البربر وواحاتهم ، مما جعل همته تتعلق بالفتح والغزو ، وغدا شخصية لا تعرف شيئاً غير الجهاد فى سبيل الله.

وأدرك عقبة من تجاربة ببرقة أن فتح المغرب لا يتم إلا اذا أنشأ المسلمون لهم فى قلب شمال أفريقيا مركزاً تعسكر فيه حامياتهم ، ويتخذوه قاعدة لمتابعة الغزو . وعمد إلى تحقيق هذا الهدف عندما كلفه معاوية سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م بالزحف على شمال أفريقيا . وما كاد عقبة يتلقى الأمداد والجيوش حتى اتجه إلى أرض المغرب ، واتبع الطريق الداخلى الذى لاتوجد به مقاومة ضئيلة من البربر وسكان الواحات . ووصل إلى موضع قمونية الذى عسكر فيه معاوية بن حديج من قبل .

ووقع اختيار عقبة على موضع قرب قمونية ليقيم عليه قاعدة للمسلمين بشمال أفريقيا . اذ كان هذا الموضع بعيدا عن الساحل مما يجعله بمأمن من اغارات البيزنطيين المفاجئة من البحر ، كما أنه يقع بالقرب من أرض ترعى فيها الماشية فى

مأمن من هجمات البربر النصارى من أحلاف البزنطيين . وأثبتت الأحداث صدق فراسة عقبة فى انتقاء الموضع الذى شيد عليه معسكره ، اذ كان موقعه الحربى ممتازا ، حيث يستطيع الحاكم المقيم به بعيدا ويأخذ حذره منه ، كما يتمكن من مطاردة البربر المعادين له وتعقبهم فى أعالى الهضبة لأن الموقع يسيطر ويتحكم فى سائر الوديان الهامة التى تخترق الهضبة .

وبدأ عقبة تخطيط المدينة التى عرفت باسم القيروان [٥] ، فشيد دار الامارة والمسجد أولا ، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم حولهما . وقد غدت المدينة على عهده أشبه بمخزن للسلاح ، ولكن أخذت فى هذه الفترة المبكرة تلعب دورا هاما فى أحداث الفتح الاسلامى ببلاد المغرب ، اذ كان تأسيس القيروان الخطوة الأولى العملية فى القضاء على نفوذ البيزنطيين بشمال أفريقيا ، حيث دعمت أقدام المسلمين وسط ولاية افريقية مقر البيزنطيين ومعاقلهم .

ولكن عقبة لم ينعم بثمار جهوده ، اذ تطلع والى مصر اذ ذاك ، مسلمة بن مخلد (٤٧هـ / ٦٦٨م) إلى ضم ولاية افريقية إلى دائرة نفوذه بمصر . ووافق الخليفة معاوية على طلب مسلمة ، حيث كان من كبار أنصار معاوية أثناء فتنة عثمان بن عفان . ولما ولى مسلمة شئون أفريقيا عزل عقبة ، وبعث قائدا جديدا يدعى دينار أبو المهاجر ليحل مكان عقبة . وقد عاد عقبة إلى دمشق مغيظا حيث كان قد أخذ يعد العدة لاستئناف الفتوح بعد فراغه من بناء القيروان .

٣ ــ حملة دينار أبو المهاجر (٥٥ ــ ٦٢هـ / ٦٧٤ ــ ٦٨١م) :

عاصرت بداية حملة دينار أبى المهاجر [٦] ، انقلابا فى السياسة البيزنطية تجاه البربر ، كان لها أبعد الآثار فى وضع الصعاب أمام فتح المسلمين لبلاد المغرب . اذ استطاعت الدولة البيزنطية فى الفترة التى عزل فيها عقبة أن تستعيد نشاطها ، حيث انتهى الحصار الأموى الثانى لعاصمتها . وكان الامبراطور البيزنطى اذ ذاك هو قنسطنطين الرابع ، الذى نجح فى تحسين علاقة دولته بالبربر .

وعندما وصل دينار أبو المهاجر إلى القيروان أحس بالتطور الذى أحدثته السياسة البيزنطية ولا سيما بين أفراد قبيلة أوربه. وكان يتولى أمرهم فى الفترة التى وصل فيها دينار أبو المهاجر إلى القيروان شخص يدعى كسيلة . وأخذ هذا الزعيم بتحريض من البيزنطيين يجمع القبائل البربرية ويحشدها لمواجهة زحف المسلمين الذى اقترب من موطنهم الأصلى .

وأسرع دينار أبو المهاجر وجيشه إلى المنطقة المحيطة بتلمسان حيث قبيلة أوربه، محور المقاومة البربرية ، واصطدم بالبربر هناك ، ولكن القائد المسلم لم يقس فى حربه مع كسيلة حيث استخدم السياسة فى كسب هذا الزعيم البربرى إلى جانبه، ولذا عندما هزم كسيلة عامله دينار أبو المهاجر معاملة حسنة ، حتى قام نوع من المودة والصداقة بينهما . فأسلم كسيلة ، وانضم إلى جيش المسلمين وأخذ يعاونهم فى حرب البيزنطيين .

ويعتبر دينار أبو المهاجر واضع الحجر الأساسى فى سياسة فصم البربر عن البيزنطيين وتحطيم التحالف الذى قام بينهما . وآثر فى كل أعمالة اظهار عطفه واحترامه للسكان الأصليين ، وبين بجلاء أن هدف المسلمين هو تخليص بلاد البربر من نير البيزنطيين .

وعاد دينار أبو المهاجر إلى مقره الذى اتخذه بالقرب من القيروان بعد أن أمضى نحوا من عامين فى جهاد البيزنطيين ، ونجح فى تحقيق أهدافه بفصم عرى التحالف بين البربر والبيزنطيين . واستطاع فى حملته أن يكسب اسلام زعيم كبير من رجال البربر وهو كسيلة . وطبيعى أنه نهج على منوال كسيلة كثير من البربر ودانوا بالاسلام . ولكن تقلب السياسة فى الدولة الاسلامية لم يمكن دينار أبو المهاجر من تحقيق أهدافه إلى نهايتها ، اذ عزل عن ولاية أفريقية وخلفه عقبة بن نافع مرة أخرى .

٤ ــ حملة عقبة بن نافع الثانية (٦٢ ــ ٦٣هـ / ٦٨١ ــ ٦٨٣م) :

كان عقبة يعمل جاهدا فى دمشق منذ عزل عن ولاية أفريقية على العودة إلى هذا الميدان الذى قضى به سنوات كثيرة من زهرة عمره وتعلق قلبه به. وقد حانت

الفرصة له حين توفى مسلمة بن مخلد والى مصر على عهد الخليفة يزيد بن معاوية . اذ استجاب يزيد لرغبة عقبة وبعثه على رأس أمداد كبيرة إلى الجبهة الافريقية فى سنة ٦٢هـ / ٦٨١م . ووصل عقبة إلى حاضرته القيروان وجدد عمارتها ، حيث أصابها بعض الخراب لاهمال دينار أبى المهاجر لها . وقد دخل هذا القائد فى خدمة عقبة ، وسار معه فى فتوحاته بشمال أفريقيا . ولكن عقبة لم يحاول الاستفادة من خبرة ولاة مصر بالميدان الأفريقى . اذ غاب عن عقبة أن أحوال أفريقية قد تبدلت تبدلا جوهريا منذ حملته الأولى ولم يدرك كنه التحالف الذى نشأ بين البربر والبيزنطيين بعد سياسة قنسطنطين الرابع الدينية .

وقد سار عقبة على سياسته القديمة فى محاولة التوغل داخل بلاد البربر دون أن يستميلهم اليه ، وتجلت هذه السياسة القديمة فى علاقته مع كسيلة زعيم البربر ، الذى اعتنق الاسلام على عهد دينار أبى المهاجر . فقد أخذ عقبة هذا الرجل معه فى حملاته دون أن يظهر له العطف والتقدير على نحو ما فعل سلفة . ومن ثم تغير قلب كسيلة على عقبة ، ولعب دورا كبيرا فى القضاء على مجهوداته حين جاءته الفرصة المناسبة أثناء الحملة .

وكان عقبة قد زحف من القيروان على شمال أفريقيا حتى بلغ طنجة ، حيث قدم له حاكمها فروض الطاعة . ثم عاد عقبة بعد ذلك قاصد القيروان التى خلف عليها من قبل زهير بن قيس البلوى ، واختار لعودته نفس الطريق الداخلى الذى سلكه من قبل متجنبا طريق الساحل . وكان طريق العودة مليئاً بالأخطار والمخاوف ، حيث استطاع كسيلة أن يفر من جيش عقبة ، وأعد البربر للغدر به ، وأحس عقبة بما كان يدبر له ، فعجل بالسير حتى وصل مدينة طبنة ، وهناك أمر معظم جيشه بالذهاب رأسا إلى القيروان ، اذ أحس فساد المياه فى الآبار التى مر عليها ، وبقى مع جزء يسير من قواته لحماية مؤخرته.

ورأى البربر والبيزنطيون فرصتهم قد سنحت للغدر بعقبة بعد أن سبقة معظم جيشه ، فانسحبوا أمامه متجهين إلى الجنوب الغربى فى اتجاه تهودة وأغروه على أن

يقتفى أثرهم ، متظاهرين بقلة عددهم . وعند حصن بيزنطى بالقرب من تهودة تحصن كسيلة ومعه البيزنطيون . وعندما هجم عقبة على هذا التحالف بين كسيلة والبيزنطيين دارت معركة حامية الوطيس ، لم يلبس أن استشهد فيها ومعه كثير من كبار رجال جيشه ومن بينهم دينار أبى المهاجر ، ووقع كثير من المسلمين أسرى . وقد نجم عن هذه المعركة نتائج كان لها أبعد الأثر على مجريات الفتوح الاسلامية فيما بعد . اذ افتدى بعض كبار الشخصيات من رجال البربر تفرا من الأسرى المسلمين ، مما يدل على أن الاسلام كان قد دخل قلوب بعض البربر وآمنوا به . وكان معظم أولئك البربر الذين مالوا إلى الاسلام من القبائل البدوية البعيدة عن الحضارة البيزنطية .

ولما بلغ زهير نبأ مأساة تهودة ، انسحب بمن معه من الجند الاسلامى إلى برقة سنة ٦٥هـ انتظار اللامدادات الجديدة .

٥ ــ حملة زهير بن قيس البلوى :

بعد معركة « تهودة » وارتداد المسلمين إلى برقة دخل كسيلة القيروان واحتلها ، وبدا كأنما عادت الآحوال بشمال أفريقيا إلى سابق عهدها قبل الفتح الاسلامى .

ولكن كسيلة لم يدرك قوة جيرانه من البربر المسلمين ، وما هم عليه من منعة وعزة ، وأن البلاد التى يسيطر عليها ليست خالصة الولاء له.ومن ثم آثر الاحتفاظ بحسن الجوار مع البربر ولاسيما المقيمين منهم فى القيروان ، كما لم يتعرض بأى أذى للمسلمين فى القيروان برغم أن وجودهم كان يحمل فى طياته أخطارا كبيرة على سلامته وسلامة دولته. وظل كسيلة متجنبا الأسباب التى قد تثير عليه غضب البربر المسلمين ، حيث كان لهم أنصار عديدون متفرقون فى أنحاء البلاد .

وكان زهير بن قيس البلوى يعمل جاهدا منذ عاد إلى برقة سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م على استنهاض السلطات فى مصر وكذلك الخليفة عبد الملك بن مروان لاعداد جيوش يسترد بها شمال أفريقيا . واستطاع الخليفة رغم انشغالة بثورة عبد الله بن الزبير أن يعد فى سنة ٦٩هـ / ٦٨٨م جيشاً عظيماً فى مصر ، ثم وضعه تحت قيادة زهير بن

قيس البلوى وبعثه لاسترداد شمال أفريقيا . ويعتبر اقدام الخليفة عبد الملك على اتخاذ هذه الخطوة ، وهو لايزال فى غمرة مشاكله الداخلية ، دليلا على أن الخلافة نظرت إلى شمال أفريقيا على أنه قطر اسلامى تهتم به الدولة الاسلامية اهتمامها بأمور مصر والعراق والحجاز .

وما أن ترامت أنباء الزحف الاسلامى الجديد من مصر على شمال افريقيا حتى استولى الفزع والخوف على كسيلة ، وكان مقيما اذ ذاك بالقيروان . ورأى أن المقام بهذه المدينة لاجدوى منه ، اذ بها جماعات من المسلمين ، ويخشى أن تثور عليه فى الوقت الذى يحاصر فيه زهير المدينة . فوقع اختياره على قرية تدعى ممس ، لقربها من الهضبة وجبال أوراس .

وزحف المسلمون على ممس بحماسة رائعة لاعلاء كلمة الاسلام والأخذ بثأر عقبة . ودارت رحى معركة عنيفة أبلى فيها المسلمون بلاءا حسنا ، حتى كتب لهم النصر وقتل كسيلة على أرض المعركة ، دون أن يتمكن من الهرب حيث تخلى عنه البيزنطيون .

وبعد أن فرغ زهير من مهمة اخضاع البر ِ الموالين للبيزنطيين ، أخذ يعد العدة للرجوع إلى برقة . وكانت غالبية الجيوش الا سلامية حتى ذلك الوقت تعود إلى مصر بعد أن تنتهى من مهمتها فى شمال أفريقيا . ووة ِ زهير فى خطأ أشبه بما تردى فيه عقبة . اذ سمح لجنده بأن يعجلوا بالعودة إلى مصر على حين سار هو فى المؤخرة ، وعندما اقترب من برقة علم أن البيزنطيين قد نزلوا بساحلها ، ولم يتوقع زهير أن يجد البيزنطيين مستعدين فى قوة عظيمة ، اذ اعتقد أن سفنا ضئيلة من أسطولهم قد رست بشواطئ برقة ، ولا ضير من مهاجمتها والاستيلاء عليها .

وذهب زهير إلى الساحل على رأس نفر يسير من قواته ليستطلع الأخبار ، فوجد البيزنطيين فى سفن كبيرة كثيرة العدد ، ومعهم عدد كبير من أسرى المسلمين . ولم يكد هؤلاء الأسرى يرون زهير حتى استغاثوا مستنجدين به ، فأخذت الحمية زهير ومن معه وأسرعوا بمهاجمة السفن البيزنطية لتخليص المسلمين الأسرى . ولكن

البيزنطيين كانوا قد أعدوا معسكرا على الساحل بعيدا عن أعين المسلمين ، وما كاد زهير يطأ أرض الساحل حتى فاجأه جند هذا المعسكر البيزنطى ، ودارت رحى معركة عنيفة أحاط فيها البيزنطيون بزهير وأتباعه. ولكن زهير أبدى من ضروب الشجاعة والبسالة ما جعل استشهاده فى ساحة القتال لايقل روعة عن استشهاد عقبة فى وقعة « تهودة » .

٦ ــ حملة حسان بن النعمان :

بدأت السلطات فى مصر تستعد لاستئناف العمليات الحربية فى شمال افريقيا عقب استشهاد زهير بن قيس .

واضطلع بالعبء الجديد من النضال ضد البيزنطيين حسان بن النعمان ، أحد كبار قادة الدولة الأموية . وفى سنة ٧٦هـ / ٦٩٥م ، أعدله الخليفة عبد الملك بن مروان جيشاً كبيراً برغم ما كان يحيط به من صعاب ، حيث رأى ضرورة تخليص شمال افريقيا من نير البيزنطيين .

سار حسان من مصر مسرعا إلى شمال افريقيا ، واجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقى مقاومة . وقد انضم اليه فى طرابلس كثير من البربر ، اتخذهم أدلاء فى زحفة على سائر أنحاء البلاد . وكذلك دخل فى جيشه كثير من البربر البدو من أهالى الجنوب الذين سبق لهم اعتناق الاسلام .

وبلغ حسان النعمان عندما دخل القيروان أن احدى قبائل البربر المقيمة بجبل أوراس لم تأنس لاستقرار المسلمين فى منطقة تقع بالقرب من مواطنهم ، وكانت هذه القبيلة تدعى جراوة .

ولم تكن قبيلة جراوة على علم بأهداف المسلمين ورسالتهم فى شمال أفريقيا ، مما جعلهم يتخوفون من اقترابهم من مواطنهم بجبل أوراس . وكان يتزعم هذه القبيلة اذ ذاك امرأة تدعى بالكاهنة ، وذات نفوذ واسع وكلمة مسموعة بين سائر أفراد قبيلتها ، ويأتمر الجميع بأمرها . وكانت تدعى العلم بالغيب ، مما جعل المسلمين يطلقون عليها

لقب الكاهنة عندما تسامعوا بأخبارها .

وكانت خطة حسان دائماً هى المبادرة بالهجوم قبل أن يتم عدوه استعداداته. وطبق هذه الخطة مع الكاهنة وقبيلتها جراوة ، حيث عجل المسير اليها . ولكن هذه السياسة لم تثمر مع قبيلة جراوة ، اذ كانت الكاهنة قد عملت بمسير حسان اليها ، وأسرعت بجمع عدد كبير من أتباعها ، ومن ثم واجه حسان مقاومة عنيفة واضطر إلى التقهقر إلى طرابلس .

وظل حسان مقيما بطرابلس حتى جاءته الأمداد من مصر سنة ٨١هـ ، فاستأنف الزحف على شمال أفريقيا . ووجد أن أحوال الكاهنة قد تغيرت عما كانت عليه من قبل ، اذ انفض عنها جانب كبير من أهلها حيث ملوا طول القتال . وعند قابس لقيه أهلها بالطاعة وقدموا له الأموال لمساعدته . ثم التقى بعد قابس بجيوش الكاهنة ، وأوقع بها هزيمة فادحة ، ثم تبعها إلى جبال الأوراس حيث لقيت حتفها ، وخضع البربر من قبيلة جراوة لسيادة المسلمين .

وكان للكاهنة ولدان عاملهما حسان معاملة حسنة ، وعمد إلى تأليف قلبهما ليستفيد منهما فى صراعه المقبل ضد البيزنطيين . فعين الأبن الأكبر على رأس الجماعات البربرية المنضوية تحت لوائه وقربه اليه ، وبذلك قضى حسان على آخر خطر مفاجئ قد يأتى من ناحية البربر ، ثم سارع البربر إلى الدخول فى الدين الاسلامى أفواجا لما رأوه من حسن معاملة المسلمين لهم ، وأنهم يساوون بينهم جميعا فى المعاملات لا فرق بين مسلم عربى ومسلم من البربر .

ويعتبر حسان أيضا أول قائد تم على يديه استقرار المسلمين النهائى بشمال أفريقيا ، اذ انصرف بعد اتمام الفتح إلى البلاد وتشجيعها على أن تأخذ بنصيب فى جهاد البيزنطيين واخراجهم مما تبقى لهم من أملاك فى جزر البحر المتوسط . فاتجه حسان إلى انشاء « دار صناعة »تبنى بها السفن والأساطيل ليغير بها على سواحل البيزنطيين ، ويشغلهم بالدفاع عن أنفسهم بدلا من اغارتهم على ولاية افريقية . واستعان حسان بالمصريين فى تأسيس هذه القاعدة البحرية الجديدة . فأرسل يطلب

من الخليفة عبد الملك أن يبعث اليه جماعة من المصريين ممن لهم خبرة ببناء السفن . وكلف الخليفة أخاه عبد العزيز بن مروان والى مصر أن يرسل إلى تونس ألف قبطى بأهله وولده ، وأن يعدهم أحسن اعداد بما يكفل لهم الراحة طيلة السفر والوصول فى أمان .

ووصل المصريون إلى تونس وحسان بن النعمان مقيما بها ، وأنشأ بمساعدتهم دار صناعة للسفن ، وعهد إلى البربر قطع الأخشاب من سفوح الجبال ونقلها إلى تونس حيث تولى الصناع المصريون بناء السفن . ونشطت حركة الصناعة فى هذا الميناء الجديد ، وخرجت منه أساطيل المغرب تحمل راية الاسلام فى غرب البحر المتوسط .

حملة موسى بن نصير :

دخلت الحملات الاسلامية من مصر لفتح شمال افريقيا مراحلها الأخيرة حين عزل والى مصر عبد العزيز بن مروان القائد حسان بن النعمان سنة ٨٩هـ / ٧٠٧م وبعث إلى المغرب أحسن قادته الحربيين وهو موسى بن نصير .

وقد واجه موسى فتنا من البربر استطاع أن يخمدها فى سهولة ويسر . اذ كانت بقايا البيزنطيين ووكلائهم وأحلافهم بشمال افريقيا ينتهزون الفرص لاثارة الشغب ضد المسلمين الفاتحين . وجاء عزل حسان بن النعمان تكئة اعتمدوا عليها فى تأليب البربر على السلطات الاسلامية بالقيروان . ولكن موسى بن نصير أثبت أنه لا يقل شكيمة وبأسا عما سبقه من قادة المسلمين ، فبادر بإقصاء المحرضين على الفتنة من البيزنطيين عن البلاد ، وضرب على أيدى الذين انضموا تحت لوائهم بقسوة وشدة . وهكذا كان أصبع البيزنطيين دائما وراء كل حركات البربر فى هذه المرحلة الختامية من استقرار الفتح الاسلامى بأرض المغرب .

وحالف التوفيق قادة المسلمين فى نشر رسالة الاسلام بشمال افريقيا ، لأنهم منذ أيام حسان وجهوا ضرباتهم للبيزنطيين وحدهم ، وأبعدوهم عن كل بقعة يتخذونها شوكة تهدد أرض الاسلام . وجعل موسى بن نصير هذه السياسة نصب عينيه بعد أن

رأى وكلاء البيزنطيين يتابعون سياسة الدس ضد المسلمين ، وأن الأساطيل البيزنطية أخذت تغير من بعض قواعدها البحرية على أرض المسلمين بشمال افريقيا . فأعد أساطيلا اسلامية غزا بها جزر مينورقة ومينورقة سنة ٨٩هـ / ٧٠٨م ، وضمها إلى سلطان المسلمين ، وأخذت الحياة تزدهر فى الجزر بعد أن استقر بها المسلمون . وأصبحت ولاية موسى بن نصير تمتد من حدود مصر الغربية إلى شواطئ المحيط الأطلسى ولها هيبتها فى حوض البحر المتوسط الغربى .وساد السكون والهدوء هذه الولاية فى ظل الاسلام ، اذ استطاع موسى بن نصير بعدله وحبه للانصاف أن يجذب اليه كبار رجال البربر ، كما عين الفقهاء لتعليم الناس أحكام الدين ، وتفهيمهم قواعده على أسس صحيحة . وظهرت بشائر هذا العهد الجديد سريعاً ، اذ حقق الاسلام معجزة كبرى شهدت له بأنه دين الفطرة ، فقد صبغ البربر بالصبغة الاسلامية ، وجعل لسانهم جميعاً اللسان العربي .

وهكذا حققت الحملات المصرية لفتح بلاد المغرب عملا مجيدا ، هو انتزاع الصفة البيزنطية القديمة المتصلة بالبحر المتوسط واحلال الطابع الاسلامى محلها ، اذ كان البيزنطيون يعتزون دائماً بأن البحر المتوسط هو بحرهم ، حيث ورثوا عن أمهم الدولة الرومانية الكبرى اللقب الذى أغدقوه على هذا البحر وهو « بحر الروم » . على أن انتصار الجيوش الاسلامية فى شمال أفريقيا كتب للمسلمين السيادة على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، إلى جانب السيادة التى اكتسبوها على الحوض الشرقى من هذا البحر فى وقعة ذات الصوارى التى انتصر فيها الأسطول المصرى على البيزنطيين ، وأصبح البحر المتوسط حريا أن يدعى « بحر المسلمين » نتيجة المجهودات الحربية التى انطلقت من القاعدة الاسلامية فى مصر .

ثالثا : مصر بين الصليبيين والمغول

أهمية مصر الاسلامية :

يتضح من دراسة موقف الدولة الفاطمية ازاء العباسيين أن قيام الدولة السلجوقية الكبرى فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى أعاد إلى المسلمين بعض الهيبة التى بددتها مظاهر الضعف فى الخلافة العباسية . وبفضل السلاجقة العظام غدت دار الاسلام ـــ وهو ما جرى عليه المصطلح عند الفقهاء فى تسمية الدولة الاسلامية ـــ قبلة أنظار العالم مرة أخرى . فالناظر إلى خريطة العالم الاسلامى على عهد السلطان السلجوقى ملكشاه (٤٦٦ ـــ ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ ـــ ١٠٠٩٢م) يرى ارتباط أواسط آسيا حتى تركستان بالجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، وانفراد هذه الرقعة الجغرافية بعودة الروح الاسلامية الأولى سواء من ناحية التوسع الحربى ، أو من ناحية النشاط العلمى .

وجاورت هذه الدولة السلجوقية السنية غربا دولة الخلافة الفاطمية الشيعية ، التى سيطرت على جهات من العالم الاسلامى لا تقل أهمية عن ممتلكات السلاجقة . فامتد سلطان الفاطميين على مصر وجنوب الشام حيث يلتقى أعظم بحرين فى العالم القديم ، وهما البحر المتوسط والبحر الأحمر . وعلى الرغم من العداء الذى استحكم بين قوتى السلاجقة والفاطميين لاختلافهما من حيث المذهب الدينى لم تستطع أحداهما أن تقضى على الأخرى مع كثرة الحروب بينهما ، ولذا بدت كل منهما ذات مكانة هامة فى العالم الاسلامى ، فضلا عن قيام الدولة الأموية بالأندلس وهى دولة عظيمة الهيبة والمدنية فى الجزء الجنوبى الغربى من أوربا . وهكذا بدا العالم الاسلامى فى نظر العالم الأوربى المسيحى على الأقل ، يقبض بيديه على أوربا من الشرق والغرب .

أما أهم دول أوربا التى عارضت القوى الاسلامية وقتذا ، فأولاها الامبراطورية الغربية الألمانية ، التى اشتملت على ألمانية الحالية وايطاليا واجزاء من بلجيكا

وهولنده والنمسا والمجر ، وهى التى صار اسمها الرسمى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وامبراطورها وقتذاك هنرى الرابع (١٠٥٦ ــ ١١٠٦م) . وقامت فى فرنسا مملكة قوية تولى عرشها ملوك من أسرة هيو كابية ، التى اشتهر منها وقتذاك الملك فيليب الأول (١٠٦٠ ــ ١١٠٨م) .
وفى انجلترا أسس النورمانيون مملكة قوية تولى عرشها الملك وليم الثانى (١٠٨٧ ــ ١١٠٠) . وفى أسبانيا المسيحية قامت ممالك نافار وأرجونه وقشتالة ، وهى الممالك التى نهضت لحرب المسلمين بالأندلس أجيالا عديدة .

وفى أقصى الشرق الأوربى قامت الدولة البيزنطية ، التى هزم السلاجقة امبراطورها رومانوس ديوجينيس فى وقعة منزكرت سنة ١٠٧١م . وتولى عرش الدولة البيزنطية بعد هذه الوقعة الفاصلة الأمبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ ــ ١٠٧٨م) وهى الذى استصرخ البابا جريجورى السابع لصد الزحف السلجوقى ، وعبأ الشعور فى غرب أوروبا للحروب الصليبية .

وزاد فى هيبة مصر وسط هذه القوى العالمية سيطرتها على الميزان التجارى بين الشرق والغرب ، بفضل موقعها الجغرافى ، وبفضل سيادتها أيضاً على الأماكن المقدسة المسيحية بفلسطين . وكانت هذه الأماكن المقدسة فى حوزة المسلمين منذ فتحوا فلسطين ، على عهد الخليفة عمر بن الخطاب . وأشرفت الخلافة الاسلامية على الأماكن المسيحية بها مثل بيت المقدس وبيت لحم والناصرة والخليل . وأثارت هذه السيادة الاسلامية غضب الحجاج الأوربيين ، منذ كثرت أعداد الوافدين منهم على بيت المقدس . على أن الحج فتح باب علاقات سياسية بين الدولة الاسلامية وبعض الدول المسيحية الكبرى فى أوربا مثل دولة الفرنجة الكارولنجية ، اذ حرصت هذه الدولة على دعم صلاتها بالأماكن المقدسة ، لتستمد منها مركز الزعامة فى العالم المسيحى ، فبعث شرلمان امبراطور الفرنجة (٨٠٠م) ومنافس الامبراطورية البيزنطية ، سفارة إلى الخليفة العباسى هارون الرشيد لتسهيل زيارة الحجاج الفرنجة لبيت المقدس . وأرسل هارون الرشيد سفارة اسلامية إلى شرلمان ، وبعث معها فيما يقال

مفاتيح كنيسة بيت المقدس ، مفضلا اياه على قسطنطين السادس امبراطور البيزنطيين . وأصبح شرلمان فى نظر المعاصرين حامى المسيحيين الذاهبين إلى الأماكن المقدسة .

ولقيت الأماكن المقدسة وحجاجها الوافدين اليها من المسيحيين عناية كبيرة من السلطات الاسلامية الممثلة للخلافة العباسية . ولما استولى الفاطميون الشيعيون على اقليم الشام سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م حفظوا سياسة الخلافة العباسية فى العناية بأماكن الحج المسيحية . وظل الحجاج المسيحيون يلقون معاملة حسنة ، وأظلهم السلاجقة كذلك بالعناية بعد امتداد الدولة السلجوقية على بلاد الشام سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م واستيلائها على بيت المقدس . ولكن تفكك الدولة السلجوقية وكثرة حروبها الداخلية وقلة الأمن فيها بسبب هذه الحروب حرم الحجاج المسيحيين من الاطمئنان على أنفسهم وأموالهم ، فعادوا إلى بلادهم ووصفوا المتاعب التى يلقونها فى كثير من المبالغة ، ونادوا بتخليص الأراضى المقدسة من المسلمين . وغدت الروايات المختلفة عاملا من العوامل التى أثارت الناس فى أوربا نحو الحروب الصليبية .

الحروب الصليبية

منذ صار بيت المقدس فى أيدى السلاجقة ، أحست أوروبا المسيحية بأن الأماكن المقدسة انتقلت إلى دولة اسلامية عسكرية صارمة ، وفى أثناء تفكك الدول السلجوقية وحروبها وسوء معاملة الحجاج بعد ذلك أخذت بعض السلطات الأوربية ، ومنها البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ ــ ١٠٨٦م) تروج أخبار هذه المعاملة السيئة . ووصلت بعض هذه الأخبار من ناحية الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع سنة ١٠٧٣م ، اذ استغاث بالبابا لصد تيار السلاجقة الذى تدفق على آسيا الصغرى بعد انتصارهم فى وقعة منزكرت .

ونبهت صيحات الحجاج المسيحيين الشعور فى غرب أوروبا لمحاربة المسلمين . وجدد الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين سنة ١٠٩٥م الاستغاثة مرة أخرى بالبابا اربان الثانى ، بعد أن وضح له أن الامبراطورية لا تستطيع أن تعيش بدون أقاليم آسيا الصغرى التى باتت فى أيدى السلاجقة ، فمن تلك الأقاليم الأسيوية جندت الامبراطورية خيرة جنودها ، فضلا عن أن سواحلها زودت الأسطول البيزنطى بعدد كبير من السفن والبحارة . ونجح اربان الثانى فيما عجز جريجورى السابع عن تحقيقه ، اذ اختمرت فى رأسه ، وهو فى مدينة كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥م لتسوية بعض المسائل الخاصة بالملكية الفرنسية ــ أن يدعو لاعداد حملة ترمى إلى طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وتخليص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين . واستطاعت البابوية بذلك أن تصبح القوة الأولى والعامل الفعال الذى حول استغاثة الامبراطور البيزنطى من مجرد حماية الدولة البيزنطية ، إلى حرب مقدسة .

ولبى الأمراء الأوربيون دعوة البابوية ، وهم الطبقة الحربية العسكرية ، وأصحاب الأقطاعيات الكثيرة من الأراض ، وذوى النفوذ السياسى الكبير . ويرجع نفوذ الأمراء إلى ما هو معروف فى غرب أوربا بالنظام الاقطاعى الذى جعل المجتمع الأوربى ثلاث طبقات ، طبقة رجال الدين ، وطبقة المحاربين ، وطبقة الفلاحين . فرجال الدين هم المشرفون على الكنيسة والعبادة والمحافظة على الدين ، والمحاربون وظيفتهم الحرب وما تستلزمه من اقتناء الجيوش والانفاق عليها واعدادها للقتال ، والفلاحون هم الذين يعملون فى أرض أصحاب الاقطاع من الأمراء وأتباعهم من الفرسان .

وأطلق اسم الفرسان على طبقة المحاربين عموما لاعتمادهم فى ذلك العصر على الخيل فى القتال . ولبس الفارس الزرود الثقيلة والخوذات وغيرهما من الملابس المصنوعة من الحديد .

ولما كانت الحروب الاقليمية قد انتشرت بين السادة الاقطاعيين وملوكهم فى غرب أوروبا ، فان الكنيسة رأت فى الدعوة إلى الحروب الصليبية وسيلة لصرف هذه الطبقة وأتباعها من الفرسان عن الشحناء إلى خدمة الدين . ورأى أصحاب الأطماع

الواسعة من السادة الاقطاعيين وفرسانهم فى نداء الكنيسة فرصة للذهاب إلى الشرق ووسيلة لتأسيس إمارات أو اقطاعيات لهم هناك ، والتخلص بذلك من المتاعب الاقتصادية التى نتجت عن المزاحمة الاقطاعية فى مختلف الممالك الأوربية . وذهب مع أولئك السادة وفرسانهم إلى الحروب الصليبية كثير من الناس فرارا من البؤس والفقر ، أو حبا فى خدمة المسيحية .

تكوين الامارات اللاتينية فى الشرق العربى

اتخذ الصليبيون الذين اجتمعوا من مختلف البلاد الأوربية لتخليص الأراضى المقدسة بالشام ، من مدينة القسطنطينية ملتقى جيوشهم قبل العبور إلى آسيا الصغرى والشام . وقبل وصول هذه الجيوش الصليبية اجتمع بالقسطنطينية سنة ١٠٩٦م أعدادا شتى من الرجال والنساء فى غير نظام أو خبرة بالقتال ، وعبرت إلى الشاطئ الأسيوى بزعامة رجل اسمه بطرس الناسك . فباد معظم أولئك الناس ما عدا بطرس نفسه، على أيدى السلاجقة المسلمين . ثم وصلت الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية سنة ١٠٩٧م بقيادة زعمائها : جودفرى دى بوبون دوق لورين ، وأخوه بلدوين ، وروبرت كونت فلاندرز ، وريموند التولوزى وبوهمند النورمانى ، فأخذ الامبراطور ألكسيوس كومنين على أمرائها قسماً تعهدوا فيه بأن يسلموا اليه البلاد البيزنطية التى يستردونها من السلاجقة فى آسيا الصغرى . وبذا سهل لهم عبور البوسفور فى مايو سنة ١٠٩٧م ، بعد أن أمدهم بالمؤنة والعتاد والمعلومات الجغرافية اللازمة . وعجل الامبراطور باقصاء جيوش الصليبيين عن القسطنطينية بسبب عبثهم بالمدينة فضلا عن عبثهم بالبلاد البيزنطية فى البلقان قبل وصولهم إلى القسطنطينية .

وبدأ الزحف الصليبى على آسيا الصغرى والشام فى وقت ليست فيه قوة اسلامية تستطيع الوقوف فى وجه الجيوش الصليبية . فالدولة السلجوقية الكبرى باتت بعد وفاة سلطانها ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م دويلات متناثرة لا رابطة بينها سوى الحروب المستمرة ، ففى دولة السلاجقة الروم ــ أى آسيا الصغرى ــ حكم السلطان قلج أرسلان الصغير السن ، وهو أول من لقى ضربات الصليبيين سنة ١٠٩٧م . وفى

الشام والعراق لم يوجد حاكم ذو نفوذ واسع بل استبد بمختلف المدن الشامية والعراقية مجموعة من الأتابكة المتنازعين وهم الموظفون الذين قاموا على تربية أبناء السلاطين وعينو إلى جانبهم فى ولاياتهم ، فلما تفككت الدولة السلجوقية الكبرى صار أولئك الأتابكة أصحاب الدويلات فى مدن الشام والعراق .

أما الخلافة العباسية فى بغداد فلم يكن لها حول ولا قوة ، وضاعت هباء صرخات المسلمين لاستنهاض الخليفة العباسى المستظهر بالله « ٤٨٧هـ ـــ ١٠٩٤م » كذلك لم يكن فى استطاعة الخلافة الفاطمية وهى صاحبة بيت المقدس وغيرها من المدن بجنوب الشام ، أن تقوم بعمل كبير ضد الصليبيين . اذ عاش الخليفة الفاطمى بالقاهرة مسلوب السلطان ، بسبب الحزبية العسكرية وتنازع المصالح والأطماع بين الوزراء الفاطميين ، ومن الواضح أن هذه العوامل الكثيرة سهلت على الصليبيين هزيمة المسلمين ، كما سهلت عليهم تأسيس إمارات صليبية .

إمارة الرها :

وعندما أخذت الجيوش الصليبية تسير من آسيا الصغرى إلى الشام ، تفرعت عنها فرقة بقيادة بلدوين وأغارت على مدينة الرها . وفى أوائل سنة ١٠٩٨م احتل بلدوين هذه المدينة الهامة ، وأسس بها أول إمارة لاتينية ـــ أى صليبية ـــ فى الشرق . وتولى بلدوين شئون هذه الامارة التى ظل بها مدة ، على حين استمرت الجيوش الصليبية فى زحفها الرئيسى على الشام .

إمارة أنطاكية :

ثم حاصر الصليبيون مدينة أنطاكية فى شمال الشام . واستطاع بوهيموند النورمانى فى يونيه سنة ١٠٩٨م أن يقتحم هذه المدينة العظيمة بسبب خيانة أحد حراس أبراجها من الجند الأرمن ، اذ دلى الحبال ليلا من أعلى الأسوار وسهل للصليبيين دخولها بعد حصارها الطويل . وتولى بوهيموند النورمانى تأسيس الامارة اللاتينية الصليبية الثانية فى هذه المدينة ، وسارت القوات الصليبية الرئيسية جنوبا إلى بيت المقدس « أورشليم » بقيادة جودفرى دى بويون .

الاستيلاء على بيت المقدس :

ومن أنطاكية سار جودفرى لتحقيق الهدف الأول للصليبيين ، وهو الاستيلاء على بيت المقدس ، فوجد مدينة الرملة الواقعة فى طريقه خالية من الجند الفاطميين ، فاستمر فى زحفه حتى بلغ أبواب بيت المقدس (أورشليم) « فى يونيو سنة ١٠٩٩م » . وسارت جموع الصلبيين حفاة الأقدام حول أسوار المدينة ، امعانا فى اظهار التقوى ، ونفخوا فى الأبواق لايقاع الرعب فى الحامية الفاطمية المصرية المرابطة بها . وفى اليوم الخامس عشر من يوليو دخل الصليبيون مدينة بيت المقدس ، بعد أن وعدوا أهلها بالأمان وحفظ الأرواح ، ولكنهم نكثوا بوعودهم وأنزلوا بسكانها مذبحة كبرى ، دون رعاية لعهد الأمان .

ولم يرض رجال الدين من الصليبيين أن تقوم فى بيت المقدس مملكة ، وهى البلد الذى قام فيه المسيح داعيا إلى الابتعاد عن زخرف الحياة . فاستقر الرأى على أن يكون جودفرى رئيساً وحاميا لبيت المقدس سنة ١٠٩٩م لا ملكا فى الدولة الصليبية هناك .

مملكة بيت المقدس :

ولما مات جودفرى جاء أخوه بلدوين أمير الرها ، ونودى به ملكا على بيت المقدس يوم عيد الميلاد ، فى سنة ١١٠٠م ، بعد أن تغير موقف رجال الدين من نظام الحكم فى المملكة الصليبية ، لذا فالملك بلدوين الأول هو المؤسس الحقيقى لمملكة بيت المقدس ، وبدأ بلدوين عهده باخضاع المدن الساحلية ليضمن مواصلاته مع أوروبا ، ويمنع سفن الأسطول الفاطمى من استخدام هذه الموانى .

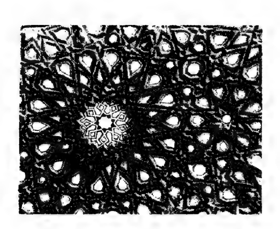
ووسع بلدوين مملكته جنوبا للحصول على ميناء على البحر الأحمر ابتغاء الاستيلاء على جزء من التجارة مع الهند ، فبنى إلى الجنوب من البحر الميت سنة ١١١٥م حصن الشوبك ، ليتحكم أولا فى طريق القوافل من دمشق إلى مصر والحجاز ثم حاول بلدوين غزو مصر أكثر من مرة ، أولا عن طريق الطور ، وثانيا عن طريق العريش

ومات سنة ١١١٨م أثناء محاولته الثانية داخل الأراضى المصرية قرب مكان لايزال يحمل اسمه محرفا حتى العصر الحاضر ، وهو سبخة البردويل على البحر الأبيض المتوسط شرقى بور سعيد الحالية . وبلغت مملكة بيت المقدس زمن بلدوين أقصى اتساعها الجغرافى ، فامتدت من العقبة على البحر الأحمر إلى بيروت على البحر الأبيض المتوسط .

إمارة طرابلس :

وبينما تتحول إمارة بيت المقدس إلى مملكة ، عليها بلدوين حاكما ، تأسست دولة لاتينية رابعة فى طرابلس الشام ، بالاضافة إلى الرها وأنطاكية وبيت المقدس . وتطلع إلى ذلك المشروع الكونت ريموند التولوزى ، وبدأ هذا القائد حصار طرابلس سنة ١١٠١م وعزلها عن المنطقة الاسلامية المحيطة بأن بنى حصنا على تل مجاور لها ، وطال الحصار على هذه المدينة . وفى أثناء هذا الحصار الطويل استعان ريموند باسطول مكون من سفن جنوه واستولى على ثغر جبيل سنة ١١٠٤م جنوبى طرابلس .

غير أن ريموند مات سنة ١١٠٥م ، قبل أن يحقق غرضه ، ولم تسقط طرابلس الا سنة ١١٠٩م فى يد ابنه . وصارت امارات طرابلس والرها وأنطاكية تابعة اسميا لمملكة بيت المقدس .



جهاد مصر ضد الصليبيين

الدور الأول من الجهاد الاسلامى

حركة الافاقة الاسلامية :

تطورت الحركة الاسلامية لطرد الصلبيين إلى جهاد نهضت به دول الأتابكة فى شمال العراق والشام . وظهر من أمراء هذه الدول أتابك قوى ، هو عماد الدين زنكى أمير الموصل (٥١١ ــ ٥٤١هـ / ١١١٧ ــ ١١٤٦م) . واستطاع زنكى بمواهبه أن يتولى أولا ادارة مدينة واسط ومدينة البصرة ، ثم استولى على امارة الموصل ، وبلغ بذلك رتبة الأتابكية .

ثم بسط زنكى سلطانه على حلب كذلك ، مؤسساً دولة كبيرة تهدد ممتلكات الصليبيين فى شمال العراق والشام . واستهل زنكى أعماله ضد الصليبيين بحصار مدينة الرها ، وهى المعقل الأول للصليبيين فى شمال العراق والخطر الذى هدد بغداد عاصمة الخلافة العباسية . وبعد حصار دام أربعة أسابيع استولى زنكى على الرها سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م ، وسمى هذا الفوز « نصر الأنصار » ، اذ ترتب على سقوط إمارة الرها فى يده ازاله الوتد الصليبى الذى شق البلاد الاسلامية نصفين . ووضع زنكى حامية فى الرها لتأمين فتوحاته فى هذه المنطقة الهامة ، وبدأ زحفه على معاقل الصليبيين الأخرى المجاورة ، وأعانه فى معظم حروبه أخوان من أصل كردى فى خدمته ، وهما نجم الدين أيوب ، وأسد الدين شيركوه . على أن زنكى مات قتيلا سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م على يد أحد مماليكه ، بتحريض من بعض أعدائه المسلمين وهو يحاصر قلعة جعبر . وترك لابنه نور الدين محمود اتمام الدور الأول من الجهاد ضد الصلبيين وخلف له سياسة مرسومة واضحة المعالم .

وجعل نور الدين عاصمته مدينة حلب ، وبلغت الدولة فى أيامه أعظم مجدها واتساعها ، اذ استطاع على أثر تولية الحكم أن يتخلص فى سرعة من الفتن الداخلية التى تلت مقتل والده . واصطدم نور الدين بمحاولة الصلبيين استرداد الرها ، فقد أدى

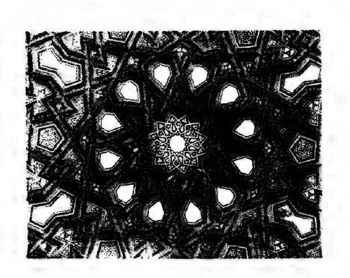
استيلاء المسلمين على هذا المعقل الهام إلى قيام الحملة الصلبية المعروفة بالثانية (١١٤٧ ــ ١١٤٩م) من أوربا بقيادة كنراد الثالث ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا . غير أن اختلاف المصالح الشخصية حول هذه الحملة إلى حصار دمشق بدلا من استعادة الرها . وقاوم الأتابك طغتكين أمير دمشق هذا الحصار الصليبى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م وظل الصليبيون أمامها عاجزين عن اقتحامها برغم اشتراك فرسان الهيئتين المسيحيتين اللتين تأسستا لمساعدة الصليبيين فى الشرق ، وهما الداوية والاسبتارية . وأرسل نور الدين زنكى مددا لنجدة طغتكين ، فاضطر الصليبيون إلى رفع الحصار وعاد لويس وكنراد إلى أوربا ، بعد فشل الصليبيين فى تحقيق شئ من أغراضهم فى دمشق والرها .

ورأى نور الدين بعد فشل هذه الحملة الصليبية ضرورة الاستيلاء على دمشق تحقيقا لتوحيد الجبهة الاسلامية التى بدأها أبوه ، ولاسيما بعد أن امتدت ممتلكات الصليبيين إلى مدينة عسقلان . وفى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م استولى نور الدين على مدينة دمشق دون قتال ، حين وقفت المدينة مستعدة للدخول فى طاعته. فقد كان القائد العام لجيوشها هو نجم الدين أيوب ، أبو صلاح الدين ، من رجال الأتابك زنكى ، ولأن قائد جيش نور الدين هو شيركوه أخو نجم الدين أيوب .

وأدى هذا التغيير فى الموقف الحربى إلى أن اتجهت إلى مصر أنظار كل من نور الدين فى حلب والصليبيين فى بيت المقدس .

اذ رأى نور الدين أن استيلاء الصليبيين على عسقلان فتح الطريق أمامهم إلى مصر ، على حين وضح للصلبيين أن استيلاء نور الدين على دمشق أتاح له تطويق مملكة بيت المقدس من الشمال ، وأنه سوف يتحول إلى مصر لتطويق المملكة الصليبية من الناحية الجنوبية كذلك . وجاءت أحوال الخلافة الفاطمية نفسها عاملا ساعد نور الدين على الفوز بمصر والاستيلاء عليها ، اذ استنجد الوزير الفاطمى شاور بنور الدين ليساعده على منافسة فى الوزارة الفاطمية وهو ضرغام ، الذى استنجد بدوره بالصليبيين . وانتهى التسابق بين جيوش نور الدين ومملكة بيت المقدس إلى فوز

القوات النورية بالبقاء فى مصر ، وغدت مصر محور الارتكاز ، الذى يوشك أن تدور عليه أحداث المراحل المستقبلة من جهاد المسلمين ضد الصلبيين ، ولاسيما بعد أن زالت الخلافة الفاطمية من مسرح التاريخ .



صلاح الدين الايوبى
الدور الثانى من الجهاد الاسلامى

توحيد الجبهة الاسلامية :

ترتب على زوال الخلافة الفاطمية أن عادت مصر إلى المذهب السنى والتبعية الرسمية للخلافة العباسية فى بغداد ، وكل ذلك نتيجة جهود شيركوه وصلاح الدين باسم السلطان نور الدين .

غير أن نور الدين لم يلبث أن تشكك فى مطامع صلاح الدين ونواياه وصمم على القيام بنفسه على رأس حملة لخلعه من مصر . ثم توفى نور الدين قبل أن تتحرك هذه الحملة ، فترك سياسة توحيد القوى الاسلامية التى بدأها لصلاح الدين . واستطاع صلاح الدين أن ينهض بهذه السياسة على أتم وجه، فأعلن استقلاله بمصر سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ، غداة وفاة نور الدين . واعترفت له الخلافة العباسية بذلك ، ثم اتخذ مصر قاعدة لضم صفوف المسلمين .

وبدأ صلاح الدين خطواته لتوحيد القوى الاسلامية بازالة الشخصيات التى اعترضت سبيله فى الشام . وساعدته الاختلافات التى تلت وفاة نور الدين على تحقيق مهمته ، اذ استعان به الدمشقيون أملا فى أن تصبح دمشق عاصمة الدولة النورية بدلا من حلب . وجاء صلاح الدين إلى دمشق ، ودخلها باسم الطفل اسماعيل ابن نور الدين المقيم وقتذاك فى حلب . غير أن الأمير غازى الزنكى صاحب الموصل ، وهو من سلالة عماد الدين زنكى نفس على صلاح الدين أن يصبح حامى البيت الزنكى فى دمشق ، فحاربه صلاح الدين وانتصر عليه سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م ، وغدا صلاح الدين بعد ذلك سيد مصر والشام ، والشخصية الكبرى فى العالم الاسلامى والشرق الأدنى . فضرب النقود باسمه فى مصر والاسكندرية وحماة ، بعد أن كانت العملة تضرب من قبل باسم نور الدين . وبذا اعتبر صلاح الدين نفسه السلطان الأوحد ، ولاسيما بعد أن أخضع الموصل لسلطانه ، وجعل من أمراء العراق حكاما تابعين له .

وحقق صلاح الدين بذلك حلم نور الدين فى تطويق الفرنجة ، وجعلهم بين شقى الرحى ، بين الشام ومصر ، وأصبح الجو ممهدا أمام صلاح الدين لمجاهدة الصلبيين .

وقعة حطين :

اشتبك صلاح الدين مع الصلبيين قبل سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م فى معارك صغيرة ، بسبب حركات صليبية مناوئة له، وأهمها حركات أرناط ، أمير حصن الكرك التابع لمملكة بيت المقدس . وذلك أن هذا الأمير الصليبى تحكم بحصنه فى طرق القوافل بين مصر والشام ، ولم يهتم بالمهادنات التى عقدها صلاح الدين مع مملكة بيت المقدس . وعزم أرناط على الاستيلاء على مكة والمدينة والآثار النبوية بهما ، فأعد سنة١١٨٢م سفنا حمل أخشابها وقلاعها إلى خليج العقبة ، حيث جهز منها أسطولا ، نقل جنود الصليبيين فى البحر الأحمر إلى شاطئ الحجاز . وكان صلاح الدين غائباً فى العراق وقتذاك ، فأسرع نائبه فى مصر ، وهو أخوه العادل ولحق بالصليبيين عند مرفأ الحوراء شمالى ينبع ، واستطاع العادل القضاء على الصليبيين قبل تحقيق أهدافهم ، وحمل كثيرا منهم أسرى إلى مصر .

ثم عاد أرناط إلى خرق الهدنة بين الصليبيين والمسلمين برغم فشله السابق ، وتصدى فى ربيع سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م لاحدى القوافل الاسلامية المارة بحصنه، واستولى على جميع متاعها ، وأسر كل أفرادها . فأعد صلاح الدين حملة على مملكة بيت المقدس ، التى لم تستطع أن توقف اعتداءات أرناط التابع لسلطانها .

بعد حطين :

وكانت وقعة حطين وقعة فاصلة ، حتى وصفها بعض المعاصرين من مؤرخى الحروب الصليبية الأوربية بأنها بداية النهاية فى تاريخ الحروب الصليبية . ولم يكن فى هذا القول شيئ من المبالغة ، اذ حشد الصليبيون زهرة ما عندهم فى حطين ، ولم يبق لديهم قوات لمواجهة الخطة الخاطفة التى رسمها صلاح الدين لنفسه بعد حطين ، اذ سلمت له مدينة المقدس فى أكتوبر سنة ١١٨٧ ، بعد حصار دام أسبوعاً واحداً ، ثم

استمر صلاح الدين فى هجومه على مدن الصليبيين فى الشام وفلسطين ، فبلغ مدينة اللاذقية شمالا ، وحصن الكرك جنوباً ، ولم تأت سنة ١١٨٩م حتى سقطت معظم المدن الصليبية التى هددت المسلمين ، وبدا كأن الصليبيين سيخرجون جميعاً من الشام ، لأنه لم يبق فى حيازتهم سوى أنطاكية وطرابلس وصور ، وبعض المدن الساحلية الصغيرة وأهمها صور .

دولة صلاح الدين . وتخلل المفاوضات اقتراح قدمه ملك انجلترا ، خلاصته أن يتزوج العادل أخو صلاح الدين من الأميرة جوانا أخت ريتشارد ، مقابل أن يكون لملك انجلترا بيت المقدس والثغور البحرية المجاورة له . غير أن هذا الاقتراح لم يلق قبولا ، وانتهت المفاوضة بعقد صلح الرملة فى ديسمبر سنة ١١٩٢م وقد اتفق فيه الطرفان على أن تبقى البلاد الداخلية للمسلمين وأن تبقى المدن الساحلية للصليبيين ، على أن يسمح لفئات صغيرة من الصليبيين بزيارة بيت المقدس من قاعدتهم الكبرى فى عكا . وتوفى صلاح الدين بدمشق بعد ذلك بقليل سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ، وقبره على مقربة من الجامع الأموى بالعاصمة السورية .

الصليبيون ومصر بعد صلاح الدين :

توفى صلاح الدين دون أن يضع نظاماً خاصاً لولاية العهد ، ونجم عن ذلك قيام النزاع بين أولاده وأحفاده واخوته وأقاربه . ثم استطاع العادل أخو صلاح الدين أن يضم اليه الشطر الأكبر من الدولة الأيوبية بسبب استمالته للجيش ، وغدا سلطانا بمفرده على مصر ومعظم أجزاء الشام سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م . واحتفظ العادل مدة حكمه بالعلاقات الودية مع الصليبيين ، وعمد إلى ترويج التجارة مع الامارات اللاتينية بالشام ، والمدن الايطالية ذوات التجارة الواسعة فى الشرق ، مثل البندقية وجنوة وبيزا .

وأدى هذا الانقلاب فى السياسة العامة إلى تعديل الخطط التى وضعها صلاح

الدين ، اذ فضل السلطان العادل وخلفاؤه من بعده ، مسالمة الصليبيين بأى ثمن ، حفظاً لمصر من الهجمات الصليبية . على أن هذه السياسة أدت إلى عكس المطلوب اذ أدرك الصليبيون منذ أيام انتصارات صلاح الدين أن سر هذه الانتصارات يرجع إلى امداد الجيوش الأيوبية بالسلاح والمال من مصر ، ولذا ينبغى أن يكون الهدف الحقيقى لمجهوداتهم مصر لا الشام .

وشجعت المدن البحرية الايطالية على تنفيذ هذه السياسة الصليبية الجديدة ، ودفعتها أطماعها التجارية إلى فتح مصر لتستطيع السفن الايطالية أن تصل إلى البحر الأحمر ومركز التجارة الشرقية مباشرة . وصادف هذا الانقلاب فى خطط الصليبيين دعوة البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٦م لاعداد حملة صليبية ، هى المعروفة بالخامسة فى التقسيمات الصليبية .

ودخلت هذه الحملة فرع النيل الشرقى وحاصرت دمياط سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م . وأسرع السلطان العادل من شمال الشام إلى مصر لدفع هذه الحملة ، ولكنه توفى فى الطريق بالقرب من دمشق . وأعقب وفاة العادل انقسام الدولة الأيوبية مرة أخرى ، وتولى مصر ابنه محمد الملقب بالملك الكامل ، ووقع عليه عبء الدفاع عن البلاد المصرية ، وتنفيذ السياسة التى اتبعها أبوه العادل . واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط فى هذه الحملة . ومع هذا أظهر الملك الكامل روح المسالمة التى اتبعها أبوه العادل ، اذ اقترح عليهم تسليم بيت المقدس ، وارجاع المملكة الصليبية إلى معظم مساحتها الأولى قبل فتوح صلاح الدين ، ماعدا بضعة بلاد صغيرة مقابل الجلاء عن دمياط والشواطئ المصرية . ورفض الصليبيون هذا العرض السخى لاعتقادهم سهولة الاستيلاء على البلاد المصرية . ثم أخذ الصليبيون فى التوغل فى الدلتا ، والفيضان بالغ أقصاه ، ولم يدركوا صعوبة السير فى الأراضى المصرية فى تلك الحال ، لجهلهم أحوال النيل وكثرة الترع ، ثم ان المسلمين فتحوا الجسور والسدود وأغرقوا لأراضى . ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا المياه تعزلهم عن قاعدتهم الحربية بدمياط ، فلم يستطيعوا التقهقر ، ولقوا هزيمة فادحة على أيدى المسلمين . عند ذلك

رضى الصليبيون بالجلاء التام عن الأراضى المصرية سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م بلا قيد ولا شرط .

وسخر ملوك أوربا لما حدث بسبب تفضيل الصليبيين مدينة دمياط على مدينة بيت المقدس ، ولاسيما فردريك الثانى امبراطور الدولة الألمانية ، ورأى هذا الامبراطور تحقيق الفكرة التى ثارت برأس ريتشارد ملك انجلترا وصلاح الدين من قبل ، وهى فكرة التسوية السلمية بين الصليبيين والمسلمين ، ودارت بينه وبين السلطان الكامل من أجل ذلك مباحثات ، وجاء فردريك إلى الشام على رأس حملة قليلة العدد والعدة سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م ، وعقد مع نواب السلطان معاهدة بدت فى زمنها من أعجب المعاهدات التى عقدت بين المسلمين والمسيحيين عامة فى العصور الوسطى . ذلك أن شروط المعاهدة نصت على تسليم السلطان الكامل بيت المقدس للامبراطور فردريك باعتباره ملك الدولة الصليبية ، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والناصرة وطريق الحج من بيت المقدس إلى يافا وعكا ، على أن يبقى للمسلمين منطقة المسجد الأقصى ، فضلا عن بعض المدن . وتعهد الامبراطور فى مقابل ذلك بأن يكون حليفا للسلطان على جميع أعدائه، وأن يعمل على منع الأمداد الصليبية عن الامارات اللاتينية بانطاكية وطرابلس وغيرها ، وأن يخبر السلطان الكامل بكل ما يصل إلى علمه من حركات صليبية فى أوربا .

وأغضبت هذه المعاهدات المسلمين والمسيحيين جميعاً ، فقال المسلمون انها جاءت بالهوان والاستسلام ، على حين قال المسيحيون أن الامبراطور فردريك نزل إلى حد المفاوضة مع المسلمين بدلا من محاربتهم لتخليص الأراضى المقدسة من أيديهم .

حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر :

ثم حدث أثناء سلطنة الصالح أيوب بن الملك الكامل أن استولت طائفة من الخوارزمية المسلمين على بيت المقدس من الصليبيين سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م ، فانهدم

بذلك الشرط الأول من شروط المعاهدة الكاملة الفردريكية . وفزعت أوربا وثار أشهر ملوكها وقتذاك لويس التاسع ملك فرنسا ، المعروف فى التاريخ الفرنسى بالقديس لويس . وأعد هذا الملك حملة صليبية معظمها من الفرنسيين ، وأبحر بها سنة ١٢٤٨م إلى قبرص لقضاء فصل الشتاء هناك . ثم اتجهت الحملة من قبرص إلى مصر مما يبرهن على أن الفكرة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى تأكدت من وجوب الاستيلاء على هذه البلاد ، لأنها غدت منبع المقاومة لجميع المشروعات الصليبية .

ونزلت الحملة الصليبية قريبا من دمياط ، ثم استولت عليها دون مقاومة فى يونيو سنة ١٢٤٩م . وأسرع السلطان الصالح أيوب من دمشق إلى مصر حين بلغه نبأ استيلاء الصليبيين على دمياط ، ولكنه توفى دون أن يقوم بعمل دفاعى لصد الصليبيين . وبسبب هذه الوفاة المفاجئة واستيلاء الصليبيين على دمياط ، كتمت شجر الدر نبأ وفاة زوجها السلطان الصالح أيوب ، حتى يحضر الوارث الشرعى للبلاد وهو توران شاه . وتمت على يد السلطان الجديد هزيمة الصليبيين ، لأن القديس لويس وقع فى نفس الغلطة التى وقعت فيها الحملة الصليبية الخامسة على دمياط ، وذلك بتأجيل الزحف حتى أشهر الفيضان وامتلاء القنوات والترع بمياه النيل . ولذا تعثرت جيوش الحملة فى طريقها حتى تجمع الجيش الأيوبى ، ومعظمة من المماليك البحرية عند المنصورة الحالية . وهناك نزلت الهزيمة بالصليبيين كما نزلت بهم مرة أخرى عند فارسكور ، وهم يحاولون العودة إلى قاعدتهم الحربية بدمياط .

ووقع القديس لويس أسيرا فى أيدى القوات المصرية ، ولم يطلق سراحه الا سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م بعد أن دفع فداء كبير قامت زوجته بجمع نصفه بسرعة ، وتعهد هو بتأدية النصف الثانى بعد مدة قصيرة من اطلاق سراحه.

المماليك والصليبيون
الدور الأخير من أدوار الكفاح ضد الصليبيين

يرجع الفضل فى انتصار المنصورة وجلاء الصليبيين عن دمياط إلى البسالة الحربية التى أبداها الجند المملوكى فى القتال . وذاق المماليك طعم السلطة والحكم فى المدة الواقعة بين وفاة الصالح أيوب وحضور ابنه السلطان توران شاه . ثم أحس هذا السلطان الجديد بأن أولئك المماليك وعلى راسهم شجر الدر زوجة أبيه التى تولت شئون الدولة سوف يستأثرون بالحكم ويخلعونه من السلطة . فأخذ يأتمر بهم ، كما أخذوا هم يأتمرون به . وأغرت شجر الدر أخيرا أمراء المماليك بالتخلص من توران شاه بقتله سنة ١٢٥٠م ، وانتهى بذلك حكم الأيوبيين وقامت السلطنة المملوكية .

وتحولت السلطنة المملوكية إلى حرب الصليبيين زمن السلطان الظاهر بيبرس الذى امتدت سلطنته من سنة ٦٥٨ ـــ ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ ـــ ١٢٧٧م وتجلت مواهب بيبرس الحربية من قبل فى انتصارات المنصورة وعين جالوت ، وقام ضد الصليبيين بجهود مكملة لأعمال السلطان صلاح الدين . وتحرك بيبرس أولا لحرب امارة أنطاكية الصليبية ، بعد أن جاءته الأخبار بأن هذه الامارة تعمل على محالفة المغول الذين غدوا أصحاب دولة فى فارس والعراق ، عاصمتها بغداد .

ثم بدا للسلطان بيبرس أن يقوم بدور صلاح الدين ، وأن يصبغ جميع أعماله ضد الصليبيين بصبغة الجهاد . وعمل بيبرس منذ أوائل عهده على محالفة بعض الدول الأوروبية لابعادها عن المعترك الصليبى ، كما عمل على ايقاع الفرقة بين القوى الصليبية بالشام ، فضلا عن محالفة الدولة المغولية المعروفة باسم القبيلة الذهبية ، وهى الدولة التى اعتنقت الاسلام حديثا ، وجعلت من عاصمتها سراى بركة على نهر الفلجا مركزا لبسط سلطانها على أجزاء كبيرة من روسيا الحالية .

ولذا استولى بيبرس على حصن الكرك سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م وعلى قيصرية ، وأرسوف وصفد التابعين للفرسان الداوية فى سنة ١٢٦٥م . ثم سقطت يافا فى يده سنة

١٢٦٧م . واستطاع بيبرس أخيرا أن يستولى سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م على أنطاكية ، وساق كثيرا من الأسرى الصليبيين إلى مصر . واختتم بيبرس هذه الأعمال الحربية الكبيرة بالاستيلاء سنة ١٢٧١م على حصن الأكراد التابع للاسبتارية ، ومهد للاستيلاء على بلدتى أنطرسوس والمرقب ، أملا فى الاستيلاء نهائيا على طرابلس وهى المدينة الكبيرة التى بقيت فى ايدى الصليبيين . وفى أثناء هذه الأعمال الحربية الكثيرة استطاع بيبرس أن يصد الجيوش المغولية الزاحفة من ايلخانية فارس والعراق عن أطراف الدولة المملوكية عند نهر الفرات . ويرجع السر فى هذه الانتصارات إلى قيام بيبرس بتنظيم الجيوش المملوكية والادارة المصرية .

وقام السلطان قلاوون (٦٧٨ ــ ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ ــ ١٢٩٠م) بعد بيبرس بمواصلة الحرب ضد الصليبيين . وسار على طريقة سلفه من محالفة بعض الدول الأوربية ، وايقاع الفرقة بين الصليبيين . وأثبت قلاوون فى ساحة الحرب أنه جدير بلقب « السلطان المنصور » ، الذى اقترن باسمه دائماً . فاستولى على حصن المرقب التابع للاسبتارية سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م ، ثم سار نحو مدينة طرابلس ودمرها سنة ١٢٨٩م وقد شهد المؤرخ أبو الفداء هذه الوقعة ، وسجل تفصيلاتها فى كتابة الذى عنوانه « المختصر فى تاريخ البشر » .

ولم يبق من بلاد الصليبيين الهامة بالشام بعد ذلك غير عكا . وبدأ السلطان قلاوون يستعد للاستيلاء عليها لولا وفاته ، وبذا ترك لابنه السلطان خليل (١٢٩٠ ــ ١٢٩٣م) جميع ما أعد لذلك من قوة وجند . وحاصر خليل عكا حصارا استمر أكثر من شهر ، وهدم معاقلها بمجانيقة ، ثم استولى عليها سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ، وهرب كثير من الصليبيين إلى جزيزة قبرص ، التى أصبحت عندئذ ملجأ لبقايا الصليبيين بالشرق .

وأدى سقوط عكا إلى تسليم المدن الصليبية الباقية فى الشام ، ومنها صور وبيروت . وبذا أنسدل الستار على أهم فصول الصراع بين الصليبيين والمسلمين بالشرق ، ما عدا جزيزة قبرص ، التى غدت مركز المملكة الصليبية وملوكها من أسرة

لوزجنان ، وجزيزة رودوس التى تركزت فيها بقية الفرسان الاسبتارية ، ومملكة أرمنيا الصغرى فى قليقيا بأقصى الطرف الشرقى من ساحل آسيا الصغرى الجنوبى .



الامارات اللاتينية بعد انتصارات صلاح الدين .

موقف مصر من إغارات المغول .

ظهور المغول :

عاش المغول فى الهضبة الأسيوية الشاسعة ، التى تمتد من أطراف الصين إلى أواسط آسيا ، وتشمل جغرافيتها عددا من خطوط الطول والعرض ، ولذا تختلف فيها البيئة وأنواع المناخ والتضاريس ، وتغلب عليها الصفة السهوبية ذات المراعى المتغيرة ، ومن ثم احترف المغول الرعى ، والانتقال فى سرعة هائلة على ظهور الخيل ، حتى تبدو حركاتهم وراء الرزق زحفا حربيا سريعا . ولم ترغب قبائل المغول فى الاستقرار أو بناء المدن الكبيرة وغير ذلك من مظاهر الحضارة المستقرة ، بل أخذت هذه الجموع تضرب فى الأرض بين أطراف الصين ومنشوريا إلى بحيرة بيكال القريبة من تركستان الاسلامية .

ثم استطاع أحد زعماء المغول المسمى جنكيرخان ـــ ومعناه حاكم الحام ـــ أن يجعل من الكتل المغولية وقبائلها وحدة واحدة رهيبة ، لها عاصمة فى مدينة قره قورم . ووضع جنكيز خان دستورا عاما لهذه الدولة اسمه (اليساق) وفى الاجتماع المغولى السنوى العام ، وهو المعروف فى اللغة المغولية بلفظ (قوريتلاى) أعلن جنكيز خان هذا الدستور :
الذى نص فيه على ضرورة الخضوع التام لارادته ، والأنضواء تحت رايته ، والذهاب معه فى جميع حروبه ، والعقوبة الشديدة لكل مخالفة فردية أو قبلية . واستطاع جنكير خان أن ينظم بذلك أداة حربية ضخمة أساسها الطاعة العمياء ، والاحترام لقرارات الخان الأعظم .

وأخذ جنكير خان بعد تتويجه امبراطورا على المغول سنة ١٢٠٦م يعمل على فتح الأقاليم المجاورة له من امبراطورية الصين . وحكم الصين وقتذاك ملوك أسرة (كين) وعاصمتها مدينة بكين . وفى سنة ١٢١١م استهل جنكير خان حروبه بالاستيلاء على معظم أجزاء الامبراطورية الصينية المتداعية سنة ١٢١٥م . وتابع جنكير خان المدمرة الخربه حتى بلغت جيوشه نهر هوانجهو . واكتفى جنكير خان بهذا

القدر من الفتوحات فى الصين ، وعاد إلى عاصمته قره قورم ، بعد أن خلف فى الصين نائباً عنه.

هجوم المغول على الدولة الاسلامية :

تحول جنكير خان بعد ذلك إلى اخضاع القبائل المغولية التى فرت من قبضته ابان عملية الاخضاع التى قام بها سابقا لتوحيد دولة المغول ، وتعقب هذه القبائل إلى الدولة الخوارزمية فى تركستان ، وإلى الأطراف الشرقية من ايران . وحكم الدولة الخوارزمية وقتذاك السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه . واتبع جنكير خان وسائل وحشية مغولية فى حروبه فى بلاد الدولة الخوارزمية فى اقليم ما وراء النهر ، ولقيت بخارى وغيرها من المراكز الاسلامية أشنع ألوان الدمار ، اذ اتخذ المغول من مساجدها اسطبلات لخيولهم ، وفر علاء الدين خوارزم شاه إلى احدى جزائر بحر قزوين وتوفى سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م ، حزنا على ما حل ببلاد المسلمين من كوارث فادحة . وروى المؤرخ ابن الأثير حادثة دالة على مبلغ ما نزل بالناس من الرعب والانهيار أمام الجيوش المغولية ، وهى أن المغولى يدخل القرية من القرى وبها جمع كثير من الناس ، فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد ، لايتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس ، وان انسانا منهم أخذ رجلا ، ولم يكن مع التترى ما يقتله به ، « فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح فوضع رأسه على الأرض ومضى التترى فأحضر سيفا وقتله به » . ومات جنكير خان سنة ١٢٣٧م ، وهو فى سن الرابعة والستين .

وزحف المغول نحو ايران بعد اجتياحهم خوارزم ، فتوغل هولاكو فى ايران ، حيث قضى أولا على قلاع طائفة الاسماعلية ومدنهم ، مثل قلعة ألموت . ولم يكن بايران سوى مقاومة أولئك الاسماعلية ، وبذا تفرغ هولاكو للزحف على بغداد .

وأرسل هولاكو سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م إلى الخليفة العباسى المستعصم يدعوه إلى التسليم قبل فوات الأوان ، كما أرسل إلى وزيره ابن العلقمى ليجعل منه طابورا خامسا . وأعقب هولاكو تهديده بحصار بغداد ، واعتمد على ما أحدثه ابن العلقمى من

اهمال الاستعداد اللازم ، ونشر الفزع واشاعة القول بأن المغول قوم لاينهزمون ، وأن المصلحة فى الخضوع لهم . وظلت مجانيق المغول تقذف قلاع بغداد وحصونها مدة أربعين يوماً ، حتى أحدثت فجوة فى أسوارها . وعندئذ أذعن الخليفة ، وخرج لمقابلة هولاكو ، ومعه أقاربه، وسلمه مدينة بغداد .

وأضمر هولاكو الغدر للخليفة وعاصمته، فأمرهم باخراج الجند الخليفى خارج بغداد بحجة احصاء عددهم ، ثم أنزل بهم القتل جميعا . وفى صباح اليوم التالى أباح هولاكو بغداد لجنوده . فانتشر المغول فى أحيائها يقتلون الرجال ، ويأسرون الأطفال ، ويستحيون النساء . وظلت هذه الوحشية أربعة أيام بلياليها ، حتى امتلأت خيام المغول بالأسلاب والأنهاب والمغانم من الذهب والفضة والنساء فضلا عن رؤوس القتلى التى عمد الجند إلى اللهو بها على شواطئ دجلة . وأخيرا أمر هولاكو بقتل الخليفة المستعصم ، وزالت الخلافة العباسية بذلك ، لكن إلى حين . وأصبح العراق الاسلامى تابعا للمغول سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ) .

جهود مصر فى صد المغول ــ وقعة عين جالوت :

عزم هولاكو بعد ذلك على السير نحو الشام . فزحف شمالا ، وأعمل السيف فى سكان الموصل وحران والرها ، والقصة التى رواها الأثير عن مبلغ الفزع والرعب الذى استولى على الناس ، خاصة بهولاكو وجنوده قرب الموصل . ثم أرسل هولاكو إلى ملوك الأيوبيين بالشام يتوعدهم ويهددهم بالفناء التام ، اذا هم لم يمهدوا لزحفه بالاسراع إلى طاعته. وانتشر الذعر بالبلاد الشامية والمصرية كذلك . وجاء هولاكو فاستولى على حلب ثم دمشق وغيرهما من البلاد الشامية الواقعة بينهما . وبعث إلى السلطان قطز سفارة ، تحمل الوعيد والتهديد ، وتطلب الطاعة المطلقة . وأجاب قطز الخوارزمى الأصل ، اجابة غير منتظرة ، اذ قتل السفراء المغول ، انتقاما يائساً لما أحدثه جنكير خان بالدولة الخوارزمية . غير أن هولاكو لم يستطيع أن يظل بالشام لاتمام ما عزم عليه. اذ توفى أخوه الخاقان مانجو خان ، وتطلب ذلك رحيله من الشام للاشتراك فى اقامة الخاقان الجديد . وتولى أبغا قيادة الجيوش المغولية المحتلة بلاد الشام . أما السلطان

المملوكى قطز فلم يهمل استعداداته الحربية ، بل أرسل طلائعه من القاهرة بقيادة الأميربيبرس البندقدارى ، على أن يزحف هو بالجيش الرئيسى . واستطاع بيبرس أن يصد طلائع مغولية قرب غزه ، مما يدل على أن الخطر المغولى أضحى قريبا جدا من مصر . ثم لحق قطز بالطلائع المملوكية ، وأخذ فى مفاوضة الصليبيين ليسمحوا له باختراق أراضيهم الساحلية ، حتى يستطيع بذلك أن يباغت المغول من ناحية غير منتظرة . ونجحت المفاوضات برغم تفضيل بعض الصليبيين محالفة المغول على سلطنة المماليك . وبذا استطاع قطز أن يصل إلى مدينة بيسان فى سهولة وسرعة ، وأن يأخذ المغول عند عين جالوت على حين غرة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م .

وانتصر قطز انتصارا كبيرا على أبغا بعد أن كادت الكثرة المغولية تغلب جند المماليك . وفى أثناء هذه الواقعة الدامية سقط أبغا قتيلا ، وتقهقر المغول إلى دمشق وحلب ، فتعقبتهم الفرق المملوكية حتى أخرجتهم من الأراضى الشامية .

وانتصار المماليك على المغول فى عين جالوت وقعة فاصلة فى التاريخ كله، سواء من ناحية تاريخ مصر فى العصور الوسطى أو تاريخ العصور الوسطى الأوربية ، اذ جاء الانتصار بعد أن عجزت الدولة الخوارزمية والدولة العباسية عن مقاومة المغول أو مدافعتهم ، وبعد أن انهارت القوى المسيحية أمام الزحف المغولى على أجزاء من روسيا وبولندا والمجر الحالية . ثم أن وقعة عين جالوت أول صدمة فى الشرق لجيوش المغول وخاناتهم الذين ظن المعاصرون أنهم قوم لايغلبون . فجاءت هذه الصدمة بمنزلة المعجزة الدالة على أن فى الامكان انزال الهزيمة بالمغول ، ومما جعل وقعة عين جالوت من الوقائع الحاسمة فى التاريخ الأوربى أن خطر المغول لم يكن مجرد خطر على الشرق فحسب وانما هدد المغول أوروبا ، واستولت جيوشهم على « كييف » وغيرها من البلاد الأوربية . ومما لا شك فيه أن المغول لو تقدموا فى أوروبا ، واستقروا فيها بمدنيتهم السهوبية القلقة لكان تأثيرهم سيئا بوجه عام . ولذا حلت وقعة عين جالوت العقدة التى سادت الناس جميعا عن خطورة المغول ، وفتحت عيونهم فى كل مكان عن امكان هزيمة الجيوش المغولية مهما كانت أعدادها .

انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة وبداية التاريخ الحديث :

كسبت سلطنة المماليك بانتصارها الحربى على المغول فى وقعة عين جالوت مركز الصدارة بين حكام المسلمين كما استقامت لمصر زعامة جديدة فى العالم الاسلامى . وكان سلاطين المماليك قد دأبوا منذ أيام السلطان أيبك على الرجوع إلى الخلافة العباسية فى بغداد للحصول على تفويضها لهم بالسلطنة وليكسبوا حكمهم صبغة شرعية فى مصر ، ثم تبدلت هذه السياسة تماما بعد أن زالت الخلافة العباسية من بغداد على يد هولاكو وجنوده ، وفكر السلطان قطز ثالث سلاطين المماليك فى اعادة الخلافة العباسية إلى بغداد . ولكن حدث أن اغتيل السلطان قطز وتولى بيبرس السلطنة بالقاهرة ، واستطاع أن يجعل مقر الخلافة بالقاهرة ، وهو الأمر الذى صار يمثل طلائع العصر الحديث فى مصر الاسلامية .



دولة المماليك
فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى

الفصل الخامس
مصر منارة الاسلام

« مصر حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ... وايوان الاسلام ، وكرسى الملك ... من لم يرها لم يعرف عزة الاسلام » .

(المؤرخ ابن خلدون)

أولا : المنظور الاسلامى فى مصر إلى المتغيرات فى العالمين الاسلامى والأوربى فى العصر الحديث

واجهت مصر الاسلامية فى السنوات الأخيرة من نهاية دولة المماليك سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، مطالع العصر الحديث الذى كانت معالمة قد سادت فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر اللميلادى بلاد أوروبا ، وقلبت ميزان القوى بما يحقق مصالح العالم الأوربى على العالم الاسلامى . وبدأت مصر مع مطالع العصر الحديث صفحة مشرقة أضافت بها إلى صفحاتها الرائعة فى الدفاع عن دار الاسلام بما يؤكد أن مصر ــ وإلى اليوم ــ ستظل دائماً وأبدا « درع العروبة ورباط الاسلام » ، لما تبذله من تضحيات ، وما تلقاه من عناء وما تقدمه من تضحيات ، شأن الرواد الذين لايهابون المخاطر تأمينا للركب الذى يتولون قيادته وتوجيه مسيرته.

واتسعت رسالة مصر الاسلامية وعظمت بمطالع العصر الحديث ، بحيث لم تعد مصر « رباط الاسلام » فحسب ، بل وكذلك « منارة الاسلام » ، التى تهدى فى صدق وحسن ارشاد من يريد أن يهتدى بنورها إلى سواء السبيل . اذ وقفت منارة مصر تؤدى لدار الاسلام ، وسط المتغيرات العالمية ، نفس ما تؤديه المنارات على شواطئ البحار ، حيث تقف شامخة ترسل ضياءها وهداها على حين تتكسر عند أقدامها الأمواج المتلاطمة ، وتتبدد من حولها العواصف وسحبها المظلمة .

وجاء المنظور الذى قدمته منارة مصر شاملا للمتغيرات فى العالمين الاسلامى والأوربى على حد سواء . ذلك أن مصر حفلت فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى بطائفة من مشاهير المؤرخين وعلماء الاجتماع والسياسة الذين أدركوا ما وقع من متغيرات فى العالمين الاسلامى والأوربى ، وجهدوا فى تشخيصها وتقديم أمثل السبل لنجاة العالم الاسلامى من مساوئها ونتائجها . وتجمعت الرؤية التى قدمتها منارة مصر فى ذلك الوقت فى منظور شامل كامل ، وهى أن النجاة رهن بتدعيم الصلة القديمة بين العروبة والاسلام ، على نحو ما سبق أن قامت به مصر فى مواجهة الصليبيين والمغول ، وحتمية التعاون فى الوقت نفسه بين العرب والمسلمين لدفع التيار الجارف الذى انطلق من العالم الأوربى ، وبلغت طلائعه شواطئ كلا من العالمين العربى والاسلامى على حد سواء .

وجاء ميزان القوى فى صالح العالم الأوربى فى مطالع العصر الحديث ، لأن بلاده كانت قد استطاعت منذ القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، وطوال القرنين التاليين أن تتخلص فى سرعة من جهالة العصور الوسطى ، وأن تمتشق ثلاثة أسلحة جديدة هى ؛ الحرية والعلم والفكر ، وأخذت تهاجم بها من جديد العالم الاسلامى فى مطالع العصر الحديث .

وفرضت المتغيرات الأوربية فى مطالع العصر الحديث على أن يأخذ اللقاء بين العالم الاسلامى والغرب الأوربى طابع الحصار الاقتصادى من جانب القوى الأوربية الصاعدة على مصادر الثروة لبلاد الشرق الاسلامى ، والتى استندت إلى السيادة الاسلامية على التجارة الشرقية الواردة من الصين والهند . وحمل هذا التيار الأوربى الجديد طبقة البرجوازية من سكان المدن الذين استطاعوا أن يتحرروا من النظام الاقطاعى الجامد الذى سيطر على المجتمع الأوربى ، وغدت تتركز فى ايديهم مصادر التجارة والمال ، فضلا عن اضطلاعهما بكافة الانقلابات الفكرية والعلمية فى أوربا ، مثل حركة النهضة والاصلاح الدينى والكشوف الجغرافية ، التى كانت فى حقيقتها وليدة دفع القوى المسيحية للمسلمين من الأندلس ومطاردتهم فى شمال أفريقيا .

وكانت البرتغال هى أولى القوى المسيحية التى عمدت إلى الأفادة من المتغيرات الأوربية فى مطالع العصر الحديث وتوظيفها فى الحصار الاقتصادى الذى جرت أحداثه فى اللقاء بين الشرق الاسلامى والغرب الأوروبى . فقد أدركت هذه الدولة بعد خروج المسلمين من الأندلس بأن التوسع الطبيعى لها فى مطاردة المسلمين ، ليس فى تعقبهم إلى ديارهم بالشرق الاسلامى ، حيث كانوا يحملون له اذ ذاك الرهبة والخوف من قوته، وهو الأمر الذى رسخ فى نفوس أهل أوروبا منذ الحروب الصليبية ، وانما رأت البرتغال أنه لابد من التوسع تجاه البحر ، والطواف حول افريقية تجنباً للطرق المارة بالشرق الاسلامى ، ومحاولة الوصول عن هذا التحول البحرى إلى الهند والصين ، حيث مصادر الثراء للشرق الاسلامى وسيادته التجارية .

واستطاع البرتغاليون بفضل ما آل إليهم من تراث العرب وعلومهم أن يبدأوا الطواف حول افريقية ، وكان فاسكودى جاما يتابع نشاط بنى جلدته فى هذا الطواف حول افريقية والوصول إلى المحيط الهندى ، والتخلص من سيادة العرب للطرق التجارية التقليدية . واستطاع البرتغاليون الطواف حول « رأس العواصف » التى صارت تعرف باسم « رأس الرجاء الصالح » . واستطاع فاسكو دى جاما الافادة من نشاط اسلافه وعبر رأس الرجاء الصالح ، ووصل إلى ثغر مالیندی فى مملكة كامبيا (كينيا الآن) ، حيث أرشده ملكها إلى ملاح يدعى ابن ماجد ساعده على الابحار مباشرة إلى ميناء كلكتا بالهند .

وحالما وصلت السفن البرتغالية إلى ميناء (كاليكوت) بالهند أرسل فاسكو دى جاما ابن ماجد ليمهد له الطريق هناك . وكان ابن ماجد صديقا لأحد رجال الجمارك الهنود المسلمين ، ويدعى أبو سعيد . وقضى ابن ماجد ليلته عند هذا الصديق ، وقدم للبرتغاليين كل ما رموا اليه من مطالب دون أن يدرى أنه أمام عدو خطير ومن نوع جديد ، بدأ يتهدد التجارة العربية وطرقها التقليدية .

ولم تكد تنقض سنة واحدة على عودة دى جاما من الهند حتى جاءت حملة أخرى برتغالية إلى تلك البلاد . والمهم أن تلك الحملة بدأت تستولى على المراكز

الكبرى على ساحل افريقية الشرقى تمهيدا للسيطرة تماما على التجارة العربية . وقد عاد فاسكو دى جاما نفسه فى تلك السنوات الأولى من القرن السادس عشر إلى الهند ومعه قوة أكبر وخطط أعمق لضرب التجار العرب فى تلك الجهات . فجاء على رأس أسطول مكون من ست مراكب ، بعد أن مهدت له الحملات السابقة الاستيلاء على أجزاء من سواحل الهند عند كاليكوت . وأعمل دى جاما القتل والنهب والحرق فى مراكب التجار العرب ، واستولى على ما فيها من توابل وبضائع ، وكشف بذلك عن نوايا البرتغال العدوانية ضد العرب ، وهى النوايا ، التى صارت تمثل طلائع الزحف الأوربى على العرب ، ومصادر ثرائهم ثم العمل أخيرا على التهام بلادهم نفسها .

غير أن البرتغاليين وجدوا أن التجار ظلوا يفضلون الطرق التجارية المارة بالبلاد العربية لقصرهاوسلامتها وأنها أكثر فائدة لهم من الطواف حول رأس الرجاء الصالح . وبعبارة أخرى فان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح لم يكن هو السبب فى تحويل التجارة الشرقية من الطرق المارة بالبلاد العربية ، وانما السبب فى ذلك هى السياسة العدوانية الحاقدة التى بدأت قوى أوروبا الاستعمارية تنتهجها ، منذ دخول البرتغاليين مياه المحيط الهندى .

وعمد البرتغاليون إلى خنق المداخل البحرية المؤدية إلى الطرق العربية التجارية . واضطلع بهذه السياسة الجديدة القائد البرتغالى « البوكيرك » ، الذى صار بدوره يمثل طليعة الاستعمار الأوروبى القائم على الغدر والوحشية ، فعمد أولا إلى الاستيلاء على جزيرة سوقطرة التى تتحكم فى باب المندب لاغلاق طريق البحر الأحمر التجارى . ثم سار بعد ذلك نحو الخليج العربى ، حيث أنزل الفزع فى نفوس سكان الجهات المطلة عليه . فأعمل البوكيرك القتل والحريق فى سلطنة مسقط ، كما أمر بتشويه الأسرى الذين سقطوا فى يده ، بأن جذع أنوفهم ، وقطع آذانهم ، وأخيراً استولى هذا البرتغالى على هرمز ذات المكانة الاستراتيجية فى الخليج العربى وأن يقفل بذلك هذا الشريان التجارى أمام السفن الغربية ، وغيرها من السفن التجارية ،

التى رأت أن طريق رأس الرجاء الصالح لا يمكن أن ينتزع عصا الزعامة الطبيعية من الطريق البحرى المار بالبلاد العربية ، وخاصة مصر .

واستنجد العرب فى بحار الشرق الأقصى والهند ، ومعهم مسلمو تلك البلاد أيضاً باخوانهم فى مصر لتدارك هذه الطلائع الأوروبية الخطرة ، وسد الطريق أمام زحفها الاستعمارى . وكانت السلطة فى مصر اذ ذاك فى يد دولة المماليك ، وسلطانها هو قنصوه الغورى . وأعدت تلك السلطات اسطولا بحريا فى السويس سنة ٩١٢هـ / ١٥٠٦م ، وانتهت من بنائه سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م ، ثم بعثت به إلى مياه الهند لشد أزر القوى الوطنية هناك فى الدفاع عن بلادهم وحريتهم ضد البرتغاليين . وكان يتزعم المقاومة الهندية للبرتغال حاكم مدينة كاليكوت . واستطاع الأسطول المصرى أن ينال انتصارا فى أول الأمر ، ولكنه هزم أخيراً أمام تدفق السفن البرتغالية ، وذلك فى مياه ديو سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م ، وذلك قبل الهجوم العثمانى على مصر سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م بحوالى سبع سنوات تقريباً .

ودقت مصر ناقوس الخطر بما حدث فى معركة ديو البحرية ، وأوضحت أن العالم الاسلامى فى حاجة إلى بعث جديد ، وتضامن أشبه بما حدث على عهد صلاح الدين الأيوبى ، لأن وصول البرتغال إلى مياه الهند ما هو إلا طلائع لزحف أوربى رهيب على العالم الاسلام . غير أن المتغيرات التى وقعت فى العالم الاسلامى قد بلغت ذروة خطورتها بعد سبع سنوات فقط من معركة ديو البحرية ، على نحو ما تمثل فى انفجار صراع داخلى خطير على السيادة العليا للعالم الاسلامى بين قواه الكبرى اذ ذاك ، وهى دولة المماليك فى مصر ، ودولة الأتراك العثمانيين الصاعدة فى آسيا الصغرى وشرق أوروبا ، ودولة الصفويين الشيعة فى ايران .

وتمثلت السيادة العليا للعالم الاسلامى فى النظام الذى اشتهر باسم « الخلافة » . وقد أخذ مقر هذه الخلافة يتنقل حتى مطالع العصر الحديث فى عواصم البلاد العربية من العالم الاسلامى ، وهى المدينة المنورة على عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين ، ثم منها إلى دمشق زمن الأمويين فبغداد زمن

العباسيين ، وأخيرا استقر مقر الخلافة فى القاهرة ، حيث دولة المماليك التى أحيت تلك الخلافة بعد أن أطاح بها الغزو المغولى من بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م .

وكفل قيام « الخلافة » بالقاهرة لدولة المماليك المكانة العليا فى العالم الاسلامى عامة ، والشرق الاسلامى بخاصة فى مطالع العصور الحديثة ، حيث قامت الدولة االعثمانية وكذلك الدولة الصفوية . ولكن بينما تمتد الفتوح العثمانية فى أوربا من اقليم إلى آخر من البلقان إلى أوروبا الوسطى إلى شمال نهر دانوب ، حتى وقفت أمام أبواب فيينا ، اذ اتجهت أبصار العثمانيين فجأة نحو البلاد الاسلامية المتاخمة لهم فى آسيا الصغرى ، وأخذوا يحلمون بالسيادة العليا فى العالم الاسلامى ، وانتشرت فى الدولة العثمانية حماسة دينية سنية المذهب توجهت أولا لحرب الصفويين الشيعة فى ايران .

وكان الصفويون فى ايران قد بلغوا بدورهم فى ذلك الوقت درجة كبيرة من القوة المذهبية الشيعية ، حيث جمع الشاه اسماعيل إلى جانب رئاسته السياسية للدولة منصب المرشد الأكبر للدعاة للمذهب الشيعى الاثنى عشرى ، وغدا يجمع بين الزعامة الروحية والدينية فى آن واحد ، وهو الأمر الذى اتاح له أن يستخدم القوة إلى جانب الدعوة فى نشر المذهب الاثنى عشرى ، حيث جعله المذهب الرسمى للدولة والسبيل لتحقيق أطماعه التوسعية فى السيادة العليا للعالم الاسلامى .

واشتد العداء فى ذلك الوقت بين الشاه اسماعيل الصفوى والدولة العثمانية ، بعد وفاة السلطان محمد الثانى ، فاتح القسطنطينية ذلك أن الشاه انتهز النزاع الذى نشب حول السلطنة بين أبناء البيت العثمانى ، وحرض الشيعة بآسيا الصغرى على الثورة على العثمانيين السنيين ، وأغرى أمراء الأطراف المجاورين لدولته بالخروج على السلطنة العثمانية . واحتضن الشاه اسماعيل أبناء البيت العثمانى الذين اضطروا إلى الفرار من آسيا الصغرى عندما اعتلى السلطان سليم الأول عرش الدولة العثمانية (١٥١٢م) . ولذا بدأ السلطان سليم حكمه باخماد ثورة الشيعة فى آسيا الصغرى ، وأنزل بأتباع هذا المذهب من رعاياه الاضطهاد . فهجم الشاه اسماعيل

على آسيا الصغرى للدفاع عن الشيعة ، وأصبح العداء سافرا بين الدولتين العثمانية والصفوية . عندئذ أعد السلطان سليم جيشا كبيرا سنة ١٥١٤م (٩٢٠هـ) للقضاء على الشيعة ودولتهم فى ايران وقاد هذا الجيش بنفسه، فاستولى على ديار بكر وكردستان ، ثم توغل شرقا فى ايران حتى التقى بجيش الشاه اسماعيل أخيرا عند تشالديران بالقرب من تبريز فى ٢٣ أغسطس من تلك السنة ، ودارت رحى معركة انتهت بهزيمة الشاه اسماعيل . وعاد السلطان سليم إلى بلاده ، بعد أن أدخل ديار بكر وكردستان فى أملاك دولته.



موقف مصر من الصراع بين الصفويين والعثمانيين
ونتائجه فى العصر الحديث

ترتب على الصراع بين الصفويين والعثمانيين نتائج مصيرية فى أحوال مصر وكذلك الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، كما ظل تأثيرها قائماً حتى مطالع القرن الحالى وهو القرن العشرين . ذلك ان تلك النتائج كان لها جانبان أحدهما سياسى والآخر اجتماعى ، وتلازمت أحداثها ومعالمها فى مسيرة مصر والشرق الاسلامى ومعيشة أهلة . وتتمثل تلك النتائج فيما يلى :

أولا : النتائج السياسية :

اشتملت النتائج السياسية للصراع بين الصفويين والعثمانيين فى مصر والشرق الاسلامى فى العصر الحديث على جانبين اساسيين أحدهما مادى والآخر نفسى وهما : أ) الجانب المادى وتجلى فى التوسع العثمانى فى الشرق الاسلامى والسيطرة على أرجائه، ذلك أن استيلاء السلطان سليم الأول على أجزاء من ايران أدى إلى امتداد أملاك الدولة العثمانية إلى منطقة الأطراف التابعة للدولة المملوكية المصرية وهى المنطقة الممتدة من جبال طوروس فى الشمال الغربى من الشام إلى مدينة ملطية بآسيا الصغرى . وخضعت هذه المنطقة للأمير علاء الدولة دلغاضر المشمول بحماية السلطنة المملوكية . ولذا وقف من الجيش العثمانى المتوجه لحرب الصفويين موقف الحياد المسلح . فاتهمه السلطان سليم الأول بالعداء للعثمانيين وقتله واستولى على بلاده سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م . وبذلك أضحى العثمانيون على مقربة من الأراضى المملوكية من ناحية الشام فضلا عن استيلائهم على بلاد الأطراف التى تدين بشئ من التبعية لسلاطين المماليك .

وأحس السلطان الغورى فى القاهرة بالخطر المهدد لدولة المماليك بعد هذ الاعتداءات . فعمد إلى عقد حلف مع الشاه اسماعيل الصفوى فى ايران لوقف التقدم العثمانى . وازداد البغض بين الغورى وسليم الأول ، عندما فر أحد أولاد الأمير أحمد

أخى السلطان سليم إلى حلب ، فرارا من بطش عمه ، ومن ثم أخذ العداء يستحكم بين السلطانين ، وأخذ كل منهما يتربص بالآخر الدوائر . فقنصوه الغورى يحقد على سليم لاستخفافه بحماية المماليك على امارة دلغاضر وضمها إلى أملاكه دون مجاملة ، وسليم الأول يسئ الظن بالمماليك لتحالفهم مع الشاه اسماعيل ، وايوائهم أميرا عثمانيا يهدد العرش العثمانى .

وفى أوائل سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م جاءت الأخبار إلى القاهرة باستعداد العثمانيين فى القسطنطينية (استانبول) للحرب . وأدرك الغورى أن الدولة المملوكية هى المقصودة بهذا الاستعداد وأعد جيوشه وخرج بها إلى حلب بالشام فى يوليو سنة ١٥١٦م . ثم بعث رسولا إلى سليم الأول يؤكد رغبته فى الصلح وعدم الحرب ، فرفض سليم الحديث فى الصلح وقال للرسول : « قل لأستاذك فليلقنا عند مرج دابق » أى داخل الآراضى الشامية المملوكية ، وهى عبارة تدل ــ أن صحت ــ على عزم السلطان سليم على تسوية حساب قديم مع السلطنة المملوكية التى هزمت جيوش العثمانيين داخل الأراضى العثمانية زمن السلطان قايتباى .

وسار الغورى من حلب شمالا إلى عينتاب ، وشهد قوات العثمانيين تقترب من الأراضى المملوكية ، والتقى الجيشان فى معركة حامية عند مرج دابق (٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦م) . وعند أول اصطدام بين الفريقين فر الأمير خاير بك المملوكى نائب حلب ، وكان يتولى الجناح الأيسر فى جيش الغورى ، وانضم إلى العثمانيين ، واستحق بذلك لقب الخائن . ثم تلا ذلك سقوط السلطان الغورى عن ظهر جواده ، وموته لساعته. وأسفرت وقعة مرج دابق أخيراً عن فوز ساحق للعثمانيين بفضل أسلحتهم من المدافع والبنادق ، وتبين للماليك أن تمسكهم بالشجاعة والمهارة فى الرمى بالقوس والنشاب والمزارق لا يجدى شيئاً أمام أسلحة الترك الحديثة ، ففرت الجنود المملوكية من الميدان ، ودخل سليم الأول مدينة حلب . وفى شهر أكتوبر من نفس السنة زحف سليم على دمشق واستولى عليها ، وبدأ خضوع اقليم الشام لسيطرة العثمانيين .

وهزت أخبار انتصارات سليم الأول القاهرة ، حيث قام طومانباى نائباً عن السلطان قنصوة الغورى . ورأى طومانباى أن يسرع بالزحف لمقاتلة العثمانيين بجنوب الشام قبل أن يصلوا إلى الأطراف المصرية ، فأرسل على رأسها الأمير جان بردى الغزالى فى ديسمبر سنة ١٥١٦م للوقوف فى وجه العثمانيين شمال غزة ، وهو أحد الأمراء الذين فروا من مرج دابق . وخان هذا الأمير ، على نحو ما فعل خاير بك ، فعرض جنده للهزيمة دون أن يقاتل قتالا جديا ، وبذا وصلت جنود العثمانيين إلى غزة فى طريقها إلى مصر .

وفى ٢٢ يناير سنة ١٥١٧م (٩٢٣هـ) نشبت المعركة بين طومانباى والسلطان سليم ، وحمى القتال وثار الغبار وعميت الأبصار . غير أن المعركة انتهت باندحار المماليك ، وفر طومانباى بعد أن بقى فى ميدان القتال حتى النهاية . ولم يكن ثمة مناص من هزيمة المماليك عند الريدانية بسبب الخيانة ، وافشاء الخطة المملوكية إلى العثمانيين . وانتهى الأمر بالقبض على طومانباى واعدامه فى ٢٣ أبريل سنة ١٥١٧م (٩٢٣هـ) .

وغدت مصر بعد الشام ولاية عثمانية ، وانتقل بذلك اشراف سلاطين المماليك على الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة إلى السلطان العثمانى ، وأصبح الخطباء فى المساجد يدعون للسلطان سليم باعتباره « ملك البرين ، وخاقان البحرين ، وقاهر الجيشين ، وملك العراقيين ، وخادم الحرمين » وللمؤرخ المعاصر ابن إياس الذى شهد هذه الحوادث عبارة تبين مدى الانقلاب الذى أصاب مصر ، وأنها صارت تابعة ، بعد أن كان سلطانها على قوله: « أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين وحامى ملك مصر الذى افتخر به فرعون » .

وفى الوقت الذى عاد فيه السلطان سليم إلى بلاده بعد اتمام فتح مصر وادخال بلاد المغرب فى نفوذه ، عمد الشاه اسماعيل الصفوى إلى الهجوم على العراق متحديا بذلك امتداد سلطان العثمانيين إلى الأطراف العراقية من ناحية الشام . فاستولى اسماعيل على بغداد ، وزار مشهد الحسين فى كربلاء .

على أن العثمانيين خشوا نفوذ الايرانيين الشيعيين فى العراق ، وأغضبهم الاضطهاد الذى نزل بأهال السنة من سكان بغداد . ومن ثم أخذ السلطان سليمان العثمانى (٩٢٧هـ / ١٥٢٠م) يعد العدة للقضاء على نفوذ الصفويين الشيعة ، ويزيل خطرهم نهائيا من العراق ويؤمن أطراف دولته هناك .

وجمع السلطان سليمان قواته فى شمال ايران وأعدها للزحف على العراق . ولقى السلطان سليمان متاعب جمة فى زحفة بسبب شتاء نوفمبر القارس ، ونال التعب والانهاك من جنده . وبعد مشاق استطاع السلطان سليمان أن يدخل سهول العراق ، ومعه فرق المدفعية العثمانية ذات الشهرة الفائقة فى القرن السادس عشر الميلادى . ودخل سليمان بغداد دون أن يلقى عليها حصار أو يلقى مقاومة . فشجع كبار رجال المدينة على الاجتماع به وزار أماكن الشيعة المقدسة فى حى الكاظمية ، ومسجد الشيخ عبد القادر الجيلانى ، وأعاد بناء مسجد الامام أبى حنيفة ، ثم عاد السلطان سليمان إلى القسطنطينية بعد أن ترك فى بغداد حكومة عثمانية ، وغدا العراق ولاية عثمانية خاضعة للسلطة المركزية فى القسطنطينية .

ب) الجانب النفسى للنتائج السياسية : وتجلى فى الصدمة التى نزلت بمصر والشرق الاسلامى من الغزو العثمانى لبلاده ، فقد كان الشرق الاسلامى يتابع انتصارات العثمانيين فى الميدان الأوروبى بالفرح والسرور ، وهرعت الوفود العربية بالتهنئة إلى سلاطين العثمانيين باعتبارهم قوة جديدة قادرة على أن تعيد قصة الجهاد الاسلامى الأول ، ونشر الاسلام فى أوروبا . غير أن الأتراك العثمانيين لم يكونو عند حسن ظن البلاد العربية ، وأضاعوا الحلم الجميل الذى راود تلك البلاد عن نشر الاسلام . ذلك أن العثمانيين أعطوا ظهورهم لأوروبا فى فترة من أهم فترات العالم ، وأحداث هذه القارة وعمدوا إلى بسط سلطانهم على مصر والشرق الاسلامى ، الذى كان يئن اذ ذاك من المجهودات الهائلة التى بذلها فى سبيل دفع الصليبيين ، وهزيمة المغول كذلك . وكان هذا الانتقال والتبدل فى سياسة العثمانيين مفاجأة كبرى للعالم العربى الذى لم يكن يتوقع هذا الغدر من القوة الاسلامية

الكبرى الناشئة ، والتى علق عليها الكثير من الآمال .

وزاد فى هول المفاجأة فى مصر الأسباب التى تذرع بها العثمانيون لتبرير هجومهم على العالم العربى . اذ رأى العثمانيون فى أهل فارس وفى امبراطورهم ، الشاه اسماعيل الصفوى ، أعداء ألداء لهم ، بسبب تمسكهم بالمذهب الشيعى المخالف لمذهب العثمانيين السنى ، وعمدوا إلى الهجوم على العراق بحجة تخليصه من المذهب الشيعى ، والاطاحة بنفوذ الصفويين من هناك . وكان العراق قد أخذ يستعيد سالف رخائه منذ تخلص من بقايا الحكم التركى القديم ، ويعمل جاهدا على تنظيم سبل العيش لمواطنيه الذين أنهكتهم الفتن الماضية .

وكانت السلطنة المملوكية ، صاحبة السيادة على مصر والشام وقتذاك تعطف على الشاه اسماعيل الصفوى ، بسبب الاعتداء الغادر عليه من جانب العثمانيين ، ولا ترى فيما قام به العثمانيون شيئاً سوى الاساءة إلى العالم الاسلامى عامة ، والعربى خاصة . ومن ثم ينهض الحلف الذى قام بين مصر السنية وفارس الشيعية دليلا على أن تذرع الاتراك العثمانيين بالدفاع عن المذهب السنى حجة واهية ، لاتستهدف غير أطماع سياسية ، ولا داعى لها من جانب قوة اسلامية ، سبق أن تلقت كل اعزاز وترحيب من البلاد العربية .

وحدث بعد استيلاء العثمانيين على مصر أول انقلاب خطير فى تاريخ العروبة والاسلام عندما نقل السلطان سليم بعد فتح مصر ، الخليفة العباسى المقيم فى القاهرة ، إلى القسطنطينية ، ثم حمله على أن يتنازل عن الخلافة . فقد أصبحت عاصمة العالم الاسلامى تقع لأول مرة فى قطر غير عربى وضاع ذلك التراث الخالد الذى حافظت عليه العروبة منذ خرجت من موطنها الأصلى فى بلاد العرب مع الجيوش الاسلامية . اذ كانت الحركات السياسية الكبرى التى اضطرم بها جوف العالم الاسلامى ، وما نجم عنها من قيام دولة مكان أخرى فى السلطان لا تخرج العاصمة من بلاد العروبة ، وظلت تنتقل فقط بين مدنها الكبرى ، من المدينة المنورة إلى دمشق إلى بغداد ، ثم إلى القاهرة .

وترتب أيضا على سقوط دولة المماليك فى مصر أن اقترن اسم السلطان العثمانى بلقب « خادم الحرمين » ، وهو اللقب الذى حمله من قبل سلاطين المماليك فى مصر . واعتز سلاطين الدولة العثمانية بهذا اللقب الجديد ، واعتبروه متمما للخلافة وأركانها . ومن ثم تطلع العثمانيون إلى الاستيلاء على الحجاز لأنه موطن الاماكن المقدسة فى مكة والمدينة . وانتهزوا تطور الاحوال الداخلية فى مكة وبسطوا سلطانهم على الحجاز ، وجعلوا من شريف مكة تابعا لهم . وتابع العثمانيون توسعهم فى شبه جزيرة العرب ، وأخضعوا اليمن سنة ١٥٣٨م (٩٤٥هـ) . حيث أصبحت ولاية عثمانية .

وهكذا ارتبط تاريخ مصر والشرق الاسلامى بالدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر الميلادى ، وهو الارتباط الذى ظل أربعة قرون طويلة ومتصلة ، حتى . مطالع القرن الحالى ، وهى مرحلة زمنية لم تعرف لها مصر مثيلا من قبل سواء فى تاريخها القديم أو المتوسط .

ثانيا : النتائج الاجتماعية :

ووضع البذور الخطيرة للتحول الاجتماعى فى مصر والشرق الاسلامى نظم الحكم التى سار عليها العثمانيون فى ادارة هذا العالم العربى الشاسع الأطراف . ومما زاد فى خطورة هذه النظم أن نموها استغرق قرنين من الزمان ، حتى أصبحت السنوات التى شهدها القرن السادس عشر والسابع عشر للميلاد هى سنوات التحول فى المصير العربى فى العصر الحديث ، وذلك على نحو تجلى فى الأحوال الاجتماعية .

وأول ما اتسم به نظام الحكم العثمانى لمصر والشرق الاسلامى أنه كان حكما عسكريا اقطاعيا . فنظر العثمانيون إلى الجيش وفرقه التى أقامت فى البلاد على أنه أداة للحرب وللحكم معا . ففى بعض البلاد كان رجال الجيش العثمانى يمنحون أرضا بما عليها لزراعتها أو الاستقرار فيها . وكانت تسمى هذه الاقطاعات « زعامة » أو « تيمار » ، ويقوم أصحابها بدورهم بتوزيع مالديهم من أراضى زراعية على اتباعهم فى

نظير خدمة يقدمونها عند الحرب للسلطان . ورحب السلاطين العثمانيون بهذا النظام لانه ضمن لهم أولا زراعة الأرض ، وثانيا الحصول فى أعقاب الحرب على القوات اللازمة دون تكاليف تذكر . فكان هذا النظام يغنى الدولة عن دفع مرتبات الجند ، لأن صاحب الاقطاع كان يأتى إلى الحرب ومعه سلاحه وجواده ، وعليه أن يؤدى الخدمة العسكرية لمدة محدودة (٤٠ يوماً) ، واذا ما انتهت هذه المدة حق له العودة إلى أرضه ، وذلك على الرغم من استمرار الحرب ، ثم أن الاقطاعى كان يميل عادة إلى الكسل فى أيام السلم ، فيهمل شأن التدريب ، وهو الأمر الذى يدعوه بالتالى إلى عدم الترحيب بالقتال ، حيث تغلب عليه نزعة الفلاحة ، وعدم الرغبة فى ترك أرضه.

وفى مناطق أخرى مثل مصر اعتمد العثمانيون على الحاميات (الأوجاقات) ، وهى تتكون من عسكريين محترفين تدفع لهم الدولة رواتب ، وكان عليهم الدفاع عن البلاد ، وجمع الضرائب ، والأشتراك فى ادارة البلاد اشتراكا فعالا . وقد ارتبط بهذه الظاهرة الاقطاعية نظام الالتزام ، الذى أدى إلى أوخم العواقب فى حياة البلاد ونظم سكانها اجتماعيا وسياسياً .

والأمر الثانى الذى اتسم به نظام الحكم العثمانى فى البلاد العربية هو اتصافه بالرجعية . فالادارة العثمانية كانت تستهدف أولا وقبل كل شئ الابقاء على الحالة كما كانت عليه فى البلاد قبل الفتح ، والابقاء على مجموعة القوانين العثمانية التى وضعت أيضاً دون الاعتراف بسنة التطور . ولذا لم تكن السلطات العثمانية ترحب كثيراً بأى تجديد فى نظم الحكم والادارة ، وهو الأمر الذى انعكست أضراره على جميع مرافق البلاد . فأصحاب الافكار الجديدة من ممثلى الدولة لم يكونوا موضع رضا السلطنة ، وظلوا موضع ريبتها وسخطها واضطهادها كذلك .

والأمر الثالث الذى لعب دورا هاما فى النظم العثمانية فى البلاد هو أن سياسة الدولة جرت على نظم هى أبعد ما تكون عن النظريات السياسية التى سادت التفكير العالمى فى ذلك الوقت ، وبخاصة ما اتصل منها بحقوق الانسان والعقد الاجتماعى . فالعثمانيون لم يغيروا شيئاً من التقسيم الذى كان شائعاً فى البلاد العربية . وكان

المجتمع ينقسم إلى طبقات جامدة هى : رجال السيف ، ورجال القلم ، والتجار ، وأصحاب الحرف .

وزاد هذه التقسيمات الجامدة خطورة فلسفة الحكم عند العثمانيين . فقد كانت الفكرة الاساسية فى هذه الفلسفة هى عدم الثقة ، والشك فى ممثلى السلطة . وكان نظام الحكم العثمانى يجرى أساسا على قاعدة قيام والى أو باشا فى بعض البلاد نيابة عن السلطان فى ممارسة السلطة العليا فى الولاية . ومن ثم جمع الوالى أو الباشا فى يده السلطتين العسكرية والمدنية ــ فهو المسئول عن أحوال الولاية وتطبيق القانون فيها ، وجمع الضرائب . ولكن لم تلبث فلسفة الحكم العثمانى القائم على أساس عدم الثقة فى ممثل السلطان أن أخذت تحدث أعمالها . وتركزت فكرة عدم الثقة فى ممثل السلطان فى العمل على الحد من سلطته ، وهو الأمر الذى أدى إلى كثير من الفوضى الادارية . وتجلى هذا التحديد حين صار منصب الوالى أو الباشا لمدة عام واحد ، حتى لايكون لديه فرصة كافية لوضع الخطط والمشروعات لتحقيق أطماع خاصة ، أو مصالح خاصة .

وظهر للعيان أخيراً ضعف سلطان الباشا حين نال رجال الاوجاقات ، أى الحاميات العثمانية الحق فى مراقبة الوالى والانصراف إلى ادارة وحداتهم مباشرة دون الرجوع إلى الباشا . فأصبح لكل أوجاق قائد هو « الأغا » ثم نائب قائد وهو « الكخيا » ، ولكل أوجاق « دفتر دار » للشئون المالية . وكان أصحاب هذه الرتب كلها يعينون من العاصمة مباشرة دون أن يكون للباشا أى حق فى الاشراف عليهم . وزاد نفوذ هذه الطبقة وغيرها حين سمحت لهم الدولة العثمانية بالاشتراك فى الديوان ، الذى كان بدورة يحد من سلطان الباشا .

وتجلت معالم هذه الحقبة من تاريخ مصر فى استعادة البكوات المماليك لنفوذهم المطلق فى البلاد فى القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى حيث صار رئيسهم يدعى « شيخ البلد » ، وهو منصب يؤهل صاحبه للانفراد بالحكم من دون الوالى العثمانى نفسه . ومن الشخصيات التى تولت منصب شيخ البلد ، وعلا

سلطانها « على بيك الكبير » الذى صار شيخ البلد سنة ١١٧٧هـ / ١٧٦٣م ، ثم أعلن استقلاله بمصر وانفرد بها إلى سنة ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م ، حين خانه أحد مماليكه، وهو محمد أبو الذهب ، نتيجة الاغراء العثمانى له . ولم يطل العهد بمحمد أبو الدهب ، حيث توفى (١١٨٩هـ / ١٧٧٥م) تاركا السلطة فى البلاد يقتسمها مرة أخرى اثنان من مماليك على بيك الكبير ، وهما ابراهيم بيك ومراد بيك ، حيث امتدت مشيختهما للبلد إلى مجئ الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م .



جامع محمد أبو الذهب فى مواجهة الجامع الأزهر ومئذنتى قايتباى والغورى .

التنافس الاستعمارى فى مصر :

كانت مصر قبل الحملة الفرنسية مسرحا للمنافسات الانجليزية الفرنسية ، ذلك أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، واستئثار البرتغاليين ومن جاء بعدهم من القوى الاستعمارية بالطواف حوله، لم يقض مطلقا على تحويل التجارة المارة بالشرق العربى . اذ بقى التجار العرب طوال القرن السادس عشر الميلادى ينقلون الحرير ومنتجات الشرق الاقصى من اليمن إلى القاهرة والاسكندرية ، كما ظل جانب من هذه التجارة يسلك طريق الخليج العربى ويمر من الصحراء السورية إلى شرق البحر المتوسط . وظلت مدن الشرق العربى تسهم بدور غير قليل فى حركة التبادل التجارى العالمى ، على الرغم من منافسة طريق رأس الرجاء لها ، كما حافظت على شئ من ثرائها .

ولم تلبث أحداث الصراع بين انجلترا وفرنسا أن بعثت ماء الحياة فى هذا الطريق التجارى المار ببلاد الشرق العربى وهيأت له قصب السبق مرة أخرى على طريق رأس الرجاء . وكانت فرنسا أسبق من انجلترا فى محاولة بسط نفوذها الاستعمارى فيى البلاد العربية المطلة على البحر المتوسط . ذلك أن انصراف منافستها وهى انجلترا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى إلى شئون مستعمراتها فى الهند أتاح للسلطات الفرنسية التدخل فى سهولة فى شئون الشرق العربى ، عن طريق التقرب من الدولة العثمانية صاحبة السيادة اذ ذاك على شئون تلك الجهات . فعمدت فرنسا إلى احياء جميع الامتيازات التى سبق أن منحها السلطان سليمان القانونى العثمانى لفرنسوا الأول الفرنسى سنة ١٥٣٥م ، وهى التسهيلات والاعفاءات التى أكسبت فرنسا مركزا ممتازا فى أملاك الدولة العثمانية ، وصارت أساسا للامتيازات الاجنبية التى رزئت بها البلاد العربية فيما بعد .

وفى سنة ١٧٤٠م ١١٥٣هـ جدد السلطان العثمانى امتيازاته لفرنسا ، التى استخدمت نفوذها لخدمة الدولة العثمانية ، ومساعدتها ضد أعدائها . وكادت فرنسا تحتكر التجارة مع مصر ، وصار لها خمسون تاجراً بالقاهرة فضلا عن مؤسسات تجارية أخرى فى الاسكندرية ورشيد . ولم يكن لانجلترا فى مقابل هذا العدد الفرنسى غير

تاجرين فقط بالقاهرة والاسكندرية . ومن ثم لم تستطع التجارة البريطانية مزاحمة النشاط التجارى الفرنسى فى مصر . ومما يدل على ذلك أن الاصواف الانجليزية التى اشتهرت بجودتها لم تتمكن من منافسة الاصواف الفرنسية التى كانت أخف وزنا ، وأكثر ملائمة لجو بلاد الشرق العربى ، فضلا عن أنها تقل بمقدار ١٠ ٪ عن ثمن الاصواف الانجليزية . وصار المعروف ان الاتراك فى استنبول لم يجدوا الاقمشة التى تلائم رغباتهم وبالسعر الذى يرضونه ، ولا البن الذى يستسيغونه إلا من التجار الفرنسيين .

ولكن انجلترا لم تلبث أن أفاقت إلى أهمية الطريق التجارى المار بمصر وبلاد الشرق العربى ، وخاصة بعد أن تدعمت أقدامها فى الهند ، وساءها ازدياد نفوذ فرنسا من دونها فى تلك الجهات . ثم شجع انجلترا على النظر بعين الجد إلى طريق مصر التجارى انسحاب قواتها من أمريكا بمقتضى معاهدة فرساى سنة ١٧٨٣م ، وصار الموقف يحتم عليها أن تبحث عن طريق سهل وقريب للمواصلات بين لندن والهند . واتصلت شركة الهند البريطانية بعلى بك الكبير الذى استقل اذ ذاك بحكم مصر ، وقامت بارسال حملات تجارية من الهند إلى السويس . وكانت تنقل البضائع برا من السويس إلى البحر المتوسط حيث تحملها السفن إلى انجلترا . وترتب على استخدام هذا الطريق اختصار مدة السفر من كلكتا بالهند إلى لندن إلى ما يقرب من شهرين ، بعد أن كانت السفن تستغرق خمسة أشهر فى السفر حول طريق رأس الرجاء .

وأعقب هذه الخطوة البريطانية ازدياد التنافس بين الانجليز والفرنسيين لاكتساب مودة المماليك حكام مصر من قبل الدولة العثمانية . اذ لم يطل العهد بعلى بك الكبير ، حيث ثار عليه محمد أبو الذهب ، وتخلص منه . وعقد الاخير معاهدة مع انجلترا سنة ١٧٧٥م . ولكن خلفاء محمد أبى الذهب ، وهما مراد بك وابراهيم بك لم يحترما هذه الاتفاقية ، وذلك على حين تقدمت فرنسا لمنافسة انجلترا فى مصر ، ونجحت فى عقد معاهدة مع مراد بك سنة ١٧٨٥م . وظل التنافس بين انجلترا وفرنسا فى مصر سجالا حتى قامت الثورة الفرنسية ، وتولى نابليون بونابرت قيادة جيوش بلاده

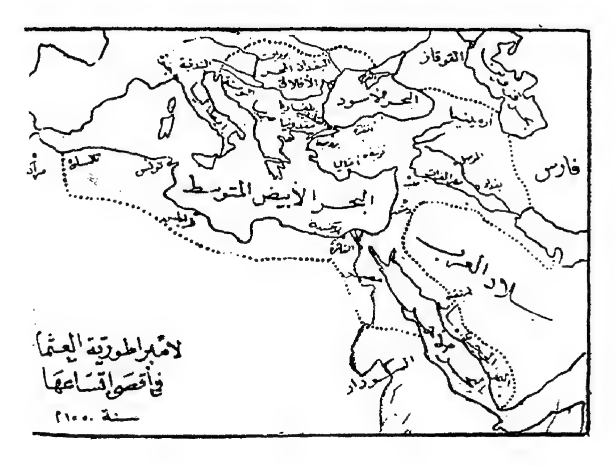
ضد أعدائها فى أوروبا .

واستطاع نابليون سنة ١٧٩٧م أن يزحف على النمسا ويخرجها من التحالف الأوربى الموجه ضد فرنسا ، ولم يعد أمامه إلا تنفيذ خطة حكومته ضد انجلترا . ورأت الحكومة الفرنسية أن الهجوم المباشر على انجلترا عن طريق البحر أمر صعب ، ووجدت أن أحسن بديل لذلك هو ارسال حملة لغزو مصر ، بقصد القضاء على امبراطورية انجلترا فى الهند . وكشف تاليران الفرنسى فى خطابه إلى نابليون عن ذلك الهدف قائلا : « ان مصر باعتبارها طريقا تجاريا سوف تعطى لنا سيادة تجارة الهند ، اذ نستطيع القيام بخمس رحلات مقابل ثلاث حول رأس الرجاء .

وكانت فرنسا تفكر فى عزو مصر منذ مطالع القرن الثامن عشر الميلادى ، ولكن لم تقدم على تنفيذه بسبب علاقاتها الطيبة مع الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر ، ولكن هذه السيادة صارت اسمية فقط عندما خلا الجو لفرنسا بعد نجاح حملة بونابرت ضد النمسا ، وتطلعت الحكومة الفرنسية لغزو مصر . وانتهى الأمر باعداد حملة فرنسية تولى قيادتها نابليون بونابرت . ونزلت بالاسكندرية فى يوليو سنة ١٧٩٨م/١٢١٣هـ ، وتظاهرت بأن هدفها هو القضاء على حكم المماليك الذين استبدوا بالامر فى مصر ، واعادة نفوذ السلطنة العثمانية فى البلاد . ولكن انجلترا علمت بأنباء هذه الحملة ، وبعثت سفنها الحربية بقيادة نلسن لتعقبها ، وتمكن أخيراً من تحطيم الاسطول الفرنسى فى مياه أبى قير ، وصار نابليون وجنوده محصورين فى مصر . ولما سمع نابليون بتجمع جيش عثمانى فى سوريا للزحف على مصر بادر بالتوجه إلى سوريا وقضى على هذا الجيش ، ولكن دون أن يتمكن من الاستيلاء على عكا ، التى دافع عنها واليها أحمد الجزار ، بمساعد « الاسطول البريطانى » واضطر نابليون إلى العودة إلى مصر بعد شهرين من بقائه فى الشام ، بسبب تفشى الوباء فى جيشه.

وفى تلك الأثناء ساءت الاحوال فى فرنسا بسبب تجمع أعدائها ، مما اضطر نابليون إلى العودة خفية إلى فرنسا فى أغسطس سنة ١٧٩٩م ، تاركا الجيش الفرنسى لقيادة كليبر . ومن ثم بقى الفرنسيون فى مصر دون أن ينجحوا فى تحقيق مآربهم ضد

انجلترا ، أو تأسيس امبراطورية لهم فى الشرق . وتم الاتفاق سنة ١٨٠١م بين فرنسا وانجلترا على خروج القوات الفرنسية المقيمة فى مصر ، وعادت البلاد مرة أخرى للسلطنة العثمانية .



دور القيادات المصرية فى التصدى للحكم العثمانى والتدخل الأوروبى

دور الأزهر

وقف أبناء مصر يدرسون معالم التطورات التى أحاطت بهم ويلتمسون أقوم السبل لاستعادة عزتهم القومية . وسرعان ما أدركوا أن الواجب يحتم عليهم الاعتماد على أنفسهم والافادة من القوى العديدة الكامنة فى بلادهم . ومن ثم كانت يقظة أبناء مصر فى هذه الحقبة من كفاحهم الرائع من أجل مواجهة القوى الاستعمارية تستند إلى ماضى بلدهم التليد وحضارته العريقة ، وليس السبب فيها مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر . فلم تكن الحملة الفرنسية على مصر فى مطلع القرن التاسع عشر هى التى صنعت اليقظة المصرية فى ذلك الوقت ــ كما يقول بعض المؤرخين ــ فان الحملة الفرنسية حين جاءت إلى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه إلى الحياة فى مصر كلها ، كما وجدت أن الشعب المصرى يرفض الاستعمار العثمانى المقنع باسم الخلافة .. والذى كان يفرض عليه دون ما مبرر حقيقى تصادما بين الايمان الدينى الأصيل فى هذا الشعب وبين ارادة الحياة التى ترفض الاستبداد . ولقد وجدت هذه الحملة مقاومة عنيفة لسيطرة المماليك وتمردا مستمرا على محاولاتهم لفرض الظلم على الشعب المصرى . وبرغم أن هذه المقاومة العنيفة والتمرد المستمر كلفا شعب مصر غاليا فى ثروته الوطنية وفى حيويته ، فان الشعب المصرى كان صامدا ثابت الايمان ، ولقد كانت هذه اليقظة الشعبية القوة الدافعة وراء محمد على .

والباحث فى صفحات التاريخ المصرى فى هذه الحقبة من العصر الحديث يلمس روعة التعبير ودقة التشخيص لحالة مصر فى هذه المرحلة من كفاحها ضد الاستعمار . اذ تقاسم البلاد قبيل مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر فئة ظالمة تتألف من الحكام المماليك . وممثل السلطان العثمانى فى البلاد وهو والى ضعيف لا هم له إلا جمع المال لنفسه أولا قبل حكومته المركزية فى القسطنطينية ، على حين استأثر

بالحكم الفعلى ونهب الثروات جماعة المماليك ، حيث تزعمها ابراهيم بك ومراد بك . ولكن المصريين لم يستكينوا لكل من ممثلى السلطات العثمانية أو اضطهادات ومظالم المماليك . وكانت عجلة القيادة المصرية اذ ذاك فى أيدى أمينة ، قوامها علماء الأزهر الشريف وطلبة العلم فيه. اذ دأب المصريون على الالتجاء إلى ساحة الأزهر كلما ألمت بهم الخطوب ، واشتد بهم الكرب ، حتى صار الأزهر رمز العزة المصرية والكرامة القومية . وأثبت رجال الأزهر أنهم عند حسن ظن مواطنيهم ، وعلى كفاءة عالية فى معالجة الأزمات .

وكانت قوة الروح الدينية عند علماء الأزهر وثقافتهم الدينية الحقة كذلك هى الأسس التى استندوا اليها فى زعامتهم للحركة الفكرية والسياسية فى البلاد اذ ذاك . ثم زاد فى مراكزهم قوة عزوف اولئك العلماء عن المناصب السياسية أو الحكم ، وجعلوا من أنفسهم رقباء أمناء على الاداة الحكومية والعمل على تقويمها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وينهض دليلا على ادراكهم لمساوئ الحكام الاتراك فى استغلال الدين من أجل تثبيت الطغيان تلك المحاورة التى دارت بين أحد الولاة الاتراك وأحد علماء الأزهر . اذ قال الوالى التركى مخاطبا علماء الأزهر من قادة احدى الثورات الشعبية قائلا : « كيف تثورون على من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال الله تعالى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم : فأجابه أحد علماء الأزهر اجابة تبين علم رجال هذا المعهد الدينى الجليل بحقوقهم الدينية ، فقال له : « ألا فأعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها . فلقد كان لأهل مصر دائماً الحق فى أن يعزلوا الوالى اذا أساء ولم يرض الناس عنه. على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الازمنة القديمة ، بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه اذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه.

وجرت العادة على أنه اذا أعتدى أحد الحكام من الاتراك أو المماليك على الناس ، تأخذ جموع الناس فى التوجه إلى الجامع الأزهر ، ثم يصعد نفر منهم إلى

مآذنه، وينادون بالظلم الذى نزل بهم . وعندئذ تعطل الدروس فى المسجد ، ويقبل العلماء على الاجتماع بالاهالى ودراسة مشاكلهم ، ثم يتصلون بأولى الأمر لرفع المظالم . وروى الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار »نماذج عديدة عن قيادة علماء الأزهر للثورات الشعبية ، وقدرتهم على التعبير عن اليقظة المصرية قبيل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر . ومن ذلك أن أحد كبار المماليك أعتدى فى سنة ١٢٠١هـ / ١٧٨٦م على دار أحد الأشخاص فى حى الحسينية ونهب أمواله . وعندئذ خرج أهالى هذا الحى إلى الأزهر ، وشكو أمرهم إلى أحد علمائه وهو الشيخ أحمد الدرديرى ، فغضب لما نالهم من أذى ، وأعلن تضامنه معهم . ثم صعدت جماعة من الأهالى إلى المآذن ودقوا الطبول ، حتى انتشر الخبر فى الاسواق . وبعد ذلك أعلن الشيخ الدرديرى للثائرين ، « موعدنا غدا ، لنجمع الناس من اطراف المدينة ، وبولاق ، ومصر القديمة ، وأسير معكم إلى بيوت هؤلاء الافراد ، وسينصرنا الله عليهم ، أو نموت شهداء .

ولكن ابراهيم بك شيخ البلد المملوكى ، لم يكد يسمع بذلك الخبر حتى أرسل إلى الشيخ الدرديرى يرجوه ارسال قائمة بما نهب من حى الحسينية ورده إلى الأهالى تفاديا للثورة الشعبية العارمة .

وتابع الازهر رسالته فى حمل لواء المقاومة الشعبية المصرية ضد الفرنسيين بعد أن سيطروا بقيادة نابليون على البلاد سنة ١٧٩٨م . فبعد ثلاثة أشهر فقط من نزول بونابرت فى مصر قامت ثورة شعبية عظمى اندلعت نيرانها فى الأحياء الوطنية وهى الحسينية والجمالية . على أن المركز العام لهذه الثورة كان فى « الجامع الأزهر » ، اذ جعله الثوار معقلهم الحصين وسدوا كل الطرق المؤدية اليه بالمتاريس . واتجه المتظاهرون أولا إلى بيت القاضى ليعلنوا سخطهم على الضرائب والمظالم التى نزلت بهم .

وبادرت القوات الفرنسية بالتصدى للمتظاهرين وأطلقوا عليهم الرصاص . ولكن الأهالى لم يخشوا رصاص المستعمر ، واشتبكوا مع الفرنسيين فى معركة حامية ، وقع فيها الجنرال « ديبوى » وهو قومندان القاهرة قتيلا . وظلت الثورة عدة أيام ، قتل فيها

ياور نابليون ، وهو « الكولونيل سلكوسكى » ، وكاد الأمر يفلت من يد جيش الاحتلال . غير أن نابليون نصب مدافعه ليلا على قمة المقطم ، وأمر بضرب الثوار فى الأزهر بالقنابل . ثم اقتحم الأزهر ، وأعمل الانتقام الوحشى فى أهل القاهرة ، الذين ضربوا أروع الأمثلة على مقاومتهم الباسلة ، دون أن ترهبهم كثرة التضحيات . وهذه هى الحركة الشعبية الكبرى التى واجهت الفرنسيين ، والمعروفة بثورة القاهرة الأولى .

ولم تهدأ مقاومة المصريين بعد حركتهم السالفة الذكر ، اذ لم يكد يمضى على ثورتهم الأولى ثمانية عشر شهرا ، حتى هبوا بثورة أخرى بدأت فى بولاق سنة ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م ، بعد فرار نابليون إلى بلاده ، وترك كليبر خليفة له فى مصر . وكانت ثورة القاهرة الثانية أشد خطورة على الفرنسيين من ثورتهم الأولى ولم تهدأ إلا أمام وحشية الفرنسيين فى اخمادها . ولكن الشعب لم يلبث أن انتقم مما ناله باغتيال كليبر نفسه . ونفذ هذا العمل الفدائى السورى « سليمان الحلبى » ، وهو ممن تعلم فى الأزهر ، فشرف هذا الانتقام يتوج رأس سليمان الحلبى ، وهو شرف يجب أن ينسب لمصر وللأزهر .. فسليمان الحلبى .. يمكن أن يقال عليه أنه « مصرى العاطفة ، أزهرى الثقافة » .

وأعقب هذا العمل الفدائى ازدياد سخط السلطات الفرنسية فى مصر على الأزهر ورجاله، من الطلبة والاساتذة . وانتهى الأمر باغلاق الأزهر بعد أسبوع من اغتيال كليبر ، وعودة طلبته إلى قراهم يحملون لمواطنيهم صورة بشعة من صور الاحتلال ، ويبثون فى نفوسهم روح المقاومة والبطولة . ولم يفتح الأزهر أبوابه إلا بعد خروج الفرنسيين من مصر ، وعادت الحياة إلى هذا المركز الهام فى العالم العربى والاسلامى ، وتابع حمل لواء الجهاد ضد الطغاه والمستعمرين .

وظل علماء الأزهر يحافظون على حقوق الشعب ، ويتولون قيادته ابان الصراع الحزبى والفساد العثمانى الذى انتشر فى البلاد بعد خروج الحملة الفرنسية من البلاد . اذ كان الجند الذين اعتمد عليهم الوالى التركى ، وهو أحمد خورشيد باشا ، يعيثون فى الأرض فسادا ، ويبتزون أموال الناس بغير وجه حق . ولما يئس الأهالى من

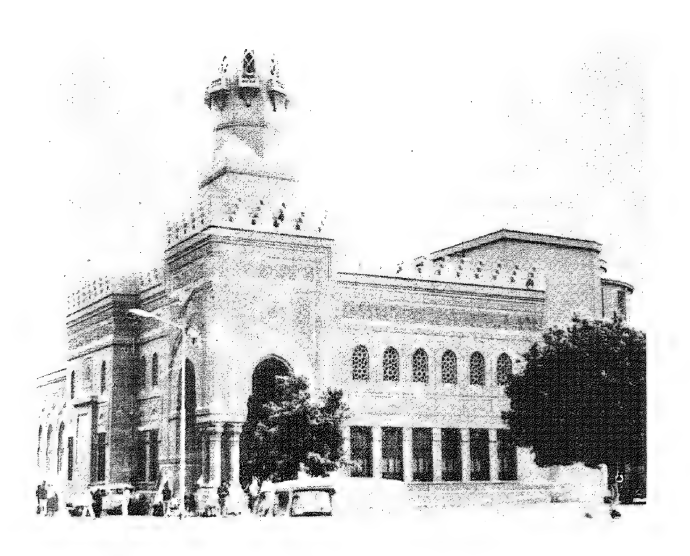
عدالة الوالى لجأوا إلى علماء الأزهر حيث تولى تنظيم المقاومة الشعبية السيد عمر مكرم .

وبدأت هذه الحركة الشعبية باضراب العلماء عن إلقاء الدروس ، ثم ظهور شخصية محمد على الذى استطاع أن يجذب العلماء اليه، ويكسبهم إلى جانبه. ومهما يكن فى هذا العمل من أمر ، فان الشئ الجدير بالاهتمام هنا هو أن الشعب المصرى ، أعلن عن قوته ضد الدولة العثمانية حين قرر بنفسه عزل الوالى العثمانى وتولية محمد على دون انتظار موافقة السلطان على نحو ما جرى عليه العرف والتقاليد ، وكان ذلك سنة ١٢١٩هـ / ١٨٠٥م .

واذا كان محمد على قد استفاد من قوة الرأى العام المصرى الذى ظهر بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، فان قائد هذه الثورة الشعبية ، وهو السيد عمر مكرم ، لم يلبث أن أدرك فى سرعة أساليب محمد على الملتوية ، وصار يوجه الشعب نحو هذا الخطر الداخلى الجديد الذى تجمع فى شخص ذلك الحاكم . اذ كشف محمد على عن قلقه من قوة الشعب عندما انتصر المصريون فى رشيد على حملة فريزر الانجليزية سنة ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م . اذ حين علم محمد على بهذا النصر أدرك أن قوة الشعب خطر يتهدده ، وخاصة بعد أن رأى الناس يكاتبون السيد عمر مكرم فى كل شئونهم . ولذا انتهز فرصة احتجاج السيد عمر مكرم على بعض أعماله ونفاه إلى دمياط .

وفشلت المحاولات التى بذلها محمد على لاسترضاء السيد عمر مكرم ، الذى أثبت لهذا الحاكم المستبد أن أبناء الشعب المصرى سرعان ما يكشفون كل مخادع محتال ، وأنهم يقفون له بالمرصاد . اذ أجاب السيد عمر مكرم على جميع محاولات محمد على لكسبه إلى جانبه، بأنه لابد من تقرير حق الشعب فى الاشراف والرقابة على أداة الحكم . وحين عاد السيد عمر مكرم إلى القاهرة ، ظل الناس يجدون فيه العالم المعبر عن آرائهم ، كما أنه برهن على أنه عند حسن ظنهم دائماً . فعندما ضج الناس بمظالم محمد على المالية ، ولجأوا إلى السيد عمر مكرم ، بادر سريعا إلى الاحتجاج على محمد على . وعندئذ قرر هذا الحاكم المستبد نفيه مرة أخرى إلى

طنطا سنة ١٨٢٢ . ولم يمتد العمر طويلا بهذا القائد الشعبى العظيم . اذ توفى بعد انتقاله إلى طنطا بقليل .



جامع عمر مكرم بميدان التحرير .

اليقظة الفكرية والسياسية فى مصر
فى العصر الحديث
طلائع اليقظة الفكرية والسياسية

بدأت طلائع اليقظة فى مصر فى العصر الحديث فى صورة صراع فكرى دار بين أجيال العصور الوسطى وأجيال العصر الحديث . وقد سجل هذه اليقظة ومعالمها أحد كبار مؤرخى مصر وهو عبد الرحمن الجبرتى ، فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » . وقد عاش الجبرتى مرحلة من أهم مراحل هذا الصراع الفكرى ، ليس فى تاريخ مصر والبلاد العربية فحسب ، بل وفى تاريخ العالم أيضاً . فلم يكن ذلك الصراع محليا محدودا فى الوطن العربى ، ولكن واسع النطاق وثيق الارتباط بالصراع الفكرى الذى انطلق من أوروبا إلى سائر أرجاء العالم . وكانت أوروبا قد طوت مرحلة طويلة من الصراع الفكرى بدأتها منذ القرن الخامس عشر والسادس عشر للميلاد طوال عصر النهضة ، وانتهت من تحطيم جمود الفكر الوسيط ، ورفعت رايات النصر على عهد الجبرتى فى القرن الثامن عشر الميلادى بنجاح الثورة الفرنسية فى ازالة آخر معالم الطغيان السياسى للعصر الوسيط .

وشاهد الجبرتى تساقط بعض الشرر الوهاج من هذا الصراع الفكرى الأوربى على أرض مصر ، وذلك فى الوقت الذى كانت ترتكض فى أحشائها طلائع صراع فكرى رهيب بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث ، من أجل تحطيم قيود الجمود والركود والانطلاق نحو آفاق الحرية وظلالها الوارفة . وامتد العمر بالجبرتى (١١٦٧هـ / ١٧٥٤م ـ ١٢٤٢ / ١٨٢٥م) ليشهد ميلاد هذا الصراع الفكرى وأن يصاحب تطوره عبر أجيال ثلاثة : الأول الذى عاصر الطبقة الأخيرة من المماليك فى مصر . والثانى الذى واجه الحملة الفرنسية على مصر . والثالث والأخير الذى عاش عصر محمد على فى مصر . فقد انقسم أبناء كل جيل من تلك الأجيال الثلاثة وسط هذا الصراع الفكرى إلى قسمين ، تعصب أحدهما لرواسب العصور الوسطى وطلاسم

سحرها ، على حين اندفع الآخر فى الدعوة إلى التجديد والخروج من طلاسم السحر إلى نور العلم والفهم السليم .

ووضع الجبرتى خلفية تاريخية شاملة لصورة هذا الصراع الفكرى بمراحله الثلاث ، جاهدا أن يربط بها بين أبعاد تلك الصورة ويوضح معالمها . فحدد فى الاطار الخارجى الغرض من التاريخ وموقف معاصريه منه. فقال أن الغرض من التاريخ هو : « الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هى ، وكيف كانت . وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها ، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ، ليتحرز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين ، ويستجلب خيار أفعالهم ، ويتجنب سوء أقوالهم ، ويزهد الفانى ، ويجتهد فى طلب الباقى » . ثم شرح الجبرتى موقف الأجيال المعاصرة له من التاريخ قائلا :

«ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الانسانى تعنى بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا عن خلف ، إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه ، وتركوه وأهملوه ، وعدوه من شغل البطالين » .

واعتبر الجبرتى هذا الأهمال للتاريخ عند معاصريه سبب الصراع الفكرى بينهم . اذ ابتعدت الأجيال نتيجة هذا الأهمال عن نهج الحضارة الواضح ، واتخذت لنفسها طريقا كان ينحدر بهم ، ويظنون لجهلهم وغفلتهم أنهم هم الصاعدون السابقون . ثم شرح الجبرتى فى سخرية لاذعة طلائع الصراع الفكرى بينه وبين تلك الأجيال الجامدة قائلا : « ولعمرى انهم لمعذورون ، وبالأهم مشتغلون ، ولا يرضون لأقلامهم المتعبة فى مثل هذه المنقبة . فان الزمن انعكست أحواله ، وتقلصت ظلاله ، وانخرمت قواعده فى الحساب ، فلا تضبط وقائعه فى دفاتر ولا كتاب ، واشغال الوقت فى غير فائدة ضياع ، وما مضى وفات ليس له استرجاع ، إلا أن يكون مثل الحقير (يعنى الجبرتى بذلك كناية عن نفسه سخرية من أولئك الجاهلين بالتاريخ) منزويا فى زوايا الخمول والاهمال ، منجمعا عما شغلوا به من الأشغال ، فليشغل نفسه فى أوقات خلوته ، ويسلى وحدته بعد سيئات الدهر وحسناته:

لو بال هذا الدهر فى قارورة بان . الذى يشكوه للمتطبب

ونزل الجبرتى ساحة الصراع الفكرى . فقال : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفسانى أو غرض جسمانى » . وظل الجبرتى ملتزما بأمانة المؤرخ وقول الحق ولو على نفسه . فاعتزازه بكتابه وما بذله فيه من جهد لم يحل بينه وبين القول عن نفسه « هذا مع اعترافى بقصور الباع وفتور الطابع فى قوانين المعانى العربية ، ودواوين المثانى الأدبية » .

وأخذ الجبرتى يصور فى ضوء هذه الخلفية التاريخية مراحل الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث . وكان قديرا على تصوير هذا الصراع لأن تربيته وحياته العامة وأخيراً ميوله الخاصة جعلته على خبرة دقيقة بجميع الأطراف على اختلاف مناحيهم الفكرية . فنقل الجبرتى عن والده الاهتمام بالعلوم التطبيقية إلى جانب العلوم النظرية ، والوقوف على أهمية هذين الفرعين ، وما يتطلبه كل منهما من أسباب التقدم . وازدادت آفاق الجبرتى خبرة بالفكر القديم والجديد على عهده ، وكذلك بأحوال دعاة كل منهما عن طريق علاقته بوالده وعلاقاته أيضا مع كبار رجال مصر من المماليك والعلماء على اختلاف مشاربهم فضلا عن قوة الصلة مع عامة الناس . وخبر الجبرتى فنونا شتى من نتاج الفكر الوسيط والحديث ومارس بعض أعمالها التطبيقية ، من رياضة التصوف وحسابات النجوم . وصار تصويره للصراع الفكرى الذى دار بين هذه الاتجاهات المتضاربة تصوير خبير ، عليم ببواطن الأمور . وزاد فى روعة الصورة التى رسمها الجبرتى أن العمر امتد به ليتتبع أدوار هذا الصراع على مراحله الثلاث التالية :

١ ــ الصراع الفكرى على عهد الطبقة الأخيرة من حكم المماليك فى مصر .
٢ ــ الصراع الفكرى على عهد الحملة الفرنسية فى مصر .
٣ ــ الصراع الفكرى على عهد حكم محمد على فى مصر .

المرحلة الأولى من الصراع الفكرى :

أوضحت الصورة التى رسمها الجبرتى للصراع الفكرى الذى نشب فى هذه المرحلة بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث أنه كان صراعا رهيبا . اذ كان الفكر الوسيط قويا ، ومازال له سحره وجلاله وأنصاره الذى ينافحون عنه ، أما عن علم أو غير علم . وفضلا عن ذلك كان أعوان الفكر الوسيط أكثر نفرا وأعز جاها وسلطانا وأشد تعصبا فى محاربة الأفكار الجديد . وبلغت خطورة أجيال العصور الوسطى حدا جعلت معه المرء العادى يفقد حريته فى التفكير مع الاضطرار للخضوع كرها لما ينادى به دعاة الفكر القديم .

ودار الصراع الذى صوره الجبرتى فى هذه المرحلة الأولى حول قضيتين كبيرتين تفرعت عن كل منهما مظاهر خطيرة أصابت حياة المجتمع على أختلاف طبقاته : أحداهما الانحراف الفكرى فى حركة التصوف ، والأخرى قضية التخلف بين قادة الفكر .

الانحراف الفكرى فى حركة التصوف :

استهل الجبرتى هذه القضية مبينا أن العدو اللدود للتفكير العقلى هو الجمود الدينى الذى حمل لواءه على عهده فى القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى بقايا المتصوفة من سلالة أهل العصور الوسطى . اذ تظاهروا بالعبادة ، واتخذوها ذريعة للتخاذل عن العيش الجاد ، وللتغرير بالعامة . فكثر الأدعياء ، وتظاهروا بالتقشف ، ولبسوا مسوح التصوف ، وذلك على نحو شكلى . وصار كل ضعيف فى العلم يلجأ إلى التصوف كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر ، وقليل المال إلى الزينة واللباس . ثم اندس هذا الفريق المنحرف بين الناس ، وروجوا للتأويل فى القرآن ، واستخدموا مصطلحات يعجز الرجل العادى سليم الفكر عن فهمها ، وقالوا انها أسرار لا يرقى اليها إلا الخاصة ، ولا تحل للعقل فى ادراكها .

وحرص الجبرتى باعتباره ممن مارس بنفسه رياضة التصوف أن يفرق فى الصورة التى رسمها بين أولئك المنحرفين وبين تقاة المتصوفة ، وذلك على نحو ما شاهده

بنفسه من أفعال كل من الفريقين . وجاءت التراجم التى اتخذها الجبرتى نماذج بشرية لمعالم هذه القضية الخطيرة رائعة التصوير ، دقيقة التفاصيل والأسرار . فأسهب فى وصف مواكب أولئك المنحرفين من دعاة التصوف وقدرتهم على اجتذاب الناس من شتى الطبقات رجالا ونساء وأطفالا . وكان بعضهم يسير عريانا فى الطرقات ، يتبعهم الأطفال والعوام ، ويحاولون الاقتداء بحركات أولئك الأدعياء ، من حيث انتزاع الملابس ، و« التحنجل » فى المشى ، وكل من فعل ذلك قال الناس أن بركة الشيخ مسته فجذبته، هذا إلى جانب الهذيان وكثرة اللغط ، والتكلم بفاحش القول .

وتمثل الصورة التى سجلها الجبرتى عن « الشيخ صادومة » خطورة هذه الطبقة المتأخرة من دعاة التصوف ، ومفاسدهم فى نفس الوقت . فقال : ان شيخاً يسمى الشيخ أحمد صادومة ، وكان رجلا مسنا ذا شيبة وهيبة ، وأصلة من سمنود ، وله شهرة عظيمة وباع طويل فى الروحانيات وتحريك الجمادات والسيمات » . والمعروف أن علم السيمات ظهر عند غلاة المتصوفة ، ويعنى اتجاههم إلى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم ، والتطرف فى عالم العناصر ، وذلك باحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى عن طريق القوة النفسية لا الصناعة العملية . وغدا علم السيما ضربا من السحر ، ويقترن بالطلاسم . واضاف الجبرتى أن الشيخ صادومة صار بذلك قادرا على مخاطبة الجن مشافهة ، ويظهر لهم بالعيان .

وأمعن الجبرتى فى تصوير هذا النموذج البشرى « صادومة » ، مبينا قدرته على اجتذاب نفر من كبار الفقهاء ، وأن ذلك كان يستند إلى سوء المشرب والقصد عند كل منهما . فقال ان الشيخ حسن الكفراوى الذى تولى منصب افتاء الشافعية كان من اتباع صادومة « وله به التئام وعشرة ومحلة أكيدة واعتقاد عظيم ، ويخبر عنه أنه من الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات ، بل يقول أنه هو الفرد الجامع . ونوه بشأنه عند الأمراء وخصوصاً محمد بك أبو الذهب ، فراج حال كل منهما بالأخر » .

وبدأ الصراع ضد هؤلاء المنحرفين من المتصوفة شديداً ، وأسهم فيه ثلاث فئات من المجتمع ، تحدث الجبرتى عنها باعتبارها حملة الفكر الحديث فى هذه

المرحلة الأولى من مراحل ذلك الصراع . وأوضح الجبرتى ان هذه الفئات الثلاث ضمت أصحاب العقول المتفتحة من أمراء المماليك والعلماء ، ومن عامة الناس أيضاً . ثم شرح أسلوب كل فئة فى أداء دورها فى هذا الصراع الفكرى حسب قدرتها وطبيعة عملها . فذكر الجبرتى أن الشيخ صادومة وقع فى عداء مع أحد المماليك من أصحاب الفكر السليم ، وهو الأمير يوسف الكبير ، الذى كان « يتغير من أدانى شئ .. وازدادا عتوا وعسفا وانحرافا ، خصوصاً مع طائفة الفقهاء والمتعممين لأمور نقمها عليهم » .

وتابع الأمير يوسف بك الكبير حملته ضد أولئك المنحرفين من المتصوفة على حين تولى نفر من العلماء من أصحاب الفكر الجديد فى هذه المرحلة الكبيرة تحذير الناس من تلك المفاسد . وعدد الجبرتى نفرا من هؤلاء العلماء وأشار إلى أحدهم وهو البدرى الحجازى ، قائلا : « وكان عالما فصيحا مفوها ، متكلما منتقدا على عصره وأبناء مصره » . ونقل عنه الجبرتى النماذج التالية من الشعر :

احذروا أولى التسبيح والسبحة	والصوف والعكاز والشملة
بملء الأفـواه ينـادون يـا	أهل الوفا يا صاحب النوبة
يا سيدى أحمـد يا أوليـا	الكون عينونا على الحملة
لكنهم فى الفسق أرقى الورى	كما ترى من غير ما مرية

ونقل الجبرتى عن نفس هذا العالم المجدد قوله:

ليتنا لم نعش إلى أن رأينـا	كل ذى جنة لدى الناس قطبا
علما هم به يلـوذون بل قـد	تخذوه من دون ذى العرش ربا
فالحذار الحذار من فعل أهل الـ	جهل لو عالما يـدرس كتبـا

وأوضح الجبرتى أن عامة الناس أسهموا فى الصراع الفكرى ضد المنحرفين من المتصوفة إلى جانب رجال السلطة والعلماء . وجاءت الصورة التى رسمها برهانا ناصعا على قابلية العامة للاصلاح فى هذه المرحلة الأولى من الصراع الفكرى ، وأن هذه

القاعدة العريضة للمجتمع على استعداد لأن تسير وراء المصلح الصادق مهما كان بلده . وتناول ذلك بالتفصيل فى ترجمته لسيرة أحد رجال الدين المشتغلين بالوعظ من الأتراك العثمانيين ، الذين كثر ترددهم على مصر فى هذه المرحلة الأولى من الصراع الفكرى وذلك على عهد الطبقة الأخيرة من المماليك فى تلك البلاد . فقال الجبرتى أن هذا الواعظ حين حضر إلى مصر « انتقل من الوعظ ، وذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء .. وذكر أيضاً قول الشعرانى فى طبقاته أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ وأنه لايجوز ذلك » .

وكثر أنصار هذا الواعظ من العامة ، وأيدوه فى حماسة بالغة وصفها الجبرتى بقوله: « فلما سمع حزبه ذلك القول خرجوا بعد صلاة التراويح ، وهم يقولون أين الأولياء » . وترامت هذه الأخبار إلى نفر من العلماء الذين أصدروا فتوى تحرم قول هذا الواعظ . وهنا اشتد الصراع الفكرى بين أنصار العقلية الجامدة التى مثلها هذا الفريق من العلماء ، وبين الواعظ وأتباعه. وبلغ الأمر أن تحدى الواعظ أولئك العلماء وطلب عقد مناظرة بينه وبينهم . اذ قال الواعظ لأتباعه حين بلغه فتوى هؤلاء العلماء : « أيها الناس ان علماء بلدكم أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم ، وانى أريد أتكلم معهم وأباحثهم ... فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق ؟ فقال له الجماعة نحن معك ولا نفارقك » . وقامت ثورة على هؤلاء العلماء ومن وقف يؤيدهم من رجال السلطان ، وصارت نموذجاً مبكراً من الثورات الثقافية فى تلك المرحلة الأولى من مراحل الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث . وتركت أعمق الآثار فى نفوس الجماهير برغم فشلها والقضاء على داعيتها والمناصرين له. اذ فتحت هذه الثورة أعين دعاة الفكر الحديث إلى خطورة التعاون بين أهل الجمود الفكرى من العلماء وبين رجال السلطة ، وهو الأمر الذى سيؤجج نار الصراع فى المراحل التالية .

واختتم الجبرتى دراسة هذه القضية الكبرى للانحراف الفكرى عند المتصوفة بذكر حادثة لطيفة توضح أن هذا العهد أخذ فى الانهيار أمام وعى أهل الفكر ، ولاسيما من بعض رجال السلطان . فقال الجبرتى ان الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر

اذ ذاك كانت فى حرب ضد روسيا ، وأخذت ترسل الجيوش إلى موسكو (بلاد موسقو) . وعندما اشتدت حركة الجهاد كتب أحد المتصوفة ممن زار دار السلطنة فى استانبول اذ ذاك ، وهو المعروف بابن الترجمان ، عرضحالا إلى السلطان مصطفى ، صورته : أن من قرأ استغاثة أبى مدين الغوث فى صف الجهاد حصلت النصرة له . وقدمه إلى السلطان ، فاستحسن أن يكون صاحب هذا العرض هو الذى يتوجه بنفسه ويقرأ هذه الاستغاثة تبركا . ففاجأه الأمر من حيث لا يحتسب ، وأخذ فى الحال ، وكتب مع المجاهدين وتوجه رغما عن أنفه ، ووصل إلى معسكر المسلمين ، وصار يقرأ . فقدر الله الهزيمة على المسلمين لسوء تدبير أمر العسكر ، فأسر مع من أسر ، وذهب إلى بلاد موسقو وبقى أسيراً مدة ، ولم يغثه أحد بخلاصه منهم لاشتغال الناس بما هو أهم ، حتى توفى ، تاركا وراءه نموذجاً عملياً على ما حل بالمتصوفة من ضربات قاصمة فى هذه المرحلة الأولى من الصراع الفكرى .

التخلف بين قادة الفكر :

وعرض الجبرتى أيضاً فى هذه المرحلة الأولى من الصراع الفكرى للقضية الثانية الكبرى ، وهى التخلف بين قادة الفكر . اذ دار الصراع حول هذه القضية فى ضراوة لا تقل عن قضية الانحراف الفكرى عند المتصوفة . واشتركت القضية الثانية مع القضية الأولى فى انغماس العلماء من الطرفين سواء من أجيال العصور الوسطى أو العصر الحديث فى هذا الصراع ، مع فارق هام ، وهو أن الصراع وصل إلى حد الاشتباك بالأيدى فى بعض الأحوال ، بعد أن عجز القلم واللسان . وأوضح الجبرتى أن التخلف بين قادة الفكر تجلى عند مجموعتين رئيسيتين ، احداهما جماعة العلماء التى تمسكت بالعلوم التقليدية ، وكرهت كل فكر جديد وحاربته ، والثانية جماعة العلماء الرسميين ، وهم الذين تولوا مناصب كبيرة فى البلاد واستغلوا علمهم لمناصرة أصحاب السلطان ، وذلك عن طريق محاربة كل جديد يهدد هذا السلطان ، وما يتبعه من زوال المعيشة الرغدة التى انغمس فيها هؤلاء العلماء .

وعرض الجبرتى لمعالم هذا الصراع الفكرى أيضاً جريا على منهجه فى اختيار النماذج البشرية التوضيحية لكل من أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث . فأوضح أن علماء العصور الوسطى من رجال هذه المرحلة كانوا من أصحاب العلم المتحجر الذى عرفوه فى كتب المتأخرين ، والذى مازال يطبع بتأثيرهم عقول الملايين بطابع الجمود وضيق الأفق . أما النماذج التى عرضها عن دعاة العصر الحديث فكانت هى التى تدعو إلى تحصيل العلم الذى يجدد حيوية الأمم وأبنائها ، ويحرر العقل من الأوهام والأباطيل ، وذلك مع عرض المصادر الأولى لتراث الآباء والأجداد عرضا سليما يجعل منه قاعدة للانطلاق لا للقيود والأغلال .

وكان أهم شئ ذكره الجبرتى عن الفريق الأول من العلماء التقليديين هو أنهم قصروا جهودهم على الدراسات الدينية من حديث وتفسير وجدل فى العقائد دون اجتهاد ، وأنهم نسوا أن الاجتهاد كان السب فى أزدهار الحياة الفكرية أيام مجد المسلمين . فكان كل همهم متابعة الحواشى ، وحواشى الحواشى دون تبصرة أو فهم ، والترديد الأصم للكلمات . وربما أباح هذا النفر لنفسه الأخذ قليلا بعلم الحساب ، ولكن بقصد الاستعانة به فى علم الميراث . أما العلوم الأخرى التى ظهرت أهميتها نتيجة الصراع الفكرى فى أوروبا من الجبر والهندسة وعلم الطبيعة والكيمياء ، فقد بدت لهم غير جديرة بأن تسمى علوماً .

وأرجع الجبرتى فساد أخلاق العامة فى سائر البلاد إلى جهل هؤلاء العلماء الذين يتصدرون للفتوى والوعظ ، والذين لا يعرفون كيف يرشدون الناس أو يميزون لهم بين الحق والباطل ، والحلال والحرام . ثم عرض نماذج لما ارتكبوه من مفاسد وما نالوه من عقاب أيضاً . فقال أن أحد هؤلاء العلماء الذين دأبوا على الفتوح بغير علم ، طلق امرأة من زوجها الذى كان غائباً . ولما عاد الزوج قدم شكوى ضد هذا الشيخ إلى الأمير يوسف بك الكبير الذى اشتهر بحرية الفكر ، ومحاربة أصحاب البدع من العلماء . وأرسل الأمير عماله إلى الشيخ ، وأحضروه وحبسه مع أرباب الجرائم . ولكن ثار نفر من زملاء هذا الشيخ وذهبوا إلى الأمير ، ومعهم جماعة من العماء الذين أطلق

عليهم الجبرتى اسم « المعممين » لحرصهم على لبس العمائم ذات المنظر الضخم .

ودارت مناقشة بين هؤلاء المعممين والأمير ، جاءت أروع صورة سجلها الجبرتى للصراع بين العصور الوسطى والعصر الحديث . واستهل أحد المعممين المناقشة قائلا للأمير : « ما هذه الأفعال وهذا التجازى ؟ فقال له : أفعالكم يا مشايخ أقبح . فقال له : هذا قول فى مذهب المالكية معمول به . فقال : من يقول ان المرأة تطلق زوجها اذا غاب عنها وعندها ما تنفقه وما تصرفه ووكيله يعطيها ما تطلبه . ثم قال لو رأيت الشيخ الذى فسخ النكاح ! فقال الشيخ الجداوى : أنا الذى فسخت النكاح على قاعدة مذهبى . فقام الأمير على أقدامه وصرخ قائلا : والله أكسر رأسك . وعندئذ اشتدت ثورة دعاة الرجعية من المشايخ وسب أحدهم الأمير مذكرا اياه بأصله الأول أيام أن جاء رقيقا بين جماعة الرقيق ، ثم اشتراه سيده قبل أن يصبح من كبار المماليك قائلا له : لعنك الله ولعن اليسرجى (أى تاجر الرقيق) الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً . ولم ينته هذا الصراع إلا بعد وساطة انتهت بحل وسط قوامه اطلاق سراح الشيخ المقبوض عليه.

وأثارت هذه القضية الثانية ثائرة نفر آخر من العلماء من أنصار التجديد ، وتناولوا فى سخرية أولئك « المعممين » . ونقل الجبرتى فى ذلك قصيدة للشاعر حسن البدرى الحجازى والتى هاجم فيها « المعممين » قائلا :

عمائما كبــــروا وكمـــــا ... قد وسعوه لكى يسودوا
وتحت آباطهـــم روايـــــا ... تسعين كراسا أو تزيـــــد
بها يميلون حيث مالـــوا ... لأجل مال لهم تصيـــــد
تزويرهم شاع فى البرايـــا ... سيان الأحرار والعبيـــــد
البعض منهم يقول أنـــى ... فى العلم بين الورى فريد
وهو لعمرى ما ريح علـــم ... شم ولا بحثه يجبـــــــد

واستعرض الجبرتى نماذج أخرى لجهاد العلماء المجددين ، وذكر منهم والده الشيخ

حسن الجبرتى ، فأوضح أنه إلى جانب اهتمامه بالعلوم الدينية اتجه إلى الأخذ بالعلوم التطبيقية . فكانت عنده « الآلات الفلكية من الكرات النحاس ، وآلات الارتفاع والميالات والأرصاد والاسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية ، وأدوات غالب الصناع » . وذاعت شهرة حسن الجبرتى حتى أن طلابا من الافرنج حضروا اليه سنة ١١٥٩هـ / ١٧٤٦م ليتعلموا على يديه صنعة الهندسة ، ثم « ذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها هذا العلم » ، وأقاموا على أسّسه طواحين الهواءوآلات جر الأثقال واستنباط المياه .

وأعلن الجبرتى أيضاً عن طلائع تلك الدعوة للفكر الحديث عند جماعة من العلماء الأدباء منهم الادكاوى ، الذي توفى سنة ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م .

اذ نقل عن هذا الشاعر :

كن للمعاصر خير ناصر — كم للاواخر من مفاخـــر
لا تحقرن جديدهـــم — كم فى جديدهم جواهـــر
ودع التعصـــب لـــلأوا — ئل ، يا فتى ، أو للأواخـر
من كان منهم مبدعـا — فاعقد عليه من الخناصـــر

وصاحب التخلف بين قادة الفكر ظهور العلماء الرسميين الذين عقدوا أواصر المودة مع رجال السلطة ، وذلك ابتغاء عرض الحياة الدنيا وزخرفها . ورسم الجبرتى صورة لأحد هؤلاء العلماء تبين أنه كان يشتغل قليلا بالمذاكرة ومجالسة العلماء . ولكن كان شغله الشاغل تحصيل المال « وتنظيم المعاش والرفاهية واقتناء كل مرغوب للنفس .. وتعاظم فى نفسه، وتعالى على أبناء جنسه.. وصار يلبس قاوونا بعمامة خضراء ، تشبها بأكابر الأمراء ، وبعدا عن التشبيه بالمتعممين والفقهاء » . وزاد من تعاظم هذا العالم أن زملاءه اذ اقتربوا منه على قدر ذراعين ضموا ثيابهم تأدبا ، ثم حبوا ومدوا أيديهم لتقبيل يده أو طرف ثوبه . أما صغار العلماء فلم يطمعوا فى تقبيل يد هذا الشيخ أو ثيابه، واذا انصرفوا عنه غسل يديه بالماء والصابون بعد ملامستها أيديهم ، وكان يقتصر فى رد التحية عليهم بقوله « خير ، خير » .

وهاجم دعاة الفكر الجديد هذه الظواهر من التعالى والغرور لدى العلماء الرسميين ، والتنديد بهم فى كل مكان ، حتى صار الصراع بين الفريقين على أشده . ونقل الجبرتى فى ذلك قول الشيخ حسن البدرى يهاجم العلماء الرسميين .

عن علماء عصرك لا تسألـــن فان أحوالهـــم ظاهـــرة
نفعك من جانبهم منتـــف فى هذه الدنيـا والآخـرة
قوم اذا لاح لهم مطمـــع تسارعوا كالأكلب العاقـرة
فجانبا ــ خذ عنهم تستـرح اذ قربهم صفقتك الخاسـرة
ونفسك الزم فعسى أن تكـن مع فرقة أوجهها ناضـــرة

واستطاع الجبرتى بذلك أن يترك صورة عن تلك المرحلة الأولى من الصراع ، مبينا أن أجيال العصور الوسطى وان بدت طاغية فان أوتادها قد اهتزت ، وأن أجيال العصر الحديث وأن بدأ صوتها خافتا قد انطلقت وتحررت ، وأن الزمن معهم وفق سنن التطور التى لا تتبدل .

المرحلة الثانية من الصراع الفكرى :

رسمت الصورة التى عرضها الجبرتى للمرحلة الثانية من الصراع الالتقاء بين الفكر الذى تمخضت عنه المرحلة الأولى وبين نتاج الفكر الأوربى ، الذى بلغ ذروته عند قيام الثورة الفرنسية . وجاء الاحتكاك بين هذين اللونين من التفكير عقب نزول حملة نابليون بونابرت إلى مصر سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م ، وهى السنة التى قال عنها الجبرتى : « وهى أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة .. واختلاف الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع » . وكان هذا الانقلاب الذى أشار اليه الجبرتى هو الزاد الجديد الذى ناله أبناء عصره أثناء صراعهم مع الفرنسيين فى المرحلة الثانية من مراحل الصراع الفكرى .

ودار الصراع فى هذه المرحلة الثانية حول قضيتين أساسيتين ، أحداهما ، مدى الارتباط بين العقيدة والعمل ، والثانية ، كيفية التجاوب مع الحضارة الأوروبية . واتبع

الجبرتى فى معالجة هذه المرحلة الثانية أسلوبا جديدا جمع إلى طريقة التراجم باعتبارها نماذج بشرية للأجيال المتصارعة الاهتمام بسرد الحوادث التى توضح جوانب الصراع . مع الجرأة فى اعطاء قلمه وريشته منتهى الحرية فى تكوين الظلال والألوان .

وجاءت القضية الأولى الخاصة بمدى الارتباط بين العقيدة والعمل وليدة الهزة الفكرية التى أصابت الأجيال على اختلاف مشاربها حين فاجأتهم حملة بونابرت وما اشتملت عليه من فرق لا تضم محاربين فحسب بل ومن العلماء ، ويعملان معا فى انسجام تام . وكانت الهزة عنيفة صحبها أسئلة عديدة عن كيفية الوصول إلى أمثل السبل لمواجهة الغزو العسكرى الفكرى المزدوج . اذ لم يكن غزوا يتطلب قوة بشرية فحسب بل يقتضى اعداد عمل يرتكز على وعى سليم ، خشية الضلال والتخبط فى المتاهات . وسرعان ما تلقف دعاة الفكر الجديد الكرة فى الصراع فى هذه المرحلة الثانية ، ورأوا أن تمسكهم بالعقيدة الاسلامية لا يحول بين مواجهة الأوضاع التى انقلبت بمجئ الحملة الفرنسية ، فقالوا ان هناك تأثيرا بين العقيدة والعمل ، لأن العقيدة تدفع إلى العمل وذلك على حين يقوم العمل بتثبيت العقيدة ، ويطبع النفس عليها ويرسخ أوتادها .

واعتمد الجبرتى فى عرض هذه المرحلة من الصراع على الوثائق ونقلها بأمانة لتكون هاديا ومرشداً ، وليتجنب الريب التى قد يستغلها دعاة الأجيال المتداعية ضد الفكر الحديث . فأورد صورة المنشور الأول الذى أعلنه نابليون بونابرت على أهل مصر عقب استيلائه على الاسكندرية . اذ تضمن هذا المنشور فكرة جديدة عن مفهوم العقيدة وكيف أن هذا المفهوم الجديد يجب أن يختلف عما درج عليه العرف القديم ، والذى أساء استخدامه الطبقة الأخيرة من المماليك فى مصر ، وجرى هذا المفهوم فى التبرير التالى الذى ساقه نابليون عن مجئ حملته الفرنسية إلى مصر :

« أيها المصريون قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين اننى ما قصدت اليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين . واننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى ، وأحترم

نبيه ، والقرآن العظيم . وقولوا أيضاً لهم ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب . فلماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شئ أحسن فيها .

« ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ، ومن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور . وبذلك يصلح حال الأمة كلها » .

وبدأت هذه الأفكار الجديدة تدخل مع الحذر فى قبولها والافادة منها أيضاً فى صراع مرير طوال عهد الحملة الفرنسية على مصر مع رواسب الماضى . وتجلى ذلك حين هرب جميع كبار العلماء والمشايخ عقب استيلاء الفرنسيين على البلاد وهزيمة المماليك . وعندما ذهب وفد من صغار العلماء لمقابلة بونابرت والتفاهم معه على الأوضاع ، بعد فرار المماليك دارت المناقشة التالية التى رواها الجبرتى ، قال : فالتقى بونابرت بالعلماء وضحك لهم وقال : أنتم المشايخ الكبار ؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا . فقال : لأى شئ يهربون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ، ونعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية واجراء الشريعة ، فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والأمان » .

وظل العلماء برغم مودتهم واشتراكهم فى الديوان الجديد الذى شكله بونابرت حريصين على عدم الأخذ بأى شئ قد يثير الريبة فى نفوسهم سواء من حيث دينهم أو علاقتهم بمواطنيهم من أهل البلاد ، وروى الجبرتى هذا اللون من الصراع الفكرى قائلا : « طلب صارى عسكر بونابرته ــ المشايخ . فلما استقروا عنده ــ نهض بونابرته من المجلس ، ورجع وبيده طليسانات ملونة بثلاثة ألوان ، كل طليسان ثلاثة عروض ، أبيض وأحمر وكحلى ، فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى به إلى الأرض ، واستعفى وتغير وانتقع لونه واحتد طبعه ، فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أحباباً لصارى عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فأن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس ، وصار لكم منزلة فى قلوبهم . فقالوا له : لكن قدرنا

يضيع عند الله وعند أخواننا المسلمين . فاغتاظ لذلك ، وتكلم بلسانه ، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوى : أنه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك . فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من ذلك . فقال ان لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار فى صدوركم وهى العلامة التى يقال لها الوردة . فقالوا : أمهلونا حتى نتروى فى ذلك » .

وانتقل هذا الصراع الفكرى إلى عامة الناس حين فرض الفرنسيون عليهم ضرورة استخدام الشارات ، ولا سيما المعروفة باسم الوردة . فقال الجبرتى « فأنف الناس من وضعها ، وبعضهم رأى ذلك لا يخل بالدين ، اذ هو مكروه » . وكشف الجبرتى بذلك عن قيام لون جديد من التفكير القومى جاء وليد الاحتكاك بمفاهيم الفرنسيين عن السلطان . وبدأت العقيدة تأخذ طابعاً جديداً قوامه الحرص على المظهر الوطنى والدينى فى نفس الوقت . وتبلورت هذه المفاهيم الجديدة فى الثورات التى قام بها المصريون ضد الفرنسيين واحتلالهم للبلاد . وسجل الجبرتى نفسه أحاسيسة ازاء هذا الصراع الفكرى الجديد ، وذلك حين وضع كتابا بعد خروج الفرنسيين عن مصر سماه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » . اذ جاء هذا الكتاب نموذجا لأصالة العقيدة الاسلامية ، وقدرتها على اكتشاف أباطيل الفرنسيين وزيف أراجيفهم . اذ نعت الجبرتى الفرنسيين بالنفاق والخداع والخروج على جميع الأديان . وهذا الرأى هو الذى تبلور أخيراً فى العودة إلى التنسيق بين العقيدة والعمل ، وانطلاق أجيال العصر الحديث فى ظله من أجل الاطاحة بجمود أهل العصور الوسطى وأغلالهم .

وكان الجدل الذى دار بين المفهوم الجديد للعقيدة سببا فى اثارة قضية أخرى وهى كيفية التجاوب مع الحضارة الأوروبية . فبينما وقفت العقيدة الحارس الأمين لتطور الفكر فانها أوضحت أن ارتباطها بالعمل لا يحول بين الأخذ بمظاهر الحضارة الأوروبية ، وذلك فى النواحى التى تزيل جمود الماضى وأغلاله وتؤدى بالمجتمع إلى التقدم العلمى واسترداد أمجاده . ذلك أن الحملة الفرنسية على مصر جعلت قادة الفكر يفيقون إلى أن الحضارة الغربية أصبحت هى حضارة العالم ، وأن كل حضارة سواها لاتستطيع البقاء الا اذا أخذت بالأسباب التى أدت إلى إزدهار حضارة الغرب ،

من حيث الاعتماد على العلم والحرية السياسية .

وتناول الجبرتى بنفسه توضيح أهمية هذا التفكير العلمى وضرورة الأخذ به بالرغم من اعجابه بأهل وطنه وهم يقومون بالثورات على الفرنسيين فى مصر . اذ كان يأسف لما يحدث من تدمير للأجهزة العلمية والفلكية فى بعض الثورات ، قائلا : ان تلك الأجهزة لا تقدر بقيمة الا « عند من يعرف صنعتها » . وجاء أروع تسجيل لاعجاب الجبرتى بأهمية التقدم العلمى وضرورته فى الوصف المطول الذى أورده عن زيارته للمعامل الخاصة بالأبحاث ، والتى أقامها الفرنسيون بالقاهرة . وروى الجبرتى هذا اللقاء الحضارى بين أجيال العصور الوسطى والعصر اللحديث دون أن يخجل من السخرية مما له من رهبة وهو يشاهد الفرق الشاسع بين الفكر العلمى فى وطنه اذ ذاك وبين ما وصل اليه الفرنسيون . فقال :

« وأغرب ما رأيته فى ذلك المكان (وهو معمل لأبحاث الكيمياء » أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجه من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً فى كأس ، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فغلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ماء الكأس ، وصار حجراً أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا فأخذناه بأيدينا ونظرناه .. وأخذ مرة شيئاً قليلا جداً من غبار أبيض ووضعه على السندال ، وضربه بالمطرقة بلطف ــ فخرج له صوت هائل كصوت الفربيانة فزعجنا منه ــ فضحكوا منا .. وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتاع العناصر وملاقاة الطبائع ، ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة ، فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شئ كثيف ، ويظهر له صوت طقطقة ، واذا مسك علاقتها شخص ولو خيطا لطيفاً متصلا بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة ، أو قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه ، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة ، ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه متصلا به حصل له ذلك ، ولو كانوا ألفا أو أكثر ، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا » .

وعاد الجبرتى بعد استعراض هذه التطورات الجديدة الخاصة بمشاهداته فى معامل الأبحاث الفرنسية إلى التراجم مرة أخرى يستكمل بها مراحل الصراع الفكرى بين أجيال الصور الوسطى والعصر الحديث على عهد الجملة الفرنسية . وأوضح أن التجاوب الحضارى صار سريعاً بين أجيال الفكر الحديث وبين الأقبال على العلم الغربى . وضرب لذلك أمثلة عند تناوله لسيرة الشيخ حسن العطار . وكان شابا وعالماً فى مقتبل العمر عندما جاء الفرنسيون إلى مصر . وهرب إلى الصعيد فى ذلك الوقت شأنه شأن غيره من العلماء الذين ابتعدوا عن الفرنسيين . ولكن عاد مرة أخرى بعد دعوة الفرنسيين للعلماء ، واتصل بطائفة من رجال الحملة الفرنسية ونقل عنهم بعض علومهم ، وذلك فى الوقت الذى تولى فيه تعليمهم اللغة العربية . وصار الشيخ حسن العطار من دعاة التجديد والعمل على أن تأخذ مصر بالحضارة الأوروبية لاستعادة تقدمها وأمجادها .

المرحلة الثالثة من الصراع الفكرى :

استكملت الصورة التى رسمها الجبرتى للصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث جميع معالمها وروعتها حين وصلت إلى المرحلة الثالثة من مراحل هذا الصراع . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الجبرتى لم يقتصر على سرد التراجم والأحداث فحسب على نحو ما فعل فى المرحلتين الأولى والثانية ، ولكن أسهم مباشرة فى المرحلة الثالثة بقلمه وجاهد دون أن يأبه بما يلقاه أصحاب الفكر الحر والقول الصريح من اضطهاد وعناد .

وجرى الصراع الفكرى فى هذه المرحلة الثالثة حول دعوتين متباينتين ، ما زالت تدور حولهما إلى الوقت الحاضر معالم التكوين السياسى والحضارى للعالمين الاسلامى والعربى . واتجه التفكير فى الدعوة الأولى إلى الاصلاح الروحى ، والانطلاق فى أمان نحو آفاق العصر الحديث وذلك على نحو ما عاصر الجبرتى أحداثه فى الحركة الوهابية ونشاطها وتطورها . واتجهت الثانية إلى الاصلاح المادى على أنه الطريق الذى لا بديل عنه لملاحقة ركب الحضارة العالمية ، وذلك على نحو ما سجله

الجبرتى عن جهود محمد على فى بناء دولته بمصر . وزاد فى حيوية تصوير الجبرتى لهاتين القضيتين المعاصرتين له، ان احداث كل منهما تشابكت مع الأخرى ، والتفت أيضاً وجها لوجه فى صراع التجأ فيه الفكر لا إلى القلم فحسب بل إلى دوى السلاح وبطشة كذلك .

وأجاد الجبرتى عرض الصراع الذى خاضته الدعوة الوهابية حيث اتفقت أفكارها مع مذهبه السلفى وفكره الحر فى نفس الوقت . وسجل الأفكار الجديدة التى جاءت بها هذه الدعوة عند دراسته لأحداثها التاريخية ، وذلك بصورة شيقة بعيدة عن الجفاف الذى يصاحب الدراسات الفلسفية حول العقائد . فأوضح الجبراتى أن الوهابيين اتخذو من فكرة التوحيد فى العقيدة وفكرة التوحيد فى التشريع سلاحاً لهم وهم يخوضون معركتهم ضد الجمود . اذ كانت فكرة التوحيد فى العقيدة تدعو إلى إبطال البدع التى دخلت على الاسلام من أعمال المتصوفة وزيارة الأضرحة والطبل والزمر فى الموالد والحج ، وتقرر فى نفس الوقت العودة إلى طهر الحياة الاسلامية الأولى وتعاليمها السليمه. أما فكرة التوحيد فى التشريع فتعنى ما أصاب الناس من تخلف بسبب قفل باب الاجتهاد فى الأيام الأخيرة للعصور الوسطى ، وما صحب ذلك من جمود وتقليد وجرى وراء الجمل والفتاوى فى كتب السابقين ، وترى فى نفس الوقت ان لا سبيل للخلاص من هذه الجهالة القاتلة دون العودة إلى الاجتهاد فى فهم العقائد ، لأن الله سبحانه وتعالى هو مشرع العقائد ، وليس فى كلام أحد حجة فى الدين إلا فى كلام الله سبحانه وتعالى وكلام سيد المرسلين . وتفرعت عن هاتين المسألتين عند الوهابيين مسائل عديدة اتجهت إلى هدم البدع التى أدخلها الناس على الاسلام مثل زيارة القبور والتوسل بالأضرحة والاحتفال بالمحمل عند الحج .

وأثار انتشار الدعوة الوهابية على نحو ما صوره الجبرتى فزعا عند كل من : أصحاب السلطان والعلماء الرسميين ، وشنوا على هذه الدعوة ثورة فكرية مضادة . وتمثل الرواية التى ذكرها الجبرتى فى حوادث شهر ذى الحجة سنة ١٢٢٣هـ / ١٨٠٨م فى شئ من التفصيل نموذجا للصراع الفكرى الذى دار حول الحركة الوهابية وكيف

أعطى قلمه الحرية فى التعليق على تلك الأحداث بما يوضح فكره السديد . فقال انه حدث اذ ذاك انقطاع الحج الشامى المصرى لأن الناس تعللوا بأن الوهابيين منعوهم من الحج . ويعلق الجبرتى على ذلك قائلا : « والحال ليس كذلك ، فانه لم يمنع أحد يأتى إلى الحج على الطريق المشروعة ، وانما يمنع من يأتى بخلاف ذلك من البدع التى لا يجيزها الشرع ، مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة . وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا فى هذا العام ، وما قبله ، ولم يتعرض لهم أحد بشئ » .

واستطرد الجبرتى بعد ذلك فى توضيح الأسباب التى دعت إلى اشتداد الخصومة مع الوهابيين . فذكر أن أصحاب المنافع من البدع والأباطيل ذهبوا إلى استنبول حيث مقر السلطان العثمانى ، واشتكوا اليه ما قام به الوهابيون من مفاسد واضرار ضد المحمل والشعائر الاسلامية ، وأنهم نقلوا ما كان بالحجرة الشريفة « من الذخائر والجواهر » . وعلق الجبرتى على هذا الادعاء تعليقاً مسهبا ومستندا أيضاً إلى علمه الواسع فى الدين وحقيقة جوهره وتاريخه . فقال : أن هذه الذخائر والجواهر أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ، أما حرصا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم ، أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج اليها ، فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء . فلما تقادمت عليها ازمنة وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة وهى فى الزيادة ارتصدت معنى لا حقيقة ، وارتسم فى الأذهان حرمة تناولها وأنها صارت مالا للنبى (ص) فلا يجوز لأحد أخذها وزاد الجبرتى تعليقه صراحة قائلا : « والنبى (ص) منزه عن ذلك ، ولم يدخر شيئاً من عرض الدنيا فى حياته ، وقد أعطاه الله الشرف الأعلى ، وهو الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب ، واختار أن يكون نبياً عبداً ، ولم يختر أن يكون نبياً ملكاً » .

واختتم الجبرتى تصويره لتطور الحركة الوهابية مبينا أن أعداءها من أصحاب المصالح على اختلاف أهوائهم من السلطان العثمانى والعلماء الرسميين وبسطاء العامة تكتلوا ولجأوا إلى القوة والبطش . وكان محمد على هو الأداة التى استغلها هذا الفريق للقضاء على الحركة الوهابية . ولكن الجبرتى أكد أصالة الحركة الوهابية وقوة

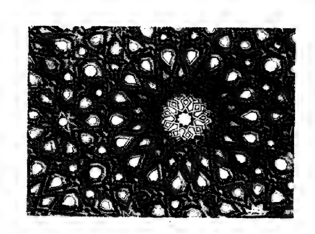
دعاتها برغم أسر بعضهم واقامتهم فى مصر . فقد زار بنفسه اثنين من قادة الوهابيين فى مصر ، وقال : « وقد اجتمعت بهما مرتين فوجدت منهما انسا وطلاقة لسان ، واضلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر ، ولهما من التواضع والتهذيب والأخلاق وحسن الأداب فى الخطابة والتفقه فى الدين واستحضار الفروع الفقهية واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف » .

واتخذ الجبرتى من اختتام تصويره للحركة الوهابية على يد محمد على نافذة انتقل منها إلى معالجة الدعوة الثانية التى نادى بها هذا الحاكم ، وما سلكه من سبل فى الاصلاح المادى . ووقف الجبرتى موقفا صريحا فى وصفه للنهج الذى سار عليه محمد على ، وأن الهدف الذى ساد الصراع بينهما هو الوصول إلى البناء المثالى وذلك دون الاطاحة بالقديم اطاحة عمياء ، أو الجرى وراء الجديد دون وعى وإدراك . فاشاد الجبرتى بما قام به محمد على من اصلاح مادى ، شمل جميع المرافق وخاصة ميادين التعليم والأخذ بمناهجه الحديثة . ولكن ساءه أن محمد على لجأ فى سبيل تحقيق أهدافه إلى أساليب أبعدته عن الفضائل الخالدة . فهاجم الجبرتى وسط تسجيله لاصلاحات محمد على الأخطاء والمظالم التى صاحبت تلك الاصلاحات .

ووصف الجبرتى فى جرأة أساليب محمد على بأنها ملتوية ، وأن مظهرها غير مخبرها ، سواء فى الميدان السياسى أو الاقتصادى ، فتناول أساليب محمد على فى الوصول إلى ولاية مصر عن طريق علاقته مع السيد عمر مكرم قائلا : « ومحمد على يداهن السيد عمر سرا ويتملقّ اليه ويأتيه ويراسله ، ويأتى اليه فى أواخر الليل ، وفى أوساطه مترددا عليه فى غالب أوقاته ، حتى تم له الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة والأيمان الكاذبة ... إلى أن عقد السيد عمر مجلساً عند محمد على وأحضر المشايخ والأعيان ـــ وأشار إلى اختيار محمد على ـــ الذى أظهر التمنع وقال أنا لا أصلح لذلك ، ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة . فقالوا قد اخترناك لذلك برأى الجميع والكافة والعبرة رضا أهل البلاد » .

واختتم الجبرتى وصفه لاصلاحات محمد على المادية برأى آخر شديد الصراحة قائلا عن هذا الحاكم « وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان . فلو وفقه الله بشئ من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » .

وأصاب الجبرتى نتيجة اشتراكه الفعلى فى هذه المرحلة الثالثة من مراحل الصراع الفكرى ما يصيب أصحاب الفكر الحر من اضطهاد ومآسى . اذ حين علم محمد على بما سجله عليه الجبرتى من آراء وانتقادات تآمر سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م على قتل ابن هذا المؤرخ . وأصابت هذه الفاجعة الجبرتى ، وانطوى على نفسه حتى توفى سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م تاركا فى الصورة التى رسمها للصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث زادا غزيراً خالدا ما زالت تستمد منه حركات التحرر فى كل من الوطن العربى والعالم الاسلامى حتى اليوم ما يجنبها المعاثر والخطوب ويدفع بها وبأوطانها إلى ركب التقدم العلمى والتوجيه الفكرى السليم للبشرية فى كل مكان .



معالم العمارة الاسلامية :

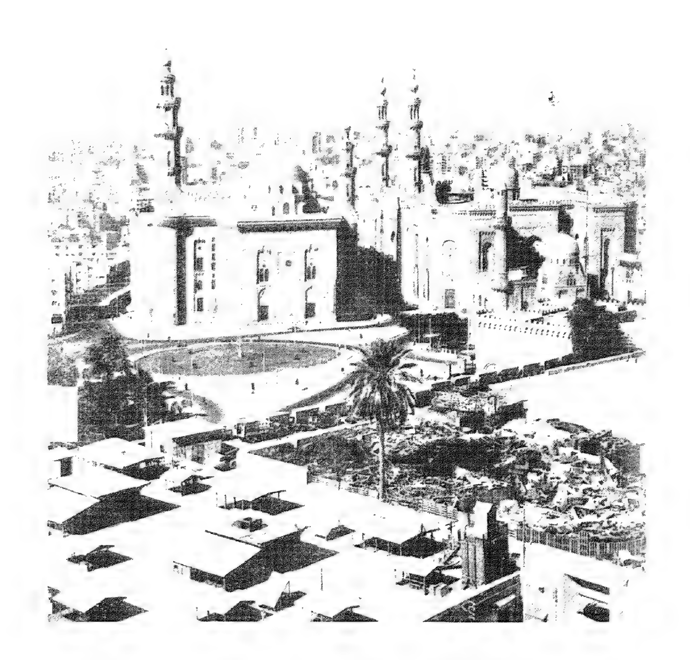
صاحب مسيرة مصر الاسلامية فى العصر العثمانى من سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ـــ إلى ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م عند قيام محمد على فى حكم مصر طفرة واسعة فى ميدان العمارة الاسلامية ، اتخذت طرزا عديده ، تتثمل فيما يلى :

المساجد :

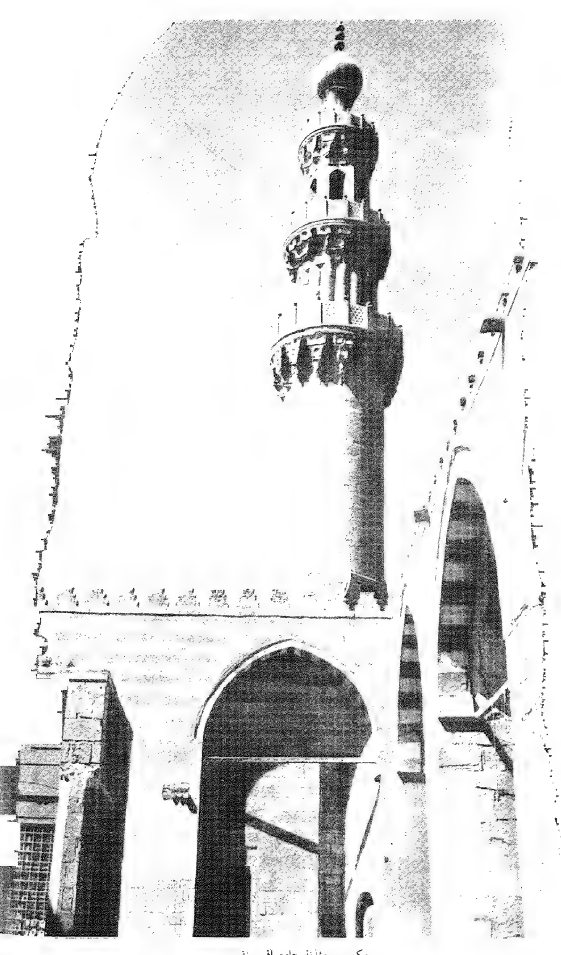
بدأ الاهتمام ببناء المساجد مع الفتح العثمانى لمصر مباشرة ، وذلك نتيجة الحماس الدينى لسلاطين العثمانيين وولاتهم فى مصر . وأهم المساجد التى قامت بالقاهرة! .

- مسجد المحمودية بميدان صلاح الدين (٩٧٥هـ / ١٥٦٧م) ، أنشأه محمود باشا والى مصر فى عهد السلطان سليمان .
- مسجد سنان باشا ببولاق (٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) أنشأه سنان باشا ، أحد القادة الاتراك العثمانيين الكبار .
- مسجد الملكة صفية (١٠١٩هـ / ١٦١٠م) أنشأته الملكة صفية ، زوجة السلطان العثمانى مراد الثالث ، وهو يقع بالقرب من شارع القلعة .
- مسجد البردينى بشارع الداودية (١٠٢٥ ـــ ١٠٣٨ ، ١٦١٦ ـــ ١٦٢٩م) .
- زاوية عبد الرحمن كتخدا بالمغربلين (١١٤٢هـ / ١٧٢٩م) .

وصاحب هذه الحركة من انشاء المساجد نشاط آخر لترميم واصلاح المساجد القائمة بالقاهرة ومنها مسجد عمرو بن العاص وضريح الامام الشافعى وسيدنا الحسين والسيدة نفيسة ، وخير نموذج لهذا اللون من أعمال التجديد المعمارى ما قام به الامير عبد الرحمن كتخدا ، حيث وسع بعض أروقة الأزهر ، وأنشأ رواقا للعميان . وكان من أعظم الأعمال التى تمت ايضا فى ميدان تجديد المساجد القائمة اصلاح مسجد آق سنقر المعروف . بالمسجد الأزرق ، حيث تولى ذلك العمل ابراهيم أغـــا سنة١٠٤٨هـ / ١٦٣٩م



مدرسة السلطان حسن والمدرسة المحمودية وجامع قانى باى الرماح وجامع الرفاعى .



مكرر — مئذنة جامع أق سنقر .

التكايا :

وهى نوع جديد من المساجد ظهر مع العصر العثمانى بسبب انتشار نظام الدراويش ، وصارت التكية الاسم التركى لما كان يعرف باسم « الخانقاه » التى أول من أسسها صلاح الدين الأيوبى فى مصر ، ثم ازداد انتشارها فى عصر المماليك . وكانت التكية عبارة عن مسجد محاط بغرف للدراويش .

الأسبلة :

وهى لون من العمارة ازدادت تقدما فى مصر فى العصر العثمانى ، والسبيل كلمة تعنى « الطريق المستقيم ، ثم غدت مصطلحا للمبنى الذى يزود المارة بماء الشرب . وجرت العادة على أن يلحق السبيل بالمسجد ، وتستخدم الغرفة التى تعلوه « كتابا » أى مدرسة لتعليم أطفال الفقراء والأيتام . وفى العصر العثمانى صار السبيل مبنى قائماً بنفسه . حيث يوجد فى الجزء السفلى من البناء حنفيات الشرب التى تزود المارة بالمياه ، وفى الجزء العلوى من المبنى الكتاب لتحفيظ القرآن الكريم ، ومن أروع نماذج تلك الأسبلة « سبيل مراد باشا » الذى يقع فى مواجهة جامع قلاوون ، وسبيل عبد الرحمن كتخدا بالنحاسين (١١٥٧هـ / ١٧٤٤م) ، حيث يقع عند تقاطع شارع المعز لدين الله مع شارع التمبكشية .

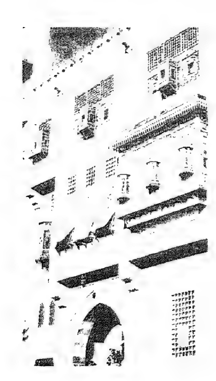
الوكالات :

وظهرت « الوكالات » ، وهى الأسواق التجارية فى القرنين الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى ، والثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى ، وكانت الوكالة فى الأصل هى « الخان » ، وهى كلمة فارسية تعنى منزل يعرض فيه التجار بضائعهم ، كما تضم غرفاً لمبيت أولئك التجار ، اذ كان يتوسط الوكاله فناء مستطيل الشكل ، بأسفله توجد الحوانيت التى تطل على الفناء ، ولها فتحات كبيرة ذات عقود ، ويعلوها طابق أو أكثر به غرف لسكن التجار ودهاليز أيضاً لعرض البضائع ، وتطل رأساً على الفناء .

واشتهر من تلك الوكالات ؛ وكالة حسن باشا الوزير (٩٩١هـ / ١٥٨٣م) بشارع سوق العصر ببولاق ، ووكالة سليمان باشا (٩٤٨هـ / ١٥٤١م) بعطفة السليمانية ببولاق ، ووكالة عباس أغا (١٠٥٨هـ / ١٦٤٩م) بشارع التمبكشية ، ووكالة نفيسة البيضا (١٢١١هـ / ١٧٩٦م) ، كما ظل انتشار الوكالات حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، على نحو ما ظهر فى وكالة الحرمين (١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م) بشاع خان جعفر .

الدور والقصور :

وتميزت هذه الفترة من حياة مصر فى العصر العثمانى ببناء الكثير من الدور والقصور التى بالغ فى عمارتها الأمراء الحاكمون وجماعات التجار والأثرياء من أهالى القاهرة حيث ازدانت بها أماكن العاصمة المتميزة ، وهى اذ ذاك بركة الأزبكية وبركة الفيل ، حيث قامت حولها البيوت والقصور الفاخرة ، وغيرهما مما كان يطل على بركة الفيل . ومن أمثلة تلك العمائر التى حفل بها القرن الهجرى الحادى عشر / السابع عشر الميلادى : منزل محمد بن الحاج بجوار مسجد ابن طولون ، ومنزل جمال الدين

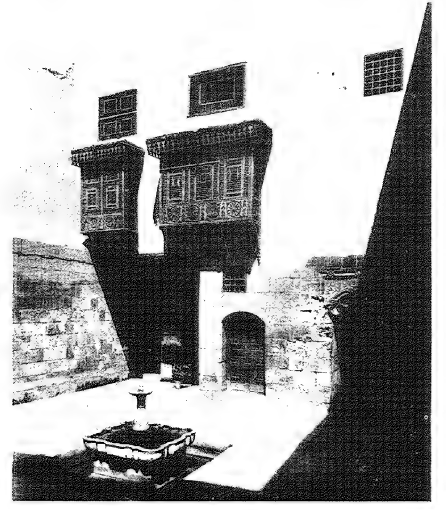


واجهة منزل محمد بن الحاج سالم الجزار
ــ منزل الكريدليه (متحف جاير أندرسون) .



منزل الكريتلية — من الداخل

الذهبى ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م وهو من كبار تجار مصر ، ومنزل رضوان بك (١٠٦٤هـ / ١٦٥٤م) ويقع مقابل مسجد محمود الكردى إلى الجنوب من باب زويله، ومن بيوت القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى ، منزل المفتى أو الشيخ المهدى (١١١٨هـ/ ١٧٠٦م) ويقع بشارع الخليج المصرى (بور سعيد حالياً) ، وقصر المسافر خانة (دار الضيافة) ، وهى دار محمود محرم شيدها سنة ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م ، ومنزل إبراهيم الأنصارى بالقرب من المدرسة السنية ، ومنزل إبراهيم كتخدا السنارى (١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م) ويقع بحارة منج بالسيدة زينب ، ومنزل الشيخ عبد الوهاب



منزل السنارى بالسيدة زينب .

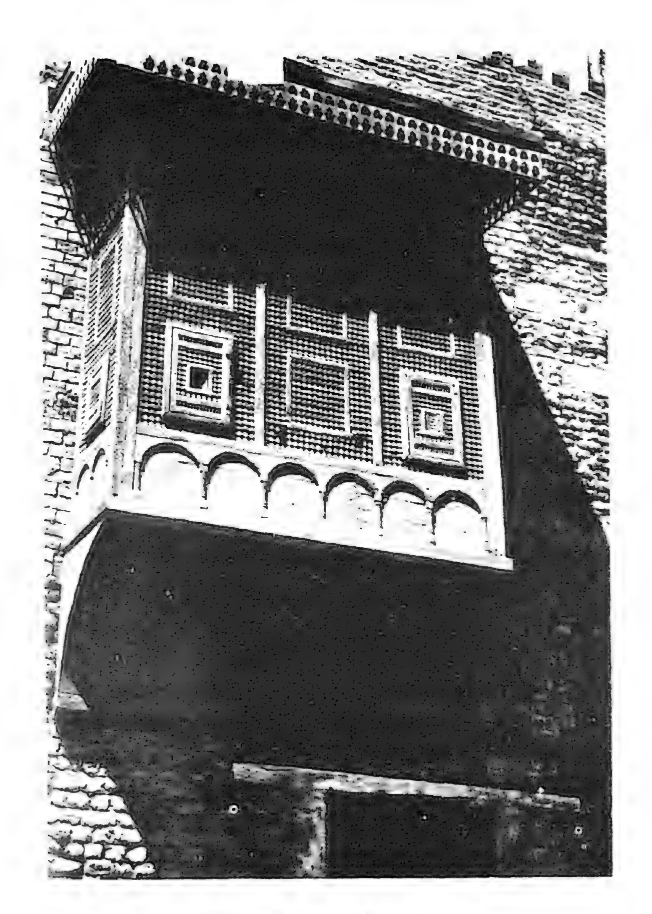
الطبلاوى المعروف ببيت السيحيمى (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م »ويقع بشارع الدرب الأصفر بقسم الجمالية .

وتحكى بعض دور القاهرة فى القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى تفاصيل الأحداث الهامة التى شهدتها مصر اذ ذاك ، ومنها مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر ، وقدرة تصاريف المقادير لنفر من أصحاب تلك الدور . ومن ذلك ما حدث للقصر الذى بناه أحد أمراء المماليك الكبار بالبلاد ، وهو محمد بك الألفى ، فقد شيد قصره بخط الساكت ، بحيث تشرف واجهته على النيل ، وكان يتألف من ثلاث مربعات كبيرة من المبانى الجميلة تفصل الواحدة منها عن الأخرى الحدائق الغناء . وما كاد ينتهى من بناء هذا القصر حتى نزل بونابرت على رأس الحملة الفرنسية إلى مصر ، واتخذ قصر محمد بك الألفى مقرا له ، كأنما كان هذا الأمير المملوكى يعد هذا القصر لما كانت تخبئه المقادير عن مجئ بونابرت إلى مصر ، وامتلاكه لهذا القصر الوافر الثراء .

واستولى الفرنسيون على كثير من بيوت أمراء المماليك الأخرى ، ومنها قصر حسن كاشف جركس بالناصرية ، كما وزع نابليون القصور الأخرى على كبار قادة الحملة الفرنسية وعلمائها ، حيث سكن الجنرال « ديبوى » قصر إبراهيم بيك فى بركة الفيل ، على حين شغل دار إبراهيم كتخدا السنارى بالسيدة زينب بعض مصورى الحملة الفرنسية وعلمائها ، ومنهم ريجو الرسام المشهور ومااللوس ولانكرية وتيراج وجوالو ، حيث أتموا البحوث والرسوم التى اشتمل عليها كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية .

وصارت عمارة الدور فى القاهرة بنهاية العصر العثمانى مرآة صادقة لانتهاء مرحلة طويلة من مراحل مصر الاسلامية ونشاطها فى العصر الحديث من أجل مقاومة الطغيان على شتى معالمه فى الداخل والخارج .

ويمثل الجدول التالى للآثار الباقية بالقاهرة من العصر العثمانى مسيرة مصر وأحوالها وهى على مشارف نهضتها المعاصرة [١] :



مشربية من الخشب الخرط (من مخلفات دور القاهرة ومنازلها)

آثار العصر العثمانى

٩٢٣ ـ ١٢١٩هـ/ ١٥١٧ ـ ١٨٥٦م

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٣٣٢	باب وتكية وقبة الكلشنى	/٩٢٦ ٣١	/١٥١٩ ٢٤
٢٥٨	زاوية حسن الرومى بالمحجر	٩٢٩	١٥٢٣
١٤٢	مسجد سليمان باشا (سارية الجبل) بالقلعة	٩٣٥	١٥٢٨
٥٢	سبيل وكتاب خسرو باشا بالنحاسين	٩٤٢	١٥٣٥
٢١٢	قبة جاهين الخلوتى بسفح المقطم	٩٤٥	١٥٣٨
٥٥٩	منزل آمنة بنت سالم	٩٤٧	١٥٤٠
٥٣٩	وكالة سليمان باشا	٩٤٨	١٥٤١
٢٢٥	تكية السليمانية بالسروجية	٩٥٠	١٥٤٣
٤٧٢	مسجد داود باشا	٩٥٥	١٥٤٨
١٣٥	المحمودية بالمنشية	٩٧٥	١٥٦٨
٥٩	قبة عبد الوهاب الشعرانى بشارع الشعرانى	٩٧٥	١٥٦٨
٣٤٩	مسجد سنان باشا ببولاق	/٩٧٥ ٩٧٩	١٥٧١
١٦٠	«نور الدين (مسيح باشا) بعرب اليسار	٩٨٣	١٥٧٥
١٨١	جامع مراد باشا بالموسكى	٩٨٦	١٥٧٨
٢١٣	سبيل يوسف الكردى بدرب الجماميز القرن العاشر / القرن السادس عشر		
٣٥٥	منزل وقف الحاج عبد الرحمن الفاشى	ق ١٠	ق ١٦
٢٠٠	مسجد الملكة صفية بالدوادية	١٠١٩	١٦١٠

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٢٠١	«البردينى»	١٠٢٥-	١٦١٦-
		٣٨	١٦٢٩
٢٦٥	سبيل وكتاب القزلار بالسيوفية	١٠٢٨	١٦١٨
١٩٦	مسجد يوسف أغا الحينى بشارع درب الجماميز	١٠٣٥	١٦٢٥
٢٤٦	سبيل مصطفى سنان بسوق السلاح	١٠٤٠	١٦٣٠
١٦	« وكتاب وقف قيطاس	١٠٤٠	١٦٣٠
٥٨٧	مسجد عابدين بك (الفتح)	ق ١٠٤١	١٦٣١
٣٢١	منزل وسبيل الكريدلية ببئر الوطاويط	١٠٤١	١٦٣١
٧١	سبيل وكتاب خليل المقاطعجى بالدرب الأحمر	١٠٤٢	١٦٣٢
١٦٧	سبيل وكتاب سليمان جاويش بباب الشعرية	١٠٤٢	١٦٣٢
٤١١	سبيل وكتاب ووكالة جمال الدين الذهبى	١٠٤٧	١٦٣٧
٧٢	منزل جمال الدين الذهبى بحارة خوشقدم	١٠٤٧	١٦٣٧
٢٣٨	سبيل ابراهيم أغا مستحفظان بشارع التبانة	١٠٤٩	١٦٣٩
٣٣٩	منزل السحيمى بالدرب الأصفر	١٠٥٨	١٦٤٨
٣٦٥	زاوية رضوان بك	١٠٦٠	١٦٥٠
٢٠٨	مقعد رضوان بيك بالخيامية	١٠٦٠	١٦٥٠
٥٩٥	منازل وقف ابراهيم أغا	١٠٦٢	١٦٥٢
٦١٩	منزل وقف ابراهيم أغا	١٠٦٢	١٦٥٢
٦١٣	منزل وقف ابراهيم أغا مستحفظان	١٠٦٢	١٦٥٢
٥٣٥	مسجد سيدى عقبة	١٠٦٦	١٦٥٥
٥٧	سبيل اسماعيل مغلوى بالقرب من مسجد الحسين	١٠٦٨	١٦٥٧
٤٦٣	منزل وقف السادات	١٠٧٠-	١٦٥٩-
		١١٦٨	١٧٥٤

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٥٢٤	مسجد عابدى بك	١٠٧١	١٦٦٠
٣٢٠	رباط الآثار بأثر النبى	-١٠٧٣	-١٦٦٢
		١٢٢٤	١٨٠٩
٤٤٥	منزل وقف الست وسيلة	١٠٧٤	١٦٦٤
١٩٣	مسجد آق سنقر الفرقانى بحارة السيدة فاطمة النبوية	١٠٨٠	١٦٦٩
١٧	سبيل وكتاب أوده باشى بحارة البيضة	١٠٨٤	١٦٧٣
٥٩١	سبيل وكتاب وقف أوده باشى	١٠٨٤	١٦٧٣
١٩	واجهة منزل ووكالة اوده باشى بالجمالية	١٠٨٤	١٦٧٣
٢٦٨	سبيل وكتاب على أغا دار السعادة بالسيوفية	١٠٨٨	١٦٧٧
٤١٥	مسجد ذو الفقار بك	١٠٩١	١٦٨٠
٥٥٣	سبيل مصطفى جوربجى مستحفظان	١٠٩٤	١٦٨٣
٤٠٦	منازل وقف رضوان بك	ق ١١	ق ١٧
٤٠٧	منازل وقف رضوان بك	ق ١١	ق ١٧
٣٩٨	وكالة بازرعة	ق ١١	ق ١٧
٣٦٣	سبيل ابراهيم شوربجى	١١٠٦	١٦٩٤
٢٤٣	سبيل وكتاب حسن أغا كوكليان بسويقة العزى	١١٠٦	١٦٩٤
٣٩٦	وكالة وسبيل عباس أغا	١١٠٦	١٦٩٤
١٤٥	مسجد أحمد كتخدا العزب بالقلعة	١١٠٩	١٦٩٧
٣٤٣	مسجد مصطفى جوربجى ميرزا ببولاق	١١١٠	١٦٩٨
٤٦١	سبيل وكتاب أحمد سليم	١١١١	١٦٩٩
٤٠٥	سبيل وكتاب حسن كاتب عزبان	١١١٣	١٧٠١
٣٧٧	مسجد الحاج محمد باشا	١١١٣	١٧٠١
١٩٧	سبيل وكتاب على بكر الدمياطى بدرب سعادة	١١٢٢	١٧١٠

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٧٧	منزل زينب خاتون بحارة الدوادار	١١٢٥	١٧١٣
٤٧١	وقف مصطفى جعفر السلحدار	١١٢٥	١٧١٣
٥٠٨	سبيل ابراهيم المانسترلى	١١٢٦	١٧١٤
٢٣٢	سبيل موصلى	١١٢٧	١٧١٥
٣٢٩	وكتاب محمد مصطفى المحاسبجى بالداودية	١١٢٩	١٧١٦
٣٠٩	بشبر أغا	١١٣١	١٧١٨
١٥٠	محمد كتخدا بشارع التبانة	١١٣١	١٧١٨
٤٥٢	الأمير عبد الله	١١٣٢	١٧١٩
٦٣	منزل وقف الشعرانى بالخرنفش	١١٣٨	١٧١٥
٤٤٦	عبد الرحمن الهراوى	١١٤٤	١٧٣١
٦١٠	مسجد الكردى	١١٤٥	١٧٣٢
٢٦٤	عثمان كتخدا بشارع عابدين	١١٤٧	١٧٣٤
١٠٩	جامع الفكهانى بالعقادين	١١٤٨	١٧٣٥
٣١٣	سبيل وكتاب الست صالحة بدرب الجماميز	١١٥٤	١٧٤١
٤٠	سبيل وكتاب الشيخ مطهر (ومسجده) بالخردجية	١١٥٧	١٧٤٤
٢١	سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا فى بين القصرين	١١٥٧	١٧٤٤
٢٢٦	سبيل ابراهيم خلوصى بعطفة الليمون بالسروجية	١١٥٩	١٧٤٦
٣٨٣	تربة رضوان بك	١١٦٢	١٧٤٩
٣٠٨	تكية وسبيل السلطان محمود بالحبانية	١١٦٤	١٧٥٠
٤٢٨	المدرسة الكاملية	١١٦٦	١٧٥٢
٣٣١	سبيل ابراهيم بك الكبير بالداودية	١١٦٧	١٧٥٣

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٥٥٥	باب العزب	١١٦٨	١٧٥٤
٣٨٧	سبيل وكتاب ومدفن رضوان أغا الرزاز	١١٦٨	١٧٥٤
٤٤٨	مسجد عبد الرحمن كتخدا	١١٦٨	١٧٥٤
٣١٤	سبيل وكتاب السلطان مصطفى بالسيدة زينب	١١٧٣	١٧٥٩
٤١٤	مسجد الخلوتى	١١٧٣	١٧٥٩
٣٧٦	مسجد وسبيل الأمير خليل	١١٧٤	١٧٦١
٣٧٨	مسجد السيدة عائشة النبوية	١١٧٥	١٧٦٢
٢٥٩	الأمير يوسف جوربجى (جامع الهياتم بالحنفى)	١١٧٧	١٧٦٣
٢٧١	تربة عثمان بك القاز دوغلى بالركبية	١١٨٠	١٧٦٦
٦٠٠	مسجد أحمد العزبان ؟	١١٨٤	١٧٧٠
٢٦٢	سبيل يوسف بك بشارع السيوفيه	١١٨٦	١٧٧٢
٣٨٥	تربتا على بك الكبير واسماعيل بك الكبير	١١٨٧	١٧٧٣
٩٨	جامع محمد بك أبو الذهب أمام الأزهر	١١٨٨	١٧٧٤
٦٢	سبيل وحوض محمد بك أبو الذهب بشارع التبليطة	١١٨٨	١٧٧٤
٥٤٠	منزل على كتخدا (الربعمائة)	١١٩٠	١٧٧٦
٢٣٥	قاعة ومقعد أحمد كتخدا الرزاز بسويقة العزى	١١٩٢	١٧٧٨
٢٠	المسافر خانة بقصر الشوق بالجمالية درب المسمط	١١٩٣-	١٧٧٩
		١٢٠٣	٨٨
٥٩٢	حمام الملاطيلى	١١٩٤	١٧٨٠
٦٠٨	مسجد السادات الوفائية	١١٩٩	١٧٨٤
٥٩٦	حمام السكرية	ق ١٢	ق ١٨
٥٦٤	حمام الطملى	ق ١٢	ق ١٨
٢٦٠	سبيل وحوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة	ق ١٢	ق ١٨

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٤٢٣	وكالة الصنادقية	ق ١٢	ق ١٨
٦١٥	وكالة بدوية بنت شاهين	ق ١٢	ق ١٨
٤٩٧	منزل على لبيب	أخر ق ١٢	أخر ق ١٨
١٦٥	وقف العروسى والعريان بسوق الزلط	ق ١٢	ق ١٨
٣٠	جامع محمود محرم برحبة باب العبد بالجمالية	١٢٠٧	١٧٩٢
٢٨٣	منزل ابراهيم كتخدا السنارى بحارة مونج بالسيدة زينب	١٢٠٩	١٧٩٤
٥٦٨	« حسين كتخدا شنن	١٢١٧	١٨٠٢
٥٩٩	مسجد زين العابدين	١٢٢٠	١٨٠٥
٦٠٢	سراى محمد على بشبرا	١٢٢٣	١٨٠٨
٠٠٠	مجرى مياه (محمد على باشا)	١٢٢٣	١٨٠٨
٢١٠	مسجد حسن باشا طاهر ببركة الفيل	١٢٢٤	١٨٠٩
٤٥٥	قلعة محمد على	١٢٢٥	١٨١٠
٦٠٦	دار الضرب	١٢٢٧	١٨١٢
٥٠٥	قصر الجوهرة والعدل	١٢٢٩	١٨١٤
٦١١	مسجد جوهرة الكعينى	١٢٢٩	١٨١٤
٥٦٥	مدفن أحمد باشا طاهر	١٢٣٣	١٨١٧
٤٠١	سبيل محمد على بالعقادين	١٢٣٦	١٨٢٠
٦١٢	قصر الحرم	١٢٤٣	١٨٢٧
٦٠٥	دار المحفوظات	١٢٤٤	١٨٢٨
٤٠٢	سبيل محمد على بالنحاسين	١٢٤٤	١٨٢٧
٦٠٤	وكالة السلحدار	١٢٥٣	١٨٣٧
٣٨٢	مسجد وسبيل وكتاب سليمان أغا السلحدار	١٢٥٥	١٨٣٩

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٤٦٢	جامع الجوهرى	١٢٦١-٦٥	١٨٤٥-٤٨
٥٠٣	مسجد محمد على الكبير	١٢٦٥	١٨٤٨
٤٣٣	سبيل وكتاب وقف الحرمين	١٢٧٢	١٨٥٦
٥٦٧	حمام العدوى	ق ١٣	ق ١٩

. هذا الجدول، نقلا عن : عبد الرحمن زكى، القاهرة ــ تاريخها وآثارها (٩٦٩ ــ ١٨٢٥) ص ٢٤٤

مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ :
الثورة العرابية ــ ثورة سنة ١٩١٩
القضية الفلسطينية

تمهيد :

تبدأ مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ مع اليقظة الفكرية التى صورها المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى والتى كشف هو نفسه عن جانب هام من اتجاهاتها وهو التصدى لاستبداد محمد على فى حكم مصر . ذلك أن الشعب المصرى أخذ يقاوم هذا الاستبداد على نحو ما تصدى له عمر مكرم ، ثم وقفت القيادات المصرية بعد ذلك بالمرصاد لمساوئ أسرة محد على التى بلغت أقصاها مع التجاء اثنين من أبنائها ، وهم سعيد واسماعيل(١٨٥٤ ــ ١٨٧٩م) إلى الاستدانه من الخارج ، وكان سعيد قد استدان ما يقرب من اثنتى عشر مليوناً من الجنيهات على حين بلغت ديون اسماعيل سنة ١٨٧٣م ما يبلغ ثلاثة وعشرين مليونا .

وفتحت تلك الديون باب التدخل الأجنبى فى مصر على عهد الخديو توفيق سنة ١٨٧٩م . وتصدى لهذا التدخل مجموعة من القادة السياسيين الكبار على رأسهم جمال الدين الافغانى والامام محمد عبده وكذلك عبد الله النديم . فقد واصلوا بجهادهم معالم اليقظة التى تناولها المؤرخ الجبرتى ضد طغيان اسرة محمد على ، وأخذوا يحثون أبناء البلاد على التصدى لهذا التدخل الأجنبى فى بلادهم ، المتستر وراء المطالبة بسداد الديون . ومن ذلك قول جمال الدين الأفغانى مخاطباً الفلاح المصرى : عجبت لك أيها الفلاح ، تشق الأرض بفأسك باحثاً عن رزقك ، لماذا لا تشق بهذا الفأس صدور ظالميك .

واستمع إلى هذا النداء كثير من قيادات مصر اذ ذاك ، منهم محمد عبده الذى تابع مشعل الثورة التى أزكى نارها جمال الدين الأفغانى . وقد انفجرت الثورة بعد نفى الخديو توفيق لجمال الدين الأفغانى من مصر وما أعقب ذلك من ازدياد تدخل

الأجانب فى شئون البلاد ، حتى وجد السخط الذى انتشر بين الفلاحين وأبنائهم من ضباط الجيش سبيلا إلى الانفجار فى وقت واحد منذ سنة ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩م . اذ قام الطلبة المصريون بالمدرسة الحربية بمظاهرة فى ١٨ نوفمبر ١٨٧٩ ، يؤزرهم علماء البلاد ومشايخها وطوائف الشعب ، وطالبوا بإصلاح المفاسد وسد ذرائع التدخل الأجنبى فى البلاد .

وأدى مماطلة الخديو توفيق فى تحقيق مطالب تلك المظاهرة السلمية إلى تجدد مقاومة الشعب المصرى ، الذى وجد آماله تتحقق مرة أخرى فى رجال الجيش وعلى رأسهم اذ ذاك أحمد عرابى ، الذى سار فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ١٢٩٩هـ فى مظاهرة عسكرية إلى ميدان عابدين ليقدم إلى الخديو مطالب الأمة المصرية . ولما وصل عرابى إلى عابدين . دارت المناقشة التاريخية التالية بينه وبين الخديو على النحو التالى : قال الخديو لعرابى : لم جمعت حولى هؤلاء العسكر ؟ قال عرابى نطلب سقوط الوزارة جالبة الغمة ، وفتح مجلس شورى للأمة ، ووضع حدود للحاكم والرعية ، وسن قانون معاش الجهادية .



قصر عابدين .

قال الخديو : هذا الطلب ليس من وظيفتك ، فلم تظاهرت بشيعتك ؟
قال عرابى : « لست أطلبه وأنا عسكرى الصفه ، بل وأنا نائب عن هذه الأمة الواقفة .

وتتابعت الأحداث بعد ذلك سريعاً بما أدى إلى تدخل انجلترا لمساعدة الخديو ، وخاصة بعد افتعالها حادثة الاسكندرية ، فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ ، وإثارة فتنه بين مصرى ومالطى ، ثم ضربت الاسكندرية ، واحتلت البلاد تحت ستار مساعدة الخديو سنة ١٨٨٢م .

وبدأت مصر صفحة من جهادها المتواصل ضد التدخل الأجنبى والاحتلال البريطانى حتى بدأت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ١٣٣٣هـ ، حيث بادرت انجلترا إلى احكام قبضتها على البلاد اذ ذاك بإنهاء السيادة العثمانية الشكلية على مصر ، وفرضت الحماية البريطانية بدلا منها بشكل سافر على مصر .

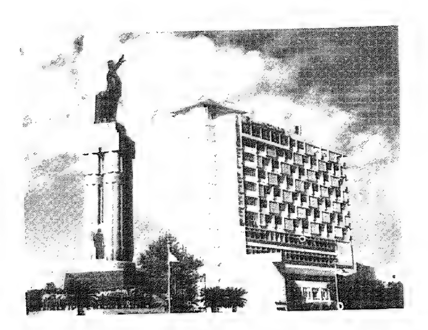
ثورة ١٩١٩ :

تمادت انجلترا على امتداد سنوات الحرب العظمى الأولى من سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ فى سياسة الضغط على مصر ، والعمل فى نفس الوقت على عزلها عن البلاد العربية بتوطين اليهود فى فلسطين ، جرياً وراء اسلوب الاستعمار الاستيطانى . ولم تستسلم مصر لهذه المؤامرات ، وبادرت وهى تعمل على تحرير أرضها بالعمل فى الوقت نفسه على التصدى للمخطط الاستعمارى ضد الأرض العربية فى فلسطين .

وصارت السنوات الممتده من نهاية الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٩ إلى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ من أهم الفترات التى تجمعت بها مقدمات ثورة يوليو ، ومواصلة مصر لجهادها فى الداخل وفى الخارج على حد سواء ، باعتبارها دائماً وأبداً ، ليست رباط الاسلام فحسب بل ومنارة الاسلام كذلك .

وانفجرت ثورة الشعب المصرى فى سنة ١٩١٩ ١٣٣٨هـ ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وهى الثورة التى قادها زعيم البلاد سعد زغلول ، حيث تألف فى ذلك الوقت الوفد المصرى باعتباره هيئة شعبية تتكلم باسم مصر . وعجزت انجلترا برغم

نفى سعد زغلول إلى جزيرة ملطه فى ٩ مارس ١٩١٩ عن اخماد الثورة التى اشتدت نيرانها ، واضطرت إلى اعادته وصحبه إلى مصر . ولكن تابع الوفد جهاده ضد بريطانيا ، حتى فشلت محاولات التفاوض معها واضطرت وزارة عدلى باشا التى كانت تتولى تلك المفاوضات اذ ذاك إلى الاستقالة فى ديسمبر ١٩٢٠ ، وهو الأمر الذى دفع انجلترا إلى ان تنفى سعد زغلول مرة أخرى ومعه كبار أنصاره إلى جزيرة « سيسل » التابعة لبريطانيا فى المحيط الهندى . وتوالت الأحداث سريعاً مرة أخرى بما دفع انجلترا إلى اعادة سعد زغلول إلى البلاد ، حيث تابع الوفد جهاده ضد أساليب انجلترا حتى توفى هذا الزعيم الكبير فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ .



تمثال سعد زغلول (بالجزيرة) .

وحمل لواء الجهاد فى مصر بعد سعد زغلول الزعيم مصطفى النحاس . ولكن الأحداث تطورت سريعاً فى البلاد ، وخاصه بعد وفاة الملك فؤاد فى ابريل سنة ١٩٣٦ ، وتولى ابنه الملك فاروق العرش . اذا اشتدت المتاعب الداخلية ، مع سوء الادارة حيث ظهر أخطر نماذجها وأشدها ايلاما للنفوس ، فى مجريات الحملة المصرية لانقاذ فلسطين من براثن الاستعمار والصهيونية ؛ وذلك فى مايو سنة ١٩٤٨ ، وهو الأمر الذى أثار ما يعرف إلى اليوم باسم « القضية الفلسطينية »

القضية الفلسطينية :

بدأت معالم القضية الفلسطينية وأحداثها تتكون مع مقدمات ثورة ١٩١٩ ، وغدت بالتالى عنصرا رئيسياً من عناصر مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . وبدأت معالم تلك القضية تظهر عياناً حين أصدرت بريطانيا قبل قيام ثورة ١٩١٩ بعامين التصريح المشهور الذى أطلق عليه « وعد بلفور » فى نوفمبر ١٩١٧ ، وهو وعد يقضى بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، مع مراعاه حقوق السكان الأصليين بالبلاد وهم العرب فى الشئون المدنية والدينية .

وساعد انجلترا على تنفيذ هذا الوعد المشئوم أنها صارت بعد انتهاء الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٨ صاحبة الانتداب على فلسطين ، إلى جانب طغيانها فى مواجهة ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ . وعمدت انجلترا إلى انتهاز تلك الثورة وانشغال المصريين بها والعمل سريعا على وضع وعدها لليهود موضع التنفيذ العملى . ولجأت انجلترا فى ذلك إلى اسلوب الاستعمار الاستيطانى وخططه التى تقوم على تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وشراء اليهود لأراضى العرب بتلك البلاد .

وكانت انجلترا تستغل انتدابها على فلسطين لتحقيق الهجرة اليهودية التى نادى بها زعماء الصهيونية منذ احتلال انجلترا لمصر سنة ١٨٨٢ . فقد زار نفر من زعماء الصهيونية فلسطين ، ثم وضعوا المؤلفات التى زيفوا فيها الحقائق بما يجعلهم أصحاب حق مزعوم فى فلسطين . وكان من أخطر تلك المؤلفات التى وضعها أحد دعاة

الصهيونية وهو موسى هيس الذى دون تاريخ اليهود مع الأمبراطورية الرومانية وملأ كتاباته بالدعوة إلى إقامة اليهود فى فلسطين . ثم رسم معالم شراء الارض لليهود فى فلسطين وبناء مستوطنات لهم بها الداعية الصهيونى هرتسل ، الذى نادى سنة ١٨٩٦ أى بعد الاحتلال البريطانى لمصر بأربعة عشر عاماً بأن يقوم اليهود بهجرة واسعة إلى فلسطين ، ثم عزز دعوتة فى المؤتمر الصهيونى الذى انعقد فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ بالعمل على اكتساب الحكومات المختلفة ، ومنها بريطانيا إلى جانب تحقيق الاستعمار الاستيطانى لليهود فى فلسطين ، واستقرارهم فى أراضيها كمزارعين وصناع وتجار .

وغدت انجلترا مركز تمويل وتشجيع للهجرة اليهودية إلى فلسطين كما اتبعت طوال انتدابها على فلسطين سياسة تشريد أهلها ليحل محلهم اليهود حتى بلغ عدد المستعمرات اليهودية فى فلسطين سنة ١٩٢٠ حوالى ٢٢٠ مستعمرة . وبدأت بعد ذلك الخطوات النهائية ليحقق الاستعمار البريطانى أهدافه من قيام الهجرة اليهودية فى فلسطين . ذلك أن عرب فلسطين بادروا بالثورة ضد هذه السياسة الاستعمارية دفاعا عن بلادهم وقوميتهم العربية . ففى سنة ١٩٤٧ قررت هيئة الأمم تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، على حين قررت انجلترا انهاء انتدابها على فلسطين فى مايو ١٩٤٨ ، بعد أن مهدت لذلك بمذبحة دير ياسين التى وقعت فى الشهر السابق مباشرة لانهاء انتدابها ، وذلك فى أبريل سنة ١٩٤٨ ، وصار الجو ممهدا أمام بريطانيا لدفع اليهود فى فلسطين إلى اعلان دولتهم اسرائيل .

وظهرت خطورة هذا السوط الاستعمارى الجديد ، حين ترتب على قيام اسرائيل تشريد ما يقرب من مليون عربى من فلسطين صاروا لاجئين فى البلاد العربية المجاورة فضلا عن وجود ٣٠٠٫٠٠٠ عربى داخل فلسطين المحتلة .



مسجد الرفاعى

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢
وقيادتها لحركة التحرر العربى
والصحوة الاسلامية المعاصرة

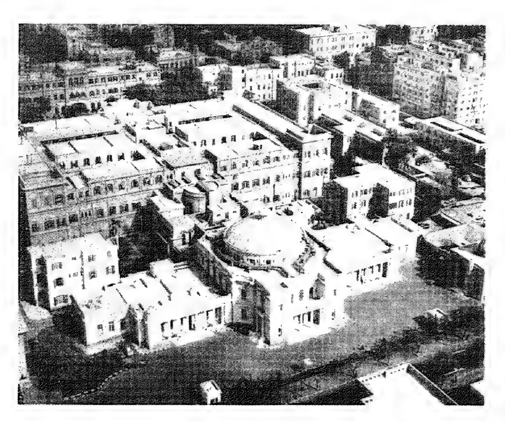
جاءت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وقيادتها لمسيرة حركة التحرر العربى ، وكذلك للصحوة الاسلامية المعاصرة موجة عظمى من موجات العطاء الحضارى المتجدد الذى دأبت مصر على تقديمه منذ أشرقت أرضها بنور الاسلام وإلى اليوم . وقد أصلت هذه الثورة جذورها حين أنجبت مصر فى هذه المرحلة من مقدمات ثورة ٢٣ يوليو القائد جمال عبد الناصر الذى نال من الاعداد وشاهد من الأحداث ما جعله خبيرا بأحوال وطنه مصر ، وكذلك أمته العربية .

وجاء الارتباط بين جمال عبد الناصر وبين أحداث وطنه مصر وأمته العربية منذ ولادته . فقد ولد فى الخامس عشر من شهر يناير سنة١٩١٨ ، أى قبل عام واحد من ثورة ١٩١٩ ، وبعد عام واحد من وعد بلفور الذى سدد باعطاء فلسطين وطنا لليهود خنجرا خطيرا إلى قلب الأمة العربية . وبذلك شب جمال عبد الناصر وهو يسمع صرخات المصريين وهى تنادى فى ثورة ١٩١٩ باستقلال مصر وحريتها ، وتردد فى نفس الوقت النداء بالحفاظ على عروبة فلسطين ضد التسلل الصهيونى وما صاحبه من استعمار استيطانى .

وعبر جمال عبد الناصر عن هذه المرحلة من مقدمات ثورة ٢٣يولية قائلا : وأنا أذكر فيما يتعلق بنفس أن طلائع الوعى العربى بدأت تتسلل إلى تفكيرى وأنا طالب فى المدرسة الثانوية ، أخرج مع زملائى فى اضراب عام ، فى الثانى من شهر ديسمبر من كل سنة احتجاجا على وعد بلفور الذى منحته بريطانيا لليهود ومنحهم وطنا قوميا فى فلسطين اغتصبته ظلما من أصحابه الشرعيين ... وحين كنت أسائل نفسى فى ذلك الوقت كلما أخرج فى حماسة ، ولماذا أغضب لهذه الأرض التى لم أرها ؟ لم أجد فى نفسى سوى أصداء العاطفة .

وتشاء الأقدار أن يخبر جمال عبد الناصر أحداث مقدمات ثورة ٢٣ يوليو بنفسه بعد يومين من تخرجه من الكلية الحربية فى ١٢ مايو سنة ١٩٤٨ ، اذ بعد يومين من تخرجه أعلنت انجلترا انهاء انتدابها من فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وقيامه بالاشتراك فى الجيش المصرى الذى اتجه لتحرير فلسطين مع باقى الجيوش العربية . وخرج من تلك التجربة بدراسات ودروس أوقفته على المتاعب الحقيقية لوطنه مصر وأمته العربية ، ومن ثم كوّن جماعة الضباط الأحرار بالجيش المصرى ، واستطاع بتوفيق الله أن يعلن فى ٢٣ يوليو ثورة مصر سنة ١٩٥٢ ، وما تلاها من تنازل الملك فاروق عن عرش مصر فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ثم اعلان الجمهورية فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ .

وأخذت ثورة ٢٣ يوليو تسير فى خطين متوازيين ، أحدهما اصلاح أحوال الوطن فى مصر ، سياسيا واجتماعيا واقتصادياً وعمرانياً أيضاً ، وذلك على نحو ما شهدته البلاد من حياة ديمقراطية حافلة تحت قبة البرلمان ، ومن نهضة علمية تركزت فى



مجلس الشعب .

الجامعات وعلى رأسها جامعة القاهرة ، وحسن رعاية للشباب وتوفير المؤسسات الرياضية له؛ هذا مع السير فى الخط الآخر فى نفس الوقت وهو حماية الأمة العربية

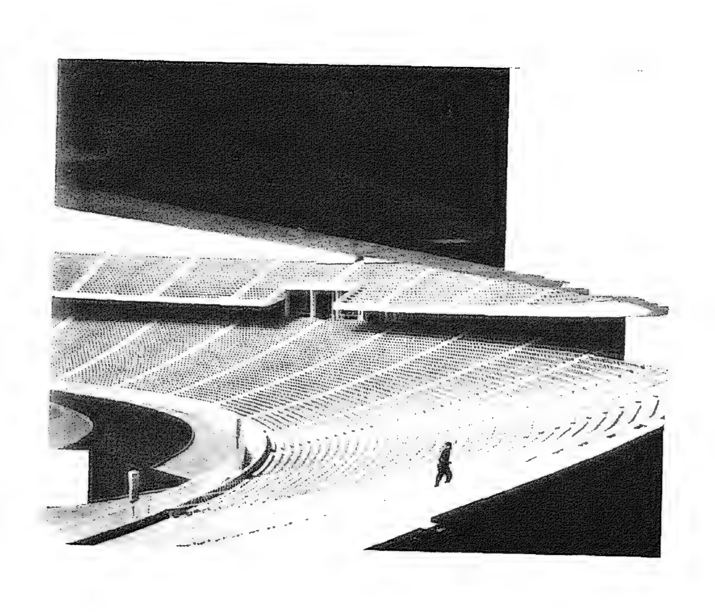


جامعة القاهرة .





ملعب الشعب الرياضي



من أخطار الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين ، الذى أخذ يستشرى بعد قيام اسرائيل . وتلافت بذلك ثورة ٢٣ يوليو الخطأ الذى وقع فيه قيادات ثورة ١٩١٩ التى لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء ، وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أنه ليس هناك تصادم على الاطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية . لقد فشلت هذه القيادات فى أن تتعلم من التاريخ ، وفشلت أيضاً فى أن تتعلم من عدوها الذى تحاربه والذى كان يعامل الأمة العربية كلها على اختلاف شعوبها طبقاً لمخطط واحد . ومن هذا فان قيادات الثورة لم تتنبه إلى خطورة وعد بلفور الذى أنشأ اسرائيل لتكون فاصلا يمزق امتداد الأرض العربية وقاعدة لتهديدها . وبهذا الفشل فان النضال العربى فى ساعة من أخطر ساعات الأزمة حرم من طاقة الثورة المصرية ، وتمكنت القوى الاستعمارية من أن تتعامل مع أمه عربية ممزقة الأوصال مفتتة الجهد .

وانطلقت ثورة ٢٣ يوليو فى نضالها ، متجنبة معاثر ثورة سنة ١٩١٩ ، وسارت فى حماية حقوق مصر والأمة العربية جنباً إلى جنب ، دون أن تأبه بتهديد الاستعمار وحليفته اسرائيل . وتجلى ذلك حين أعلنت مصر تأميم قناة السويس ، وهو مطلب وطنى مصرى ، يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ ، اذ بادر الاستعمار بتدبير العدوان الثلاثى من انجلترا وفرنسا واسرائيل على مصر فى يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، وهو العدوان الذى هب الشعب المصرى للتصدى له ليس دفاعاً عن نفسه فحسب ، بل دفاعاً أيضاً عن أمته العربية . هذا إلى أن الأمة العربية بادرت بمساندة مصر ، وأوقفت ضخ البترول ، مما حقق النصر لمصر والأمة العربية بانسحاب القوى المعتدية الثلاث فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

وتأكد تحالف الاستعمار مع اسرائيل مرة أخرى ضد ثورة ٢٣ يوليو ، لمساندتها للأمة العربية فى نضالها من أجل حريتها ، وذلك يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ حين قامت اسرائيل بهجوم غادر على أرض الكنانة ، كاشفة عن أطماعها فى الامتداد من النيل إلى الفرات . وتوفى جمال عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦٩ تاركا لمصر والأمة

العربية رصيداً هائلا من الثقة بالنفس لا تزعزعة أمثال تلك الأعمال العدوانية من جانب الاستعمار واسرائيل .

حرب اكتوبر (رمضان) ١٩٧٣

خلف جمال عبد الناصر الرئيس محمد أنور السادات بعزم مصرى أصيل ليؤكد عطاء مصر الحضارى للأمة العربية وللعالم أجمع مرة أخرى . اذ وضع خطة ، فى صمت وحسن اعداد مع أهل العلم والحرب ، وكذلك مع الأخوة فى بلاد الشام (سوريا) ليقضى على أسطورة القوة الخارقة لاسرائيل ، وتفوقها الكاذب . وفى السادس من اكتوبر (رمضان) سنة ١٩٧٣ اقتحم أسود مصر من أبناء جيشها البواسل قناة السويس وبددوا فى ساعات قليلة ما أنفقت اسرائيل فيه السنوات الطويلة من اقامة خط برليف وساتر ترابى ، واستحكامات لا حد لها ولامكانياتها للحيلولة بين أى هجوم مصرى عليها . وارتفع صوت الجنود المصريين مكبرين « الله أكبر » ، مرددين صيحة النصر التى أطلقتها الجيوش الاسلامية والمصرية على امتداد معاركها الحاسمة فى التاريخ . وفى نفس الوقت كانت قوات الجيش السورى تكتسح أمامها القوات الاسرائيلية ، مما عزز النصر المصرى ، الذى جعل من نصر أكتوبر تعزيزاً لرسالة مصر ، فى التضامن العربى ، وبناء قوة تحمى العروبة وأهلها من خطر الاستعمار الاستيطانى ، الجاثم باليهود فى فلسطين . وغدت حرب اكتوبر علامة مضيئة على مسيرة مصر الاسلامية ورسالتها التى جعلت منها منارة تشع بالاسلام دائماً وأبدا النور والهدى ، مع الأمن والطمأنينة والسلام .

الأبعاد المعاصرة لثورة ٢٣ يوليو :

وحدد مسيرة مصر الاسلامية ، فى ضوء رسالتها « منارة الاسلام فى العصر الحديث » ، الخطاب الذى ألقاه الرئيس محمد حسنى مبارك ، رئيس جمهورية مصر العربية يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٩١ ، وهو العيد التاسع والثلاثين لثورة « يوليو ١٩٥٢ » ، موضحاً الأفاق الواسعة التالية التى امتدت اليها « منارة مصر الاسلامية » .

أولا : قامت الثورة لكى تعيد لأرض الكنانة وجهها الوطنى الأصيل الذى يرفض الخضوع للاستعمار والاستبداد ويأبى الرضوخ للاستعمار أيا كان مصدره .

ثانياً : كانت الثورة التى قادها جمال عبد الناصر فى يوليو عام ١٩٥٢ امتدادا لمسيرة نضالية حافلة خاضها الشعب فى المراحل المختلفة للحركة الوطنية فى العصر الحديث ، اضطلع فيها الرعيل الأول من المجاهدين المصريين بدور كبير ، برزت فيه أسماء عمر مكرم وأحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ومصطفى النحاس وآلاف غيرهم من المناضلين الشرفاء الذين وضعوا المصالح العليا للوطن فوق كل اعتبار ورافقوهم على درب الكفاح .

ثالثاً : لم تكن الثورة مغامرة محلية ضيقة الأهداف والغايات وانما كانت فى جوهرها تجربة انسانية عميقة انطلقت من رؤيه واعية للأوضاع الاقليمية والدولية القائمة ولنضال الشعوب المختلفة فى مشارق الأرض ومغاربها فى سبيل حياة أفضل . فكان طبيعياً أن تنظر شعوب العالم الثالث فى مختلف القارات إلى هذه الثورة باعتبارها الثورة الأم الرائدة التى لا سبيل إلى اغفالها أو تجاهل انعكاساتها فى كل شبر من بقاع هذه الأرض .

رابعاً : وبهذه الرؤية الواضحة والقدرة الفذة على الامتداد إلى ما وراء الحدود السياسية والجغرافية أسهمت الثورة المصرية فى تحرير بعض الأقطار العربية والدول الافريقية والأسيوية من براثن الاستعمار وقدمت لشعوب هذه البلدان نموذجاً مشرفا للحركة الوطنية القادرة على التجاوب مع آمال الجماهير ، فى نفس الوقت تتفاعل فيه مع

حقائق العصر وتأخذ بعين الاعتبار الأوضاع الدولية التى تؤثر على مسيرة العمل الوطنى .

خامساً : ولعل من المناسب فى هذا المقام أن نتوقف معا وبصفة خاصة أمام انجازات هائلة ذات مغزى تاريخى عميق حققها الشعب المصرى بالتلاحم مع قواته المسلحة على طريق التحرر الوطنى فى المراحل المختلفة التى مرت بها البلاد منذ قامت الثورة وحتى اليوم :

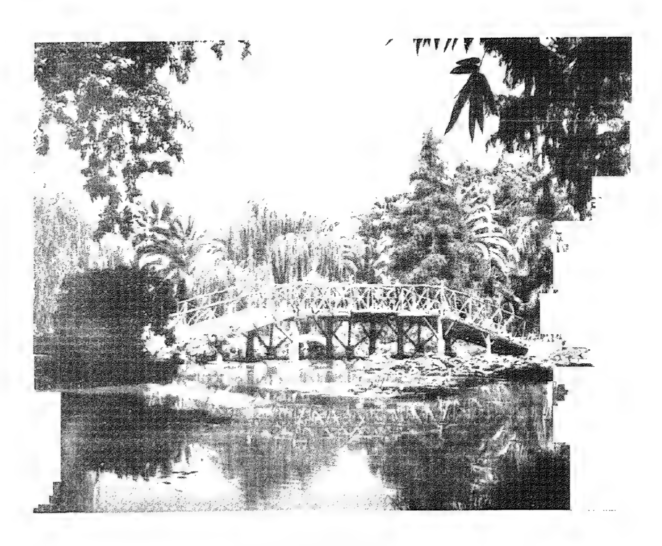
١ ــ تحقيق الجلاء التام للقوات الأجنبية عن الأراضى المصرية فى يوليو عام ١٩٥٥ ...

٢ ــ رفض الأحلاف الأجنبية ... وتخليص المنطقه العربية كلها من المحاولات الرامية إلى عودة النفوذ الاستعمارى اليها فى قالب جديد وتحت مسميات مستحدثة .

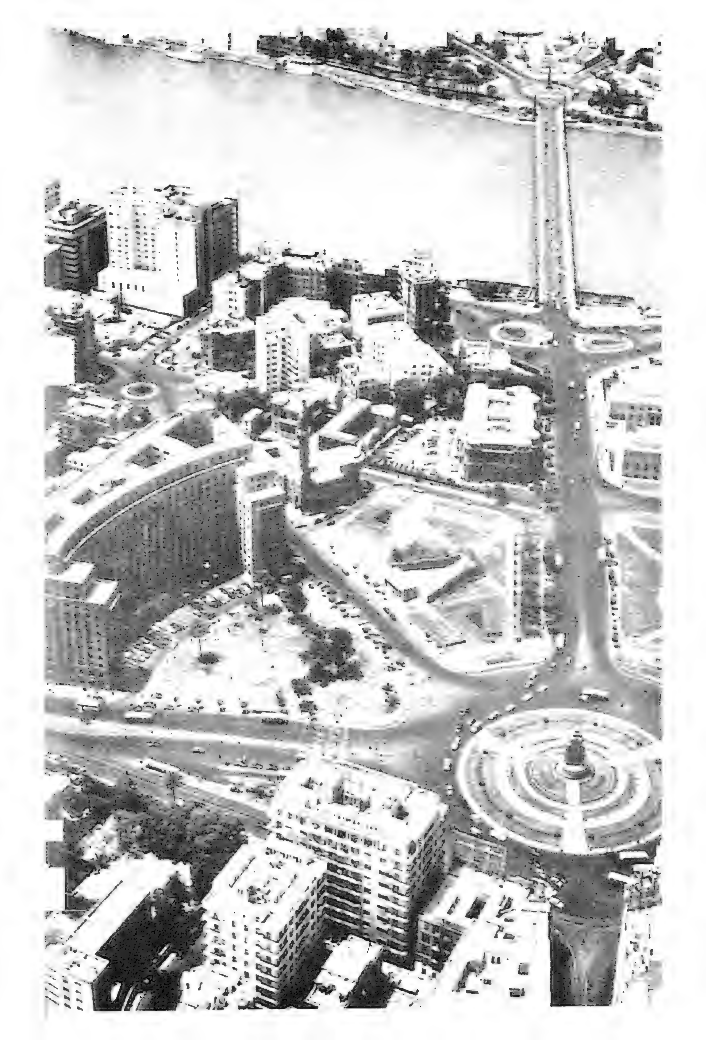
٣ ــ تحقيق نصر اكتوبر المبين تحت قيادة الرئيس الراحل محمد أنور السادات . ذلك النصر الذى حطم خرافات التفوق الاسرائيلى وأعاد للأمة العربية كرامتها ، وفتح الطريق أمام تسوية عادلة شاملة لمشكلة الشرق الأوسط والنزاع العربى الاسرائيلى .

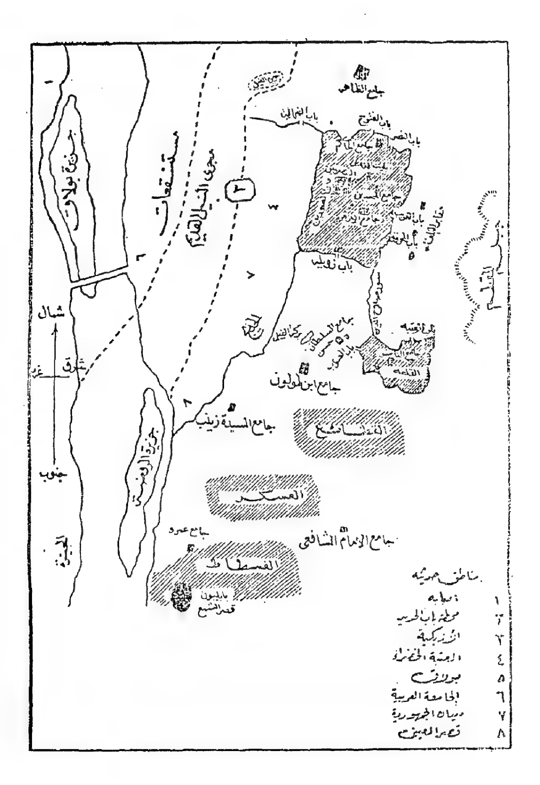
٤ ــ تحقيق الانسحاب الاسرائيلى الكامل من سيناء فى أبريل ١٩٨٢ وتخليص البلاد نهائياً من كافة آثار الاحتلال الأجنبى وتصفية كل تهديد لسلامة التراب الوطنى والسيادة القومية .

٥ ــ الاسهام فى ردع العدوان الذى تعرضت له الأقطار العربية الشقيقة فى الخليج والاشتراك الفعال فى التصدى لوضع كان من شأنه أن يضرب الأمن القومى العربى فى الصميم ويصيب التضامن العربى فى مقتل .



حدائق الأورمان (بالجيزة)





مواقع عواصم مصر الاسلامية وأهم معالم القاهرة اليوم .

التحرير (بالقاهرة) .

هوامش الفصل الأول

(١) دارت أحداث صلح الحديبية حول خروج الرسول الكريم إلى مكة معتمرا ، ومعه عدد من صحابته وذلك فى السنة السادسة للهجرة . ورأت قريش أن دخول الرسول الكريم ومعه صحابته إلى مكة على أية صورة من الصور ، يعنى انتصارا للمسلمين عليها . ولذا صممت قريش على منع الرسول وصحبه من دخول مكة ، حيث وصل عليه الصلاة والسلام اذ ذاك إلى مكان اسمه الحديبية ، على بعد عدة أميال من مكة . ودارت مفاوضات بين الطرفين ، اشتهرت باسم صلح الحديبية ، وكان من أهم شروطه ما يلى :

١ ــ عقد هدنة مدتها عشر سنوات بين الطرفين .

٢ ــ من أراد من القبائل العربية أن يدخل فى عهد قريش أو فى عهد محمد فله ذلك .

٣ ــ ألا يقوم المسلمون بالعمرة فى هذا العام ، وانما يؤدونها فى العام التالى ولمدة ثلاثة أيام يتم فيها اخلاء البلدة لهم .

وجاءت هذه الشروط الأساسية كسبا كبيرا للمسلمين ، برغم السخط الذى استبد بنفر منهم بشأنها . فقد أتاح صلح الحديبية للمسلمين مكانة عظمى فى بلاد العرب ، اذ اعترفت قريش بهم ، فضلا عن أن السلم الذى أعقبها أتاح للرسول الكريم الفرصة لتبليغ الدعوة إلى خارج بلاد العرب . ونزلت بعد الحديبية سورة الفتح فى قوله تعالى : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » ، وشرح كثير من مفسرى القرآن الكريم هذه الآية بأن المقصود بكلمة « الفتح » هو الانتصارات العظمى التى جاءت فى أعقابه ونتيجة له كذلك .

(٢) بعث الرسول الكريم بالسفارات التالية إلى زعماء وملوك العالم :

ــ سفارة حاطب بن أبى بلتعة ووجهته المقوقس عظيم القبط بمصر .

ــ سفارة دحية بن خليفة الكلبى ووجهته هرقل امبراطور الروم .

ــ سفارة عبد الله بن حذافة السهمى ووجهته كسرى فارس .

ــ سفارة عمرو بن أمية الضمرى ووجهته نجاشى الحبشة .

ــ سفارة عمرو بن العاص السهمى ووجهته ملكى عمان .

ــ سفارة سليط بن عمرو ووجهته ملكى اليمامة .

ــ سفارة العلاء بن الحضرمى ووجهته ملك البحرين .

ــ سفارة شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث الغسانى ملك تخوم الشام .

ــ سفارة المهاجر بن أمية المخزومى إلى الحارث الحميرى ملك اليمن .

(٣) وردت كلمة « القبط » فى بعض المصادر بكلمة « الأريسيين » ، حيث تتفق تلك المصادر فى ذكر رواية كتاب النبى إلى كل من هرقل والمقوقس نصا وحرفا . ويرجح أن كلمة الأريسيين تعنى أهل البلاد « الأريوسيين » وهو مذهبهم الدينى ، نسبة إلى أحد رجال الدين واسمه آريوس ، وأنهم كانوا يختلفون بذلك عن العقيدة الرسمية للامبراطور هرقل وعماله فى مصر .

(٤) كانت قرية حفن من مدن مصر الفرعونية تعرف باسم (هيبنو) ، وهى التى حرفها العرب إلى اسم حفن ، ويوجد مكانها الآن أطلال بلدة هبيو التى تقع بحوض الكوم الأحمر شرقى النيل بأراضى ناحية المطاهرة البحرية بمركز المنيا بمحافظة المنيا .

(٥) **بعث أبو بكر لفتح الشام بأربعة جيوش ، على أحدها أبو عبيدة ابن الجراح ووجهته حمص وأن يتخذ من الجابية ، وهى مرتفعات الجولان الحالية ، مركزا لقيادته ، ويزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين .**

(٦) توجد بقايا هذا الحصن الآن فى مصر القديمة بجوار كنيسة مار جرجس . وتعددت روايات المؤرخين القدامى والمحدثين فى تأسيسه واسمه أيضا . فذكر القدامى أن بناء هذا الحصن يرجع إلى بختنصر حين فتح مصر فى القرن السادس قبل الميلاد ، وسماه باسم عاصمة ملكه « بابل » . وروى حنا النقيوسى أن الامبراطور الرومانى تراجان جدد بناء هذا الحصن فى العام المتمم للمائة من الميلاد ، وظل ذلك الحصن بهيئته الرومانية قائما حتى الفتح العربى لمصر . وتقرر الدراسات الحديثة التى دارت حول هذا الحصن أنه ينسب إلى مدينة بابليون التى خلفت مدينة منف ، عاصمة مصر الفرعونية ، وان لفظ بابليون هو الصيغة اليونانية للاسم المصرى القديم لتلك المدينة وهو « بى ــ حابى ــ أون » أى مدينة أون النبيلة . وظل الحصن ينسب إلى تلك المدينة باعتباره أهم معاقلها ، وغدا يطلق عليه فى اللغة القبطية « بابليون ــ آن ــ خيمى » ومعناه بابليون مصر . وهذه التسمية الأخيرة هى التى التقى بها العرب المسلمون حين فتحوا مصر ، وحرفوها إلى كلمة بابليون .

(٧) كان الرمان يحرمون على المصريين الحقوق المدنية الرومانية Civitas Romana التى كانت تضفى على أصحابها امتيازات كثيرة مادية وأدبية ، مثل الاعفاء من أداء ضرائب معينة ، والاشتراك فى مجالس المدن « السناتو » . فقد كان المصريون محرومين من هذه الحقوق ، وصاروا يعيشون عيشة منعزلة عن المرافق التى تشرف على ادارة البلاد ، ويقع عليهم كل الغرم والغنم . وتابع البيزنطيون سياسة أسلافهم الرومان فى معاملة المصريين وإقصائهم عن تولى مناصب الدولة وادارتها ، وابقائهم طبقة للاستغلال المادى بأقسى صور الاستغلال .

(٨) البرذون : الدابة .

(٩) كان عمر بن الخطاب يراقب مظهر عماله وولاته حين يفدون عليه من أمصارهم ، ويرى بنفسه مدى تمسكهم بتعاليمه أو انحرافهم عنها . ومن ذلك ما فعله بعمرو بن العاص والى مصر ، اذ وفدعليه مرة ، وكان قد تأثر بطيب الحياة فى مصر وصبغ شعر رأسه بالخضاب . ولما دخل على عمر بن الخطاب أنكر عليه ذلك ، وقال له : من أنت ؟ فقال : أنا عمرو ابن العاص . فقال عمر : عهدى بك شيخا ، وانت الآن شاب . عزمت عليك الا ما خرجت فغسلت هذا » .

والحادثة الأخرى التى راقب فيها عمر بن الخطاب عماله رواها ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد : وهى « أن عمرو بن العاص دخل على عمر بن الخطاب وهو على مائدته جاثيا على ركبته وأصحابه كلهم على تلك الحال ، وليس فى الحفنة فضل لأحد يجلس ، فسلم عمرو على عمر فرد عليه السلام ، ثم قال : عمرو بن العاص : قال نعم . فأدخل عمر يده فى الثريد وملأها ثريدا ، وناولها عمرو بن العاص . فجلس عمرو ، وجعل الثريد فى يده اليسرى ، وأكل باليمنى ، ووفد أهل مصر ينظرون اليه . فلما خرجوا قال الوفد لعمرو : أى شئ صنعت . فقال عمرو : انه والله فقد علم أنى بما قدمت به من مصر لغنى عن الثريد الذى ناولنى ، ولكنه أراد أن يختبرنى ، فلو لم أقبلها لقيت منه شرا » . أنظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(١٠) يرتبط بارسال الخراج من مصر إلى الحجاز حفر « خليج أمير المؤمنين » ، وهى القناة النيلية التى تصل البحر الأحمر بالنيل شمال مدينة منف القديمة (الفسطاط فيما بعد) ، وهو المكان الذى كان يتفرع عنده النيل إلى فرعين . وكانت هذه القناة منذ حفرها قديما زمن الفراعنة تتعرض للأهمال ، مما اقتضى اعادة حفرها أو تطهيرها . وبعد فتح مصر اشتدت الحاجة إلى تطهير هذه القناة واستخدامها للملاحة بسبب ازدياد الروابط بين مصر الإسلامية وعاصمة الدولة الإسلامية فى الحجاز .

وكان عمر بن الخطاب هو الذى أمر عمرو بن العاص بحفر هذه القناة ، ومن ثم نسبت اليه وصارت تعرف باسم « خليج أمير المؤمنين » . وتم تطهير القناة فى أقل من سنة مما يدل على أن معالمها كانت واضحة برغم طمرها بالرمال . وجرت السفن فيها محملة بالغلال من مصر إلى الحجاز ، وبعثت الرخاء فى أهل تلك البلاد ، التى كانت تعانى اذ ذاك من مجاعة شديدة .

هوامش الفصل الثانى

(١) اشترك من أهل مصر فى الثورة على عثمان ستمائة رجل ، بعث بهم إلى المدينة ابن أبى حذيفة ، تحت قيادة عبد الرحمن بن عديس البلوى . وعادت هذه الجماعة بعد مصرع الخليفة سنة ٣٥هـ .

(٢) كان معاوية قد استطاع قبل وقعة صفين بينه وبين على بن أبى طالب أن يضم إليه عددا كبيرا من دعاة العرب لمساعدته كان من بينهم عمرو بن العاص ، برغم أن الخليفة عثمان بن عفان سبق أن عزله عن ولاية مصر بعد استردادها من الروم . إذ عرف عمرو كيف يثير مطامع معاوية ويغريه بأن تحقيقها رهن بانضمامه إلى البيت الأموى . وكان من أهم ما تطلع إليه عمرو بن العاص هو الحصول على ولاية مصر .

(٣) يبدأ التاريخ السياسى للشيعة بذلك النفر من كبار الصحابة الذى رأى عند اجتماع سقيفة بنى ساعدة وبعدها أن على ابن أبى طالب أحق الناس بالخلافة بعد رسول الله ، لقرابته من بيت النبوة ولأنه زوج ابنته فاطمة ، فضلا عن سبقة فى الإسلام وجهاده فى سبيله . واشتهر من هذا النفر أبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى والعباس وبنوه . وانتشر التشيع فى المرحلة الأولى من مراحل تطور الدولة الإسلامية فى بلاد العراق التى ارتبط بها بيت على بن أبى طالب منذ خرج اليها لمحاربة طلحة والزبير واتخاذه الكوفة بتلك البلاد عاصمة له .

(٤) وغدت هذه الحادثة بذور التشيع لآل على بن أبى طالب ، وتكوين فرقة الشيعة نفسها . وكان من أهم مظاهر هذا التطور هو التجاء زعماء الشيعة بعد مقتل الحسين إلى اخفاء أشخاصهم ، واتباع الدعوة السرية حتى لا يتمكن الأمويون من القضاء عليهم .

(٥) يقصد الخليفة من وراء قوله، منح عماله الحرية فى تصريف أمورهم .

(٦) دأب ولاة الأمويين على إلقاء خطب عديدة طوال مدة عملهم ، صارت بمثابة إعلان عن منهجهم فى الحكم ، وعبارة عن قرارات إدارية ، يتم إحاطة الناس بها علماً عن طريق الإجتماع العام الذى ينعقد فى الجامع غالباً للإستماع لتلك الخطب .

(٧) ظلت مصر تكون عنصراً هاماً من عناصر الحياة السياسية للدولة الإسلامية ، وتسهم فى نشاط تلك الحياة . فعندما أعلن عبد الله بن الزبير الثورة على الأمويين إنضم إليه الخوارج فى مصر ، وخرجوا إليه فى الحجاز على رأس وفد من الناس وطلبوا منه إرسال وال من قبله على البلاد . واستجاب لهم ابن الزبير نظراً لأهمية مصر ومكانتها ، وبعث معهم بأحد رجاله وهو عبد الرحمن بن جحدم الفهرى سنة ٦٤هـ ليكون والياً على مصر . ولكن ما كاد الأمر فى الخلافة يستتب لمروان بن الحكم حتى أعد جيشاً كبيراً ، سار على رأسه بنفسه ومعه ابنه عبد العزيز بن مروان إلى مصر . وقد أحاط بن جحدم الفسطاط بخندق حفره سريعاً للدفاع عن سلطانه . ولكن لم تجد تلك المحاولات نفعاً أمام قوة الأمويين وإصرارهم على استرداد مصر من ناحية ولتقاعس ابن الزبير كعادته عن مدّ يد المساعدة لرجاله خارج الحجاز .

(٨) اشتهرت مصر من قبل الإسلام وفى صدر الإسلام أيضاً بصناعة الورق من نبات البردى ، الذى كان ينمو بكثرة فى الفيوم وفى مستنقعات الدلتا . واحتكرت مصر هذه الصناعة ، وتحكمت فى تصديره إلى خارج ديارها أيضاً . واستخدمت الدواوين فى مصر أوراق البردى فى سجلاتها ، حيث بدأ الاهتمام فى أوائل القرن التاسع عشر (حوالى سنة ١٨٢٤) بدراسة تلك الأورق ، عقب اكتشاف بعضها فى منطقة الفيوم .

وكان أهم مجموعة اكتشفت من أوراق البردى ترجع إلى سنة ١٩٠١ ، حيث تم العثور عليها فى قرية كوم اشقاو التى اشتهرت فى العصر اليونانى لمصر باسم أفروديتو .

واشتملت هذه الوثائق البردية على دراسة قيمة للادارة العربية الإسلامية فى مصر على عهد الوالى الأموى قرة ابن شريك (٩٠ ــ ٩٦هـ / ٧٠٩ ــ ٧١٥م) .

(٩) ومن نماذج شدة الرقابة المالية على عهد قرة بن شريك ، الرسالة التالية التى بعث بها إلى حاكم كوم اشقاو :

« بسم الله الرحمن الرحيم » .

« من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقاو ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن القاسم بن سيار صاحب البريد ذكر لى أنك أخذت نفراً فى أرضك بالذى عليهم من الجزية .

(أى فرضت عليهم غرامة) . فإذا جاءك كتابى هذا فلا تعترض أحداً منهم فى شئ حتى أحدث إليك فيهم إن شاء الله، والسلام على من اتبع الهدى » .

أنظر : Grohman, Arabic Papyri (Cairo, 1952). P. 28,pp.

هوامش الفصل الثالث

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢) سورة المائدة : ٤ .

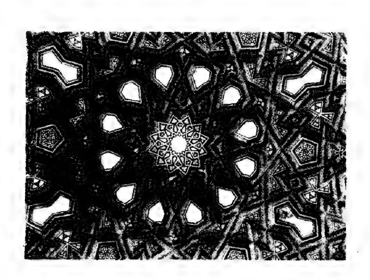
(٣) سورة الحج : ١٧ .

هوامش الفصل الرابع

(١) أكتيوم اسم قديم لاحدى الرؤوس الأرضية الممتدة من شمال اليونان فى البحر . واشتهرت هذه البقة لأنه دار بالقرب من مياهها رحى معركة بحرية هامة سنة ٣١ قبل الميلاد بين أساطيل البطالمة حكام مصر ، والقائد الرومانى أوكتافيوس . وكانت أهمية هذه المعركة ترجع الى أنها جلبت النصر للرومان ، وقضت على البطالمة الذين كانوا آخر قوة تنافس الرومان على سيادة البحر المتوسط . اذ تلى هذه المعركة سقوط مصر فى ايدى الرومان وأصبح البحر المتوسط تابعا كله لهم وآلت سيادة هذا البحر الى الامبراطورية البيزنطية عندما ورثت ما تبقى للدولة الرومانية من بلاد على هذا البحر .

(٢) معركة النيل حدثت سنة ١٧٩٨م ، عندما فاجأ نلسن أمير البحر البريطانى أسطول نابليون فى مياه أبى قير البحرية وحطمه . وكان لهذه حادثة أثر كبير فى مصائر الشرق والبحر المتوسط ، اذ آذنت بفشل حملة نابليون على مصر وفتحت باب النفوذ البريطانى فى البحر المتوسط .

(٣) أصبحت الأساطيل الاسلامية تبدأ بالهجوم ، وتدفع أمامها سفن البيزنطيين ، ومهدت الطريق لعظمة المسلمين البحرية فيما بعد على بلاد البحر المتوسط . وقد أشاد ابن خلدون بنشاط الأمويين البحرى وما افادته الدولة الاسلامية فيما بعد من جهادهم واغارتهم على اعدائهم ، حتى أن « أساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا ، واختلفت فى طرقه سلما وحربا ، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح » .



الفهـــــرس

سلسلة الثقافة الأثرية
مشروع المائة كتاب
صدر منها

١ ــ المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية
تأليف : د. أحمد قدرى
ترجمة : مختار السويفى ــ محمد العزب موسى
مراجعة : د. محمد جمال الدين مختار

٢ ــ تراثنا القومى بين التحدى والاستجابة
منجزات ١٩٨٢ ــ ١٩٨٥
اعداد وصياغة
د. أحمد قدرى
عاطف عبد الحميد
آمال صفوت

٣ ــ الشرطة والأمن الداخلى فى مصر القديمة
تأليف : د. بهاء الدين ابراهيم محمود
مراجعة : د. محمود ماهر

٤ ــ الايجازات والتوقيعات المخطوطة فى العلوم النقلية والعقلية
من القرن ٤هـ / ١٠م الى ١٠هـ / ١٦م
تحقيق ونشر : د. أحمد رمضان أحمد

٥ ــ لمحات فى تاريخ العمارة المصرية
تأليف : د. كمال الدين سامح

٦ ــ **الديانة المصرية القديمة**

تأليف : ياروسلاف تشرنى

ترجمة : د. أحمد قدرى

مراجعة : د. محمود ماهر

٧ ــ **تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط « العصر الوسيط »**

(٣٥هـ / ٦٥٥م ــ ٩٧٨هـ / ١٥٧١م)

تأليف : د. أحمد رمضان أحمد

٨ ــ **فن الرسم عند قدماء المصريين**

تأليف : وليم هـ بيك

ترجمة : مختار السويفى

مراجعة : د. أحمد قدرى

٩ ــ **نصوص الشرق الأدنى القديمة**

ترجمة : د. عبد الحميد زايد .

مراجعة : محمد جمال الدين مختار

١٠ ــ **الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة فى مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة**

تأليف : أبى حامد المقدسى الشافعى

تحقيق : د. آمال العمرى

١١ ــ **دراسات فى العمارة والفنون القبطية**

تأليف : د. مصطفى عبد الله شيحة

١٢ ــ **إيمحتب**

تأليف : هارى

ترجمة : محمد العزب موسى

مراجعة : د. محمود ماهر

١٣ ــ الفن المصرى القديم

تأليف : سيريل ألدريد

ترجمة : د. أحمد زهير

مراجعة : د. محمود ماهر

١٤ ــ جبانة البجوات فى الواحة الخارجية

تأليف : د. أحمد فخرى

ترجمة : عبد الرحمن عبد التواب

مراجعة : د. آمال العمرى

١٥ ــ العمارة المصرية القديمة (جزء أول)

تأليف : د. اسكندر بدوى

ترجمة : د. محمود عبد الرازق ــ صلاح رمضان

مراجعة : د. أحمد قدرى ، د. محمود ماهر

١٦ ــ تاريخ مصر القديمة (الجزء الأول)

تأليف : د. رمضان السيد

١٧ ــ مصر الاسلامية (درع العروبة ورباط الاسلام)

تأليف : د. ابراهيم أحمد العدوى

كتب تحت الطبع

١ ــ **واحة سيوة**

تأليف : د. أحمد فخرى

ترجمة : د. جاب الله على جاب الله

٢ ــ **المراسم منذ أقدم العصور حتى اليوم**

تأليف : د. ناصر الأنصارى

٣ ــ **الدليل العام لرشيد**

تأليف : عبد الرحمن عبد التواب

٤ ــ **تراث مصر القديمة**

النسخة الانجليزية اشراف : هاريس

النسخة العربية اشراف : د. محمد ابراهيم بكر

د. محمود ماهر

٥ ــ **المسلات المصرية**

تأليف : لبيب حبشى

ترجمة : د. أحمد عبد الحميد يوسف

مراجعة : د. محمد جمال الدين مختار

٦ ــ **مصر القديمة (دراسة طبوغرافية)**

تأليف : هرمان كيس

ترجمة : د. محمود عبد الرازق

مراجعة : د. جاب الله على جاب الله

٧ ــ **التناسب فى عمارة مدارس العصر المملوكى فى القاهرة**

تأليف : د. على غالب أحمد غالب

مراجعة : د. آمال العمرى

٨ ــ سجاجيد جورديز فى متحف محمد على بالمنيل

تأليف : كوثر أبو الفتوح

٩ ــ نهب آثار النيل

تأليف : بريان فاجان

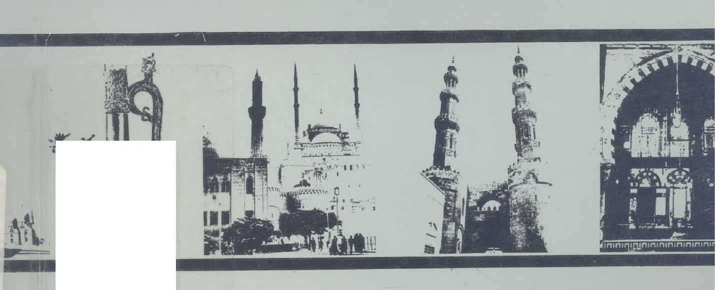
ترجمة : عبد الرحمن عبد التواب ــ محمد غطاس

مراجعة : د. أحمد قدرى

١٠ ــ دراسات فى اللغة المصرية القديمة

تأليف : أحمد باشا كمال

رقم الايداع ١٩٩٢/٢٥٤٢
دولى ٧ ــ ٠٣٢ ــ ٢٣٥ ــ ٩٧٧
مطبعة هيئة الآثار المصرية



خمسة عشر جنيهاً